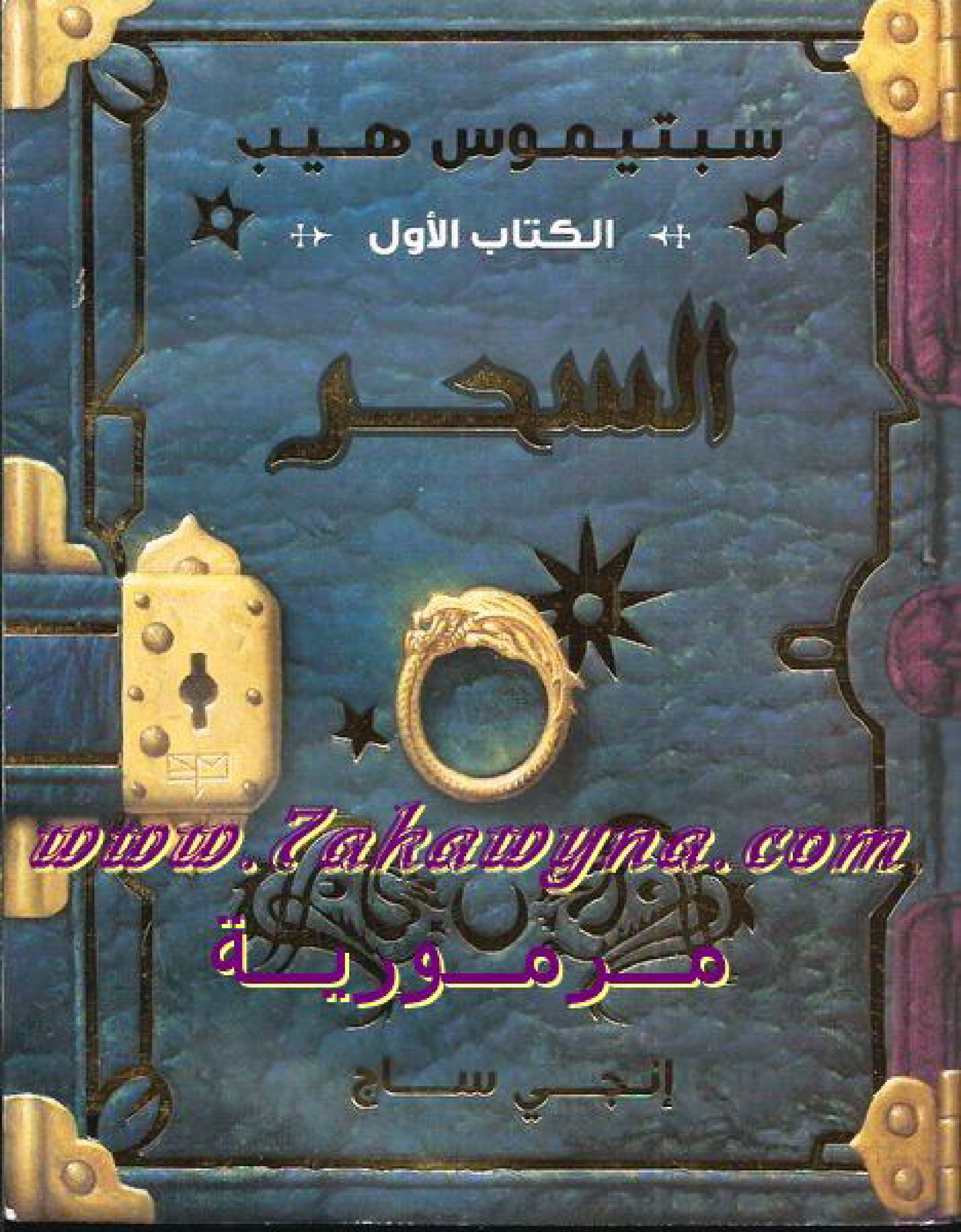

سبتيموس هيب
الكتاب الأول
السحر
www.7akawyna.com
مرمورية
إنجي ساج

سبتيموس هيب

الكتاب الأول

ملحمة تفعمها العجائب والغرائب والتعاويذ السحرية والمفاجآت، وعالم فريد ثري بالتفاصيل المدهشة، تدعوك لتدخله، ولن ترغب في مغادرته أبدًا!

صدر منها:

1- السحر
2- الطيران
3- الطب
4- الرحلة



6 221153 342067
دار نهضة مصر للنشر

سبتيموس هيب

الكتاب الأول

السحر



إنجي ساج

رسوم مارك زوج

إلى لويس،

بكل الحب والامتنان

لكل ما قدمته لي من مساعدات وتشجيع..

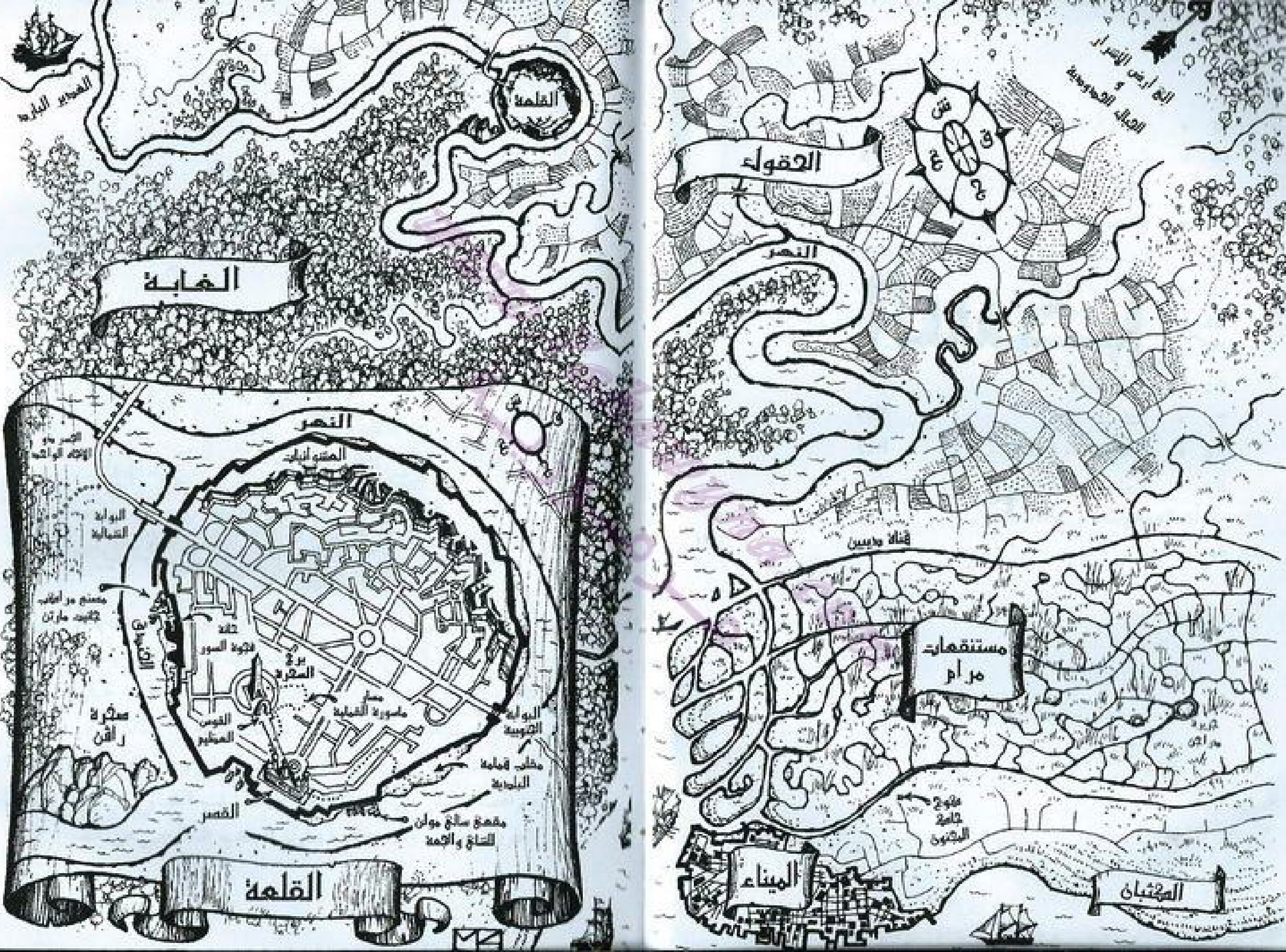
أهدي هذا الكتاب إليك.

محتوى الكتاب

الرقم	الفصل	الصفحة
1	شيء وسط الثلوج	1
2	سارة وسايلاس	7
3	الأمين الأعلى	20
4	مارشا أوفرستراند	30
5	عند أسرة هيب	41
6	إلى البرج	56
7	برج السحرة	62
8	ماسورة القمامة	75
9	مقهى سالي مولن	83
10	الصياد	95
11	تعقُّب الأثر	102
12	*موريل*	112
13	المطاردة	118
14	قناة ديبين	127
15	منتصف الليل عند الشاطئ	138
16	الغول	159
17	ألثر وحيدًا	172
18	كوخ الحارسة	181
19	العمة زيلدا	191
20	الفتى 412	204
21	الجُرذ	213
22	**السحر**	233
23	الجناحان	246
24	الحشرات المدرعة	260
25	ساحرة ويندرون	269
26	عيد منتصف الشتاء	277
27	رحلة ستانلي	293
28	الصقيع الكبير	305
29	أفاع وجرذان	318
30	رسالة لمارشا	330
31	عودة الجُرذ	339
32	الذوبان الكبير	349
33	راقب وانتظر	365
34	الكمين	371
35	تحت سطح الأرض	382
36	التجمد	390
37	قراءة الغيب	398

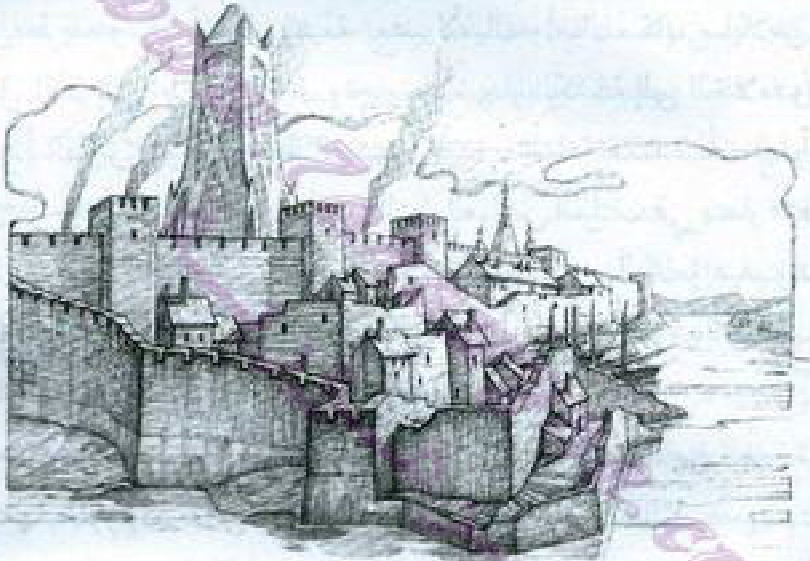
السحر

38 • ذوبان التجمد 409
39 • الموعد 420
40 • اللقاء 427
41 • الانتقام 439
42 • العاصفة 456
43 • المركب التنينية 468
44 • إلى البحر 484
45 • حركة الجزر 497
46 • الزائر 508
47 • التلميذ 518
48 • حفل عشاء التلميذ 528
49 • سبتيموس هيب 540
ما رأته العمة زيلدا في بركة البط 545
فيما بعد... 549


القلعة
الغابة
النهر
البوابة الشمالية
البوابة الجنوبية
القصر
القلعة
الحقول
النهر
مستنقعات
مرام
الميناء

⊹ I ⊹

شيء وسط الثلوج



شد سايلاس هيب عباءته بإحكام حول جسمه يحتمي فيها من تساقط الثلوج؛ فالطريق وسط الغابة طويل، والبرد ينخر في عظامه، كان يحمل في جيبه الأعشاب التي أعطتها له المعالِجة چيلين لمولوده الجديد سبتيموس الذي ولد منذ ساعات قليلة في ذلك اليوم.

بدأ سايلاس يقترب من القلعة، وأصبح في وسعه الآن أن يرى ضوءًا متراقصًا يتسلل من بين الأشجار حيث ثبتت الشموع في نوافذ البيوت الطويلة الضيقة والمحتشدة بطول الجانب الخارجي من السور. كانت

تلك الليلة هي أطول ليلة في العام، وسوف تُترك الشموع مشتعلة حتى الفجر لإبعاد الظلام. لطالما أحب سايلاس دومًا السير في هذا الطريق للوصول إلى القلعة؛ فهو لا يخشى الغابة نهارًا، كما أنه يستمتع بهذه النزهة الهادئة وهو يقطعها سيرًا على الأقدام عبر المسار الضيق الذي يشق طريقه وسط أشجار كثيفة تمتد لأميال وأميال. كان سايلاس قد وصل الآن إلى أطراف الغابة، وتجاوز الأشجار الكثيفة إلى الخلاء، وبعد أن بدأ الطريق يتوغل وسط الوادي، فبدت القلعة ممتدة بأكملها أمام عينيه، احتضنت حوائطها القديمة النهر العريض الملتف في مسار متعرج حول تجمعات عشوائية من البيوت، جميعها مطلي بألوان زاهية، وبدت تلك التي تقع في مواجهة الغرب في ذلك الوقت من اليوم وكأنما شبت فيها النار؛ إذ انعكس ضوء شمس آخر النهار على نوافذها.

بدأت القلعة في الأصل كقرية صغيرة، ولقربها الشديد من الغابة شيد سكانها القرويون بعض الأحجار وبنوا سورًا حجريًا عاليًا يحميهم من حيوانات الشره (الولفرين) والسحرة والعرافين الذين لا يشغل بالهم سوى سرقة أغنامهم ودجاجهم وأحيانًا أطفالهم. ومع تشييد المزيد من البيوت، تم توسيع الأسوار، وحُفر خندق عميق؛ حتى يشعر الجميع بالأمن والأمان.

ثم سرعان ما بدأت القرية تجذب العمال المهرة من القرى المجاورة وزاد اتساعها وازدهارها يومًا بعد يوم، حتى ضاق المكان بأهله. وأخيرًا، قرر شخص ما أن يبني «العشوائيات» حيث يعيش سايلاس وسارة وأبناؤهما؛ وهي بناء ضخم من الحجارة يرتفع بمحاذاة ضفة النهر، ويمتد

بطوله لثلاثة أميال بشكل عشوائي، ثم يعود ويلتحم من جديد مع القلعة. والعشوائيات مكان يعجُّ بالضوضاء والحركة، ويكتظ بالمارة والغرف، وكذلك المصانع الصغيرة والمدارس والمحال التي تتداخل مع الغرف السكنية والأسطح الصغيرة المنزرعة، وكذلك بها مسرح. ورغم أن المكان ليس واسعًا، فإن هذا لم يزعج سكانه؛ فالصحبة الطيبة متوافرة، والأبناء دائمًا يجدون مَن يلعب معهم.

ومع هبوط شمس الشتاء وراء جدران القلعة بدأ سايلاس يُسرع من خطاه؛ حتى يتمكن من الوصول إلى البوابة الشمالية قبل إغلاقها بالمفاتيح ورفع الجسر المتحرك مع دخول الليل.

وفجأة، اعتراه إحساس بأن هناك شيئًا قريبًا منه ينبض بالحياة، دون أن يميز أكثر من ذلك، وأدرك أنه قلب بشري صغير ينبض في مكان ما قريب منه، فتوقف عن السير؛ فباعتباره من السحرة العاديين، يستطيع أن يستشعر مثل تلك الأمور، ولكن لكونه من غير المتميزين منهم، يحتاج لأن يركز بقوة. وقف ساكنًا وسط الثلوج المتساقطة بغزارة، والتي سرعان ما غطت آثار أقدامه، ثم سمع صوتًا. لكن، أهو صوت أنفاس مرتفعة، أم أنين، أم أنه صوت أنفاس خافتة؟ كان صعبًا عليه أن يميز، لكن الصوت كان واضحًا بما يكفي لأن يُفصح عن وجوده.

وهنالك، وقعت عيناه على صرة أسفل إحدى الشجيرات الصغيرة على جانب الطريق، فانحنى ورفعها. ولدهشته، وجد نفسه يحدق إلى عينين مهيبتين لطفلة رضيعة. بدأ يهدهدها بين ذراعيه وهو يتساءل في سره كيف تُلْقَى رضيعة مثلها هكذا في هذا المكان وفي ليلة هي أبرد

ليالي العام؟! ورغم أنها كانت ملفوفة في بطانية ثقيلة من الصوف، فقد بدا عليها البرد الشديد. فتلونت شفتاها بلون أزرق داكن، وتغطت رموشها برذاذ من الثلج. خالج سايلاس شعور مزعج، بينما كانت الرضيعة تحملق بعينيها البنفسجيتين الداكنتين فيه؛ شعور يحدثه بأن هذه الطفلة التي لم يتجاوز عمرها - بعدُ- بضع ساعات قليلة رأت ما لا ينبغي أن يراه أي رضيع.

وبعد أن فكر في زوجته سارة وهي في البيت تنعم بالدفء والأمان مع سبتيموس وبقية الأبناء، قرر في سره أنهم سيضطرون الآن لأن يفسحوا مكانًا لضيف صغير آخر. دس سايلاس الرضيعة في عباءته الزرقاء التي يرتديها السحرة، وضمها إليه وهو يجري ناحية بوابة القلعة، وتمكن من الوصول إلى الجسر المتحرك مباشرة قبل أن ينهض جرينج- حارس البوابة- لينادي على الفتى المسئول عن الجسر حتى يبدأ في رفعه.

قابله جرينج بنبرة متذمرة وهو يقول له: «وصلت في آخر لحظة. لكن ما أغربكم أيها السحرة! ما الذي يدفعكم جميعًا لأن تكونوا بالخارج في يوم كهذا؟».

فرد سايلاس باقتضاب: «حقًا؟»، وأراد أن يفلت منه بأسرع ما يُمكن، ولكن كان عليه أولًا أن يملأ راحة يد جرينج بعملة فضية. وبسرعة، وجد بنسًا فضيًا في جيبه فأعطاه إياه.

وقال: «أشكرك يا جرينج، تصبح على خير».

نظر جرينج للبنس وكأنه حشرة قبيحة دُست في يده: «لقد أعطتني مارشا أوفرستراند على التوّ نصف كراون. لكنها على أية حال حصلت على ترقية، ماذا ينتظر منها وقد أصبحت الآن الساحرة العظمى».

غص سايلاس وقال: «ماذا قلت؟».

«نعم، ترقية، هذا هو ما حصلت عليه».

ثم تراجع جرينج حتى يفسح الطريق، ومر سايلاس مفلتًا منه أخيرًا. ورغم رغبة سايلاس المُلحة في أن يكتشف ما الذي جعل مارشا أوفرستراند تتولى منصب الساحرة العظمى فجأة، فإنه بدأ يشعر بتقلب الصرة داخل دفء عباءته، وحدّثه هاجس بداخله بأنه من الأفضل ألا يعرف جرينج شيئًا عن الرضيعة.

وبمجرد اختفاء سايلاس وسط ظلمة النفق المؤدي إلى العشوائيات، إذا بظل طويل القامة في زي أرجواني يعترض طريقه.

قال سايلاس لاهثًا: «مارشا! ما الذي...».

فقاطعته: «لا تخبر أحدًا بأنك وجدتها، لقد وُلدت لتكون لك، مفهوم؟».

فأومأ لها سايلاس برأسه دهشًا. وقبل أن يتسنى له الرد عليها، كانت قد اختفت في وميض من الضباب الأرجواني. وظل ذهن سايلاس طوال ما تبقى من رحلته الطويلة المتعرجة وسط العشوائيات شاردًا؛ تُرى، من تكون هذه الرضيعة؟ وما علاقة مارشا بها؟ ولماذا أصبحت مارشا الآن الساحرة العظمى؟ ومع اقترابه من الباب الأحمر الكبير للغرفة المكتظة

أصلًا بأفراد أسرة هيب- تبادر إلى ذهنه سؤال آخر أكثر إلحاحًا: تُرى، ماذا سيكون رد فعل سارة وهو يحمل لها رضيعًا آخر لترعاه؟

لم يتح لسايلاس وقت يفكر فيه؛ فما إن وصل حتى انفتح الباب فجأة لتندفع منه سيدة ضخمة حمراء الوجه ترتدي ملابس رئيسة المولدات الزرقاء الداكنة، وكادت أن تصطدم به وهي تفر من المكان. هي أيضًا كانت تحمل صرة، إلا أن هذه الصرة كانت مغطاة من رأسها إلى أخمص قدميها بضمادات، وتحملها تحت ذراعها وكأنها طَرْدٌ تأخرت في إرساله.

صرخت المولدة في وجه سايلاس وهي تقول: «لقد مات!»، ونحّته جانبًا بقوة، ثم انطلقت جريًا في الطرقة، بينما كانت سارة تصرخ داخل الغرفة.

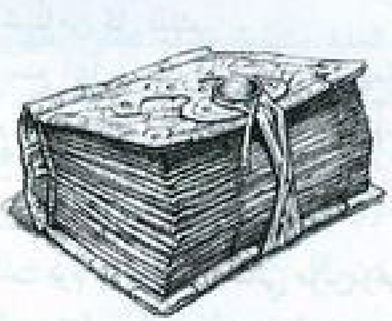
دخل سايلاس الغرفة مثقل القلب، ليجد سارة يلتف حولها ستة فتيان صغار وجوههم شاحبة، كانوا من شدة خوفهم عاجزين عن البكاء.

وبيأس شديد، نطقت سارة قائلة: «أخذته. سبتيموس مات. لقد أخذته».

في تلك اللحظة، شعر سايلاس ببلل دافئ من الصرة التي لاتزال مخبأة أسفل عباءته. ولأن الموقف برمته لم يكن يحتمل الكلام، فما كان منه إلا أن أخرج الصرة ووضعها بين ذراعيها فانفجرت سارة باكية.

2

سارة وسايلاس



وهكذا *استقرت الصرة وسط أفراد أسرة هيب*، وسُميت چينا نسبة إلى اسم والدة سايلاس.

كان عمر أصغر الأبناء، وهو نكو، عامين عندما حضرت چينا، وسرعان ما نسي أمر سبتيموس، كما نسيه الإخوة الآخرون، وإن استغرق منهم ذلك وقتًا أطول. وقد أحبوا أختهم الرضيعة، فكانوا يجلبون لها كل أنواع الكنوز من دروس السحر التي يتلقونها في المدرسة.

أما سارة وسايلاس فهما بالطبع لم ينسيا سبتيموس. كان سايلاس يلوم نفسه؛ لأنه ترك سارة في ذلك اليوم وحدها وخرج ليجلب أعشاب الرضيع من المُعالِجة، بينما كانت سارة تلوم نفسها ببساطة على كل شيء. ورغم أنها لا تكاد تذكر ما حدث في ذلك اليوم الأليم، فإنها تعلم

تمامًا أنها حاولت أن تعيد للرضيع انتظام أنفاسه لكنها فشلت، وتتذكر منظر رئيسة المولدات وهي تلف عزيزها سبتيموس من رأسه إلى أخمص قدميه بالضمادات، وتنطلق به بعد ذلك صوب الباب وتخرج وهي تصرخ قائلة: «لقد مات!».

لم تنسَ سارة شيئًا من كل ذلك.

لكن هذا لم يمنع أنها سرعان ما أحبت الرضيعة تمامًا كما أحبت سبتيموس، لقد مر عليها وقت كانت تخشى فيه أن يأتي من يأخذها منها أيضًا، لكن بعد أن مرت الشهور، وكبرت جينا وصارت بدينة لها صوت تقرقر به، هدأت نفسها ورحل عنها القلق.

حتى حدث ذات يوم أن حضرت سالي مولن وهي أقرب صديقاتها وهي تلهث على باب بيتها. وسالي مولن هي إحدى هؤلاء الذين يعرفون كل كبيرة وصغيرة تجري داخل القلعة، وهي امرأة ضئيلة الحجم ودائمًا ما تكون منشغلة، لها خصلات شعر بني مشعثة دائمة الفرار من قبعة الطهاة القذرة التي تعتمرها، لها وجه مستدير ولطيف، وإن كان ممتلئًا بعض الشيء من كثرة الكعك الذي تلتهمه، وملابسها عمومًا تغطيها ذرات الدقيق.

كانت سالي تدير مقهى صغيرًا مبنيًا على العوامة الموجودة بجوار النهر، ويعلو باب المقهى لافتة مدون عليها الإعلان التالي:

مقهى سالي مولن للشاي والجعة
توجد وسائل للراحة والتسلية آية في النظافة
غير مسموح بدخول الرعاع

والمقهى لا تخفى عليه أي أسرار، فكل ما ومن يصل إلى القلعة عن طريق النهر يلاحظه رواد المقهى ويعلقون عليه، علمًا بأن معظم القادمين إلى القلعة يفضلون بالفعل الوصول بالقوارب. فلا أحد سوى سايلاس يروق له السير في المسارات المظلمة وسط الغابة المحيطة بالقلعة. فمازالت تعترض الغابة مشكلة مؤرقة تتعلق بظهور حيوانات الشره (الولفرين) ليلًا، كما أنها موبوءة بأشجارٍ آكلة للحوم، هذا عدا ساحرات ويندرون اللائي كنَّ يعانين دائمًا من قلة النقود واشتُهرن بأنهن هنَّ من ينصبن الفخاخ لعابري الغابة من غير الحريصين ولا يتركنهم إلاَّ بعد أن يكنَّ قد جردنهم من كل ما معهم سوى ما يزيد قليلًا عن قميص وجورب.

ومقهى سالي مولن هو كوخ يجثم متأرجحًا فوق سطح الماء، تتصاعد منه الأبخرة ودائمًا ما يعج بالزبائن وتأتي المراكب بمختلف أشكالها وأحجامها لترسو عند عوامته، ويتدافع منها كل أنواع البشر والحيوانات، وقد قرر معظم هؤلاء الاستراحة من عناء الرحلة بتجرع أقداح الجعة القوية التي اشتُهر بها المقهى، والتهام قطعة من كعك الشعير، وتناول آخر ما استجدَّ من الشائعات والقيل والقال، هذا فضلًا عن أن أي فرد من سكان القلعة لديه فقط نصف ساعة راحة ويشعر بالجوع، سرعان ما سيجد نفسه على الطريق المعتاد منحدرًا إلى بوابة الميناء مارًا بمقلب قمامة خدمات ضفة النهر، ثم يسير على امتداد العوامة ليصل إلى مقهى سالي مولن للشاي والجعة.

وقد ألزمت سالي نفسها بزيارة سارة كل أسبوع؛ حتى تطلعها على كل ما استجدَّ من أخبار أولًا بأول؛ فسارة في رأي سالي مثقلة برعاية سبعة من الأبناء، هذا عدا سايلاس هيب نفسه الذي لا يساعد إلا بالنزر اليسير- حسب علمها. ورغم أن قصص سالي عمومًا تضم أشخاصًا لم تسمع سارة عنهم من قبل ولن تقابلهم أبدًا، فإن سارة تنتظر دائمًا هذه الزيارات بفارغ الصبر، وتستمتع بالإنصات لكل ما يدور حولها من أخبار. لكن هذه المرة، كانت الأنباء التي تحملها لها سالي مختلفة؛ فالأمر كان جادًا، ليس من قبيل موضوعات النميمة اليومية المعتادة، كما أنه يتعلق بسارة نفسها. ولأول مرة، وجدت سارة نفسها تعلم ما لا تعلمه سالي.

دلفت سالي مندفعة، وأغلقت الباب وراءها بشدة.

ثم همست قائلة: «لديَّ أخبارٌ فظيعة».

كانت سارة في تلك الأثناء تحاول تنظيف وجه چينا من أثر طعام الإفطار وما تبعثر حولها، كما كانت تنظف *أيضًا* مكان كلبهم الذئبي الصغير الذي جلبوه مؤخرًا، ولم تكن منتبهة بعد لكلام سالي.

وقالت لها: «مرحبًا يا سالي، هذا المكان نظيف، تعالي واجلسي هنا. ألكِ في قدح من الشاي؟».

«نعم من فضلك.. أتصدقين هذا يا سارة؟».

فردَّت سارة عليها: «ما الأمر يا سالي؟» متوقعةً منها أنها ستحكي لها عن آخر أخبار التصرفات السخيفة التي تحدث في مقهاها.

ردت: «إنها الملكة. الملكة ماتت».

شهقت سارة قائلة: «ماذا تقولين؟»، ثم رفعت چينا من فوق مقعدها وأخذتها إلى ركن بعيد بالغرفة عند سلتها، ووضعتها فيها لتنام.

فسارة تؤمن بوجوب إبعاد الأطفال الرضع تمامًا عن الأنباء السيئة.

كررت سالي كلامها بنبرة حزينة: «لقد ماتت».

قالت سارة لاهثة: «لا يمكن! لا أصدق ذلك، كل ما في الأمر أنها لم تكن بعافيتها منذ أن وضعت مولودتها، وقد كان هذا هو سبب قلة ظهورها».

سألت سالي: «هذا هو ما يقوله الحراس الأمناء، أليس كذلك؟».

فقالت سارة وهي تصب الشاي مُقرةً بكلام سالي: «في الحقيقة، بلى، ومع ذلك، هم أولًا وأخيرًا حرسها *الشخصي*، ولا بد أنهم يعرفون، رغم أنني لا *أفهم* لماذا اختارت الملكة فجأة أن تحرسها هذه المجموعة من قُطّاع الطرق».

رفعت سالي فنجان الشاي الذي وضعته سارة أمامها وارتشفت منه.

قالت سالي: «أمم، لذيذ. آه، بالضبط»، ثم خفضت صوتها وهي تقول: «في الحقيقة، *وللدقة*»، ثم التفتت تنظر حولها وكأنها تتوقع أن تجد فجأة أحد الحراس الأمناء مستندًا إلى الحائط عند أحد الأركان، رغم أن أحدًا لم يزعم أنها لمحت أحدهم وسط كل هذه الفوضى التي تكتنف حجرة أسرة هيب، ثم واصلت حديثها قائلة: «إنهم *بالفعل* مجموعة من قُطّاع الطرق، بل في واقع الأمر إنهم هم من *قتلوها*».

ردت سارة بذهول: «قُتلت؟! الملكة *قُتلت*؟!».

قالت سالي: «*صه!* اسمعي»، ثم جذبت مقعدها لتحدِّث سارة عن قُرب وقالت: «هناك كلام يدور الآن. ولقد وصلني من مصدر موثوق».

فسألتها سارة بابتسامة ساخرة: «ترى، من هذا المصدر؟».

«إنها السيدة مارشا نفسها»، ثم رجعت سالي إلى الوراء تستند إلى مقعدها، وهي تشعر بالانتصار، وعقدت ذراعيها وقالت: «هذا هو المصدر».

قالت سارة: «ماذا؟! ومنذ متى وأنت تختلطين بالساحرة العظمى؟ هل مرت عليك مثلًا في المقهى لتحتسي عندك فنجان شاي؟».

ردت: «تقريبًا، إنه تيري تارسال الذي جاءني، فتيري كان قد ذهب إلى برج السحرة ليسلم السيدة مارشا حذاءً غريبًا صنعه لها، وعندما توقف عندي بعد ذلك - متذمرًا من ذوقها في الأحذية وكم أنه يكره الثعابين - قال إنه سمعها تتحدث مع إحدى الساحرات الأخريات؛ أعتقد أنها كانت إندور؛ تلك الساحرة البدينة، وكانتا تتحدثان عن أن الملكة أُطلق عليها النار! وحراسها الأمناء، هم من فعلوا ذلك عن طريق أحد سفاحيهم».

لم تكن سارة تصدق أذنيها.

ثم سألت سالي لاهثة: «*متى حدث ذلك*؟».

فهمست سالي بانزعاج قائلة: «في الحقيقة هذا هو *أبشع* ما في الأمر، فلقد ذكرتا أنها قُتلت يوم مولد رضيعتها؛ أي أن الموضوع حدث منذ ستة أشهر كاملة، ونحن لا نعلم شيئًا. إنه أمر فظيع. مُريع. كما أنهم أطلقوا

النار على السيد ألثر فأردوه قتيلًا، وهذا هو ما جعل مارشا تحل محل ...».

فردت سارة لاهثة: «*ألثر مات*؟! أنا لا أصدق ذلك، حقيقة لا أصدق. لقد ظننا جميعنا أنه تقاعد. سايلاس كان تلميذه منذ سنوات. لقد كان رجلًا رائعًا».

سألت سالي بغموض متحمسةً لأن تواصل كلامها: «صحيح؟ في الحقيقة، ليست هذه هي كل القصة؛ لأن تيري يظن أن مارشا أنقذت الأميرة وأخذتها بعيدًا في مكان ما. فإندور ومارشا كانتا تثرثران معًا، وتتساءلان عن أحوال الأميرة. لكن بالطبع عندما أدركتا أن تيري كان موجودًا ومعه الحذاء، توقفتا عن الحديث، وكانت مارشا سخيفة جدًّا معه. هذا هو ما قاله، ثم شعر بشيء غريب بعد ذلك، حتى إنه ظن أنها ألقت عليه **تعويذة النسيان**، لكنه تسلل من وراء عمود ضخم عندما رآها تغمغم بكلام، فلم يصبه سحرها بالشكل الصحيح، وهو بالفعل منزعج؛ لأنه لا يتذكر ما إذا كانت مارشا قد دفعت له ثمن الحذاء أم لا».

توقفت سالي لتلتقط أنفاسها وارتشفت رشفة كبيرة من فنجان الشاي، ثم قالت: «مسكينة الأميرة الصغيرة، فليساعدها الله. تُرى، أين هي الآن؟ على الأرجح أنها تعيش في حالة مزرية حبيسة في زنزانة تحت الأرض بمكان ما، وليس مثل ملاكك الصغير. صحيح، كيف حالها؟».

ردت سارة باقتضاب: «بخير». رغم أنها عمومًا كانت ستسهب في ردها على مثل هذه الأسئلة، فتحكي عن مناغاة جينا، وعن سنها الجديدة التي ظهرت، وكيف أنها بدأت الآن تجلس وتمسك فنجانها بنفسها، فقد

كان كل همّ سارة في تلك اللحظة منصبًّا على صرف اهتمام سالي عن چينا، فقد أمضت سارة الأشهر الستة الماضية تتساءل في سرها عن هوية هذه الرضيعة، والآن اتضحت لها الأمور.

چينا بكل تأكيد هي *الأميرة الرضيعة*. هكذا حدثت نفسها، ولأول مرة تشعر سارة بالسعادة تغمرها وهي تودع سالي مولن، ووقفت تراقبها وهي تنطلق مسرعة في الطرقة، ثم تنفست الصُّعداء وهي تغلق الباب وراءها، وهرعت إلى سلة چينا.

رفعت سارة الطفلة وحملتها بين ذراعيها، فابتسمت لها چينا ومدت يدها لتقبض على التميمة المعلقة بقلادتها.

ثم همهمت سارة قائلة: «في الحقيقة أيتها الأميرة، دائمًا ما كان يخالجني شعور بأنك لستِ كسائر الأطفال، لكن ما كان يخطر ببالي قطُّ أنك أنت أميرتنا». تلاقت عينا الرضيعة البنفسجيتان الداكنتان مع عيني سارة، ونظرت إلى سارة بوقار وكأنها تقول لها: «*إذن، أنت تعلمين الآن*».

وبرفق، أعادت سارة چينا إلى سلتها. كان رأس سارة يدور ويداها ترتجفان وهي تصب لنفسها فنجانًا آخر من الشاي؛ فقد كان صعبًا عليها أن تصدق كل ما سمعته للتوّ. فالملكة ماتت، وألثر كذلك، وچينا حبيبتهم هي الأميرة ووريثة القلعة. ما الذي يحدث؟!

أمضت سارة ذلك اليوم وقلبها ممزق، تارةً تنظر لچينا – أو الأميرة چينا – وتارةً ينتابها القلق مما قد يحدث لو اكتشف أحد مكان چينا. ولكن، أين سايلاس الآن في هذا الوقت الذي تحتاجه فيه بشدة؟

في ذلك الوقت، كان سايلاس يستمتع بيومه في الصيد مع الأبناء؛ فهناك شاطئ رملي صغير عند دوران النهر يقع بالقرب من العشوائيات، وكان سايلاس يعلّم نكو وچوچو – وهما أصغر أبنائه- كيف يربطان البرطمانات في طرف العصا ويغطسانها في الماء. تمكن چوچو من اصطياد ثلاث سمكات صغيرة، بينما ظل نكو يُسقط برطمانه وبدأ يشعر بالإحباط.

فحمله سايلاس وأخذه إلى «إريك»، و«إد»، وهما توءمان يبلغ كل منهما خمسة أعوام. كان إريك يجلس مستغرقًا بسعادة في أحلام اليقظة، يحرك قدميه في دفء مياه النهر الصافية، بينما كان إد ينقر بعصا على شيء أسفل الرمال، اتضح بعد ذلك أنه خنفساء مائية ضخمة، أفزعت نكو فراح يصرخ وتعلق بقوة في عنق سايلاس.

أما سام الذي يبلغ نحو سبعة أعوام، فكان يأخذ موضوع الصيد على محمل الجد، وحصل في عيد ميلاده الأخير على صنارة رائعة. كانت هناك سمكتان فضيتان صغيرتان ملقاتان على صخرة بجواره، وكان على وشك الإمساك بثالثة، إلا أن نكو تحمّس وأخذ يصيح.

فقال سام لأبيه بغضب: «خذه بعيدًا يا أبي، إنه سيفزع السمك».

فابتعد سايلاس بحذر وهو يحمل نكو، وذهب ليجلس إلى جوار أكبر أبنائه سايمون. كان سايمون يحمل صنارة بيدٍ، وكتابًا بالأخرى؛ فقد كان طموحه أن يصبح يومًا ما الساحر الأعظم؛ ولذلك كان منشغلًا بقراءة كتاب من كتب سايلاس القديمة عن السحر. والكتاب الذي كان بيده- كما لاحظ سايلاس- هو كتاب *المهارات العليا للساحر الصياد*.

توقع سايلاس أن أبناءه جميعًا سوف يعملون بشكل أو بآخر في مجال السحر؛ فالسحر يجري في عروق العائلة، وقد اشتُهرت عمته بلقب الساحرة البيضاء، وكان والده وعمه من المتحولين؛ وهو فرع متخصص للغاية. وإن كان سايلاس يتمنى أن يتجنب أبناؤه هذا الفرع من السحر؛ لأنه كلما تقدم المتحولون الناجحون في العمر أصبحوا غير مستقرين، وأحيانًا يعجزون عن الاحتفاظ بهيئتهم لأكثر من عدة دقائق في المرة الواحدة، حتى إن والد سايلاس - في نهاية المطاف - اختفى في الغابة على هيئة شجرة، لكن لا يعلم أحد على وجه الدقة الشجرة التي تحول إليها؛ وهذا أحد الأسباب التي تجعل سايلاس يستمتع بالسير في الغابة؛ ولذلك تجده في كثير من الأحيان يخاطب أثناء سيره إحدى الأشجار التي يبدو شكلها أشعث؛ آملًا أن تكون هذه الشجرة هي والده.

أما سارة هيب فهي تنحدر من عائلة مشعوذين وسحرة، وعندما كانت فتاة صغيرة درست العلاج بالأعشاب على يد جيلين مُعالِجة الغابة، وأول لقاء لها مع سايلاس كان في الغابة. فذات يوم، كان سايلاس يبحث عن والده، وكان يبدو شاردًا وحزينًا، فأخذته سارة إلى جيلين التي ساعدته على أن يفهم أن والده- كأحد المتحولين - اختار مصيره منذ سنوات عديدة بأن يكون شجرة، ولا بد أنه الآن في غاية السعادة، وأدرك سايلاس - لأول مرة في حياته - أنه هو أيضًا تغمره السعادة وهو يجلس إلى جوار سارة حول نار المعالِجة.

وبعد أن تعلمت سارة كل ما تستطيع أن تتعلمه عن الأعشاب والمداواة، ودَّعت جيلين بامتنان شديد، ولحقت بسايلاس لتعيش معه

في غرفته بالعشوائيات. ومن حينها، لم يفترق الزوجان، وتزايد تكدس غرفتهما مع كل مولود جديد كانا يُرزقان به، ثم أنهى سايلاس بابتهاج فترة تدريبه وامتهن العمل كساحر عادي؛ لتوفير قوت يومه. بينما كانت سارة تُحضر خلاصات الأصباغ من الأعشاب على طاولة المطبخ عندما كان يسمح لها الوقت بذلك، وهو ما لا يحدث كثيرًا.

في مساء ذلك اليوم، بينما كان سايلاس والأبناء عائدين إلى العشوائيات بعد أن استمتعوا بوقتهم على الشاطئ، اعترض طريقهم أحد الحراس الأمناء متوعدًا، متشحًا بالسواد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وأوقفهم وهو يصيح فيهم بحدة قائلًا: «توقفوا!» فبدأ نكو يبكي.

توقف سايلاس وطلب من أبنائه التزام الأدب.

صاح الحارس في وجه سايلاس قائلًا: «الأوراق؟ أين أوراقك؟»، فنظر إليه سايلاس وسأله بهدوء راغبًا في ألا يثير أي مشاكل، وهو بصحبة ستة أطفال مرهقين يريدون الوصول إلى المنزل ليتناولوا عشاءهم- سأله: «أية أوراق هذه التي تتحدث عنها؟».

رد عليه الحارس بتهكم: «أوراقك يا حثالة السحرة، فمنطقة الشاطئ محظور التجول بها لأي شخص لا يحمل تصريحًا».

فاندهش سايلاس الذي لولا وجود أبنائه معه لجادل الرجل- إلا أنه لاحظ المسدس الذي كان يحمله.

فقال له: «أنا آسف، ليس عندي علم بذلك».

نظر الحارس إليهم جميعًا يتفحصهم من رءوسهم إلى خُمْص أقدامهم، وكأنه يقرر في سره ما الذي سيفعله بهم، ولكن لحسن حظ سايلاس كان لدى الحارس ضحايا آخرون يتوجه إليهم ويثير في نفوسهم الرعب.

وبنبرة حادة قال الحارس: «خذ هؤلاء الأوباش من هنا ولا تعُد مرة أخرى. ولا تتعدوا حدودكم».

أسرع سايلاس مبتعدًا مع أبنائه المذعورين وصعدوا السلم إلى أمان العشوائيات، وهنالك أسقط «سام» سمكته من يده وبدأ يبكي وينهنه.

فقال له سايلاس: «اهدأ، كل شيء على ما يُرام»، رغم شعوره بأن الأمور بالتأكيد ليست كذلك، متسائلًا في سره ما الذي يحدث حوله؟

سأله سايمون: «أبي، لماذا قال عنا السحرة الحثالة؟ إن السحرة هم أفضل الناس، أليس كذلك؟».

رد عليه سايلاس وهو شارد الذهن: «بلى بلى، أفضل الناس».

لكن المشكلة - هكذا حدَّث سره - تكمن في أن الساحر لا يستطيع إخفاء هويته، فجميع السحرة، السحرة فقط، يتميزون بذلك، وسايلاس لديه هذه الميزة، وكذلك سارة والأبناء كلهم، فيما عدا نكو وجوجو، ولكن متى سيلتحق الولدان بفصول **السحر** سيكتسبان هما أيضًا هذه الميزة بكل تأكيد، لكن خطوة خطوة إلى ألاَّ يخطئهم أحد؛ هذا لأن عيني الطفل الساحر تتميزان بأنهما تتحولان إلى اللون الأخضر عندما يبدأ في تلقي علوم **السحر**، وهو الأمر الذي ظل دائمًا مثار فخر، حتى

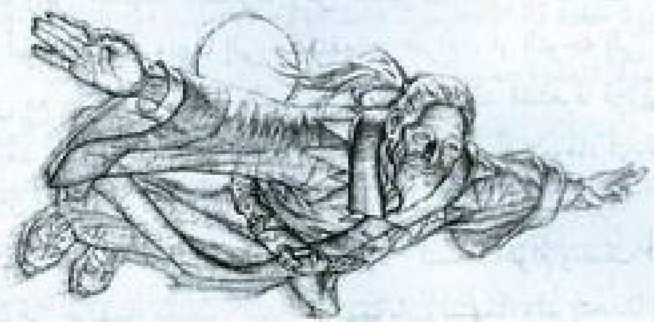
تبدَّل الحال فجأة الآن، وبدت هاتان العينان الخضراوان خطرًا يهدد صاحبهما.

وفي ذلك المساء، بعد أن نام أخيرًا جميع الأبناء، أخذ سايلاس وسارة يتجاذبان أطراف الحديث حتى وقت متأخر من الليل؛ تحدثا عن الأميرة، وعن أبنائهما السحرة، وعن التغيرات التي اجتاحت القلعة، وناقشا أيضًا فكرة هروبهما إلى مستنقعات «مرام»، أو التوجه إلى الغابة والعيش مع چيلين. وبحلول الفجر، كان الزوجان قد استغرقا في نومهما أخيرًا بعد أن قررا أن يتصرفا كما تتصرف عائلة هيب عمومًا؛ أي سوف يواصلان التقدم في حياتهما دون أن يقيدا أنفسهما، آملين خيرًا.

ومنذ ذلك الوقت، ظل سايلاس وسارة - لتسعة أعوام ونصف العام - يعيشان في حالهما، مغلقيْن على أنفسهما باب بيتهما، ولم يتحدثا إلا مع جيرانهما، أو مع من يثقان بهم. وعندما توقفت دروس **السحر** في المدرسة، أخذ الزوجان يعلمان أبناءهما **السحر** بالبيت مساءً؛ ولذلك، بعد مرور تسعة أعوام ونصف العام، كانت عيون جميع أفراد أسرة هيب قد تلونت بلون أخضر نافذ، فيما عدا فردًا واحدًا فقط.

3

الأمين الأعلى



كانت *الساعة السادسة* صباحًا والظلام لم ينقشع بعد، وقد مرت عشرة أعوام منذ أن وجد سايلاس الصرة في الغابة.

وفي نهاية الطرقة رقم 223، خلف الباب الكبير الأسود الذي طبعت عليه دورية ترقيم المنازل رقم 16، كان أهل بيت هيب يغطون في نوم عميق. كانت چينا تنام متقوقعة على نفسها في سريرها الصغير الذي يشبه الصندوق، والذي صنعه لها سايلاس من الأخشاب التي يجرفها النهر على الشاطئ. وقد بنى السرير بإحكام في بطن خزانة كبيرة يتقدمها فراغ متسع؛ هو في الواقع الفراغ الوحيد الذي تملكه أسرة هيب.

أحبت چينا سريرها ذا الخزانة، وكانت سارة قد صنعت له ستائر من أقمشة مختلفة بألوان زاهية، تستطيع چينا أن تسحبها حول السرير لتحجب عنها البرد وضجيج إخوتها. لكن أكثر ما أحبته چينا في سريرها أن الحائط الموجود خلف وسادتها تعلوه نافذة صغيرة تطل على النهر، فكانت إذا شعرت أنها لا تستطيع النوم، أخذت تنظر منها على النهر لساعات وساعات، تراقب أشكالًا لا حصر لها من المراكب وهي تقطع طريقها ذهابًا وإيابًا من وإلى القلعة. وأحيانًا، إذا كانت سماء الليل صافية، كانت تحب أن تعد النجوم، حتى يغلبها النعاس.

كانت هذه الغرفة الكبيرة هي المكان الذي تعيش فيه أسرة هيب، وتطبخ فيه، وتأكل فيه، وتتناقش فيه، و(أحيانًا) تذاكر واجباتها المدرسية فيه؛ أي أنها كانت في حالة من الفوضى العارمة، خاصة أنها مكدسة بأغراض عمرها عشرون عامًا مكومة بغير نظام أو ترتيب، تراكمت فوق بعضها البعض منذ أن أسس الزوجان بيتهما، منها صنانير وبكرات، وأحذية وجوارب، وحبال ومصائد جرذان، وحقائب وبطاطين وملاءات، وشباك صيد وأدوات حياكة، وملابس وأواني طهي، وكتب، وكتب، ومزيد من الكتب.

وإذا بلغ بك الحمق أن تبحث على أمل أن تجد مكانًا في الغرفة تستطيع أن تجلس فيه، لكانت الكتب استغلت هذه الفرصة من قبلك. فأينما تنظر تجد أمامك كتبًا؛ كتبًا على أرفف تقوست بفعل الزمن؛ أو كتبًا في صناديق؛ أو كتبًا في حقائب تتدلى من السقف؛ أو كتبًا تستند إلى منضدة أو متراصة فوق بعضها في أكوام، ومن فرط ارتفاعها وعدم

ثباتها تهدد بالانهيار في أية لحظة. هذه الكتب منها القصص، ومنها كتب عن الأعشاب، والطهو، والمراكب، والصيد، لكنها أساسًا تشمل مئات من كتب **السحر** التي استطاع سايلاس - بطريقة غير شرعية - أن يهربها من المدرسة بعد أن تم تحريم **السحر** منذ عدة أعوام.

تتوسط الغرفة مدفأة ضخمة تعلوها مدخنة تنفذ من السقف، وتحتوي المدفأة الآن على بقايا أخشاب انطفأت بعد أن كانت مشتعلة، وينام حولها الأبناء الستة لأسرة هيب وكلب ضخم في كومة من الألحفة والبطاطين بشكل فوضوي.

كان سايلاس وسارة يغطّان هما أيضًا في نوم عميق، ولقد تمكنا من اللوذ بأنفسهما في فراغ السندرة الصغير التي حصل عليها سايلاس منذ عدة سنوات ببساطة بأن فتح لها فتحة في السقف، وذلك بعد أن أعلنت سارة أنها ما عادت تحتمل العيش في غرفة واحدة مع ستة أبناء يشتد عودهم يومًا بعد يوم.

لكن وسط كل هذه الفوضى العارمة التي تجتاح الغرفة، كانت هناك بقعة واحدة صغيرة مرتبة؛ إنها مائدة طويلة مفروشة بغطاء أبيض نظيف، تعلوه تسعة أطباق وتسعة أكواب، وعلى رأسها مقعد صغير مزين بثمار وأوراق التوت، وأمام المقعد هدية صغيرة على المائدة ملفوفة بعناية في ورق ملون، ومربوطة بشريط أحمر، تنتظر چينا لتفتحها؛ حيث يوافق اليوم عيد ميلادها العاشر.

كان كل شيء هادئًا وساكنًا في الغرفة، وجميع أفراد أسرة هيب يغطُّون في سُبات عميق في أواخر ساعات الليل التي تسبق شروق شمس الشتاء.

لكن على الجانب الآخر من القلعة، في قصر الأمناء، أضحى النوم - سواء كان هادئًا أو غير هادئ - شيئًا مهجورًا.

فالأمين الأعلى تم إيقاظه من نومه. وبمساعدة خادمه الليلي، ارتدى - على عَجل - سترته السوداء المزينة بالفرو عند حافتها، وعباءته الثقيلة ذات اللونين الأسود والذهبي، ثم أرشد خادمه كيف يربط له حذاءه المشغول بالحرير. وبحرص، وضع بنفسه تاجًا جميلًا على رأسه. والأمين الأعلى لا يظهر أبدًا من دون هذا التاج الذي مازال يعلوه انبعاج منذ أن سقط من فوق رأس الملكة وارتطم بالأرض الحجرية. ورغم أن التاج يستقر الآن بميل على رأسه الأصلع البارز نوعًا ما، فإن خادمه الليلي - لكونه عُين حديثًا والرعب يملأ قلبه - لم يجرؤ على تنبيهه إلى ذلك.

وهكذا، انطلق الأمين الأعلى بخطوات واسعة في الطرقة ودلف إلى غرفة العرش، وكان الأمين الأعلى ضئيل الحجم يشبه الجُرذ، عيناه باهتتان تكادان تكونان بلا لون، وله لحية شائكة تشبه ذقن التيس، ومن عادته أن يقضي ساعات طويلة يشذبها بابتهاج، ولقد بدا منظره وهو في عباءته الضخمة - المغطاة بشكل مكثف بشارات عسكرية - كأنه غارق فيها. ومما جعل مظهره مثيرًا للسخرية نوعًا ما تاجه المائل على رأسه، خاصة أن التاج تميزه لمحة أنثوية. لكن لو كنت رأيته صباح ذلك اليوم ما كنت ستستطيع أن تضحك، بل كنت ستنكمش في نفسك وتنزوي بعيدًا في الظل، وتتمنى في سرك ألا يلاحظ وجودك؛ فقد كان للأمين الأعلى سَمْتٌ يوحي بالتهديد والوعيد.

ساعد الخادم الليلي الأمين الأعلى في ترتيب مظهره على كرسي العرش المزين في غرفة العرش، ثم أشيح له بنفاد صبر بالانصراف،

فانطلق مسرعًا من الغرفة بسعادة غامرة، وقد أوشكت نوبة عمله على الانتهاء.

كانت برودة الجو في صباح ذلك اليوم تلقي بوطأتها على غرفة العرش، ورغم أن الأمين الأعلى جلس على كرسي العرش بجمود فإن أنفاسه مع خروجها في هذا الهواء البارد على هيئة ضباب في دفقات سريعة متقطعة – خانت حماسه.

لم يدم انتظاره طويلًا حتى دخلت عليه مسرعةً امرأة شابة طويلة القامة ترتدي الزي الخاص بالسفاحين؛ وهي العباءة ذات اللون الأسود القاتم والسترة ذات اللون الأحمر الداكن. انحنت المرأة أرضًا، وانسدلت أكمامها الطويلة المشقوقة على الأرض الحجرية.

ثم تحدثت قائلة: «الملكة الصغيرة يا مولاي. لقد تم العثور عليها».

فاعتدل الأمين الأعلى بعينيه، محدقًا إلى عيني السفاحة الباهتتين، وقال لها متوعدًا: «هل أنت متأكدة؟ لا أريد *أخطاء* هذه المرة».

ردت: «جاسوستنا يا مولاي كانت تشك في طفلة منذ فترة؛ إذ كانت تعتبرها غريبة على أسرتها، ولقد اكتشفت أمس أن الطفلة في نفس السن».

«ما سنها بالتحديد؟».

«بلغت اليوم عشرة أعوام يا مولاي».

رد: «*حقًا*؟»، ثم رجع الأمين الأعلى إلى الوراء على كرسي العرش، وبدأ يفكر في كلام السفاحة.

«أنا معي صورة لها يا مولاي، ورأيي أنها تشبه كثيرًا والدتها الملكة السابقة»، وأخرجت من سترتها قطعة صغيرة من الورق مرسومًا عليها

بمهارة صورة لفتاة شابة بعينين بنفسجيتين داكنتين، وشعرها أسود طويل، فأخذ منها الأمين الأعلى الصورة، وكانت محقة بالفعل؛ فالفتاة تشبه الملكة الراحلة بشكل لا تخطئه عين، وبسرعة كان قد اتخذ القرار، وفرقع أصابعه العجفاء بصوت جلي.

انحنت السفاحة برأسها وقالت: «مولاي؟».

قال: «الليلة. في منتصف الليل. سوف تقومين بزيارة إلى... أين هو المكان؟».

«الغرفة رقم 16، الطرقة رقم 223 يا مولاي».

«ما اسم العائلة؟».

«هيب يا مولاي».

«تمام. خذي معك المسدس الفضي. كم يبلغ عدد أفراد الأسرة؟».

«تسعة يا مولاي، بما فيهم الطفلة».

«إذن، خذي معك أيضًا تسع طلقات في حالة تعثر الأمور، منها طلقة فضية للطفلة وأحضريها لي، أريد دليلًا على *موتها*».

علا الشحوب وجه المرأة الشابة؛ فهذا الاختبار هو الأول لها، والأخير إذا فشلت؛ فالسفاحون لا تتاح لهم فرصة ثانية.

قالت: «أمرك يا مولاي»، ثم انحنت مسرعة وانسحبت من الغرفة ويداها ترتعشان.

وفي أحد الأركان الهادئة بغرفة العرش، نهض شبح ألثر ميلا من فوق الدكة الحجرية الباردة التي كان يجلس عليها. تنهد ومد ساقيه الشبحيتين

العجوزين، ثم لف ثيابه الأرجوانية الباهتة حول جسده، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم خرج مخترقًا الحائط الحجري السميك لغرفة العرش.

وفي الخارج، وجد ألثر نفسه يحلق على ارتفاع ستين قدمًا فوق سطح الأرض في جو الصباح البارد الملبد بالغيوم. وبدلًا من أن يسير في طريقه بشكل وقور يليق بشبح في مثل سنه ومكانته، بسط ذراعيه كأنهما جناحا طائر، ثم انطلق برشاقة يشق الهواء، وسط الثلوج المتساقطة.

كان ألثر لا يكاد يروق له شيء لكونه شبحًا سوى مسألة الطيران؛ فالطيران، أو فن الطيران المفقود، بات شيئًا لا يستطيع السحرة العاديون المحدثون القيام به اليوم. حتى مارشا التي تصر دائمًا على الطيران، لا تستطيع القيام بأكثر من تحليقة سريعة قبل أن تجد نفسها قد هوت على الأرض. ففي مكان ما وبشكل ما، فُقد سر الطيران، أما الأشباح فجميعها بالطبع تستطيع الطيران. ومنذ أن أصبح ألثر شبحًا، تخلص من خوفه الرهيب من الارتفاعات، وصار يمضي ساعات طويلة مثيرة يتقن فيها حركاته البهلوانية. وفيما عدا ذلك، ليس هناك الكثير يستطيع أن يستمتع به بعد أن أصبح شبحًا. وأصبح الجلوس في غرفة العرش التي تحول فيها إلى شبح – وهو السبب الذي يحتم عليه أن يقضي في هذه الغرفة السنة الأولى ويومًا واحدًا من فترة حياته كشبح – أقل الأعمال التي تسرّي عنه وتسليه، لكن لا مفر من ذلك؛ ولذلك كرّس وقته في معرفة الخطط التي يعدها الأمناء، ومحاولة إخطار مارشا أولًا بأول بكل ما يستجد.. وبمساعدته، تمكنت مارشا من أن تسبق الأمناء في كل مرة بخطوة وتحافظ على سلامة جينا حتى الآن.

فعلى مدار السنوات السابقة – منذ رحيل الملكة- كانت استماتة الأمين الأعلى للعثور على أي أثر للأميرة تزداد يومًا بعد يوم. وفي كل عام، كان يقطع رحلة طويلة ومروعة إلى أرض الأشرار، ليقابل ساحرًا أعظم سابقًا تحول إلى **«نكرومانسر»** – وهو دومدانيال – ليُطلعه على آخر التطورات التي توصل إليها. ودومدانيال هذا هو من أرسل السفاح الأول ليقتل الملكة، وهو أيضًا من قام بتنصيب الأمين الأعلى وأتباعه؛ حتى يتمكنوا من تفتيش القلعة تفتيشًا دقيقًا بحثًا عن الأميرة، فما دامت الأميرة موجودة بالقلعة لن يجرؤ دومدانيال على الاقتراب؛ ولذلك كان الأمين الأعلى يعد دومدانيال كل عام بأنه سينجح *هذا* العام، وهذا العام سيتخلص الأمين الأعلى من الأميرة الصغيرة، وسيسلم القلعة أخيرًا لسيدها الشرعي دومدانيال.

وهذا هو ما جعل الأمين الأعلى – أثناء خروج ألثر من غرفة العرش – ترتسم على وجهه ما كانت ستسميه والدته بالابتسامة العريضة البلهاء. فأخيرًا، أتم المهمة التي أرسل من أجلها. وقال في سره – مع تحول ابتسامته البلهاء إلى ابتسامة متعالية – إن الفضل في ذلك لا يعود إلا لذكائه الخارق ومهارته العالية، لكن هذا لم يكن صحيحًا؛ فالأمر برمته كان ضربة حظ.

عندما استولى الأمين الأعلى على القلعة، كان أول الأمور التي قام بها هو حرمان النساء من دخول دار القضاء. وتحولت غرفة السيدات التي لم يعد لها لزوم- إلى غرفة صغيرة تُعقد فيها الاجتماعات.. ولأن غرفة السيدات السابقة تتميز بوجود موقد خشبي فيها، اعتاد الأمناء مع

البرد القارس الذي حل في الشهور الماضية - عقد اجتماعاتهم فيها، بدلًا من الاجتماع في غرفة اجتماعات الأمناء التي لا تختلف كثيرًا عن الكهف، وتتسرب إليها الرياح الباردة وهي تصفر محولة أقدامهم إلى كتل ثلجية.

وهكذا أصبح الأمناء- لسبب مجهول، ولأول مرة - يسبقون ألثر ميلا بخطوة. فألثر بعد أن أصبح شبحًا، لا يستطيع أن يحضر في أماكن لم يأتها من قبل في حياته السابقة. ولأنه ساحر تربى في شبابه على الأخلاق الحميدة، فلم يحدث قطُّ أن وطئت قدماه - أثناء حياته السابقة - غرفة السيدات؛ ولذلك فإن أقصى ما يستطيع القيام به هو أن يحوم حول الغرفة منتظرًا، تمامًا مثلما كان يفعل عندما كان حيًّا وهو يغازل القاضية أليس نيتلز.

ومنذ عدة أسابيع، في أواخر نهار يوم كان الجو فيه أبرد ما يكون، رأى ألثر لجنة الأمناء متوجهة إلى غرفة السيدات، وصُفق بابها الضخم الذي لم تتلاشَ بعد الأحرف الذهبية لكلمة السيدات من عليه. ظل ألثر حينها يحوم خارج الغرفة يسترق السمع، محاولًا أن يسمع الأحاديث التي تدور بالداخل. لكنْ رغم كل المحاولات التي بذلها لم يتمكن من أن يسمعهم وهم يقررون إرسال أفضل جاسوسة لديهم- وهي ليندا لين- لما تمتلكه من اهتمام بمسائل الأعشاب والمداواة؛ كي تقيم في الغرفة رقم 17، الطرقة رقم 223، بالغرفة التي تجاور مباشرة أسرة هيب؛ ولذلك فلا ألثر ولا أسرة هيب كان لديهم أي علم بأن جارتهم الجديدة هي في الواقع جاسوسة، ومن العيار الثقيل أيضًا.

ومع تحليق ألثر ميلا وسط الثلوج بذهن شارد يفكر في كيفية إنقاذ الأميرة، قام بلفتين مزدوجتين متقنتين في الهواء، قبل أن ينطلق بسرعة عالية مخترقًا رقائق الثلوج المندفعة قاصدًا الهرم الذهبي الذي يتوج برج السحرة.

هبط ألثر على قدميه برشاقة، وتمكن من الوقوف للحظات على أطراف أصابعه باتزان تام، ثم رفع ذراعيه فوق رأسه، وبدأ يلف حول نفسه في دوامة تزداد سرعتها أكثر فأكثر، إلى أن بدأ يخترق ببطء سقف السطح ووصل إلى الغرفة أسفله، لكنه أخطأ في هبوطه وسقط مخترقًا الظلة التي تعلو سرير مارشا أوفرستراند ذا الأعمدة.

انتفضت مارشا فزِعةً، بينما كان ألثر الذي بدا محرجًا - يزحف على وسادتها.

قال: «آسف يا مارشا، أعلم أن ما فعلته بعيد تمامًا عن الكياسة، ولكن يكفيني أن الخسائر كانت محدودة ولم تبتلعي بكرات شعرك».

ردت مارشا بحنق: «أنا لا ألف شعري، هو ملفوف بطبيعته، أشكرك على هذه اللباقة يا ألثر. كان في وسعك على الأقل أن تنتظر حتى أستيقظ من نومي».

ارتسمت على وجه ألثر ملامح جادة، وأصبح شفافًا أكثر من المعتاد، ثم قال لها بنبرة بائسة: «أخشى يا مارشا أن الأمر لا يحتمل الانتظار».

4
مارشا أوفرستراند



سارت مارشا أوفرستراند بخطوات واسعة خارجةً من غرفة نومها الشامخة، الواقعة في أعلى البرج، والملحق بها غرفة للملابس. وبعنف، دفعت الباب الأرجواني الضخم المؤدي إلى منبسط السلم، ونظرت في المرآة المُعَدلة تتفحص هيئتها.

ثم أمرت المرآة التي لديها أصلًا ميل للتوتر، وتهاب اللحظة التي تدفع فيها مارشا الباب بعنف صباح كل يوم قائلة لها: «سالب ثمانية وثلاثة من عشرة في المائة!». وعلى مدار السنين الماضية، تعلمت المرآة قراءة وقْع خطواتها على ألواح الأرض الخشبية، ووقْع خطواتها اليوم أصابها بتوتر شديد. شديد جدًا! فاعتدلت في وضع الانتباه. وبسبب

حماسها لإرضاء مارشا، جعلت صورتها تبدو أنحف بنسبة 83٪، حتى بدت كحشرة عصوية أرجوانية نحيلة يرتسم على وجهها الغضب.

صاحت مارشا بحدة: «بلهاء!».

فأعادت المرآة حساباتها، رغم أنها تكره أن تبدأ صباحها بالعمليات الحسابية، ولا يساورها شك في أن مارشا تعمدت أن تعطيها هذه النسبة الصعبة. لماذا لا تعطيها رقمًا صحيحًا للنحافة بلا كسور مثل 5٪، أو حتى 10٪؟ فالمرآة تحب نسبة 10٪ وتستطيع أن تصل إليها.

ابتسمت مارشا لصورتها التي نالت استحسانها.

وكانت ترتدي زي الساحرة العظمى الشتوي، وهو يلائمها تمامًا؛ فعباءتها المزدوجة المصنوعة من الحرير الأرجواني والمبطنة بفرو الأنجورا الأزرق- تنسال بانسيابية وأناقة من على كتفيها العريضتين وتنضم بانصياع حول قدميها المدببتين. وبسبب أن قدميها مدببتان أنها تحب الأحذية المدببة، وهي أحذية تُصنع لها خصيصًا من جلد الثعبان المنزوع من الأفعى الأرجوانية التي يحتفظ بها صانع الأحذية تيري تارسال في الفناء الخلفي لمحل الأحذية الخاص به، رغم أنه يكره الثعابين، وهو مقتنع تمامًا بأن مارشا تتعمد أن تطلب منه ذلك، وهو أمر ليس ببعيد عنها. تلألأ حذاء جلد الثعبان الأرجواني في الضوء الذي تعكسه المرآة، وومض الذهب والبلاتين في حزام الساحرة العظمى وميضًا باهرًا، ولقد ارتدت حول عنقها تميمة «آخو»؛ رمز ومصدر قوة الساحر الأعظم.

شعرت مارشا بالرضا؛ فهي تحتاج اليوم أن تبدو باهرة، باهرة ومخيفة بعض الشيء أيضًا، أو مخيفة نسبيًا لو استدعى الأمر، وإن كانت تأمل ألا يتطلب الأمر ذلك.

فمارشا لا تصدق تمامًا أن لديها القدرة على بث الخوف في نفوس الآخرين؛ ولذا راحت تجرب بعض التعبيرات أمام المرآة، جعلت المرآة ترتجف في صمت، إلا أنها لم تقتنع بأيٍّ منها. لكن ما لم تكن تدركه مارشا أنها بالفعل تجيد إخافة الآخرين، بل إنها في حقيقة الأمر تفعل ذلك بشكل تلقائي جدًا.

طقطقت مارشا أصابعها وقالت للمرآة بحدة: «أريني ظهري!».

فأظهرت لها المرآة ظهرها.

«الجانبين!».

فأظهرت لها المرآة منظرًا لكل جانب منهما.

ثم انطلقت مارشا، ونزلت السلم درجتين في المرة الواحدة، وتوجهت إلى المطبخ؛ كي ترهب الموقد الذي كان يحاول يائسًا أن يوقد نفسه قبل أن تدخل هي من الباب.

لكن محاولاته باءت بالفشل، وظلَّ مزاج مارشا متعكرًا طوال الفترة التي كانت تتناول فيها إفطارها.

تركت مارشا الأدوات التي استخدمتها في تناول الإفطار لتغسل نفسها، وخرجت مسرعة بخطوات واسعة من الباب الأرجواني المؤدي

إلى جناحها، وانغلقت الأبواب وراءها بنعومة وانسيابية، مع وثبة مارشا على أول درجة من السلم الحلزوني الفضي.

قالت مارشا للسلم: «انزل» فبدأ يلف كالبريمة، نازلًا بها ببطء وسط البرج الشاهق مرورًا بطوابق لا حصر لها وأبواب مختلفة تؤدي جميعها إلى غرف تشغلها نوعية غريبة من السحرة، وصدرت من الغرفة أصوات التدريب على التعاويذ السحرية، والثرثرة الدائرة بين السحرة أثناء الإفطار! واختلطت روائح الخبز المحمص واللحم المقدد والعصيدة على نحو غريب مع روائح البخور التي تصعد لأعلى من البهو في الطابق السفلي! وعندما توقف السلم الحلزوني برفق، غادرته مارشا وهي تشعر باختناق وتتشوق للخروج إلى الهواء الطلق، فعبرت البهو بسرعة متوجهة إلى الباب الفضي الضخم الذي يحرس مدخل برج السحرة، نطقت مارشا كلمة السر فانفتح لها الباب على مصراعيه من دون أدنى صوت. وفي لحظة، كانت قد خرجت من المدخل الفضي إلى البرد القارس وسط الثلوج المتساقطة في صباح يوم من أيام منتصف الشتاء.

نزلت مارشا درجات السلم شديد الانحدار، وهي تطأ بحذر على الثلوج الهشة بحذائها الرقيق المدبب. وفاجأت أحد الحراس الذي كان يقذف- بكسل- كرات ثلجية على قطة ضالة فسقطت إحدى هذه الكرات بصوت مكتوم على الحرير الأرجواني لعباءتها.

فقالت له بحدة وهي تنظف عباءتها: «لا تفعل ذلك مرة أخرى».

وعلى الفور، كان الحارس قد هبَّ واقفًا في وضع الانتباه، وبدا عليه الذعر. نظرت مارشا محدقة إليه بمنظره الذي يوحي بأنه طفل ضال؛ كان

يرتدي زي الحراس الرسمي، وهو زي سخيف مصنوع من قماش قطني خفيف، يتكون من سترة مقلمة باللونين الأحمر والأبيض بأهداب أرجوانية مكشكشة حول الأكمام، ويعتمر قبعة صفراء متهدلة، ويرتدي سروالًا أبيض محكمًا، وحذاء طويلًا أصفر، ويمسك عصا رمح ثقيلة بيده اليسرى التي كانت عارية وزرقاء من شدة البرد.

منذ أن وصل أوائل الحراس لحراسة برج السحرة، اعترضت مارشا على هذا الوضع، وقالت للأمين الأعلى إن السحرة لا يحتاجون إلى حراسة، فهم قادرون على حراسة أنفسهم على أكمل وجه، ولا داعي لكل ذلك لكن الأمين الأعلى ابتسم ابتسامته المتعالية، وقال لها بنبرة متملقة إن الحراس موجودون لسلامة السحرة، لكن مارشا كان يساورها شك في أن زرع هؤلاء الحراس لم يكن بغرض التجسس على السحرة أثناء خروجهم ودخولهم فحسب، بل كي يجعل موقفهم أيضًا يبدو سخيفًا.

نظرت مارشا مرة أخرى إلى الفتى قاذف كرات الثلج، كانت قبعته أكبر من رأسه، تتدلى على وجهه مستقرة على أذنيه، وتستند إليهما دون أن تسقط على عينيه، وأضفت القبعة على وجهه النحيل المدبب شحوبًا. كانت عيناه الرماديتان الغاطستان تحدقان من أسفل القبعة والرعب يملؤهما، بعد أن أدرك الفتى أن كرة الثلج ارتطمت بالساحرة العظمى.

قالت مارشا في سرها: إن الفتى يبدو أصغر من أن يكون جنديًا.

وسألته بنبرة اتهام: «كم سنك؟».

احمرَّ وجه الفتى من شدة الخجل؛ فلا أحد في مثل مقام مارشا سبق أن نظر في وجهه من قبل، فما بالك بالتحدث إليه.

فردَّ: «عشـ... عشرة يا سيدتي».

فسألته مارشا: «إذن، فلماذا لا تكون في المدرسة الآن؟».

فردَّ الفتى بفخر: «لا أحتاج للذهاب إلى المدرسة يا سيدتي. فأنا في جيش الشباب. نحن مفخرة اليوم، ومحاربو الغد».

ولدهشته، سألته مارشا: «ألا تشعر بالبرد؟».

«لـ... لا يا سيدتي فنحن مدربون على ألا نشعر بالبرد»، رغم أن شفتيه علتهما مسحة من اللون الأزرق وكان يرتجف وهو يتحدث.

زفرت مارشا ثم انطلقت في طريقها وهي تطأ على الثلوج بكل قوة، تاركةً الفتى لأربع ساعات أخرى من الحراسة.

وبسرعة، كانت مارشا قد عبرت الفناء الذي يفصل برج السحرة عن الخارج، وخرجت من بوابة جانبية إلى ممشى هادئ مغطى بالثلوج.

كان قد مر عشر سنوات على تولي مارشا منصب الساحرة العظمى، بدأ ذهنها يشرد مع انطلاقها في الطريق، واتجهت أفكارها صوب الماضي؛ تذكرت تلك الفترة التي قضتها وهي شابة فقيرة واعدة، تقرأ كل ما تستطيع قراءته عن السحر؛ آملةً أن تنال الفرصة النادرة بأن تحظى بشرف التتلمذ والتدريب على يد الساحر الأعظم ألثر ميلا. لقد كانت سنوات سعيدة تلك التي عاشتها في غرفة صغيرة بالعشوائيات بين العديد من الشباب الواعد، ومعظمهم سرعان ما استقر بهم الحال فذهبوا ليتتلمذوا على يد سحرة عاديين، لكن لم يكن هذا هو ما كانت تطمح

إليه؛ فهي تعلم ما تريد، وهي تريد الأفضل. ومع ذلك، لم تصدق أن الحظ كان حليفها إلى هذه الدرجة عندما سنحت لها الفرصة بأن تتدرب على يد ألثر ميلا وتكون تلميذته، وكونها أصبحت تلميذة ألثر فإن هذا لا يعني بالضرورة أنها سوف تصبح يومًا الساحرة العظمى، إلا أنها فرصة قد تقربها أكثر من تحقيق حلمها. وهكذا، قضت مارشا سبع سنوات ويومًا واحدًا في برج السحرة تلميذةً لألثر ميلا.

علت الابتسامة وجهها وهي تتذكر كم كان ألثر ميلا ساحرًا عظيمًا؛ كانت دروسه تبعث على المرح، وكان يتحلّى بالصبر عندما تفشل التعاويذ، وكان دائمًا يداعبها بمزحة جديدة يلقيها عليها، كما أنه كان يتمتع بنفوذ قوي للغاية. وإلى أن أصبحت مارشا سرها هي الساحرة العظمى، لم تكن تدرك كم كان يجيد عمله، لكن الأهم من هذا كله أنه كان شخصًا رائعًا. بدأت ابتسامتها تتلاشى وهي تتذكر كيف حلت مكانه، وفكرت في آخر يوم من حياته؛ اليوم الذي يُطلق عليه الأمناء الآن اليوم الأول.

ظلت مارشا غارقةً في أفكارها وهي تصعد درجات السلم الضيقة التي تؤدي إلى الإفريز العريض المسقوف، الممتد على طول سور القلعة ويقع أسفله مباشرة. كان يُعد طريقًا مختصرًا للعبور إلى الجانب الشرقي الذي كان يُطلق عليه من قبل العشوائيات، والذي كانت مارشا في طريقها إليه اليوم. ورغم أن هذا الكورنيش مخصص للدوريات المسلحة للأمناء، فإن مارشا تعلم، رغم كل ما آلت إليه الأوضاع، أن لا أحد يستطيع أن يمنع الساحرة العظمى من الذهاب إلى أي مكان. وهكذا، سارت مارشا في

طريق الكورنيش بخطى سريعة، بدلًا من الزحف ببطء وسط ممرات ضيقة لا تعد ولا تحصى تزدحم أحيانًا بالمارة كما كانت تفعل منذ سنوات طويلة مضت، إلى أن رأت- بعد نحو نصف ساعة- بابًا تعرفه.

أخذت مارشا نفسًا عميقًا، وقالت في سرها: «أخيرًا وصلت».

نزلت سُلمًا، وأصبحت في مواجهة الباب، كانت على وشك أن تدفعه بكتفها دفعة قوية، لكن الباب فزع عند رؤيتها وانفتح فجأة، فاختل توازنها واندفعت للأمام مصطدمة بحائط متسخ قبالة الباب، ثم صُفق الباب، والتقطت مارشا أنفاسها. كانت الطرقة مظلمة، اسودت جدرانها من فرط الرطوبة وانبعثت منها رائحة كرنب مسلوق وبول قطط، وعفن جاف، لقد تبدل حال الطرقة تمامًا ولم يعد كما تتذكره مارشا. فعندما كانت تعيش في العشوائيات، كانت الطرقات ينبعث منها دفء ونظافة، وتضيئها مصابيح من الخيزران معلقة على مسافات متساوية بطول الحائط، وكان سكانها ينظفونها يوميًا بفخر واعتزاز.

تمنت مارشا في سرها ألا تكون قد نسيت الطريق المؤدي إلى غرفة سايلاس وسارة هيب. فعندما كانت تتلقى تدريبها على السحر، كانت في كثير من الأوقات تمر مسرعة من أمام باب غرفة سايلاس؛ آملةً ألا يراها ويطلب منها الدخول. إن أكثر ما تتذكره من تلك الأيام هو الضجيج؛ ضجيج العديد من الفتيان الصغار وهم يصيحون، ويقفزون، ويتشاجرون، وما إلى ذلك مما يلهو به الفتيان الصغار. رغم أن مارشا لا تعلم تمامًا طرق لهو الفتيان الصغار، فهي تفضل الابتعاد عن الأطفال بقدر المستطاع، أو تجنبهم تمامًا إن أمكنها ذلك.

شعرت مارشا بتوتر وهي تسير في الطرقات المظلمة الكئيبة، وبدأت تتساءل في سرها كيف ستسير الأمور في أول زيارة تقوم بها لسايلاس بعد عشرة أعوام، كان الرعب يملؤها مما كانت مضطرة لأن تخبرهما به، حتى إنها تساءلت في سرها عما إذا كان سايلاس سوف يصدقها أم لا؛ فهو ساحر عنيد، كما أنها تعلم أنه لا يحبها كثيرًا. كل هذه الأفكار التي راحت تدور في رأسها جعلتها تقطع طريقها وسط الممرات قاصدةً وجهتها دون أن تلتفت لأي شيء آخر حولها.

فلو أنها كانت قد أزعجت نفسها قليلًا والتفتت لما يدور حولها، لاندهشت من ردود أفعال المارة عندما كانوا يرونها. كانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحًا؛ وهي الساعة التي يسميها سايلاس ساعة الذروة؛ وهي الساعة التي ترى فيها مئات الوجوه الشاحبة وهي تسلك طريقها متوجهة إلى عملها، بعيون مازالت جفونها مثقلة بالنعاس، وملابسهم الرخيصة والخفيفة تلف أجسادهم في محاولة لحمايتهم من البرد القارس النافذ من الجدران الحجرية الرطبة؛ فساعة الذروة في ممرات الجانب الشرقي فترة لا بد أن تتجنبها إن كان في وسعك ذلك؛ فهجوم الناس وانقضاضهم سيجرفك معهم، ويأخذك - في كثير من الأحوال - بعيدًا عن وجهتك التي تقصدها، إلى أن تتمكن - بشكل أو بآخر- من التسلل من بينهم والانضمام للشريان المتدفق في الاتجاه المعاكس، كما أن أجواء ساعة الذروة دائمًا ما تكون مشحونة بصيحات تحمل نبرات حزينة وكئيبة، منها مثلًا:

«أرجوكم، دعوني أتوقف هنا!».

«توقفوا عن دفعي هكذا!».

«أريد أن أنعطف من هنا. أريد أن أنعطف من هنا!».

إلا أن مارشا جعلت ساعة الذروة تختفي وكأن الناس تبخروا في الهواء، وبدون أن تلجأ إلى أي سحر هنا. فرؤية مارشا وحدها كانت كفيلة بأن تجعل الجميع يتوقفون عن مواصلة طريقهم؛ لأن معظم سكان الجانب الشرقي لم يسبق لهم رؤية الساحرة العظمى من قبل، وإذا كان هناك من رآها، فسيكون ذلك أثناء رحلة ليوم واحد لمركز زوار برج السحرة؛ حيث يظل الزوار معلقين طوال اليوم في فناء البرج؛ على أمل أن يلمحوها إن كانوا محظوظين؛ فأن يروا الساحرة العظمى تسير بينهم في طرقات الجانب الشرقي التي تعلوها الرطوبة لهو أمر يفوق الخيال بلا جدال.

كان المارة يلهثون باندهاش ويبتعدون، كانوا يختبئون في ظل مداخل الأبواب، وينسحبون بعيدًا إلى الممرات الجانبية، وكل منهم يغمغم في سره بتعويذته السحرية البسيطة، كان بعضهم يتجمدون في أماكنهم ويقفون ساكنين كالأرانب التي حوصرت في وهج ضوء ساطع. كانوا يحدقون بها وكأنها كائن سقط عليهم من كوكب آخر، وإن كان ذلك ليس بعيدًا على مارشا؛ لكل أوجه التشابه بين حياتها وحياة هذه الكائنات.

لكن مارشا لم تلحظ كل هذا؛ فالأعوام العشرة الماضية التي شغلت فيها منصب الساحرة العظمى عزلتها عن واقع الحياة، ورغم الذهول الذي كان يعتريها في بادئ الأمر عندما كان الناس يفسحون لها الطريق، وينحنون لها، ويهمسون لها باحترام، فقد اعتادت الآن كل ذلك.

تركت مارشا الطرقة الرئيسية وتوجهت إلى الطرقة الضيقة المؤدية إلى بيت أسرة هيب، ولاحظت في طريقها أن جميع الممرات باتت مرقمة بأرقام بدلًا من تلك الأسماء غريبة الأطوار نوعًا ما التي كانت تحملها من قبل مثل «ركن ويندي» و«الطريق المقلوب».

كان عنوان أسرة هيب في السابق: الباب الأحمر الكبير، صف «رايح جاي»، العشوائيات. أما الآن فقد أصبح غرفة رقم 16، طرقة رقم 223، الجانب الشرقي، وعلمت مارشا على الفور أيهما تفضل.

وصلت مارشا إلى باب غرفة أسرة هيب الذي تم طلاؤه باللون الأسود حسب التعليمات، عن طريق دورية الدهانات منذ عدة أيام. كان بوسعها سماع الضوضاء الصادرة عن إفطار أسرة هيب من خلف الباب، فراحت مارشا تأخذ عدة أنفاس عميقة.

فما عاد الأمر يحتمل الإرجاء أكثر من ذلك.

5
عند أسرة هيب



وقفت *مارشا أمام باب غرفة أسرة هيب وقالت له: «افتح»*، ولكن لأن الباب باب سايلاس هيب، لم يطع أمرها. بل رأته مارشا في واقع الأمر وهو يمنع مفصلاته من الحركة ويحكم إغلاق الأقفال. ومن ثم، اضطرت أن تتنازل، وهي السيدة مارشا بجلالة قدرها، والساحرة العظمى بنفسها، وراحت تطرق الباب بكل ما أوتيت من قوة، فلم يُجبها أحد، حاولت مرة أخرى وبقوة أكبر هذه المرة مستخدمة كلتا قبضتيها، لكن ما من مجيب. وفي اللحظة التي كانت تستعد فيها لركل الباب ركلة قوية (وهو ما كان يستحقه) كان

الباب قد انفتح، ووجدت مارشا نفسها تقف وجهًا لوجه أمام سايلاس هيب الذي قال لها بنبرة جافة وكأنها بائعة مزعجة تطرق على بابه: «نعم؟».

وقفت مارشا لوهلة لا تجد ما تقوله، ثم نظرت إلى الغرفة من وراء سايلاس، فبدت لها وكأن قنبلة قد انفجرت فيها حديثًا، فقد أصبحت الآن، لسبب أو لآخر، مكتظة تمامًا بالأولاد، وكان الأولاد محتشدين حول فتاة صغيرة، شعرها أسود تجلس إلى مائدة كانت- خلافًا للجو العام الذي يسود الغرفة- مفروشة بمفرش أبيض نظيف. كانت الفتاة ممسكةً بهدية صغيرة ملفوفة بورق زاهي اللون، ومربوطة بشريطة حمراء، وكانت تضحك وتدفع بعض هؤلاء الأولاد الذين كانوا يمثلون أنهم يخطفون منها الهدية. لكن الفتاة والفتيان- واحدًا تلو الآخر - بدءوا ينظرون نحو مارشا، وخيم على الغرفة فجأة صمت غريب.

تحدثت مارشا بشكل لطيف أكثر من اللازم قائلة: «صباح الخير يا سايلاس هيب وصباح الخير يا سارة وصباح الخير يا... يا... يا... كل الأحباب الصغار».

لم يتفوه الأحباب الصغار- والذين أصبح معظمهم بعيدًا تمامًا عن أن يكون كذلك- بكلمة، إنما أخذت ستة أزواج من العيون الخضراء بالإضافة إلى زوج من العيون الأرجوانية العميقة تتفحص مارشا أوفرستراند بكل دقة، فبدأت مارشا يخالجها شعور بالخجل. ترى، أهناك شيء على أنفها، أم أن خصلات من شعرها كانت ملتصقة لأعلى بشكل مضحك، أم أن أسنانها التصق بها بعض أوراق السبانخ؟

فتذكرت أنها لم تتناول السبانخ في إفطارها، ثم قالت في سرها: انه هذا الموضوع يا مارشا، أنت هنا في مهمة، ومن ثم التفتت نحو سايلاس الذي كان يتظر إليها وكأنه يمني نفسه بأنها سرعان ما سوف ترحل عن هنا، وقالت له: «أنا قلت لك *صباح الخير* يا سايلاس».

فرد عليها قائلًا: «صحيح يا مارشا، صحيح. لكن ما الذي جاء بكِ هنا اليوم بعد كل هذه السنوات؟».

فدخلت مارشا في الموضوع مباشرة، وقالت: «لقد جئت من أجل الأميرة».

رد سايلاس: «من؟».

ولأن مارشا لا تحب أن يستجوبها أحد- خاصة إن كان ذلك هو سايلاس هيب- فقد ردت بنبرة حادة: «أنت تعلم تمامًا من التي أتحدث عنها».

فرد سايلاس قائلًا: «ليس لدينا هنا أميرات يا مارشا، كنت أظن أن المكان خير شاهد على ذلك».

نظرت مارشا حولها. صحيح. سايلاس لم يخطئ؛ فالمكان لا يوحي مطلقًا بأن هناك أي احتمال أن تجد فيه أميرة، بل في واقع الأمر لم يسبق لمارشا قطُّ طوال حياتها أن رأت مثل هذه الفوضى.

كانت سارة واقفة وسط هذه الفوضى العارمة بجانب النار التي تم إشعالها حديثًا، وكانت قبل أن تقتحم مارشا بيتها وحياتها أيضًا تطبخ عصيدة لإفطار عيد ميلاد چينا، وهي تقف الآن متحجرة في مكانها، تحمل مقلاة العصيدة في الهواء وتحدق بمارشا. ثمة شيء في نظرة سارة

حدَّث مارشا بأنها كانت تعلم ما سيحدث، فقالت مارشا في سرها: إن هذا الموضوع لن يكون سهلًا، وقررت ألا تلقي بما لديها مباشرة وتحاول محاولة جديدة.

قالت: «هل تأذن لي بالجلوس يا سايلاس؟ وأنت يا سارة؟».

فأومأت سارة لها برأسها، بينما قطب سايلاس جبينه بانزعاج، ولم ينطق كلاهما بكلمة.

نظر سايلاس إلى سارة؛ كانت سارة قد جلست وعلا وجهها الشحوب مرتجفة من شدة الخوف، وهي تضم الفتاة صاحبة عيد الميلاد بين ذراعيها بقوة بعد أن جلست على «حجرها». تمنى سايلاس من صميم قلبه في تلك اللحظة أن ترحل مارشا بعيدًا عنهم وتتركهم لحالهم، لكنه يعلم في قرارة نفسه أنهم سيضطرون لسماع ما جاءت من أجله. فتنهد بضيق وقال: «نكو، أحضر مقعدًا لمارشا».

فقالت مارشا، وهي تجلس بمنتهى الحرص على أحد المقاعد التي صنعها سايلاس: «شكرًا يا نكو»، فابتسم لها نكو بشعره الأشعث ابتسامة ملتوية، وانسحب منضمًا لإخوته الذين كانوا ملتفين حول سارة يظللونها بحمايتهم.

نظرت مارشا إلى الأسرة، وأدهشها التشابه الواضح بينهم؛ فجميعهم – حتى سارة وسايلاس – لهم نفس الشعر الأصفر الملفوف، وبالطبع جميعهم لديهم عيون السحرة ذات اللون الأخضر النافذ، وتجلس بينهم الأميرة بشعرها الأسود الناعم وعينيها البنفسجيتين الداكنتين. تأوهت مارشا في صمت؛ فعندها الأطفال الرضع كلهم سواء من حيث الشكل

لا يختلفون عن بعضهم، ولم يخطر ببالها قطُّ كم ستبدو الأميرة مختلفة عن أسرة هيب عندما تكبر، فلا عجب إذن أن الجاسوسة اكتشفت الأمر.

جلس سايلاس هيب على صندوق مقلوب وقال: «إذن، ما الموضوع الذي جئتِ من أجله يا مارشا؟».

شعرت مارشا بجفاف شديد في حلقها، فسألت: «هل أستطيع أن أطلب كوب ماء؟».

تركت چينا «حجر» سارة وذهبت نحو مارشا، وهي تحمل كوبًا خشبيًّا باليًا تعلو حافته علامات أسنان.

وقالت لها: «تفضلي. إنه كوبي.. أنا لا أمانع»، وأخذت تحدق إلى مارشا بإعجاب شديد؛ فما سبق لها أن رأت من قبل شخصًا مثل مارشا؛ شخصًا يشع منه كل هذا اللون الأرجواني، وكل هذا البريق، وكل هذه النظافة، والثراء، وبالتأكيد لم تر أحدًا من قبل بمثل هذا الحذاء المدبب.

نظرت مارشا للكوب بريبة، لكنها ذكَّرت نفسها بأن الأميرة هي التي أعطته لها، فقالت لها: «شكرًا أيتها الأميرة. هل أستطيع أن أقول لك يا چينا؟».

لم ترد چينا لانشغالها بالتحديق إلى حذاء مارشا الأرجواني، فقالت لها سارة: «ردي على مدام مارشا يا حبيبتي».

فردت چينا بحيرة وأدب في آنٍ واحد: «نعم بكل تأكيد يا سيدة مارشا».

كان صعبًا على مارشا أن تكفَّ تفكيرها عن كل هذا التشابه بين چينا ووالدتها، ثم قالت لچينا: «أشكرك يا چينا، لقد سررتُ بلقائك بعد كل هذه السنين. وأرجوكِ، قولي لي مارشا فقط».

انسحبت چينا وعادت بجوار سارة، وأجبرت مارشا نفسها كي ترتشف رشفة من الكوب الممضوغ.

قال سايلاس الذي كان لا يزال جالسًا على الصندوق المقلوب: «هيا يا مارشا.. أدلي بدلوك. ما الموضوع؟ فكالعادة، يبدو أننا آخر من يعلم».

سألته مارشا: «سايلاس، هل تعلم أنت وسارة من هي چينا؟».

فرد سايلاس معاندًا: «نعم نعلم، چينا هي ابنتنا».

قالت مارشا موجهة بصرها نحو سارة: «لكنك خمنت، أليس كذلك؟».

ردت سارة بهدوء: «بلى».

فقالت مارشا بإلحاح: «إذن، سوف تتفهمان الأمر عندما أقول لكما إنها ما عادت في أمان هنا، ولا بد أن آخذها الآن».

فصاحت چينا: «لا، لا»، وعادت إلى «حجر» سارة فأمسكت بها سارة بقوة.

تملك سايلاس الغضب وقال: «ليس لأنك الساحرة العظمى يا مارشا تعطين لنفسك الحق في أن تقتحمي علينا البيت وتقلبي حياتنا رأسًا على عقب بكل هذه البساطة. لكن، تأكدي تمامًا أنك *لن* تأخذي چينا؛ فچينا لنا؛ إنها ابنتنا الوحيدة، وهي في مأمن تمامًا هنا، وستبقى معنا».

تنهدت مارشا قائلة: «سايلاس، إنها ليست في مأمن معكما، ليس بعد الآن. لقد تم *اكتشاف* أمرها، فهناك جاسوسة تعيش في غرفة مجاورة لكما هنا، إنها ليندا لين».

قالت سارة لاهثة من فرط اندهاشها: «ليندا! جاسوسة؟ أنا لا أصدق ذلك!».

فسألها سايلاس: «أتقصدين تلك السيدة البشعة التي دائمًا تقحم نفسها بيننا وتثرثر عن الأقراص والوصفات وترسم صورًا لا حصر لها للأولاد؟».

فردَّت سارة معترضة: «سايلاس، لا تكن وقحًا هكذا!».

قال سايلاس بإصرار: «سوف أكون أكثر وقاحةً إذا اتضح أنها جاسوسة».

قالت مارشا: «ليس هناك «إذا» في الموضوع يا سايلاس، ليندا لين جاسوسة بكل تأكيد، وأنا متأكدة من أن الصور التي كانت ترسمها استفاد منها تمامًا الأمين الأعلى».

بدأ سايلاس يتأوه، واستغلت مارشا الفرصة لصالحها.

قالت: «عليك أن تعلم يا سايلاس أنني لا أريد سوى مصلحة چينا. لا بد أن تثق بي».

فقال سايلاس بتهكُّم: «وما هذا الذي سيجعلنا نثق بكِ يا مارشا؟».

قالت مارشا: «لأنني وثقت بكَ *أنت* يا سايلاس في أمر الأميرة من قبل، والآن لا بد أن تثق أنت بي، فما حدث منذ عشر سنوات لا بد ألا يتكرر ثانيةً».

فقال سايلاس بمرارة: «أنت تنسين يا مارشا أننا لا نعلم شيئًا عن هذا الذي حدث منذ عشر سنوات، ولم يهتم أحد أصلًا بأن يقول لنا شيئًا».

تنهدت مارشا وقالت: «كيف كان يُمكن أن أقول لكما؟ كان لمصلحة الأميرة- أقصد جينا- ألَّا تعلما شيئًا».

وبذكر كلمة الأميرة مرة أخرى نظرت جينا لسارة، وهمست لها قائلة: «مدام مارشا نادتني بالأميرة مرة من قبل، فهل صحيح أنني أميرة؟».

فهمست لها سارة: «نعم يا صغيرتي»، ثم نظرت مباشرة إلى عيني مارشا وقالت لها: «أعتقد أننا جميعًا نحتاج لأن نعلم ما الذي جرى منذ عشر سنوات يا سيدة مارشا».

نظرت مارشا في ساعتها العتيقة، كان الوقت يمر ولا بد لها أن تنتهي من هذا الموضوع بسرعة، فأخذت نفسًا عميقًا وبدأت تحكي:

«منذ عشر سنوات، بعد نجاحي في الامتحانات النهائية ذهبت إلى ألثر لأشكره. لم يمضِ وقت طويل على وصولي حتى دخل رسول مسرعًا ليقول لألثر إن الملكة وضعت مولودتها وسعدنا جميعًا بهذا النبأ؛ لأن معنى ذلك أن وريثة القلعة وصلت أخيرًا.

وطلب الرسول من ألثر التوجه إلى القصر؛ ليترأس الحفل الذي كان سيقام بمناسبة مولد الأميرة، ذهبتُ معه كي أساعده في حمل الكتب الثقيلة والجرعات والوصفات السحرية التي كان سيحتاج إليها، وكذلك لأذكره بالترتيبات التي تتم بها كل هذه المراسم، فالعزيز ألثر كان قد تقدم في السن وكانت ذاكرته قد بدأت تخونه، وعندما وصلنا إلى القصر، تم إرسالنا إلى غرفة العرش لمقابلة الملكة وكانت سعادتها تفوق

الوصف، وكانت تجلس على كرسي العرش تحمل وليدتها، وحيَّتنا بقولها: «أليست جميلة؟» وكانت هذه آخر كلمات نطقت بها ملكتنا».

فهمهمت سارة بهدوء: «يا للهول!».

في تلك اللحظة بالتحديد، اقتحم الغرفة رجلٌ يرتدي زيًّا غريبًا أحمر في أسود، بالطبع علمت بعد ذلك أن هذه الملابس يرتديها السفاحون، ولكن في ذلك الوقت لم أكن أعرف شيئًا عن مثل هذه الأمور، وظننت أنه رسول، إلا أنني أدركتُ من تعبيرات وجه الملكة أنها لم تكن تتوقع مجيئه، ثم رأيته يحمل مسدسًا فضيًّا طويلًا، وتملكني خوف شديد. فنظرت لألثر، لكنه كان منشغلًا حينها بكتبه ولم يلحظ شيئًا، ثم بدا كل شيء بعد ذلك كأنه حلم؛ شاهدت الجندي يرفع المسدس ببطء شديد وبتعمد، مصوِّبًا إياه نحو هدفه وأطلق النار على الملكة. فخيَّم صمت رهيب مع إطلاق الرصاصة الفضية التي اخترقت قلبها واستقرت بعد ذلك في الحائط خلفها، فصرخت الأميرة الرضيعة وسقطت من بين ذراعي والدتها التي كانت قد وافتها المنية، فأسرعتُ إليها والتقطتُها».

كان وجه جينا قد علاه الشحوب، وهي تحاول أن تفهم الكلام الذي تسمعه، ثم سألت سارة بصوت خفيض: «هل كانت هذه الطفلة هي *أنا*؟ هل كنت *أنا* الأميرة الرضيعة؟».

فأومأت لها سارة رأسها ببطء.

اهتز صوت مارشا وهي تواصل حديثها قائلة: «كان الموقف مرعبًا! فما إن بدأ ألثر يحضِّر **تعويذة الدرع الآمنة** حتى انطلق صوت طلقة أخرى وأصيب ألثر برصاصة جعلته يلتف حول نفسه ثم طرحته أرضًا، فأكملتُ

أنا التعويذة التي كان يحضّرها. وللحظات، كان ثلاثتنا في أمان، ثم أطلق السفاح طلقة أخرى؛ كانت الطلقة هذه المرة موجهة للأميرة ولي أنا أيضًا، إلا أنها اصطدمت بالدرع الخفية للتعويذة وغيرت اتجاهها وارتدت لتصيب ساق السفاح نفسه فسقط على الأرض، لكنه ظل ممسكًا بمسدسه، وظل ممددًا على الأرض يُحدق بنا، فقد كان ينتظر انتهاء مفعول التعويذة، كحال كل التعاويذ.

وحينما كان ألثر يصارع الموت، خلع تميمته وأعطاها لي. رفضت. كنت متأكدة أنني سأستطيع إنقاذه. لكن ألثر كان أعلم مني. وكل ما فعله حينها أنه قال لي بهدوء إنه حان الوقت لرحيله. وابتسم ثم... ثم فارق الحياة».

خيم الصمت على الغرفة، كان الجميع ساكنين لا يتحركون، حتى سايلاس كان محدقًا – عن عمدٍ – إلى الأرض، ثم واصلت مارشا قصتها بصوت خفيض:

«لم... لم أكد أصدق نفسي. ربطت التميمة حول عنقي وحملت الأميرة الرضيعة. كانت تبكي حينها، وفي الحقيقة كلتانا كانت تبكي، ثم جريت بسرعة مذهلة لم تسمح للسفاح بأن يصوب مسدسه ويطلق النار، ثم هربت إلى برج السحرة، فلم يكن أمامي أي مكان آخر أستطيع الذهاب إليه، أخبرت بقية السحرة بهذه الأنباء البشعة وطلبت حمايتهم لي فوافقوا، ورحنا نتحدث طوال فترة الظهيرة حول ما الذي ينبغي أن نفعله بالأميرة؛ لقد كنا نعلم أنها لا تستطيع البقاء طويلًا في البرج، ونحن

لن نستطيع أن نحميها إلى الأبد. وهي في كل الأحوال لا تزال رضيعة وتحتاج إلى أمٍّ. وحينها، فكرتُ فيكِ يا سارة».

بدا الاندهاش على سارة.

فألثر كثيرًا ما كان يحدثني عنكِ وعن سايلاس، وكنت قد علمت أنك وضعت توًّا مولودًا جديدًا؛ فهذا النبأ كان حديث السحرة في البرج. «الابن السابع للابن السابع» لم يكن لديَّ أي علم بأنه رحل، وحزنت كثيرًا حين علمت ذلك لكنني كنت أعلم أنك ستحبين الأميرة من كل قلبك وسوف تسعدينها. ومن ثم، قررنا أنك لا بد أن تأخذيها.

إلا أنه كان من المستحيل أن أتوجه ببساطة إلى العشوائيات وأسلمها لكِ؛ فمن المؤكد أنني ما كنت سأسلم من العيون حينها. ومن ثم، هرَّبتُ الأميرة في نهاية ذلك اليوم خارج القلعة وتركتها وسط الثلوج، بعد أن تأكدت من أنك يا سايلاس سوف تجدها، وانتهى الأمر هكذا؛ فلم يكن بوسعي أن أفعل أكثر من ذلك.

فيما عدا أنني بعد أن أربكني جرينج واضطررت لأن أعطيه نصف كراون، اختبأت في الظل وراقبتك أثناء عودتك، وعندما شاهدت الطريقة التي كنت ممسكًا بها عباءتك، والطريقة التي كنت تسير بها كأنك تحمي شيئًا ثمينًا، علمت أن الأميرة معك. هل تتذكر عندما قلت لك: «لا تتفوه بكلمة واحدة لأحد بأنك *وجدتها*، لقد ولدت لتكون *لك*، مفهوم؟».

أطبق صمت على أجواء الغرفة، حدق سايلاس بالأرض، بينما جلست سارة بدون حراك مع جينا، وبدا الأبناء جميعًا وكأن صاعقة من

السماء نزلت عليهم. وقفت مارشا بهدوء، وأخرجت من جيب سترتها حقيبة صغيرة مخملية حمراء، ثم حاولت أن تعبر الغرفة بحرص؛ حتى لا تطأ بقدميها أي شيء، وتحديدًا على ذئب ضخم- من الصعب القول بأنه نظيف- لاحظت مارشا على التوّ أنه كان راقدًا وسط كومة من البطاطين.

أخذت نظرات أفراد أسرة هيب تتابع مارشا بذهول وهي تسير بوقار نحو چينا. وبأدب واحترام، انسحب الأبناء بهدوء ليفسحوا الطريق عندما توقفت مارشا أمام سارة وچينا وجثت بركبتيها على الأرض.

حدقت چينا بعينينْ متسعتين إلى مارشا وهي تفتح الحقيبة المخملية وتُخرج منها طوقًا ذهبيًا صغيرًا، ثم قالت: «أيتها الأميرة، هذه كانت تخص والدتك، والآن أصبحت لكِ»، ومدت مارشا الطوق ووضعته على رأس چينا فاستقر على رأسها تمامًا.

خرج سايلاس من صمته وقال غاضبًا: «فعلتها إذن يا مارشا، وأفشيت السر».

وقفت مارشا لتنظف الغبار الذي علق بعباءتها. ولفرط دهشتها، رأت في تلك اللحظة شبح ألثر ميلا يخترق الحائط محلقًا ثم يهبط على الأرض إلى جوار سارة هيب.

قال سايلاس: «ها هو ذا ألثر. أؤكد لك أنه لن يسره ذلك».

وجاء ردُّه: «مرحبًا يا سايلاس، وأنت يا سارة، وأنتم أيها السحرة الشباب». علت الابتسامة وجوه الأبناء، فرغم الأسماء العديدة التي يُطلقها الناس عليهم، فإن ألثر هو الوحيد الذي أسماهم بالسحرة.

ثم قال لچينا: «مرحبًا أيتها الأميرة الصغيرة». كان ألثر معتادًا دومًا أن يُطلق على چينا الأميرة الصغيرة، والآن فقط. عرفت السبب.

ردت عليه چينا قائلة: «مرحبًا يا عم ألثر»، وزادت سعادتها بتحليق الشبح العجوز بجوارها.

بدا على مارشا انزعاج من حضور ألثر رغم ارتياحها لرؤيته، ثم قالت: «لم أكن أعلم أن ألثر يزورك أنت أيضًا».

فرد سايلاس بحدة: «في الحقيقة، أنا كنت تلميذه قبل أن تأتي أنتِ وتزيحيني عن الطريق».

قالت مارشا وهي تحملق فيه بغضب: «أنا لم أزحكَ عن الطريق، أنت الذي استسلمت، وكنت *تتوسل إلى* ألثر كي يلغي تدريبك كتلميذ، وقلت حينها إنك تريد أن تقرأ لأطفالك قصصًا قبل النوم بدلًا من الحبس في برج وأنفك مندس وسط غبار كتب التعاويذ القديمة. قال ألثر مبتسمًا: «أيها الطفلان، لا تتشاجرا الآن. أنا أحبكما بنفس القدر تمامًا، فجميع تلاميذي لديهم في نفسي منزلة خاصة، وأنت فعلًا يا سايلاس تتعدى كل الحدود أحيانًا».

كان شبح ألثر ميلا يومض وميضًا خافتًا في حرارة النار المشتعلة، وكان لايزال يرتدي عباءته التي كان يرتديها وهو ساحر أعظم، والتي لا تزال تحمل آثار دم عليها، وهو أمر يحزن مارشا كلما وقعت عيناها عليها. كان شعر ألثر الأبيض الطويل مشدودًا بعناية للخلف، ولحيته مشذبة بشكل مدبب على نحو مهندم وأنيق، رغم أنه عندما كان حيًا كان دائمًا أشعث الشعر واللحية؛ لصعوبة مسايرته سرعة نموهما. لكن بعد أن

أصبح شبحًا، بات الأمر سهلًا؛ فقد اختار شكلهما منذ عشر سنوات مضت، من حينها وهما على هذا الحال. ربما صارت عيناه الخضراوان أقل بريقًا عما كانتا عليه أثناء حياته، إلا أن نظراتهما تشع ذكاءً أكثر من أي وقت مضى. وبينما كانت هاتان العينان تنظران حولهما في الغرفة، داخل صاحبهما إحساس كئيب وهو يرى الأسرة التي أوشك حالها أن يتبدل.

قال له سايلاس: «قل لها يا ألثر، قل لها إنها لا تستطيع أن تأخذ ابنتنا چينا. أميرة أو غير أميرة، لن تأخذها».

فردُ ألثر وقد بدا جادًا: «ليتني كنت أستطيع يا سايلاس. لكن أمركما انكشف. هناك سفاحة سوف تحضر إلى هنا في منتصف الليل برصاصة فضية. وأنت تعلم تمامًا معنى هذا».

همست سارة وهي تضع رأسها بين راحتيها: «لا يمكن».

فقال ألثر: «نعم. سوف تحضر»، ثم تملكته رجفة، وأخذت يداه تتحسسان الثقب المستدير أسفل قلبه مباشرة.

تساءلت سارة بهدوء وثبات: «ما الحل إذن؟».

رد عليها ألثر: «مارشا سوف تأخذ چينا إلى برج السحرة؛ فچينا ستكون بمأمن لفترة هناك. وفي تلك الأثناء، سنفكر فيما نستطيع أن نفعله بعد ذلك»، ثم نظر إلى سارة وقال لها: «أنت وسايلاس يجب أن ترحلا بعيدًا مع الأبناء، يجب أن تذهبوا جميعًا إلى مكان آمن لا يمكن العثور عليكم فيه».

شحب وجه سارة، لكن صوتها ظل متماسكًا وهي تقول: «سوف نرحل إلى الغابة، سوف نمكث عند چيلين».

نظرت مارشا مرة أخرى إلى ساعتها العتيقة، لقد تأخر الوقت.

ثم قالت: «لا بد أن آخذ الأميرة الآن. لا بد أن أعود قبل أن يغيروا وردية الحراسة».

وهنالك همست چينا قائلة: «لا أريد الذهاب. ليس هناك ضرورة لذلك، أليس كذلك يا عم ألثر؟ أريد الذهاب معهم إلى چيلين. أريد أن أرحل معهم. لا أريد أن أكون وحدي»، كانت شفة چينا السفلى ترتعش، وعيناها مغرورقتين بالدموع، وكانت تتشبث بسارة بقوة.

فقال لها ألثر بنبرة لطيفة: «لن تكوني وحدكِ، فمارشا سوف تكون معكِ»، لكن لم يبد أن هذا الكلام طمأن چينا.

فواصل ألثر كلامه قائلًا: «إن مارشا يا أميرتي الصغيرة تقول الصواب. لا بد أن ترحلي معها، فلا أحد سواها يستطيع أن يمنحك الحماية التي تحتاجين إليها».

لكن چينا بدت غير مقتنعة.

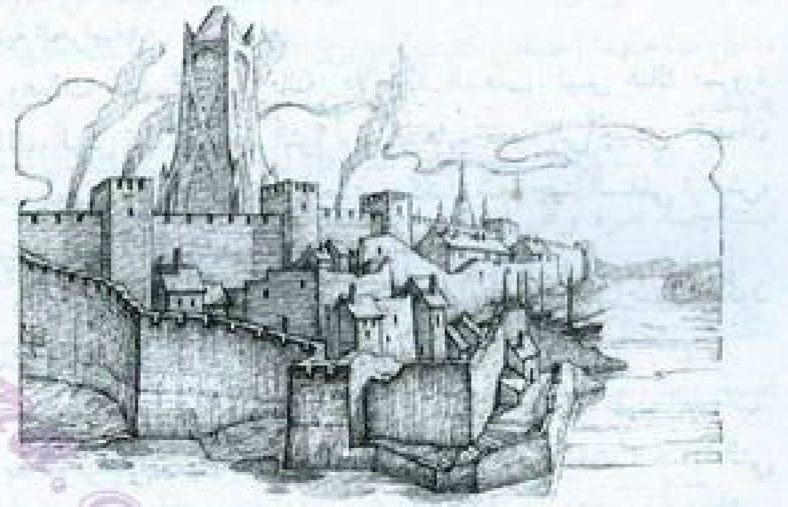
فقال لها ألثر بنبرة جادة هذه المرة: «چينا، أنت وريثة القلعة، والقلعة تحتاج منك أن تظلي في أمان حتى يتسنى لك أن تعتلي العرش ذات يوم. لا بد أن تذهبي مع مارشا. أرجوكِ».

مدت چينا يدها؛ لتتحسس الطوق الذهبي الذي وضعته مارشا على رأسها، وبدأ يعتريها شعور مختلف.

فهمست قائلة: «كما تشاءون.. إني ذاهبة».

6

إلى البرج



لم تكن چينا تصدق *ما* يحدث لها، وبالكاد تمكنت من تقبيل الجميع قبل أن تلقي عليها مارشا عباءتها الأرجوانية وتقول لها أن تظل بجوارها وتلاحق خطواتها. ثم مُكرهًا، فتح الباب الأسود الكبير نفسه مُصدرًا صريرًا، وأخذت چينا من البيت الذي لم تعرف غيره طوال حياتها.

خرجت چينا وهي داخل عباءة مارشا، وربما كان ذلك في مصلحتها؛ حتى لا ترى وجوه الأبناء الستة التي علاها الذهول، ولا تعبيرات الأسى

التي علت وجهي سارة وسايلاس هيب، وهما يتابعان العباءة ذات الأقدام الأربع وهي تتسلل عند المنعطف في نهاية الممر رقم 223، وتتوارى عن الأنظار.

سارت مارشا وچينا في الطريق الطويل هذه المرة عائدتين إلى البرج. فما كانت مارشا مستعدة لأن تعرّض نفسها لخطر أن يراها أحد في الخارج مع چينا، وكان المرور عبر ممرات الجانب الشرقي المظلمة والمتعرجة أكثر أمانًا من الطريق المختصر الذي استخدمته مبكرًا صباح ذلك اليوم. كانت مارشا تسير بسرعة وبخطوات واسعة، وكانت چينا تضطر للجري إلى جوارها آملةً أن تلحق بخطواتها. ولحسن حظها أن كل ما كانت تحمله معها لم يكن سوى حقيبة صغيرة على ظهرها، دست فيها بعض الكنوز التي تذكرها بالبيت، رغم أنها في وسط هذه العجلة نسيت أن تأخذ معها هدية عيد ميلادها.

كان النهار قد انتصف، وساعة الذروة قد مضت، ومما خفف من وطأة الأمور على مارشا أن الممرات الغارقة في الرطوبة كادت تخلو من المارة أثناء مرورها في صمت هي وچينا، ووجدت نفسها تنعطف بكل طلاقة عند المنعطفات الصحيحة بعد أن استعادت ذاكرتها الرحلات القديمة لبرج السحرة.

لكن چينا- بما أنها ظلت مختبئة طوال الوقت تحت عباءة مارشا- لم تكن ترى الكثير. ومن ثم، ركزت نظرها على الأقدام الأربع أمامها، زوج صغير ممتلئ ومدسوس في حذاء طويل وضيع لونه بني - هو زوج قدميها هي، وزوج آخر أرجواني مدبب ممتد طويلًا للأمام ومصنوع من جلد

الثعبان، يخطو بخطوات واسعة على بلاط رمادي تنبعث منه الرطوبة، ثم سرعان ما كفَّت عن ملاحظة حذائها الطويل، وظلت طوال الطريق الممتد لأميال، مرورًا بممرات لا حصر لها، في حالة انبهار تام لا تستطيع أن ترفع عينيها عن الأفعى الأرجوانية التي ترقص أمامها، يمين، يسار، يمين، يسار.

وهكذا أخذ هذا الثنائي الغريب يتحرك في القلعة دون أن يلحظه أحد، مرورًا بأبواب يُسمع من خلفها همس كثير، وتحجب ورشًا عديدة يقضي فيها عمال قادمون من الجانب الشرقي ساعات طويلة، يصنعون فيها الأحذية الطويلة والجعة والملابس والقوارب والأسرَّة والسروج، والشمع والأشرعة، وفي الأونة الأخيرة بدءوا يصنعون أيضًا البنادق، والملابس الرسمية، والسلاسل، كما مرتا كذلك بفصول مدرسية ينبعث منها البرد ويردد فيها الأطفال بملل جدول ضرب ثلاثة عشر، ومرتا كذلك بمخازن خالية يتردد فيها صدى الصوت، بعد أن استولى قوات الأمناء في الآونة الأخيرة على معظم المخزون الشتوي لاستهلاكهم الشخصي.

وأخيرًا، ظهرت مارشا وجينا لدى المدخل الضيق الذي يؤدي إلى فناء برج السحرة. التقطت جينا أخيرًا أنفاسها في الهواء البارد، واختلست نظرة إلى الخارج من أسفل العباءة.

أما ما رأته فكان يفوق الخيال؛ لقد رأت برج السحرة وهو يرتفع عاليًا أمامها، ومن فرط ارتفاعه يكاد معظم الهرم الذهبي الذي يتوج قمته يختفي وسط تجمعات من السحب المنخفضة، كان البرج يبرق بلون

فضي لامع في ضوء شمس الشتاء، ومن شدة لمعانه تألمت عينا جينا، بينما كان زجاج مئات النوافذ الصغيرة يتلألأ بلونه الأرجواني ويومض بلون داكن غامض يعكس الضوء، كاتمًا الأسرار التي تختبئ وراءه، وأحاط بالبرج سديم أزرق رقيق له وميض يخفي حدوده، حتى إنه كان من الصعب على جينا أن تحدد أين ينتهي البرج وأين تبدأ السماء، وبدا الهواء هنا مختلفًا أيضًا؛ حيث تنبعث منه رائحة غريبة ذكية؛ رائحة تعاويذ سحرية وبخور عتيق، ثم أدركت جينا وهي تقف عاجزة عن أن تخطو خطوة أخرى للأمام- أنها محاطة بأصوات؛ أصوات من رقتها لا تُسمع- وصفات سحرية وتعاويذ قديمة من زمن سحيق.

ولأول مرة منذ أن تركت جينا بيتها وجدت نفسها تشعر بالخوف.

مدت مارشا ذراعها وأحاطت بكتفي جينا بطريقة مطمئنة. فحتى مارشا لا تنسى شعورها ساعة أن رأت البرج لأول مرة؛ كان شعورًا مرعبًا.

قالت مارشا بصوت خفيض وهي تشجع جينا: «هيا، هيا. كدنا نصل»، ثم تسللتا عبر الفناء المغطى بالثلوج متوجهتين نحو السلم الرخامي الضخم الذي يؤدي إلى المدخل الفضي المتلألئ، وسارت مارشا بحرص؛ كي لا تفقد اتزانها وسط الثلوج، ولم تلحظ- حتى وصلت إلى أول السلم- عدم وجود حارس في نوبة حراسة، فنظرت إلى ساعتها العتيقة في حيرة؛ فميعاد تغيير الحراس سيتم بعد خمس عشرة دقيقة، فأين إذن الفتى الذي كان يقذف بكرات الثلج صباح اليوم، والذي وبَّخته؟!

التفتت مارشا حولها، وتمتمت في سرها بأن هناك شيئًا مريبًا؛ فالحارس لم يكن موجودًا، ورغم ذلك كانت تشعر أنه لا *يزال* موجودًا. وفجأة، أدركت سبب حيرتها في شعورها بكونه مو جودًا وغير موجود – فالفتى كان يحتضر.

اندفعت مارشا بقفزة فجائية نحو كومة صغيرة بجوار المدخل، وسقطت جينا خارج عباءتها.

همست مارشا وهي تحفر بيديها في كومة الثلوج قائلةً: «احفري، إنه هنا متجمد».

كان الفتى الأبيض النحيل ممددًا أسفل الكومة متقوقعًا، وكان زيه الرسمي المهلهل منقوعًا بالثلوج وملتصقًا بجسده، وبدا اللون الأصفر الحمضي لزيه الغريب مبهرجًا في ضوء شمس الشتاء. ارتعد جسم جينا عندما وقعت عيناها على الفتى؛ ليس لأنها شعرت بالبرد وهي تنظر إليه فحسب بل من ذكرى مجهولة لاحت في خيالها لا تعلم عنها شيئًا، ولا توصف بكلمات.

بدأت مارشا تزيح الثلج بحرص من على فم الفتى الذي تلون بلون أزرق داكن، وضعت جينا يدها على ذراعه البيضاء النحيلة كالعصا. إنها لم تتحسس من قبل شخصًا جسمه بهذه البرودة، من المؤكد إذن أنه مات؟

أخذت جينا تراقب مارشا وهي محنية على وجه الفتى، وتتمتم بكلام من وراء أنفاسها، ثم توقفت وهي تنصت وبدا عليها الاهتمام، ثم راحت تتمتم من جديد بإلحاح أكبر هذه المرة، وهي تقول: «**أسرع أيها الفتى**

الصغير، أسرع. وتوقفت لوهلة ثم زفرت ببطء زفرة طويلة في وجه الفتى، أخذ نفسها يخرج من فمها بلا انقطاع. فبدأت سحابة دافئة وردية تغطي شفتي الفتى وأنفه. ورويدًا رويدًا أزالت السحابة اللون الأزرق البشع واستبدلت به لونًا حيويًا متوهجًا، ورغم أن الفتى لم يتحرك بدأت جينا ترى حركة ارتفاع وانخفاض خافتة في صدره؛ لقد عاد يتنفس من جديد.

ثم همست مارشا لجينا: «بسرعة، فهو لن يظل على قيد الحياة لو تركناه هنا. لا بد أن نحمله إلى الداخل»، وحملت مارشا الفتى بين ذراعيها وصعدت به السلم الرخامي العريض. وباقترابها من آخر درجاته، انفتح باب برج السحرة الفضي الضخم على مصراعيه بدون صوت، أخذت جينا نفسًا عميقًا، وتبعت مارشا والفتى إلى الداخل.

7

برج السحرة



لم تكن چينا تدرك *إلى أي مدى تغيرت حياتها* إلا عندما انغلق باب برج السحرة وراءها ووجدت نفسها تقف وسط بهو المدخل الذهبي الهائل. إنها لم تر في حياتها- وما كان يخطر على بالها قط- مكانًا كهذا. ولا يساورها أدنى شك في أن معظم سكان القلعة لن يروا في حياتهم مثله، حتى إنها بدأت بالفعل تشعر أنها شخص آخر مختلف عن هؤلاء الذين تركتهم وراءها.

أخذت چينا تنظر في دهشة إلى مظاهر الثراء غير المألوف المحيط بها وهي واقفة مشدوهة في هذا البهو الدائري العملاق الذي كانت حوائطه الذهبية تظهر عليها صور تختفي لتظهر غيرها، منها شخصيات أسطورية، ورموز، وبلاد غريبة.. كان الهواء دافئًا، يعبق برائحة بخور، وهمهمات رقيقة هي أصوات **السحر** الذي يمارس يوميًا ويحافظ على استمرار حياة البرج، ثم تحركت الأرض تحت قدمي چينا كأنها رمال، تتألف من مئات الألوان المختلفة، وأخذت هذه الرمال تتراقص حول حذائها الطويل، وكتبت بوضوح «**مرحبًا، مرحبًا أيتها الأميرة**». حدقت چينا إلى هذه الكلمات بدهشة وهي تتغير وتكتب لها: **أسرعي!**

نظرت چينا نحو مارشا التي كانت تتمايل يمينًا ويسارًا وهي تحمل الحارس، وتضع قدمها على أول درجة من درجات سلم حلزوني فضي اللون.

وقالت لچينا بنفاد صبر: «هيا، هيا». فهرعت چينا إليها ووصلت إلى السلم وهمّت بصعود درجاته درجةً درجةً.

فقالت لها مارشا مفسرة: «لا تصعدي بنفسك. قفي مكانك، وسوف يقوم السلم بهذه المهمة».

ثم قالت بصوت عالٍ: «هيا». ولدهشة چينا، بدأ السلم الحلزوني يلف، وكان يلف في أول الأمر ببطء، ثم سرعان ما انطلق، فأخذ يلف أسرع فأسرع، ويرتفع بها لأعلى البرج، إلى أن وصلوا لأعلى مكان فيه. غادرت مارشا السلم، وتبعتها چينا بقفزة ورأسها يدور، وتركت السلم في اللحظة

التي بدأ يهبط فيها عندما نادى عليه أحد السحرة من مكان بعيد في الأسفل.

كان الباب الأمامي الكبير ذو اللون الأرجواني المؤدي إلى جناح مارشا قد انفتح بسرعة لاستقبالهم.

وعلى الفور، كانت نار المدفأة قد اشتعلت، والأريكة المواجهة للمدفأة رتبت نفسها، ثم انطلقت وسادتان وبطانية في الهواء وهبطت على الأريكة وحطت نفسها بنظام، كل ذلك دون أن تنطق مارشا بكلمة واحدة.

ساعدت چينا مارشا في وضع الحارس على الأريكة، كان الفتى يبدو في حالة سيئة، كان وجهه شاحبًا من شدة البرد، وكانت عيناه مغمضتين، وجسمه يرتعش بشدة.

قالت مارشا بحدة: «الرعشة علامة طيبة»، ثم طقطقت أصابعها وقالت: «**الملابس المبللة تُخلع على الفور**».

وفي التوّ، كان الزي السخيف قد طار من على جسم الفتى، وسقط مرفرفًا على الأرض وتكوم فوق بعضه على هيئة كومة مبللة خالية من الذوق.

فقالت لها مارشا: «**أنت كومة من القمامة**». فلملمت الكومة نفسها بكآبة وتوجهت قطعةً قطعةً إلى ماسورة القمامة وألقت نفسها فيها واختفت.

علت وجه مارشا ابتسامة وقالت: «عظيم. **ملابس جافة على الفور**».

وفي التوّ، كان الفتى مرتديًا بيجاما ثقيلة، وبدأت رعشته العنيفة تخف حدتها.

اتخذت چينا مجلسًا بجانب المدفأة على السجادة، وسرعان ما ظهر فنجانان كبيران من اللبن الساخن يتصاعد منهما البخار. فذهبت مارشا لتجلس إلى جوار چينا، لكن الأخيرة سرعان ما خالجها فجأة شعور بالخجل؛ فالساحرة العظمى تجلس بنفسها على الأرض إلى جوارها، تمامًا مثلما يفعل نكو. ترى، ماذا ينبغي عليها أن تقول الآن؟ عجزت چينا عن التفكير في أي شيء، فيما عدا البرد الذي تشعر به في قدميها. ورغم ذلك منعها شعورها بالخجل أن تخلع حذاءها الطويل.

قالت لها مارشا: «من الأفضل لكِ أن تخلعي حذاءكِ هذا. إنه مبلل للغاية».

فحلّت چينا الرباط وخلعت الحذاء.

فقالت لها مارشا باستهجان: «انظري لجوربك، إنه في حالة مزرية».

فاحمر وجه چينا خجلًا، علمًا بأن جوربها هذا كان من قبل جورب نكو، وقبل ذلك كان جورب إد- أم كان جورب إريك؟- وقد أصبح الجورب مرفوءًا في معظم أجزائه، وأكبر كثيرًا من قدميها.

أخذت چينا تحرك أصابع قدميها في الجورب أمام النار، لتجففهما.

سألتها مارشا: «أتحبين أن أحضر لك جوربًا جديدًا؟».

فأومأت لها چينا برأسها في خجل. وعلى التوّ، كان بقدميها جورب أرجواني ثقيل.

ثم قالت لها مارشا: «على أية حال، سوف نحتفظ بالجورب القديم».

وقالت للجورب: «**كن نظيفًا. كن مطويًا**»، فنفذ الجورب الأوامر؛ فاهتز وأسقط عنه الأوساخ العالقة به، فحطت في صورة كومة لزجة على

المدفأة، ثم طوى الجورب نفسه بشكل مهندم وذهب ليقبع عند المدفأة إلى جوار چينا التي علت وجهها ابتسامة، وما أسعدها أن مارشا لم تصف أفضل ما رتقته سارة بأنه كومة من القمامة.

حل وقت ظهيرة منتصف الشتاء، وبدأ الضوء يخفت. وأخيرًا، توقفت رعشة الفتى الحارس ونام في سلام. جلست چينا متقوقعة بجانب النار تتأمل أحد كتب مارشا المصورة عن **السحر**، وفجأة، سُمع طَرْقٌ جنوني على الباب.

وقال الصوت الذي بدا أن صاحبه قد نفد صبره: «هيا، هيا يا مارشا. افتحي الباب. افتحي لي الباب!».

فصاحت چينا قائلة: «إنه أبي!».

فردت مارشا: «صه! قد لا يكون هو».

ثم عاد الصوت يقول بنفاد صبر: «بحق السماوات، افتحي الباب. أرجوكِ».

استخدمت مارشا **تعويذة الشفافية**، وعلمت يقينًا، للأسف، أن من بالباب هو بالفعل سايلاس ومعه نكو. وكأن هذا لم يكن كافيًا، فكلبهم كان معهما، يجلس ولسانه يتدلّى من فمه يسيل منه لعاب يتساقط على شعره، وحول عنقه طوق منقط.

ولم يكن أمام مارشا خيارٌ آخر سوى أن تفتح لهم.

فقالت للباب بنبرة جافة: «**انفتح!**».

قابل نكو چينا بابتسامة عريضة، وقال لها: «مرحبًا يا چينا، ثم تقدم بحرص شديد وهو يخطو على سجادة مارشا القيمة المصنوعة من الحرير،

يتبعه مباشرة سايلاس والكلب، لكن ذيل الكلب الذي كان يهتز بجنون أطاح في طريقه بمجموعة مارشا الثمينة من أواني الجنيات المصنوعة من الخزف الصيني، فسقطت على الأرض وتفتتت.

ارتمت چينا في أحضان سايلاس صائحةً: «نكو، أبي!»، وبدا لها وكأنها غابت عنهما شهورًا، ثم قالت لهما: «أين أمي؟ أهي بخير؟».

رد عليها سايلاس قائلًا: «إنها بخير. لقد تركت البيت وذهبت إلى چيلين مع الأولاد، وجئت أنا ونكو لنعطيكِ هذا»، وراح يفتش في جيوبه العميقة وهو يقول لها: «انتظري. إنها موجودة هنا في مكان ما».

سألته مارشا: «أجُننت يا سايلاس؟ ماذا تقصد بمجيئك إلى هنا؟ خذ فورًا هذا الذئب البائس بعيدًا عن هنا».

كان الكلب يلعب بحذاء مارشا المصنوع من جلد الثعبان وراح لعابه يسيل عليه.

رد عليها سايلاس: «إنه ليس ذئبًا، إنه كلب ذئبي حبشي ينحدر أصله من سلالة كلاب مستذئبة مغولية، واسمه ماكسميليان، لكنه قد يسمح لك بأن تناديه- اختصارًا- بماكسي، هذا إذا كنتِ لطيفة معه».

غمغمت مارشا بلا صوت تقريبًا: «لطيفة!».

بدأ سايلاس يفرغ محتويات كيس صغير متسخ على منضدة مارشا المصنوعة من خشب الأبنوس وحجر اليشم، وأخذ يبحث بينها وهو يقول: «أعتقد أننا نستطيع المكوث هنا الليلة، فالليل توغل ولا نستطيع دخول الغابة».

ردت: «*المكروث هنا*؟!».

قاطعتهما چينا قائلة، وهي تهز أصابع قدميها داخل الجورب في الهواء: «أبي، انظر إلى جوربي».

رد عليها سايلاس وهو لا يزال منشغلًا بالبحث داخل جيوبه: «همم. جميل جدًا يا حبيبتي».

فقالت: «أعجبك جوربي يا نكو؟».

رد نكو: «لونه الأرجواني فاقع جدًا. إن البرد ينخر في عظامي».

فأخذته چينا إلى المدفأة، وأشارت له إلى الفتى الحارس، وقالت له: «نحن ننتظر استيقاظه. لقد تجمد وسط الثلوج، وأنقذته مارشا وأعادت إليه النبض من جديد».

فصفر نكو منبهرًا، ثم قال: «انظروا! أعتقد أنه يستيقظ الآن». بدأت عينا الفتى تنفتحان، وأخذ يُحدق بچينا ونكو. بدا الفتى مذعورًا، فربتت چينا على رأسه الحليق ربتات خفيفة، وبدا لها رأسه خشنًا وما زال باردًا، ثم قالت له: «اطمئن.. أنت في أمان الآن. أنت معنا. أنا چينا، وهذا نكو. ما اسمك؟».

فغمغم الفتى قائلًا: «الفتى 412».

فقالت چينا في حيرة: «الفتى أربعة واحد اثنان؟ لكن هذا رقم، ولا أحد يسمى بالأرقام».

لم يرد عليها، لكنه أخذ يُحدق إليها، ثم عاد وغطَّ في نومه ثانيةً، ثم قال نكو: «إنه أمر غريب. لقد قال لي أبي من قبل إنهم في جيش الشباب لا يحملون إلا أرقامًا. كان هناك اثنان منهم في الخارج الآن، لكن أبي

جعلهما يعتقدان أننا من الحراس، فقد تذكر كلمة السر بعد كل هذه السنوات».

فقالت چينا بتأمل: «هكذا هو أبي دائمًا. لكن على ما يبدو، فأبي ليس هو أبي. وأنت أيضًا لست أخي...».

فقاطعها نكو قائلًا بغلظة: «هذا هراء! بالطبع أنت أختي، لا شيء يمكن أن يغير ذلك أيتها الأميرة البلهاء».

قالت چينا: «نعم، أعتقد ذلك».

رد نكو مؤكدًا: «نعم، *بكل تأكيد*».

قال لها سايلاس الذي كان يسمع حوارهما: «سأظل دائمًا أباكِ، وأمك سوف تظل دائمًا أمك. كل ما في الأمر أن لديك أمًّا أولى».

فسألته چينا: «هل كانت فعلًا ملكة؟».

«نعم، كانت *الملكة*، ملكتنا جميعًا، قبل أن نُبتلى بهؤلاء الحراس الأمناء».. بدا التفكير على وجه سايلاس، وأخيرًا لانت ملامحه بعدما تذكر شيئًا، ثم خلع قبعته الصوفية. لقد وجدها أخيرًا. كانت في قبعته. بالطبع كانت في قبعته.

وقال بنبرة تعلوها نشوة النصر: «وجدتها! إنها هدية عيد ميلادك.. عيد ميلاد سعيد يا حبيبتي»، وأعطى چينا الهدية التي كانت قد تركتها خلفها بعد أن غادرتهم.

كانت الهدية صغيرة الحجم بالنسبة لوزنها الثقيل، نزعت چينا الشريط الملون وأمسكت حقيبة صغيرة زرقاء ملفوفة بحبل. وبحرص، حلت الحبل وهي تحبس أنفاسها من فرط الحماس والإثارة.

ثم قالت بإحباط عجزت عن إخفائه: «ياه! إنها حصاة، لكنها جميلة حقًا يا أبي. أشكرك»، وأخرجت الحصاة الرمادية الناعمة ووضعتها في راحة يدها.

رفع سايلاس چينا ووضعها على «حجره»، وقال لها مفسرًا: «إنها ليست حصاة. إنها صخرة أليفة. جربي أن تدغدغيها من أسفل ذقنها».

لكن چينا لم تكن متأكدة تمامًا أي طرف منها هو ذقنها، لكنها دغدغتها، ففتحت الصخرة ببطء عينيها السوداوين ونظرت إليها، ثم مدت للخارج أربع أرجل، ووقفت وأخذت تسير على يد چينا.

فقالت چينا لاهثة: «إنها رائعة يا أبي».

فردَّ: «لقد رأينا أنها ستعجبك فاشتريناها من محل الصخور الجوالة. لا تطعميها أكثر من اللازم، وإلا ستصبح ثقيلة الوزن وكسولًا، كما أنها تحتاج لأن تتجول سيرًا على الأرجل كل يوم».

قالت چينا: «سوف أسميها بيتروك. بيتروك تريلاوني».

بدا على بيتروك قمة السعادة وكأنها أسعد حصاة على وجه الأرض، وإن كان منظرها لم يختلف كثيرًا عن ذي قبل، ثم سحبت أرجلها وأغمضت عينيها ونامت، ووضعتها چينا في جرابها لتبقى دافئةً.

في تلك الأثناء، كان ماكسي منشغلًا بمضغ لفافة ورق الهدية ولعابه يسيل على رقبة نكو.

فقال له نكو محاولًا دفعه إلى الأرض: «انزل! انزل أيها الدلو المليئة باللعاب! تمدد على الأرض»، لكن الكلب الذئبي لم ينفذ الأمر ولم

يتمدد على الأرض، بل كان يُحملق في صورة ضخمة لمارشا وهي في زي التخرج بمناسبة انتهائها من فترة التدريب.

وبدأ ماكسي يعوي برقة ونعومة.

فأخذ نكو يطمئنه بربتات خفيفة على ظهره، وهمس له قائلًا: «الصورة مرعبة، أليس كذلك؟» فهز ماكسي ذيله بفتور، ثم بدأ ينبح وهو يرى ألثر ميلا يخرج من وسط الصورة؛ فماكسي لم يعتد قطُّ طريقة ظهور ألثر، وبدأ ينشج، وأدخل رأسه تحت البطانية التي تغطي الفتى 412. إلا أن أنفه البارد المبلل أيقظ الفتى فزعًا، فاعتدل جالسًا، وأخذ يُحدق حوله كالأرنب المذعور، ولم يعجبه ما رآه حوله بل كان كأنما يرى كابوسًا.

ففي أي لحظة من الآن، سوف يحضر قائد جيش الشباب للقبض عليه. وحينئذ، سوف يواجه ورطة حقيقية بتهمة مصاحبة العدو – فهذا هو ما يصفون به من يتحدث مع السحرة، وها هو الآن بين اثنين منهم، بالإضافة إلى شبح عجوز يبدو عليه هو أيضًا أنه ساحر، ناهيك عن هذين الطفلين غريبي الأطوار؛ واحدة على رأسها تاج والآخر بعينيه الخضراوين اللتين تشيان بأنه ساحر، ذلك عدا ذلك الكلب القذر. فضلًا عن كل هذا، فقد أخذوا منه زيه الرسمي وألبسوه ملابس مدنية؛ إنه بذلك معرَّض لأن يلقى حتفه رميًا بالرصاص بتهمة التجسس، فتأوه الفتى 412 وأطرق برأسه ووضعه بين راحتيه.

ذهبت إليه چينا وأحاطته بذراعيها، ثم همست له قائلة: «لا تقلق، نحن سنعتني بك».

بدا ألثر متوترًا، وقال: «إنها *ليندا* التي فعلت ذلك. لقد دلّتهم على مكانكم. إنهم قادمون إلى هنا. لقد أرسلوا *السفاحة*».

قالت مارشا: «يا إلهي! سوف أسحر الأبواب الرئيسية **بسحر الغلق المحكم**».

شهق ألثر قائلًا: «لقد فات الأوان، لقد دخلت بالفعل».

«كيف ذلك؟».

رد ألثر: «يبدو أن هناك من ترك الباب مفتوحًا وراءه».

فصاحت مارشا كالرعد: «سايلاس، إنه أنت أيها الغبي!».

رد عليها سايلاس متوجهًا نحو الباب للخروج: «نعم، وسوف نرحل عن هنا، ومعنا چينا. من الواضح أنها ليست في مأمن هنا يا مارشا».

شعرت مارشا بالإهانة، وصاحت بحدة وغضب: «ماذا تقصد؟ إنها ليست في مأمن في أي مكان أيها الأحمق!».

غمغم سايلاس قائلًا: «إياك وأن تقولي أحمق مرة أخرى، فأنا لا أقل عنك ذكاءً يا مارشا، وليس لأنني ساحر عادي...».

فصاح ألثر فيهما: «كفى! ليس هذا وقت الجدال. يا إلهي! *إنها تصعد السلم الآن*».

توقف الجميع في ذهول، وأخذوا يُنصتون. بدا كل شيء هادئًا، هادئًا أكثر من اللازم، فيما عدا أزيز السلم الفضي وهو يلف ليحمل الزوار ببطء من داخل برج السحرة إلى أعلى قمة فيه، حتى باب مارشا الأرجواني.

بدا الذعر على چينا، فأحاطها نكو بذراعه وقال لها: «لا تخافي يا چينا. سوف أحميك، لا تخافي وأنت معي».

وفجأة، أرخى ماكسي أذنيه إلى الوراء، وأطلق عواءً مدويًا، ووقف شعر رءوس الجميع من شدة خوفهم.

ثم.. كراش! انفتح الباب بعنف.

وظهر ظل السفاحة وهي واقفة، وبدا وجهها شاحبًا وهي تتفحص المشهد الذي تراه أمامها. أخذت عيناها تنظران ببرود يمينًا ويسارًا. تبحث عن فريستها؛ الأميرة. كانت تحمل في يدها اليُمنى مسدسًا فضيًا، وهو المسدس الذي رآه مارشا آخر مرة منذ 10 سنوات في غرفة العرش.

بدأت السفاحة تخطو للأمام، ثم قالت بنبرة تهديد: «أنتم رهن الاعتقال، وغير مسموح لكم بالكلام على الإطلاق، سوف أصطحبكم من هنا إلى...».

وقف الفتى 412 وجسمه ينتفض رعبًا؛ فقد حدث – في ظنه – ما كان يتوقعه بالضبط، لقد جاءوا للقبض عليه، فسار ببطء متوجهًا نحو السفاحة، فنظرت هي إليه ببرود وصاحت فيه كالرعد: «ابتعد أيها الفتى، لا تعترض طريقي»، وضربته ضربة طرحته أرضًا.

صاحت فيها چينا: «لا تفعلي هذا!»، وهرعت إلى الفتى 412 الذي تكوم على الأرض، وما إن انحنت چينا لترى ما إذا كان الفتى 412 قد أصيب حتى جذبتها السفاحة بقوة.

أخذت چينا تتلوى محاولة الإفلات منها، وتصيح قائلة: «اتركيني، اتركيني!».

قالت السفاحة بسخرية: «لا تتحركي أيتها الملكة الصغيرة، هناك من يريد أن يراكِ... ميتة».

وأشهرت السفاحة المسدس الفضي في وجه چينا.

طاخ!

هكذا انطلقت **صاعقة** من يد مارشا الممدودة في وجه السفاحة وضربتها فطرحتها أرضًا، وحررت چينا من قبضتها.

صاحت مارشا: «**طوقيها وابقي عليها حية!**، فانبثق من الأرض ساتر ضوئي أبيض براق كأنه نصل لامع فصلهم عن السفاحة فاقدة الوعي.

وبسرعة، فتحت مارشا الباب الصغير الذي يغلق ماسورة القمامة، وقالت: «إنها الطريقة الوحيدة للخروج من هنا. سايلاس، انطلق أنت أولًا، وحاول أن تلقي **تعويذة التنظيف** أثناء هبوطك».

هتف: «أنا؟».

ردت مارشا بحدة وهي تدفعه بعنف من الباب الصغير المفتوح: «لقد سمعت ما قلته، *ادخل*، لو سمحت!»، وسقط سايلاس متكورًا في الماسورة، ثم اختفى مطلقًا صيحةً.

شدت چينا الفتى 412 وجعلته يقف على قدميه، ثم قالت له: «هيا!»، ودفعته برأسه في الماسورة، ثم قفزت هي بدورها، وتبعها مباشرة نكو، ثم مارشا، وأخيرًا الكلب الذئبي الذي غمره حماس مفرط.

8

ماسورة القمامة



عندما *ألقت چينا بنفسها من ماسورة القمامة*، لم يسمح لها فرط خوفها من السفاحة بأن تفكر في الخوف من الماسورة. لكن عندما سقطت وأخذت تتدحرج داخل الظلمة المنحدر بلا قدرة على التحكم في أي شيء، تملكها الهلع تمامًا.

كان السطح الداخلي لماسورة القمامة باردًا زلقًا كالثلج؛ فالماسورة كانت مصنوعة من الإردواز الأسود، قام بتقطيعه ووصله بإحكام البناءون البارعون الذين بنوا برج السحرة منذ مئات السنين، وقد أقيمت الماسورة بميل شديد؛ شديد لدرجة أنه منع چينا من التحكم في سقوطها بأي شكل من الأشكال.

ومن ثم، راحت تتدحرج وتتقلب في كل الاتجاهات، وهي تتخبط من جانب إلى آخر.

ولكن أسوأ ما كان في الأمر هو الظلام.

فالظلام كان حالكًا، وعميقًا، لا يمكن اختراقه، كان يضغط على چينا من كل جانب، ورغم أنها أجهدت عينيها باستماتة لترى أي شيء، أي بادرة أمل، فإنها فشلت تمامًا، حتى ظنت أنها فقدت بصرها.

لكن هذا لم يمنع أنها كانت تستطيع أن تسمع، وكان في وسعها أن تسمع من خلفها حفيف شعر الكلب الذئبي المبلل وهو يتقدم نحوها مسرعًا.

كان ماكسي الكلب الذئبي مستمتعًا غاية الاستمتاع؛ فقد راقت له اللعبة، رغم أنه اندهش عندما قفز في الماسورة ولم يجد سايلاس ينتظره بالكرة، وزادت دهشته أكثر عندما بدا له أن أرجله توقفت عن العمل، فأخذ يخربش بها في الهواء حوله محاولًا أن يجد تفسيرًا لذلك. لكن أنفه اصطدم بمؤخرة عنق السيدة المخيفة، وحاول أن يلعق شعرها إذ ربما يجد فيه أي شيء له مذاق شهي، إلا أنه تلقى منها دفعة عنيفة قلبته على ظهره.

أصبح ماكسي الآن في غاية السعادة. فبعد أن بات أنفه يتقدمه، وأرجله مضمومة إلى جسمه، تحول إلى شريط انسيابي من الشعر، وتجاوزهم جميعًا؛ تجاوز نكو الذي أمسك بذيله ثم أفلت منه؛ وتجاوز چينا التي صرخت في أذنيه؛ وتجاوز الفتى 412 الذي تكور في صورة كرة محكمة، وبعد ذلك تجاوز سيده سايلاس. وحينها انتابه شعور غير

مريح، فسايلاس هو السيد، وماكسي غير مسموح له بأن يتجاوزه، ولكن لم يكن أمام الكلب الذئبي خيار آخر، واستمر في اندفاعه متجاوزًا سايلاس- وسط هطول طعام بارد مطهو وقشر جزر- وواصل رحلة السقوط.

كانت ماسورة القمامة ملتفة كالثعبان حول برج السحرة كأنها عملاق ضخم مدفون بشكل عشوائي في أعماق جدرانه السميكة. كانت الماسورة تهبط بانحدار شديد بين كل طابق وآخر، آخذةً معها ليس فقط ماكسي وسايلاس والفتى 412 وچينا ونكو ومارشا، بل كل ما تبقّى أيضًا من وجبات غداء السحرة التي أُلقيت في الماسورة ظهر ذلك اليوم.

ويبلغ ارتفاع برج السحرة واحدًا وعشرين طابقًا، الطابقان العلويان يملكهما الساحر الأعظم، وكل طابق بعد ذلك يشغله جناحان للسحرة؛ مما يعني أن عدد وجبات الغداء كان هائلًا، وهو ما كان بمثابة جنة يانعة بالنسبة لماكسي الذي تناول من مخلفات هذه الوجبات ما يكفيه لما تبقى من ساعات اليوم.

وأخيرًا، وبعد أن بدا أن كل ذلك استغرق ساعات وساعات- رغم أنه لم يستغرق سوى دقيقتين وخمس عشرة ثانية تحديدًا- بدأت چينا تشعر بتحول المنحدر شبه الرأسي إلى منحدر شبه أفقي، وبدأت سرعة هبوطها تقل، فصارت أكثر احتمالًا. لكن ما لم تكن چينا تعلمه أنهم كانوا الآن قد غادروا برج السحرة وبدءوا يتحركون أسفل سطح الأرض، من أعتاب البرج إلى طوابق القبو التي تقع أسفل ساحات الأمناء، إلا أن الظلام داخل الماسورة ظل كما هو دامسًا، كما ظل الجو في غاية البرودة، وشعرت چينا

بوحدة مفرطة، حاولت أن تسترق السمع آملةً أن تسمع أي صوت قادم من الآخرين، لكن الجميع كانوا يدركون مدى ضرورة الالتزام بالصمت التام، ولم يجرؤ أحد منهم على أن يصرخ أو يستنجد بغيره. ورغم أن چينا ظنت أنها سمعت صوت عباءة مارشا من خلفها، فإنها منذ أن مر بها ماكسي متكورًا لم تشعر بأي شيء يوحي بأن هناك أي شخص آخر سواها في الماسورة، وبدأ يخالجها شعور بأنها ستظل وحيدة إلى الأبد في هذا الظلام، وتملكتها موجة أخرى من الهلع. وفي اللحظة التي ظنت فيها أنها قد تبدأ في الصراخ، رأت وميضًا يلمع من بعيد قادمًا من مطبخ يعلوهم بمسافة كبيرة. ولمحت فيه الفتى 412 يتدحرج مكورًا ولم يكن يبعد عنها كثيرًا، فبدأت معنوياتها ترتفع عندما رأته، ووجدت نفسها ترثي لحال هذا الفتى الحارس بالبيچامة التي يرتديها وبهذا الجسم النحيل، والبرد الذي لا يزال يسكن فيه.

لكن الفتى 412 لم يكن في حالة تسمح له بأن يرثي لحال أي أحد، ولا حتى نفسه، وعندما دفعته هذه الفتاة المجنونة التي تضع على رأسها طوقًا ذهبيًا في هذه الهوة، كوّر نفسه بشكل فطري، ومضى طوال فترة الهبوط من برج السحرة يتخبط يمينًا ويسارًا في الماسورة كأنه بلية أُلقيت في ماسورة صرف. ولكن رغم الكدمات والإصابات التي يشعر بها الآن، فإنه لم يعد مرتعبًا الرعب الذي شعر به عندما استيقظ ليجد نفسه في صحبة اثنين من السحرة، وفتى هو أيضًا من السحرة، وشبح ساحر. ومع تباطؤ سرعة هبوطه هو أيضًا فيما أخذت الماسورة تمتد بشكل أفقي، بدأ ذهنه يعمل من جديد. ومن بعض الأفكار القليلة التي من الممكن

بشكل أو بآخر أن يجمع بينها- استنتج منها أن ما هو فيه لا بد أنه اختبار؛ فجيش الشباب زاخر بالاختبارات، والاختبارات المفاجئة دائمًا ما تباغتك وسط ظلام الليل، بمجرد أن تجد نفسك قد استغرقت في النوم وتحول أخيرًا برد سريرك الضيق إلى غايته من الدفء والراحة والرحابة. لكن هذا الاختبار كان كبيرًا، لا بد أنه أحد اختبارات (الإنجاز أو الموت) التي يتسبب الفشل فيها في فقدان الفرد حياته، فجزَّ على أسنانه مرتعبًا. فعلى ما يبدو أنه قد وصل في هذه اللحظات إلى مرحلة (الموت) من الاختبار، فأيًا كان المصير الذي ينتظره، ليس هناك شيء في وسعه (أن ينجزه) الآن؛ لذا أغمض الفتى عينيه وواصل تدحرجه.

أخذتهم الماسورة إلى أعماق سحيقة، ثم انعطفت يسارًا متجهةً أسفل غرف مجلس الأمناء، ثم يمينًا إلى مكاتب الجيش، ثم إلى الأمام لتشق طريقها وسط الجدران الكثيفة للمطابخ السفلية التي تخدم القصر. وهنا على وجه التحديد، بدأت الفوضى تعم؛ فخادمات المطبخ كنّ منشغلات بالتنظيف بعد وليمة منتصف اليوم التي تُقام للأمين الأعلى. ومن ثم، كانت الفتحات الموجودة في المطبخ التي تفتح على ماسورة القمامة، ولا تعلو كثيرًا عن المسافرين عبر الماسورة- يتكرر فتحها بشكل دائم وتمطرهم بوابل من بقايا طعام الحفل. لكن حتى ماكسي الذي أكل ملء بطنه وأكثر طوال الطريق- لم يعجبه هذا، خاصة بعد أن ارتطمت بأنفه مباشرة مهلبية صلبة القوام، ألقت بها أصغر خادمات المطبخ، والتي لمحت ماكسي وظلت منذ ذلك الحين تراودها لأسابيع طويلة كوابيس عن ذئاب في ماسورة القمامة.

وبدا الأمر بالنسبة لمارشا أيضًا أشبه بالكابوس، فلفَّت جسمها بإحكام بعباءتها الحريرية الأرجوانية التي علتها صلصة لحوم، وباتت بطانتها الفرو مغطاة بالمهلبية. وفي لحظة، انحنت في حركة خاطفة لتتفادى وابلًا من الكرنب ذي الرءوس الصغيرة، وحاولت أن تجرب **تعويذة التنظيف الجاف في ثانية**؛ حتى تستغل اللحظة التي سوف تخرج فيها من الماسورة.

وأخيرًا، ذهبت بهم الماسورة بعيدًا عن المطابخ، وبات الوضع أنظف قليلًا. لكن ما إن بدأت چينا تمنح نفسها فرصة لتسترخي فيها حتى فوجئت بانقطاع نفَسها مع انحدار الماسورة بشكل حاد أسفل سور القلعة، قاصدةً وجهتها الأخيرة عند مقلب القمامة على ضفة النهر.

كان سايلاس أول من تجاوز صدمة الانحدار، وتكهَّن بأنهم باتوا الآن في نهاية رحلتهم، وأخذ يرمق الظلام محاولًا أن يرى ولو وميضًا في نهاية النفق، لكنه فشل. ورغم علمه بأن الشمس لا بد أن تكون قد غربت الآن، فقد تمنى أن يسرب لهم البدر بعض نوره. لكن لدهشته، أوقف انزلاقه جسم له كتلة؛ جسم لين وزلق ورائحته مقززة؛ إنه ماكسي.

كان سايلاس يتساءل في سره عن السبب الذي جعل ماكسي يسد ماسورة القمامة، عندما ارتطم به الفتى 412 وچينا ونكو ومارشا على التوالي، وأدرك حينها أن ماكسي لم يكن هو الوحيد الذي كان جسمه لينًا وزلقًا ورائحته مقززة.. بل جميعهم كانوا على هذا الحال.

ثم سمع صوت چينا وسط الظلام تعلوه نبرة الخوف قائلة: «أبي. أهذا أنت يا أبي؟».

فهمس لها سايلاس قائلًا: «نعم يا حبيبتي».

ثم سأله نكو بصوت أجش: «أين أنت يا أبي؟» وقد كره نكو وجوده في هذه الماسورة، ولم يكن يُدرك حتى اللحظة التي قفز فيها بداخلها أنه يفزع من الأماكن المغلقة إلى هذا الحد، وقال في سره: يا لها من طريقة لاكتشاف ذلك! لكنه تحايل على خوفه هذا بأن قال في سره بأنهم على الأقل يتحركون وسرعان ما سيجدون أنفسهم خارج هذا النفق. لكنهم الآن توقفوا. توقفوا بدون أن يخرجوا.

لقد أصبحوا محبوسين.

ووقعوا *في الفخ*.

حاول نكو أن يعتدل ليجلس، لكن رأسه ارتطم بالإردواز البارد الذي يعلوه، ثم حاول أن يمد ذراعيه، لكن جوانب الماسورة الباردة حالت دون ذلك، وبدأ يشعر بتسارع أنفاسه، وأنه سيُجَنُّ ما لم يخرجوا من الماسورة *بسرعة*.

ثم سمعوا صوت مارشا تهمس قائلة: «لماذا توقفنا؟».

وبعد أن شعر سايلاس أنه تجاوز ماكسي واستنتج أنهم توقفوا أمام كومة هائلة من القمامة وهي التي تسد الطريق، همس قائلًا: «هناك شيء يسد الطريق».

فهمهمت مارشا قائلة: «يا له من أمر مزعج!».

قال نكو لاهثًا: «أبي. أريد الخروج. أريد الخروج من هنا يا أبي».

فرد عليه سايلاس هامسًا: «أهذا أنت يا نكو؟ هل أنت بخير؟».

فقال: «لا ...».

وجاء صوت مارشا مقاطعًا بنبرة تعلوها نشوة الانتصار: «إنه باب الجرذان! فهذا الباب ينتهي بشبكة لمنع الجرذان من الدخول، لقد تم تركيبها بعد أن وجدت إندور جرذًا في طبقها. افتحه يا سايلاس».

رد: «لا أستطيع الوصول إليه؛ فالطريق إليه مليء بالقمامة».

قالت: «لو كنت ألقيت **تعويذة التنظيف** كما طلبت منك ما كنا سنجد هذه القمامة، أليس كذلك؟».

همس سايلاس قائلًا: «مارشا، عندما يجد المرء منا أنه على وشك الموت، فإن عملية التنظيف لا تدخل في أولوياته».

قال نكو بيأس: «أبي».

وقالت مارشا بحدة: «إذن، سوف أفعل ذلك بنفسي»، ثم طقطقت أصابعها وأخذت تتلو كلامًا بأنفاسها اللاهثة. وما لبثوا أن سمعوا صوتًا مكتومًا مع انفتاح باب الجرذان على مصراعيه، وصدر هفيف مع اندفاع القمامة – مجبرة – من الماسورة لتقذف نفسها وسط المقلب.

لقد تحرروا أخيرًا.

كان القمر بدرًا، ويرتفع عاليًا فوق النهر، مُسقطًا نوره الأبيض وسط ظلمة الماسورة؛ فأرشد المسافرين الستة الذين أعياهم الإرهاق وعلتهم الكدمات إلى المكان الذي كانوا يتوقون للوصول إليه؛ إلى مقلب القمامة الواقع بجانب ضفة النهر.

9

مقهى سالي مولن



كانت *تلك الليلة في مقهى سالي مولن* من ليالي الشتاء الهادئة المعتادة. وكان الجو يُسمع فيه طنين متواصل لثرثرة مجموعة من الزبائن، سواء المعتادون منهم أو المسافرون الذين كانوا يتشاركون في الجلوس حول موائد خشبية ضخمة، مجمعة حول موقد صغير مشتعل. كانت سالي قد انتهت لتوّها من جولة بين الموائد وهي تشارك خلالها زبائنها في إلقاء النكات والدعابات، وتقدم لهم بعض قطع كعك الشعير الطازج، وتعيد ملء مصابيح الزيت التي ظلت مشتعلة طوال فترة الظهيرة ليوم من أيام الشتاء. كانت سماؤه ملبدة

بالغيوم، ثم عادت الآن لتقف خلف المائدة الطويلة تسكب خمسة مكاييل من شراب الجعة المخصوص لبعض تجار الشمال الذين وصلوا منذ قليل.

وعندما عادت لتلقي نظرة على التجار، لاحظت - ولدهشتها - أن ملامحهم الانعزالية الحزينة المعتادة التي اشتُهر بها تجار الشمال قد استُبدلت بها ابتسامات عريضة؛ فعلا وجهها هي أيضًا ابتسامة؛ وهنأت نفسها بأنها تدير مقهى سعيدًا، وإذا كانت قد تمكنت من أن تجعل خمسة تجار بملامح قاسية يضحكون قبل حتى أن يتجرعوا أول قدح من شراب الجعة المخصوص - فهي بلا شك تؤدي عملها بالشكل اللائق.

جلبت سالي الجعة لمائدة التجار بجانب النافذة وصبتها بمهارة أمامهم دون أن تنسكب منها نقطة واحدة خارج الأقداح، لكن التجار لم يلتفتوا إلى الجعة؛ إذ كانوا مستغرقين في مسح البخار الذي يعلو الزجاج بأكمامهم المتسخة، ويحدقون من النافذة إلى الظلام، وأشار أحدهم إلى شيء بالخارج، فانفجروا جميعهم يقهقهون قهقهات خشنة، ترددت في أنحاء المقهى، فبدأ بعض الزبائن الآخرين يتوجهون إلى النافذة وينظرون منها، وسرعان ما كان جميع الزبائن يتدافعون حول صف النوافذ الطويل الممتد في الخلف.

نظرت سالي هي أيضًا لترى ما الشيء الذي نال كل هذا الاستحسان.

وسقط فكها من فرط اندهاشها؛ حيث رأت في نور القمر الساطع الساحرة العظمى، مارشا أوفرستراند، مغطاة بالقمامة وترقص كأنها امرأة مختلة عقليًا على قمة مقلب قمامة البلدية.

فقالت سالي في سرها: «لا. مستحيل».

وعادت تنظر مرة أخرى من النافذة الملطخة. إنها لا تصدق ما تراه. فمارشا أوفرستراند بالفعل هناك ومعها ثلاثة أطفال. *ثلاثة أطفال*؟ ما أغرب ذلك! فالجميع يعلمون أن مارشا أوفرستراند لا تحتمل الأطفال. وكان معهم أيضًا ذئب وشخص يبدو مألوفًا نوعًا ما لسالي. ترى، من هذا الشخص؟

نعم، إنه زوج سارة «عديم الفائدة» سايلاس هيب «مؤجل عمل اليوم إلى الغد».

ولكن، ما هذا الذي يمكن أن يجمع سايلاس هيب مع مارشا أوفرستراند؟ ومع ثلاثة من أبنائه؟ وعلى *مقلب القمامة*؟ هل سارة على علم بكل هذا؟

فإن كانت لا تعلم، فسرعان ما سيصلها خبر بكل ذلك.

وشعرت سالي، بصفتها صديقة حميمة لسارة، أن من واجبها أن تخرج وتستكشف الأمر. ومن ثم، أنابت عنها صبي التنظيف ليتولى هو مسئولية المقهى، وانطلقت للخارج تسير في نور القمر.

عبرت سالي الممر الخشبي وهو يتحرك مصدرًا صريرًا، وانطلقت جريًا وسط الثلوج لتصعد التل متجهة إلى المقلب. وبينما كانت تجري، جال بخاطرها استنتاج لا يمكن إغفاله في الأمر؛ *إن سايلاس هيب يهرب من بيته مع مارشا أوفرستراند*، وهو أمر يبدو منطقيًا جدًا، فسارة كثيرًا ما كانت تشتكي من هوس سايلاس بمارشا. فمنذ أن ترك سايلاس التدريب على يد ألثر ميلا وحلت مارشا مكانه، وهو لا يكف عن مراقبة

تقدمها المدهش بمزيج من الانزعاج والانبهار، متخيلًا نفسه دائمًا مكانها، كما أنه منذ أن أصبحت الساحرة العظمى منذ عشرة أعوام، ساءت حالة سايلاس، هذا إن لم تكن قد تدهورت تمامًا.

هذا هو ما قالته سارة- إن سايلاس مهووس بما تفعله مارشا.

ثم جال بخاطر سالي وهي مستغرقة في التفكير- وكانت قد وصلت الآن إلى أسفل كومة ضخمة من القمامة وتتحسس طريقها بمشقة- أن سارة بالطبع ليست هي أيضًا بهذه البراءة؛ فأي شخص يستطيع أن يلاحظ أن الفتاة الصغيرة لم تكن ابنة سايلاس؛ فالفتاة تبدو مختلفة تمامًا عن بقية أبنائه. وذات مرة، عندما حاولت أن تتطرق بكياسة للحديث عن والد جينا، غيرت سارة الموضوع بسرعة. نعم، بكل تأكيد هناك أمور تدور بين الزوجين منذ سنوات، ثم قالت في سرها بغضب وهي تصعد سطح المقلب بخطوات متعثرة إن هذا لا يبرر ما يفعله سايلاس الآن. لا يبرره على الإطلاق.

كانت الوجوه الموحلة قد بدأت تأخذ طريقها هابطةً متجهةً إلى طريق سالي. فلوحت لهم سالي بيدها، لكنهم على ما يبدو لم يلحظوها، وبدا عليهم أنهم منهمكون في أمر ما ويترنحون كمن أصيبوا بدوار. الآن وقد كانوا أكثر قربًا، أصبحت سالي متأكدة من أنها لم تخطئ في تحديد هويتهم.

وصاحت بغضب: «سايلاس هيب!».

ملأ الرعب قلوب الوجوه الخمسة وأخذوا يحدقون إلى سالي.

ثم همست أربعة أصوات تحاول أن توصل همسها لسالي: «صه!».

فقالت سالي بإصرار، وهي تشيح بسبابتها في وجه مارشا بامتعاض: «لا. لن *أسكت*. ما هذا الذي تفعله يا سايلاس؟ تترك زوجتك من أجل هذه المرأة *سيئة السمعة*؟!».

شهقت مارشا هاتفةً: «*سيئة السمعة*؟».

لكن سالي واصلت تأنيبها لسايلاس قائلة: «ولم يكفِكَ ذلك، فأخذت معك أيضًا هؤلاء الأطفال الأبرياء. كيف تجرؤ على فعل هذا؟».

كان سايلاس في تلك الأثناء يتقدم بمشقة وسط القمامة نحو سالي، ثم سألها مستفسرًا: «ماذا تقولين؟ وهل لك أن تهدئي قليلًا؟».

همست الأصوات الثلاثة من خلفه: «وأخيرًا هدأت سالي».

ثم همست بصوت أجش: «لا تفعل ذلك يا سايلاس. لا تترك زوجتك الرائعة وأبناءك. أرجوك».

بدا على سايلاس الذهول، وقال لها: «أنا لن أتركهم، من قال لكِ هذا؟».

«*لن تتركهم*؟».

«*لا، لن أتركهم*».

«*صه*!»

* * *

واستغرق من سايلاس معظم الطريق الطويل للنزول من المقلب ليشرح لسالي الأمر. وقد فغر فوها واتسعت عيناها وقت أن كان سايلاس

يحكي لها ما كان لا بد أن يحكيه؛ حتى يستطيع أن يكسبها في صفهم – مما كان يعني أنه حكى لها تقريبًا كل الموضوع – فقد أدرك سايلاس أنهم لا يحتاجون إلى صمت سالي فحسب، بل مساعدتها أيضًا. لكن مارشا من جانبها لم تكن واثقة تمامًا مما يفعله سايلاس، فسالي مولن ليست أول من ستُختار للمساعدة؛ لذا قررت أن تتدخل وتتحمل على عاتقها المسئولية.

وقالت بنبرة آمرة بعد أن كانوا قد وصلوا إلى أرض صلبة عند أسفل مقلب القمامة: «هذا صحيح، وأعتقد أنه من المتوقع في أي لحظة من الآن أن يكون الصياد وفرقته قد تم إرسالهم لتعقبنا والنَّيل منا».

بدا على وجه سايلاس لمحة خوف خاطفة؛ فالصياد كان غنيًّا عن التعريف.

أما مارشا فكانت عملية وهادئة، وتحدثت قائلة: «لقد ملأت من جديد الماسورة بالقمامة وسحرت باب الجرذان **بتعويذة الغلق المحكم والتحام السريع**، ولو حالفنا الحظ فسيعتقد أننا لا نزال محبوسين هناك».

وعلى ذكر موضوع الحبس الذي مروا به منذ قليل، ارتعد جسد نكو.

واستطردت مارشا قائلة: «لكن هذا لن يعطله كثيرًا، وبعد ذلك سوف يأتي ليبحث ويتقصَّى ويسأل، ونظرت مارشا إلى سالي كأنها تقول لها: *«سيسألك أنت»*.

خيم الصمت على الجميع، وردت سالي على عيني مارشا بنظرات ثابتة؛ فقد أدركت سالي مدى حجم التحدي الذي ستواجهه، وتعلم أنه سيتسبب لها في متاعب جمة؛ لكن سالي صديقة مخلصة، ولسوف

تواجه الموقف، ثم قالت فجأة: «تمام. لابد إذن أن نرسلكم جميعًا إلى مكان بعيد للغاية. أليس كذلك؟».

ثم أخذتهم سالي إلى الاستراحة التي تقع خلف المقهى، وهي استراحة يستطيع أن يجد فيها المسافرون المرهقون والمتعبون فراشًا دافئًا لليلة، وملابس نظيفة أيضًا إن كانوا في حاجة إليها. وهي في هذا الوقت من اليوم تكون خالية، أرشدتهم سالي إلى المكان الذي يُحتفظ فيه بالملابس، وقالت لهم ألا يترددوا في أن يأخذوا منها ما يشاءون؛ فالليلة طويلة وباردة. وبسرعة، ملأت لهم دلوًا بالماء الساخن حتى يغتسلوا ويزيلوا بقدر المستطاع أسوأ ما علق بهم من ماسورة القمامة، ثم خرجت مسرعة وهي تقول: «سوف أقابلكم عند رصيف المرسى بعد عشر دقائق. يُمكنكم استخدام مركبي».

جينا ونكو أسعدهما تمامًا أنهما سيتخلصان أخيرًا من ملابسهما المتسخة، بينما رفض الفتى 412 أي شيء من هذا القبيل؛ فقد تعرَّض لما يكفيه من تغيرات اليوم، وقرر أن يظل على حاله، حتى وإن كان ذلك يقتضي أن يظل مرتديًا «بيجامة» سحرة مبللة ومتسخة.

وفي نهاية المطاف، اضطرت مارشا أن تستخدم معه **تعويذة التنظيف**، تلتها **تعويذة تغيير الملابس**؛ كي تضعه في ملابس صيادين ثقيلة عبارة عن كنزة، وبنطلون، وسترة من جلد الغنم، بالإضافة إلى قبعة من النوع الذي ليس له حافة لونها أحمر زاهٍ وجدها له سايلاس.

كانت مارشا غاضبة؛ إذ إنها اضطرت أن تستخدم تعويذة لملابس الفتى 412؛ لرغبتها في ادخار طاقتها لوقت لاحق؛ فقد كان يخالجها

شعور مريب أنها قد تحتاج لكل طاقتها؛ حتى تتمكن من أن تصل بهم إلى بر الأمان. ولقد سبق لها منذ قليل أن استخدمت تعويذة **التنظيف الجاف في ثانية واحدة**، والتي نظرًا للحالة المقززة التي كانت عليها عباءتها تحولت إلى تعويذة **التنظيف على الجاف في دقيقة واحدة**، ورغم ذلك لم تتمكن من أن تتخلص من كل بقع صلصة اللحم. ففي رأي مارشا، ليست عباءة الساحرة العظمى مجرد عباءة كأي عباءة أخرى بل أداة سحرية لها نظام دقيق ويجب أن تُعامَل باحترام.

وبعد عشر دقائق، كان الجميع عند رصيف المرسى.

كانت سالي ومركبها الشراعي في انتظارهم، نظر نكو إلى المركب الأخضر الصغير باستحسان؛ فنكو يعشق المراكب، بل في حقيقة الأمر ليس هناك ما هو أحب إليه أكثر من أن يجد نفسه على متن مركب وسط الماء. وهذا المركب بدا له من المراكب الجيدة؛ فهو عريض وثابت، ويستقر على سطح الماء باتزان، وله شراعان أحمران جديدان، كما أن اسمه جميل «*موريل*»؛ لقد راق له كل هذا.

نظرت مارشا إلى القارب بريبة، ثم سألت سالي: «لكن، كيف يعمل هذا المركب؟».

فتدخل نكو قائلًا: «بالشراع، إنه يُبحر بالشراع».

فسألته مارشا بارتباك: «من هو الذي يُبحر؟».

فرد عليها نكو بصبر: «المركب هو الذي يُبحر».

وبدأت سالي تتوتر.

وقالت وهي تنظر إلى مقلب القمامة: «من الأفضل أن تسرعوا، لقد وضعت في المركب عدة مجاديف، لربما تحتاجون إليها، وبعض الأطعمة أيضًا. تقدموا من هنا. سوف أحل الحبل وأمسك به إلى أن يصعد الجميع على متنه».

كانت چينا أول من تسلقت المركب، وهي تجر وراءها الفتى 412 من ذراعه وتأخذه معها، ورغم أنه قاومها في بادئ الأمر فقد استسلم بعد أن أعياه الإرهاق تمامًا.

ثم قفز نكو وراءهما. أما مارشا، والتي بدت مترددة، فقد دفعها سايلاس من فوق الرصيف إلى المركب، وجلست حائرة بجانب ذراع الدفة وأخذت تستنشق الهواء.

ثم غمغمت قائلة: «ما هذه الرائحة البشعة؟».

فقال لها نكو: «إنها رائحة السمك»، متسائلًا في سره عما إذا كانت مارشا تعرف كيف تبحر بمركب.

وأخيرًا، قفز سايلاس على متن المركب ومعه ماكسي، وهبط مستوى *موريل* قليلًا في الماء.

قالت سالي بتوتر: «سوف أدفعكم في الماء الآن».

وألقت بالحبل إلى نكو الذي التقطه بمهارة ولفه بإحكام عند مقدمة المركب.

أما مارشا فاستعدت لقيادة المركب وأمسكت بقوة في ذراع الدفة، بينما كانت الأشرعة تضرب بعنف في الهواء، فانعطف *موريل* يسارًا بطريقة مزعجة.

فقال لها نكو عارضًا مساعدته: «هل أتولى عنك ذراع الدفة؟».

فردت: «تتولى ماذا؟ آه! فهمت. تقصد هذه الذراع؟ رائع يا نكو. أنا لا أريد أن أرهق نفسي»، ثم لفَّت عباءتها حول جسدها، وقامت بكل عزة نفسٍ تستطيع أن تحشدها داخلها، وانتقلت مترنحة إلى جانب المركب.

لم يسعد مارشا أن تجد نفسها على متن مركب، وكانت هذه هي أول مرة لها في هذا الوضع، وهي لا تنوي أن تعيد الكرَّة ما دام ممكنًا تجنب ذلك. فأولًا، ليس هناك مقاعد ولا سجاد ولا وسائد ولا حتى سقف، كما أن الماء لا يمتد على نحو مرعب خارج المركب في كل الاتجاهات فحسب بل طال المركب أيضًا بكمية لا بأس بها. فهل معنى ذلك أن المركب يغرق بهم الآن؟ هذا بخلاف الرائحة التي لا تطاق.

وعلى النقيض من ذلك، وجد ماكسي نفسه في غاية الحماس، وتمكن بشكل أو بآخر أن يطأ على حذاء مارشا الثمين ويهز ذيله في وجهها في نفس الوقت.

فقال له سايلاس: «ابتعد عن هنا أيها الكلب الأحمق»، ودفعه إلى مقدمة المركب؛ حيث يستطيع من هذا المكان أن يخرج أنفه الذئبي الطويل وسط الرياح ويستنشق كل الروائح المنبعثة من الماء، ثم حشر سايلاس نفسه بجوار مارشا التي أزعجها ذلك كثيرًا، بينما جلست چينا والفتى 412 متقوسيْن على الجانب الآخر من المركب.

أما نكو فوقف سعيدًا عند مؤخرة المركب، ممسكًا بذراع الدفة. وبثقة، بدأ يُبحر متوجهًا نحو امتداد النهر.

ثم سألهم: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

كانت مارشا لاتزال غير مستوعبة هذا الوضع المفاجئ الذي جعلها بهذا القرب من كل هذه الكمية الهائلة من الماء ولم ترد.

فرد عليه سايلاس وقد سبق له أن ناقش هذا الموضوع مع سارة بعد أن تركتهم چينا: «إلى العمة زيلدا. سوف نذهب إليها ونبقى معها».

ضربت الرياح أشرعة موربيل، ودفعت المركب بسرعة مذهلة، وهي توجهه نحو التيار السريع بوسط النهر. أغمضت مارشا عينيها وبدأت تشعر بالإعياء، وتساءلت في سرها عما إذا كان من الطبيعي أن يميل المركب على جانبه كل هذا الميل أم لا.

ثم سألت سايلاس بوهنٍ: «أهي الحارسة الساكنة في مستنقعات مرام؟».

رد سايلاس قائلًا: «نعم، وسوف نكون في مأمن هناك. لقد سحرت مزرعتها بشكل دائم، بعد الغارة التي شنتها الشتاء الماضي الجنيات الصغيرة السمراء التي تعيش في أرض المستنقع المتحرك. لن يستطيع أحد أبدًا أن يعثر علينا هناك».

قالت مارشا: «رائع. هيا بنا إذن إلى العمة زيلدا».

بدا الاندهاش على وجه سايلاس؛ فمارشا، على غير عادتها، وافقته الرأي دون جدال، ثم ابتسم في سره؛ فقد بات الجميع الآن على متن مركب واحد.

وهكذا اختفى المركب الأخضر الصغير وسط ظلمة الليل، وأصبحت سالي وجهًا بعيدًا يقف عند ضفة النهر يلوح لهم بكل شجاعة، ثم اختفى

موريبل عن أنظار سالي تمامًا، ووقفت على رصيف المرسى تنصت للماء تتلاطم أمواجه مع الأحجار الباردة، ثم شعرت فجأة أنها بمفردها تمامًا، فالتفتت وبدأت تأخذ طريق العودة وسارت على امتداد ضفة النهر المغطاة بالثلوج، ينير طريقها الضوء الخافت الصادر عن نوافذ مقهاها، والذي تراه على مرمى بصرها. كان هناك عدد قليل من زبائنها ينظرون من النوافذ في ظلام الليل بينما كانت سالي تُسرع من خطاها لتعود إلى دفء وثرثرة المقهى، لكن لا يبدو أنهم لاحظوا هيئتها الصغيرة وهي تسير وسط الثلوج ثم تمر على الممر الخشبي الصغير ومنه إلى العوامة.

وبعد أن دفعت سالي باب المقهى وتسللت إلى دفء ثرثرته، لاحظ زبائنها الأكثر ترددًا على مقهاها أنها لم تكن في حالتها المعتادة، وقد كانوا محقين في ذلك؛ فسالي فعلًا على غير عادتها؛ فقد كان بالها منشغلًا في أمر واحد فقط؛ ألا وهو: ترى، كم سيستغرق انتظارها حتى يصل الصياد؟

IO

الصياد



ثماني دقائق وعشرون ثانية *تحديدًا*؛ هذا هو الوقت الذي استغرقه الصياد وفرقته حتى يصلوا إلى مقلب قمامة البلدية الواقع بجانب ضفة النهر، منذ أن وقفت سالي تلوح مودعة المركب *موريبل* من على رصيف المرسى، كانت كل ثانية من هذه الثواني الخمسمائة تمر على سالي كأنها دهر. ومع كل لحظة منها يتزايد الرعب والذعر داخلها. ما هذا الذي *أقدمت* عليه؟

ورغم أنها لم تنبس ببنت شفة عندما عادت إلى المقهى، فإن شيئًا ما في تصرفاتها جعل أغلب زبائنها يتجرعون بسرعة مشروب الربيع، ويبتلعون آخر قضمة من كعك الشعير وينصرفون مختفين وسط ظلام

الليل الدامس. وكان من تبقى منهم هم تجار الشمال الخمسة الذين كانوا يتجرعون القدح الثاني من مشروب الربيع المخصوص، ويتحدثون فيما بينهم بنبرتهم المنغمة الحزينة، حتى إن صبي التنظيف اختفى.

وأثناء تلك الدقائق المعدودة، شعرت سالي بجفاف في حلقها، ورعشة في يديها، وقاومت رغبتها في الهرب، وأخذت تقول في سرها: اهدئي، اهدئي يا فتاة. تجلّدي. انكري كل شيء. فليس لدى الصياد أي مبرر أو دليل يجعله يشك فيكِ. لكن لو فررتِ الآن فسيعلم أنك متورطة في الأمر وسيجدك كما يفعل دائمًا. فما عليك إلا أن تتمالكي نفسك وتحتفظي بهدوء أعصابكِ.

كان عقرب الثواني في ساعة الحائط الكبيرة المعلقة بالمقهى يدق ويدق.

تك. تك. تك.

أربعمائة وثمانٍ وتسعون ثانية. أربعمائة وتسع وتسعون ثانية. خمسمائة ثانية.

وهنالك اجتاحت قمة مقلب القمامة أشعة ضوء قوية تصدر عن كشاف ضوئي.

هبت سالي مسرعة نحو النافذة ونظرت منها، وقلبها يخفق بشدة، واستطاعت أن ترى حشدًا من الأجسام غير واضحة الملامح تحوم حول المكان وقد رسم ظلها ضوء الكشاف. لقد جاء الصياد وجلب معه فرقته، تمامًا كما حذرتها مارشا.

أخذت سالي تحدق بإمعان محاولةً أن تتبين ماذا يفعلون، كانت فرقته محتشدة لدى باب الجرذان الذي سدته مارشا تمامًا **بتعويذة الغلق المحكم والتحام السريع**، ومما هدأ من روع سالي أنه لم يبدُ على أفراد الفرقة أنهم متعجلون من أمرهم، بل في واقع الأمر بدا لها وكأنهم يضحكون فيما بينهم، ثم بدأ صياح خافت يتسرب إلى المقهى، حاولت سالي أن تسمع، وقد جعلها ما سمعته ترتجف من الرعب.

«.. يا حثالة الساحرات».

«جرذان حبيسة عند باب الجرذان»..

«لا تذهبي بعيدًا، ها ها. نحن قادمون لننال منك»..

أخذت سالي تراقب الموقف من النافذة، ورأت الوجوه المحتشدة لدى باب الجرذان يتزايد اهتياجها مع صمود الباب بقوة أمام كل محاولاتهم لفتحه، ثم رأت وجهًا يقف بعيدًا عن الفرقة يراقب الأمر بنفاد صبر، أيقنت على الفور أنه الصياد.

وفجأة، نفد صبر الصياد تمامًا من كمّ المحاولات الفاشلة لفتح باب الجرذان، وتقدم نحو الفرقة بخطوات واسعة، ثم خطف فأسًا من أحد الرجال. وبغضب، أخذ يضرب بها الباب، بينما صوت الرنين المعدني يُسمع صداه في المقهى. إلى أن خُلع الباب المشوه في نهاية المطاف فنحّاه جانبًا، ثم أرسل أحد الرجال داخل الماسورة ليُخرج منها القمامة. والآن، أصبح ضوء الكشاف موجهًا مباشرة داخل الماسورة، بينما احتشدت الفرقة حول مخرجها. رأت سالي لمعان بنادقهم وسط الأضواء

الساطعة التي يحملونها معهم، وأخذت - والخوف يهز قلبها - تنتظر اكتشافهم هروب فريستهم.

لم يستغرق الأمر طويلًا.

وظهر وجه في حالة مزرية من داخل الماسورة أمسكه الصياد بقوة، وبدا الصياد لسالي في حالة من الغضب الشديد، فلقد راح يهز ويرج الرجل بعنف ونحّاه جانبًا على الأرض، فتدحرج الرجل على منحدر مقلب القمامة. انحنى الصياد للأمام وأخذ يتفحص ماسورة القمامة غيرَ مصدقٍ أنها خالية، ثم فجأة أشار إلى أصغر رجال فرقته حجمًا؛ ليدخل الماسورة، لكنْ هذا الرجل الذي وقع عليه الاختيار وقف في مكانه مترددًا، لكنه أُجبر على دخول الماسورة، وتُرك اثنانِ من فرقة الحراس ومع كل منهما بندقيته لدى المدخل.

سار الصياد ببطء إلى حافة مقلب القمامة ليستعيد هدوء أعصابه بعد أن اكتشف أن فريسته خدعته، تبعه على بُعد خطوات آمنة منه فتى صغير السن كان يرتدي الزي الأخضر التقليدي الذي يرتديه تلامذة السحرة. لكن، خلافًا للتلامذة الآخرين، كان يرتدي حول خصره وشاحًا أحمر مزينًا بثلاث نجمات سوداء؛ نجمات دومدانيال.

لكن الصياد في تلك اللحظة لم يكن منتبهًا إلى وجود تلميذ دومدانيال، وكان واقفًا هادئ الأعصاب، وهو رجل قصير القامة، قوي البنية، بقصة الشعر القصيرة الخاصة بالحراس، وكانت بشرته مكسوة باللون البني نتيجة قضائه سنوات طويلة في الهواء الطلق يطارد فرائسه من البشر ويقتفي آثارهم حتى ينال منهم، وكان يرتدي الزي الفاخر الذي

يرتديه الصيادون عادة، المكون من سترة قصيرة لونها أخضر داكن وعباءة قصيرة مع حذاء طويل بني، وحول خصره حزام جلدي عريض معلق به سكين حادة وجراب من الجلد.

ابتسم الصياد ابتسامة مثيرة للاشمئزاز، وسقطت أطراف الخط الرفيع الصارم الذي يرسم فمه، وضاقت عيناه الزرقاوان الباهتتان وتحولتا إلى شق طولي ينمُّ عن اليقظة، إن مهمته تحولت إذن إلى مهمة صيد. عظيم. فليس هناك شيء أحب إلى نفسه من مهام الصيد. ولقد قضى الرجل سنوات طويلة يترقى فيها خطوة بخطوة، ووصل أخيرًا إلى هدفه وأصبح صيادًا؛ وهي أفضل رتبة يمكن أن يصل إليها في فرقة الصيادين. وقد حانت اللحظة التي ينتظرها؛ فها هو الآن في مهمة صيد ليس فقط للنَّيل من الساحرة العظمى، بل من الأميرة أيضًا؛ *الملكة الصغيرة نفسها*.

خالج الصياد شعور بالإثارة والحماس وهو يتخيل ليلة لن ينساها أبدًا بعد اليوم؛ ليلة لمح الفريستين. وتعقب أثرهما. ومطاردتهما. والاقتراب منهما. ثم قتلهما. واتسعت ابتسامته حتى أظهرت أسنانه الصغيرة المدببة في نور قمر تلك الليلة الباردة وهو يقول في سره: لا داعي للانزعاج، ليست هناك مشكلة.

وعاد يفكر في مهمة الصيد، وحدثه شيء بداخله أن الطيور هربت من ماسورة القمامة، لكن باعتباره صيادًا كفئًا، فقد كان عليه أن يتأكد أولًا من أنه طرق جميع الاحتمالات، والحارس الذي أرسله داخل الماسورة تلقى أوامر بتتبع مسار الماسورة وفحص جميع مخارجها وصولًا إلى برج السحرة. وحقيقة أن هذه المهمة على الأرجح مستحيلة - لم تُزعج

الصياد؛ فالحارس في فرقته فرد من الطبقات الدنيا، إنه عبد مطيع للأوامر، يقوم بواجبه أو يموت في سبيله.

والصياد نفسه كان يومًا عبدًا مطيعًا للأوامر، لكنه لم يستمر في هذا الوضع طويلًا؛ فقد اجتهد كي يضمن خروجه منه، ثم قال في سره وقد اعترته رجفة حماس إنه لا بد الآن أن يعثر على أي أثر لهم.

لكن مقلب القمامة لم يوفر له إلا مفاتيح قليلة، حتى بالنسبة لمتعقب ماهر في مثل مهارته؛ فسخونة القمامة المتعفنة أذابت الثلوج، والجرذان وطيور النورس التي لا تكف عن العبث بالقمامة أزالت هي أيضًا أي أثر يمكن تعقبه. ومع غياب الأثر، تعين عليه أن يبحث عن دليل.

وقف الصياد على موقع استراتيجي أعلى قمة مقلب القمامة وبعينين ضيقتين مسح المشهد الممتد حوله الذي يكشفه نور القمر. وارتفعت خلفه أسوار القلعة المتحدرة داكنة اللون، وقد رسمت حوافها خطًا مجعدًا في سماء باردة ترصعها نجوم لامعة. وامتد أمامه المنظر العام للحقول الخصبة التي تحيط ضفة النهر البعيدة. وبعيدًا عند الأفق أخذته عيناه إلى أشجار الصنوبر المدببة عند الجبال التي تحيط بالمنطقة. أخذ الصياد يتفحص - بنظرة متعمقة متأنية- المنظر العام المغطى بالثلوج، لكنه لم يرَ شيئًا يثير الانتباه، ثم حوَّل بصره إلى المشهد الأقرب أسفل منه، ونظر، على امتداد النهر العريض، متابعًا تدفق المياه وهي تلف عند انعطاف النهر وتتدفق يمينًا برفق، مرورًا بالمقهى الذي يعلو العوامة التي تطفو بخفة على أمواج المد المرتفعة ومرورًا أيضًا برصيف المرسى الصغير بمراكبه التي ترسو عنده لليلة، ثم تابعت نظراته امتداد النهر

العريض إلى أن توارى النهر عن الأنظار خلف صخرة راڤن؛ وهي كتلة صخرية مموجة الحافة ترتفع عاليًا فوق النهر.

راح الصياد ينصت بإمعان باحثًا عن أصوات صادرة من جهة الماء، لكنه لم يسمع سوى سكون الثلوج الممتدة لمسافات بعيدة، ثم أخذ يتفحص الماء بدقة يفتش عن أية مفاتيح؛ فقد يلمح ظلًا أسفل ضفة النهر، أو طيرًا رُوع فجأة، أو صوت موج يشي بصاحبه، لكنه *لم يرَ شيئًا*.

كان كل شيء هادئًا وساكنًا بشكل غريب، والنهر المظلم يسري بهدوء وسط المشهد العام المغطى بالثلوج، ينيره البدر الذي يشع بريقًا، ثم قال الصياد في سره إن هذه الليلة أنسب ليلة للصيد.

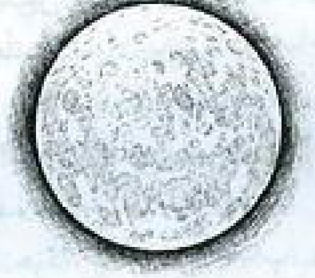
وقف الصياد بلا حركة، مشدود الأعصاب، ينتظر أن تظهر فريسته بأنفسهما.

وأخذ يراقب وينتظر.

ثم لمحت عيناه شيئًا؛ وجهًا شاحبًا ينظر من خلف نافذة المقهى؛ وجهًا مذعورًا؛ وجهًا *يعرف شيئًا*. علت البسمة وجه الصياد؛ لقد وصل إلى مرحلة لمح الأثر، وعاود من جديد مرحلة التعقب.

II

تعقُّب الأثر



رأتهم *سالي قادمين*، فقفزت للوراء مبتعدة عن النافذة، وعدلت ملابسها وركزت تفكيرها، ثم قالت في سرها: هيا يا فتاة، واجهي الموقف، أنتِ قادرة على ذلك، فما عليك سوى أن تتقمصي وجه صاحبة المكان المرحب بالزوار، وبذلك لن يشكُّوا في أي شيء، ثم ذهبت لتقف خلف طاولة المشروبات تحتمي بها، وقامت لأول مرة في حياتها أثناء ساعات العمل بصب قدح من مشروب الربيع المخصوص، وارتشفت منه رشفةً كبيرة.

هزت رأسها بانزعاج شديد؛ إنها لم تستسغ يومًا مذاقه؛ فالجرذان النافقة كثيرة في قاع البرميل، وهو طعم لا يروق لها.

وبينما كانت سالي ترتشف رشفةً أخرى من هذه الجرذان النافقة، اعترض المقهى أشعة ضوء قوية من الخارج صادرة عن كشاف ضوئي وأخذت تتنقل بسرعة بين زبائن المقهى.

وسرعان ما تسلط ضوء الكشاف مباشرة على عيني سالي، ثم واصل تحركه وهو يضيء وجوه تجار الشمال الشاحبة. سكت التجار عن الكلام وتبادلوا نظرات قلقة.

بعد لحظات، سمعت سالي صوتًا متحشرجًا متثاقلًا مكتومًا لوقْع خطوات مسرعة تسير على الممر الخشبي، وراحت العوامة تتأرجح أثناء تقدم الفرقة جريًا عليها. واهتز المقهى، وأخذت الأطباق والأكواب تتخبط في بعضها وهي تصلصل. وضعت سالي القدح بعيدًا، ووقفت معتدلة، وبصعوبة شديدة رسمت على وجهها ابتسامة ترحاب.

اندفع الباب بشدة مفتوحًا على مصراعيه.

ودخل الصياد بخطوات واسعة، وعلى ضوء الكشاف رأت سالي فرقته خلفه وهم مصطفون بطول العوامة، رافعين مسدساتهم وفي وضع الاستعداد.

قالت سالي بصوت مرتجف: «مساء الخير يا سيدي. ماذا أجلب لك؟».

سمع الصياد نبرة الارتجاف في صوتها برضا؛ إذ يروق له رؤية خوف الناس منه!

تقدم ببطء إلى طاولة المشروبات، ثم انحنى للأمام مستندًا إليها، وأخذ يُحملق في سالي بتركيز.

قال: «يمكنك أن تقدمي لي بعض المعلومات، وأنا على يقين بأن لديك معلومات».

فردت سالي محاولةً أن تجعل نبرة صوتها مهتمة بشكل مهذب: «حقًّا؟»، لكن الصياد سمع شيئًا آخر في هذا الصوت؛ سمع الخوف واللعب على عنصر الوقت.

فقال في سره: عظيم، هذه المرأة تعرف شيئًا.

ثم قال لها وعيناه تراقبان وجهها بكل دقة: «أنا أتعقب جماعة صغيرة وخطيرة من الإرهابيين»، بذلت سالي قصارى جهدها كي تحتفظ بالوجه المرحب لصاحبة المقهى. لكن للحظة لم تزد على الثانية الواحدة فشلت في الاحتفاظ بهذا الوجه، وتسربت أوجز التعبيرات من خلال قسمات وجهها ألا وهي الدهشة.

فقال: «فوجئت بسماع أصدقائك يوصفون بالإرهابيين. أليس كذلك؟».

ردت سالي في التوِّ: «بلى»، لكن بعد أن أدركت معنى ردها، تمتمت قائلة: «أنا... أنا لا أقصد ذلك. أنا...».

وانهارت سالي؛ لقد وقع ما كانت تخشاه. لكن، كيف حدث ذلك بهذه السهولة؟ إنها عيناه. هاتان العينان الضيقتان البراقتان بشقيهما الطويلين، كأنهما كشافان يسلطان بضوءيهما على ذهنك. ما أحمقها عندما ظنت أنها ستستطيع أن تنتصر على الصياد! ظل قلبها يخفق بشدة حتى إنها كانت متأكدة من أن الصياد يسمع ضرباته، وهو أمر ليس صعبًا عليه؛ فهو أحد أحب الأصوات إليه: صوت دقات قلب فريسة لا مفر

أمامها. فأخذ يمعن في الإنصات لإطالة هذه اللحظات الممتعة بالنسبة له، ثم قال: «سوف تخبريننا بمكانهم».

فغمغمت قائلة: «لا».

بدا الصياد غير منزعج بحركة التمرد الصغيرة هذه، وقال لها بمنتهى الثقة: «بل ستقولين».

وانحنى مستندًا إلى طاولة المشروبات.

وقال: «المكان جميلٌ هنا يا سالي، جميل جدًّا، مبنيٌّ بالأخشاب، أليس كذلك؟ أنت هنا منذ فترة إذا لم تخني ذاكرتي. والخشب بات جافًّا ومتينًا بعد كل هذا الوقت؛ أي أنه سريع الاشتعال، حسبما قيل لي».

فهمست سالي قائلة: «لا...».

قال: «إذن، اسمعيني جيدًا، كل ما عليكِ هو أن تقولي لنا أين ذهب أصدقاؤكِ، وأنا سوف أنسى علبة الكبريت».

لكن سالي لم تنطق بكلمة، انطلق عقلها يعمل بسرعة، لكن أفكارها بدت لها غير منطقية. فكل ما كان في وسعها أن تفكر فيه أنها لم تُعِد قطُّ ملء دلاء الحريق منذ أن أشعل صبي التنظيف النار في المناشف الصغيرة.

قال الصياد: «كما تشائين. سوف أذهب الآن وأجعل الفتيان يبدءون في إشعال النار، وسوف أغلق الأبواب ورائي بإحكام تام بعد أن أذهب؛ فنحن لا نريد أن يخرج أحد جريًا من المكان ويُصاب، أليس كذلك؟».

فقالت سالي لاهثة: «لن تستطيع»، رغم أنها تدرك أن الصياد لم يكن بصدد أن يحرق مقهاها العزيز فقط، بل ينوي أن يهدمه على رأسها هي أيضًا، هذا عدا تجار الشمال الخمسة، ثم ألقت نظرة عليهم فرأتهم يهمهمون بانزعاج فيما بينهم.

أما الصياد فقد قال كل ما لديه، والأمور تسير على نحو قريب مما كان متوقعًا. وحان الوقت الآن لأن يُظهر أنه جاد في كلامه، فاستدار بحزم وتوجه نحو الباب.

تابعته سالي بنظراتها، وفجأة تملكها الغضب وقالت في سرها: كيف يجرؤ هذا الرجل على الحضور إلى مقهاي ويرهب زبائني، ثم يخرج متباهيًا بنفسه وهو يهدد بحرقنا وتحويلنا إلى رماد؟ إن هذا الرجل يستأسد على من هم أضعف منه، وهي لا تحب هذا الصنف من الناس.

فانطلقت بتهور كعادتها من خلف طاولة المشروبات، ثم صاحت: «انتظر!».

ابتسم الصياد؛ لقد نجحت خطته، وهي دائمًا تنجح. ابتعد واتركهم يفكرون لوهلة، تجدهم دائمًا يعودون إليك. فتوقف، لكنه لم يلتفت وراءه.

وإذا بحذاء سالي الطويل المتين يباغت الصياد بركلة قوية في ساقه، ثم صاحت قائلة: «متغطرس».

شهق الصياد، وقال وهو ممسك بساقه بقوة: «مجنونة. سوف تندمين على ذلك يا سالي مولن».

ثم ظهر حارس عالي المقام من فرقته يتحرى الأمر قائلًا: «هل هناك مشاكل يا سيدي؟».

لكن الصياد لم يسره أن يراه أحد وهو يقفز على قدم واحدة بهذا الشكل المهين، فرد بصوت كالرعد: «لا، لا شيء، هذا جزء من الخطة».

قال الرجل: «لقد جمع الرجال الأخشاب يا سيدي، ووضعوها أسفل المقهى كما أمرت، والأخشاب جافة والأحجار تُطلق الشرر بشكل جيد يا سيدي».

رد الصياد بنبرة قاسية وشرسة: «رائع».

ثم صدر صوت ذو لكنة ثقيلة من ورائه وقال: «بعد إذنك يا سيدي»؛ كان أحد تجار الشمال قد ترك مائدتهم وتوجه نحو الصياد.

رد عليه الصياد وهو يصر على أسنانه، مستديرًا على ساق واحدة لمواجهته: «نعم؟». كان التاجر يقف على نحو أخرق، ويرتدي السترة الحمراء الداكنة المميزة لـ «الرابطة الهانزية»، والتي كانت بالية وتعلوها البقع من أثر رحلته، وكان شعره الأشقر أشعث ويثبته على وضعه زنار مشحم مصنوع من الجلد ملفوف حول جبهته، وبدا وجهه في وهج ضوء الكشاف أبيض مائلًا إلى الاصفرار.

واصل التاجر قائلًا: «أعتقد أن لدينا المعلومات التي تطلبها؟»، كان صوته يبحث عن الكلمات المناسبة بلغة غير مألوفة، وترتفع نبرته وهو يتكلم كأنه يطرح سؤالًا.

رد الصياد، وقد زال عنه ألم ساقه بعد أن وجد نفسه أخيرًا قد وصل إلى مرحلة تعقب الأثر: «هل لديك الآن؟».

حدقت سالي إلى التاجر بفزع؛ كيف تسنى له معرفة ذلك؟ ثم أدركت أنه لا بد أنه رآهم من النافذة.

كان التاجر يتحاشى نظرات سالي التي ترشقه بالاتهام، وبدا منزعجًا، لكن من الواضح أنه فهم ما يكفي من نبرة صوت الصياد حتى يتملكه الخوف والذعر هو أيضًا.

ثم قال التاجر بهدوء: «أعتقد أن من تبحث عنهم قد غادروا في مركب».

قال الصياد بحدة، بعد أن دبت الحياة في مهمته الآن: «مركب؟ أي مركب؟».

«نحن لا نعرف مراكبكم هنا، لكن المركب الذي أتحدث عنه صغير، بأشرعة حمراء، على متنه أسرة وذئب».

رد الصياد: «ذئب. نعم، نعم، تقصد ذلك الكلب المهجن»، ثم اقترب من التاجر وهو يتحرك بصعوبة وسأله بصوت خفيض تشوبه نبرة تهديد: «في أي اتجاه؟ في اتجاه مجرى النهر أم عكسه؟ إلى الجبال أم إلى الميناء؟ تذكّر جيدًا يا صديقي إذا كنت ترغب أنت وزملاؤك أن تجنبوا أنفسكم النيران».

غمغم الرجل قائلًا، وهو منزعج من أنفاس الصياد الساخنة: «في اتجاه مجرى النهر، إلى الميناء».

قال الصياد برضا: «تمام. أعتقد أنه من الأفضل الآن أن تترك أنت وأصدقاؤك المكان قبل فوات الأوان».

قام التجار الأربعة الآخرون في صمت مطبق وتوجهوا نحو خامسهم. ولشعورهم بتأنيب الضمير تجنبوا نظرات عيني سالي. وبسرعة، انسحبوا من المقهى وخرجوا إلى ظلام الليل، تاركين إياها تواجه قدرها وحدها.

انحنى لها الصياد انحناءة سريعة ساخرة، ثم قال لها: «تصبحين على خير أنت أيضًا يا سيدتي. أشكرك على حسن ضيافتك»، وانطلق خارج المقهى وصفَق الباب وراءه، ثم صاح بغضب: «أوصدوا الباب بالمسامير، وكذلك النوافذ. لا تدعوها تهرب!».

وانطلق بخطوات واسعة على الممر الخشبي، ثم قال آمرًا العدّاء الذي كان منتظرًا عند آخر الممر: «أحضر لي حالًا مركبًا صاروخيًّا مختصًّا بالملاحقة عند رصيف المرسى».

وصل الصياد إلى ضفة النهر، ثم التفت ليلقي نظرة على مقهى سالي مولن المحاصر، ورغم أنه كان يود بشدة أن يرى بأم عينيه اندلاع أول شرارة نار قبل أن يرحل، فقد واصل السير؛ لحاجته أن يصل إلى الخيط الذي يتعقبه قبل أن يحل البرد، ثم علت وجهه ابتسامة رضا وهو يُسرع الخطى إلى رصيف المرسى في انتظار وصول المركب الصاروخي.

ليس هناك من حاول أن يهزأ به واستطاع الإفلات منه.

كان التلميذ يسير مهرولًا وراء الصياد المبتسم، ورغم شعوره بغضب لأنه تُرك خارج المقهى في هذا الطقس البارد - فقد كان في غاية الحماس والإثارة ولف عباءته الثقيلة حول جسده وعقد ذراعيه على

صدره ينتظر بفارغ الصبر، ثم برقت عيناه السوداوان، وعلا وجنتيه الشاحبتين وهج رغم برودة الجو؛ فالأمور بدأت تأخذ منحى المغامرة الكبرى كما قال له سيده من قبل. إنها بداية عودة سيده. ولقد أسهم هو ذاته في كل ذلك، فبدونه ما كان سيتحقق شيء؛ فهو الذي يستشيره الصياد، وهو من يراقب الصيد، وهو الذي ينقذ المواقف بقواه السحرية.

ثم داخلته ريبة خاطفة وهو يفكر في مسألة قواه السحرية، لكنه طردها على الفور. ومن فرط شعوره بأهميته ودَّ لو أن يصرخ، أو يقفز هنا وهناك، أو أن يضرب أحدًا. لكنه لا يستطيع؛ فهو لا يفعل إلا ما يُمليه عليه سيده، ويتبع خطى الصياد بدقة وفي صمت، لكن هذا لا يمنع من أنه قد يضرب الملكة الصغيرة عندما يقبض عليها. وسوف ترى حينها.

ثم باغته الصياد بنبرة حادة قائلًا له: «كفاك أحلام يقظة واصعد إلى متن المركب. اصعد في المؤخرة، بعيدًا عن الطريق».

نفذ التلميذ الأوامر؛ فهو يخاف من الصياد رغم أنه يرفض الاعتراف بذلك. ومن ثم، صعد بحرص إلى مؤخرة المركب، وتقوقع في حيز صغير أمام أقدام الملاحين.

نظر الصياد إلى المركب الصاروخي باستحسان، كان المركب طويلًا وضيقًا، أملس، أسود كسواد الليل، ومصقولًا بطبقة من الورنيش تجعله يجري منسابًا على سطح الماء انسياب الزحاليق على الجليد، ولأنه مزود بعشرة ملاحين مدربين، فكانت سرعته لا تعادلها سرعة.

وكان المركب يحمل عند مقدمته كشافًا ضوئيًا يشع ضوءًا قويًا، وحاملًا بثلاث قوائم يُمكن رفع المسدس عليه. صعد الصياد عند مقدمة

المركب بحرص، وجلس على اللوح الخشبي الضيق خلف الحامل ذي القوائم الثلاثة. وبسرعة ومهارة، جهز المسدس الفضي الخاص بالسفاحة، ثم أخرج طلقة فضية من الجراب، وتفحصها عن قرب؛ حتى يتأكد من أنها الطلقة التي يريدها، ووضعها على صينية صغيرة بجانب المسدس في وضع استعداد. وأخيرًا، أخذ خمس طلقات عادية من صندوق الطلقات الموجود بالمركب، ورصَّها في صف بجانب الطلقة الفضية. وهكذا، بات على أهبة الاستعداد.

ثم هتف: «انطلق!».

فاندفع المركب الصاروخي بانسياب وبلا صوت مغادرًا رصيف المرسى، ووجد طريق التيار السريع وسط النهر، ثم اختفى في ظلام الليل.

لكن ليس قبل أن يلتفت الصياد وراءه ويرى المشهد الذي كان ينتظره؛ مشهد كتلة من اللهب وهي تتلوى وترتفع لأعلى وسط ظلمة الليل؛ فمقهى سالي مولن نشبت به النار.

12

مـوريـــل



على *بُعد عدة أميال في اتجاه مجرى النهر*، *كان المركب الشراعي مورييل* يبحر في اتجاه الريح، وكان نكو سعيدًا بالجو المحيط به، ووقف عند ذراع دفة المركب الصغير المكتظ بالركاب، وأخذ يوجهها بمهارة في المسار المتعرج الذي يتوسط النهر، حيث يتدفق الماء بسرعة وعمق. كانت حركة المد قوية وتجرفهم معها، بينما اشتدت الرياح بدرجة جعلت مياه النهر تتقلب وتدفع *مورييل* متأرجحًا على الأمواج.

كان البدر يتوسط السماء مسقطًا نورًا فضيًا لامعًا على سطح الماء، يكشف لهم الطريق. ازداد عرض النهر مع تعمقهم في اتجاه البحر، وبدأ ركاب المركب يلاحظون وهم ينظرون من على متنه أن ضفاف النهر

المنخفضة بالأشجار التي تعلوها والأكواخ التي تظهر منفردة كل حين، تبعد أكثر فأكثر، خيم الصمت على المسافرين وقد بدأ يزعجهم ضآلة حجمهم وسط هذا المسطح الشاسع من المياه، وبدأت مارشا تشعر بإعياء شديد.

جلست جينا على ظهر المركب الخشبي، مستندة إلى جانبه لتمسك الحبل لنكو، وكان الحبل مربوطًا بشراع مثلث صغير عند مقدمة المركب، وتجذبه الرياح وتشده بقوة، وظلت جينا منهمكة تحاول ألا تترك الحبل من يدها. ورغم أن أصابعها بدأت تتصلب وتتخدر، فإنها لم تجرؤ أن تتركه. وقالت في سرها إن نكو يتحول بالفعل إلى شخص مسيطر عندما يكون مسئولاً عن أي مركب.

كانت الرياح باردة، وحتى مع سترة المطر الثقيلة، والسترة المصنوعة من جلد الغنم والقبعة الصوفية الخشنة التي وجدها سايلاس لجينا في دولاب ملابس سالي – ظلت جينا ترتعد من شدة البرد.

أما الفتى 412 فكان مكورًا إلى جوار جينا، فمنذ أن جذبته جينا إلى المركب، قرر في سره أنه ما عاد هناك شيء في وسعه أن يفعله، فاستسلم وكفَّ عن مقاومة هؤلاء السحرة وهذين الطفلين غريبي الأطوار. ومنذ أن انعطف *مورييل* عند صخرة راقن وأصبحت القلعة غير مرئية بالنسبة له، اكتفى بالتكور حول نفسه إلى جوار جينا والاستغراق في النوم. أما الآن وقد تعمق *مورييل* في الماء الذي بات أكثر عنفًا، أخذ رأس الفتى 412 يتخبط في الصاري مع حركة المركب، فحركته جينا برفق ووضعت رأسه

على «حجرها»، ونظرت في وجهه النحيل الذي لا يكاد يُرى منه شيء تحت قبعته الوبرية، ورأت أن الفتى يبدو أكثر سعادة وهو نائم، ثم تحول تفكيرها إلى سالي.

فچينا أحبت سالي؛ أحبت طريقتها في الكلام بلا توقف؛ وأحبت طريقتها في تحريك الأمور. وعندما كانت تأتي لزيارتهم، كانت تجلب معها كل الحكايات المثيرة التي تدور في القلعة، وچينا تعشق هذا.

كانت تفكر وهي تنصت إلى صرير *موربيل* المنتظم، وهفيفه الرقيق الثابت مع الانطلاق وسط الماء القاتمة المتلألئة في نور القمر، ثم قالت في هدوء: «أتمنى أن تكون سالي بخير».

فردَّ سايلاس الذي كان مستغرقًا في التفكير: «وأنا أيضًا يا حبيبتي».

فسايلاس هو أيضًا، منذ توارت القلعة عن الأنظار، أصبح لديه متسع من الوقت وبدأ يفكر. وبعد أن فكر في سارة والأبناء، متمنيًا أن يكونوا قد وصلوا إلى بيت الأشجار عند چيلين في الغابة بأمان، تحولت أفكاره إلى سالي، وكانت هذه الأفكار مزعجة.

قالت له مارشا بوهنٍ: «ستكون على ما يرام»؛ فقد كانت مارشا تشعر بدوار، وكان ذلك لا يروق لها.

رد عليها سايلاس بحدة: «هذه هي عادتك دائمًا يا مارشا. فالآن وقد أصبحتِ الساحرة العظمى، تأخذين كل ما تريدينه من الآخرين فحسب ولا تفكرين فيهم بعد ذلك. لقد ابتعدتِ تمامًا عن واقع الحياة، أليس

كذلك؟ خلافًا لأمثالنا من السحرة العاديين؛ فنحن ندرك إحساس المرء عندما يكونُ معرضًا لخطر ما...».

فقاطعهما نكو محاولًا أن يغير الموضوع، وقال بنبرة تعلوها البهجة والمرح: «إن *موربيل* يبحر بشكل رائع»؛ فهو يتزعج عندما يرى سايلاس حزينًا ومحبطًا من مسألة أنه ساحر عادي. فنكو يعتقد أن مجرد وصول المرء لأن يكون ساحرًا عاديًّا في حد ذاته إنجاز لا بأس به. وهو عن نفسه لا يسعى لعمل كهذا - فهو عمل يتطلب قراءة العديد والعديد من الكتب ولا يتيح وقتًا للإبحار - وإن كان يعتبره عملًا محترمًا، ثم من هذا الذي يريد لنفسه أن يكون الساحر الأعظم؟ فسوف تجد نفسك حينها حبيسًا في هذا البرج الغريب معظم الوقت، ولا يتسنى لك أبدًا التحرك في أي مكان دون أن تحدق بك عيون الناس ببلاهة، ونكو - لا محالة - لا يود أبدًا أن يفعل *ذلك* بنفسه.

تنهدت مارشا، ثم قالت ببطء، وهي تنظر إلى ضفة النهر البعيدة وتتفحصها: «أعتقد أن حجر البلاتين الخاص بتعويذة **السلامة** الذي أعطيته لها من حزامي سوف يمنحها بعض العون».

فرد سايلاس في دهشة: «أعطيتها إحدى **التعاويذ السحرية** من حزامك؟ تعويذة السلامة؟ أليس في ذلك مخاطرة؟ فأنتِ قد تحتاجين إليها».

ردت: «إن الغرض من **تعويذة السلامة** هو استخدامها عندما تكون هناك ضرورة قصوى لذلك. وسوف تنضم سالي إلى سارة وجيلين زمنًا، وقد تفيدهما بشكل أو بآخر. والآن اصمت، أظنني سأصاب بالغثيان».

وسقط صمت ثقيل غير مريح على الجميع.

وبعد أن مرت فترة من الوقت، قال سايلاس: «*موريبل* يبحر بسلاسة يا نكو، أنت بحار ماهر».

علت وجه نكو ابتسامة عريضة، كما اعتاد أن يفعل دائمًا عندما يُبحر بأي مركب بمهارة، وقال: «أشكرك يا أبي». كان بالفعل يقود *موريبل* وسط الماء بمهارة كالخبراء، موازنًا بين قوة جذب ذراع الدفة وقوة دفع الرياح للأشرعة، جاعلًا المركب الصغير ينطلق وهو يشدو بين الأمواج.

سأل نكو والده بعد فترة وهو يشير إلى ضفة النهر البعيدة التي تقع على يسارهم: «أهذه هي مستنقعات مرام يا أبي؟» لقد لاحظ أن المنظر العام حولهم قد تغير، وبات *موريبل* الآن يبحر وسط مسطح متسع من الماء، ويرى من بعيد أراضي منخفضة ممتدة لمساحات شاسعة، تغطيها الثلوج وتلمع في نور القمر.

نظر سايلاس فيما وراء الماء، ثم اقترح على نكو، ملوحًا بذراعه في الاتجاه العام الذي أشار إليه نكو: «أعتقد أنه ينبغي عليك أن تتوجه قليلًا نحو هذا المسار؛ حتى تبقى عيوننا يقظة على قناة «ديبين»؛ فهذه هي وجهتنا».

وتمنى سايلاس أن يستطيع تذكُّر مدخل قناة «ديبين»، وهي القناة التي تؤدي إلى كوخ الحارسة، حيث تقطن العمة زيلدا. لقد مرت فترة طويلة منذ آخر مرة ذهب فيها لزيارتها، لكن المستنقع كُليةً بدا له بنفس شكله القديم.

وعندما غيَّر نكو مساره في الاتجاه الذي تشير إليه ذراع سايلاس إذا بحُزمة من الضوء الساطع تخترق الظلام خلفهم.

كان ذلك هو الضوء الصادر عن الكشاف الضوئي للمركب الصاروخي.

13
المطـاردة



حدق الجميع فيما عدا الفتى 412 الذي كان يغطُّ في نوم عميق- إلى الظلام عندما اجتاح ضوء الكشاف الأفق البعيد مرة أخرى، كاشفًا عرض النهر المتسع والضفتين المنخفضتين على جانبي النهر. وأيقن كل منهم بداخله ماهية هذا الضوء.

وهمست چينا لوالدها قائلة: «إنه الصياد يا أبي، أليس كذلك؟».

كان سايلاس يعلم أن چينا محقّة، لكن مع ذلك رد عليها قائلًا: «أو قد يكون أيضًا أي شيء آخر، ربما يكون مركبًا خرج للصيد، أو لأي سبب آخر» – قائلًا الكلمات الأخيرة بطريقة واهنة غير مقنعة.

فقالت مارشا بحدة، وقد ذهب عنها فجأة الدوار الذي كانت تشعر به: «بالطبع إنه الصياد، وعلى متن مركب صاروخي إن لم أكن مخطئة».

وما لم تدركه مارشا أن سبب زوال شعورها بالدوار أن المركب توقف عن التأرجح وسط المياه، بل توقف في الواقع عن فعل أي شيء سوى أنه كان ينجرف ببطء دون وجهة محددة.

نظرت مارشا إلى نكو نظرة اتهام وقالت له: «تحرك يا نكو. لماذا أبطأت؟».

فغمغم نكو وقد بدا عليه القلق: «ليس في وسعي شيء، فسرعة الرياح قلّت»؛ إذ ما إن حوّل نكو اتجاه *موريل* نحو مستنقعات مرام حتى هدأت الرياح تمامًا، وفقد *موريل* سرعته، وتهدلت أشرعته.

قالت مارشا وهي تراقب بانزعاج اقتراب الكشاف الضوئي منهم بسرعة: «لا بد أن نفعل شيئًا. فالمركب الصاروخي سيلحق بنا خلال دقائق».

سألها سايلاس: «ألا تستطيعين أن تبحثي عن بعض الرياح وتزودينا بها؟ كنت أظنكِ درستِ **التحكم في العناصر** أثناء الدراسات العليا، أو اجعلينا غير مرئيين. هيا، هيا يا مارشا، *افعلي شيئًا*».

ردت: «في الحقيقة ليس في وسعي أن أبحث عن بعض الرياح وأزودكم بها بالطريقة التي ذكرتها، فليس هناك رياح قريبة من هنا مع محدودية الوقت وضيقه، كما أنك *تعلم* أن **الخفاء** هو سحر شخصي، وليس في وسعي أن أمارسه عليكم».

مرة أخرى، عاد ضوء الكشاف يشق الماء، إلا أن حُزمة الضوء هذه المرة كانت أوسع، وأسطع، وأقرب، والأخطر أنها كان تقترب منهم بسرعة أكبر.

فقال نكو، باعتباره ربان المركب وقد قرر أن يتحمل المسئولية: «علينا استعمال المجاديف، فنحن نستطيع أن نجدف حتى نصل إلى المستنقع ونختبئ هناك. هيا بسرعة».

وعلى الفور، خطف كل من مارشا وسايلاس وچينا مجدافًا، واستيقظ الفتى 412 من نومه فزِعًا عندما ضربت چينا رأسه في ظهر المركب وهي مسرعة في طريقها إلى المجداف، فأخذ ينظر حوله منزعجًا. لماذا لا يزال على متن هذا المركب مع كل هؤلاء السحرة حتى الآن؟ ماذا يريدون منه؟

ألقت چينا المجداف المتبقي في يده، وقالت له: «جدِّف بأقصى سرعة!». ذكَّرت نبرة صوت چينا الفتى 412 بالمُعلم الذي كان يدربه. وبانصياع، أسقط طرف المجداف في المياه وبدأ يجدف بكل ما أوتي من قوة.

وببطء شديد، أخذ *موربيل* يزحف نحو بر مستنقعات مرام، بينما كان ضوء كشاف المركب الصاروخي يتأرجح للأمام وللخلف وسط المياه، يبحث بلا رحمة عن فريسته.

اختلست چينا نظرة خاطفة للوراء، وتملكها الذعر والهلع عند رؤية الهيئة السوداء للمركب الصاروخي؛ إذ بدا لها كأنه خنفساء طويلة شكلها منفر، أرجلها العشر السوداء النحيلة تشق طريقها بصمت وسط المياه،

فتارةً تقترب منهم وتارةً تبتعد. تقترب وتبتعد. بينما ملاحوه المدربون يدفعون بأجسادهم وبالمركب إلى أقصى حد، مقبلين بسرعة نحو ركاب *موربيل* الذين يجدفون بهلع.

وعند المقدمة جلس الصياد الذي لا يُخطئ أحد هيئته، مشدودًا مستعدًا للانقضاض، وقع بصر چينا على نظرته المحدقة وهي تشع بالبرود والمكر، وشعرت فجأة أن بداخلها قدرًا من الشجاعة يمكنها من أن تتحدث إلى مارشا، فقالت لها: «لن نستطيع أن نصل إلى المستنقعات في الوقت المناسب يا مارشا، لا بد أن تفعلي شيئًا في الحال».

ردت مارشا توافقها الرأي: «حسنًا، سوف أحاول أن أكون **ضبابًا**. أستطيع أن أفعل ذلك في ثلاث وخمسين ثانية؛ لو كان الطقس باردًا ورطبًا بما يكفي».

كان جميع أفراد طاقم *موربيل* واثقين من برودة ورطوبة الطقس، وكل ما كانوا يتمنونه في تلك اللحظة هو ثلاث وخمسون ثانية.

ثم أمرتهم مارشا قائلة: «كفُّوا عن التجديف. اثبتوا ولا تتحركوا. اهدءوا. اهدءوا تمامًا». نفذ الطاقم الأوامر. ووسط الصمت الذي خيم عليهم سمعوا صوتًا آخر على مقربة منهم؛ الصوت المنتظم لضربات مجاديف المركب الصاروخي في الماء.

نهضت مارشا بحرص شديد؛ آملةً ألا يتحرك قاع المركب تحت قدميها، وانحنت قبالة الصاري لتثبت، ثم أخذت نفسًا طويلًا وفتحت ذراعيها على اتساعهما، ورفرفت عباءتها في الهواء كأنها أجنحة أرجوانية.

وهمست الساحرة العظمى بأعلى صوت تستطيع أن تطلقه في مثل هذا الموقف، وقالت: «**استيقظ يا موركن! استيقظ يا موركن واصنع لنا ملجأ!**».

كانت تعويذة رائعة، وأخذت جينا تراقب السحب البيضاء الكثيفة وهي تحرك نفسها وتتكتل في السماء على نور القمر. وبسرعة توارى القمر وراءها وهبط صقيع كثيف على هواء الليل. ووسط هذا الظلام الدامس، أصبح كل شيء ساكنًا سكون الموتى مع انبثاق بشائر شبورة من وسط المياه القاتمة. وأخذت الشبورة تتزايد أكثر فأكثر، وهي تتكتل وتتحول إلى طبقة كثيفة من الضباب. وفي حين كانت الشبورة تعلو سطح المستنقعات وتحلق فوق المياه متجمعةً، وفي قلب الضباب، في وسطه تمامًا، كان *موربيل* يقبع هادئًا وصابرًا، ينتظر. مع تقلب الشبورة ودورانها حول نفسها في دوامات وازدياد تكتلها حولها.

وسرعان ما حجب *موربيل* عن الأبصار كتلة بيضاء عميقة، ينبعث منها برد رطب ينخر في عظام جينا التي شعرت أن الفتى 412 الذي كان جالسًا إلى جوارها، بدأ يرتجف بشكل مقلق؛ فهو حتى الآن لم يتخلص من البرد الشديد إثر الوقت الذي قضاه تحت الثلوج.

همهمت مارشا من وسط الضباب قائلةً: «ثلاث وخمسون ثانية بالضبط، لا بأس».

فأسكتها سايلاس قائلًا: «صه!».

وخيم الصمت على المركب الصغير. وببطء، رفعت جينا يدها أمام عينيها المفتوحتين على اتساعهما، فلم تر سوى لون أبيض، لكنها كانت

تسمع كل شيء؛ كانت تسمع الصوت المتناغم لعشرة مجاديف حادة كالسكاكين وهي تشق المياه. تغطس وتخرج. تغطس وتخرج. تغطس وتخرج؛ كانت تسمع هفيفًا قادمًا من مقدمة المركب الصاروخي وهو يشق الطريق وسط المياه، والآن بات هذا المركب قريبًا منهم تمامًا لدرجة أنها تستطيع أن تسمع أنفاس الجدافين اللاهثة.

صاح الصياد وسط الضباب قائلًا: «توقفوا!»، فتوقفت ضربات المجاديف وانجرف المركب الصاروخي إلى أن توقف هو أيضًا، بينما حبس الركاب الرابضون على متن *موربيل* أنفاسهم وسط الضباب، لا يساورهم أدنى شك في أن المركب الصاروخي بات بالفعل قريبًا جدًا منهم؛ قريبًا لدرجة أنهم لو مدوا أجسامهم للخارج للمسوه؛ أو قريبًا لدرجة أن الصياد يستطيع أن يقفز على متن موربيل المكتظ بالركاب.

شعرت جينا أن بتسارع ضربات قلبها وبصوت مسموع، لكنها رغم ذلك تحكمت في أنفاسها وأخذت تتنفس ببطء وهدوء، وقبعت ساكنة؛ فهي تعلم أنهم وإن كانوا غير مرئيين وسط الضباب، إلا أن أصواتهم يُمكن أن تصل إلى الصياد. كان نكو ومارشا يفعلان نفس الشيء، وكذلك سايلاس، فضلًا عن أنه حرص على أن يظل مطبقًا بيده على خطم ماكسي الطويل المبتل؛ حتى يمنعه من النباح، وبيده الأخرى أخذ يربت بهدوء على ظهر الكلب المهتاج الذي أفزعه الضباب.

شعرت جينا برعشات الفتى 412 المتواصلة، فمدت ذراعها ببطء وجذبته بالقرب منها محاولةً تدفئته؛ فقد بدا متوترًا، وكانت جينا متأكدة أنه ينصت فزعًا لصوت الصياد الذي كان يقول: «لقد وقعوا في أيدينا!

إنه **ضباب سحري** وإن كنت لم أرَ من قبل ضبابًا سحريًا. ترى، ماذا يُمكن أن نجد وسط **ضباب سحري**؟ بالطبع ساحرة تمارس سحرها، ومعها شركاؤها»، ثم تسللت إليهم عبر الضباب ضحكاته الخافتة التي تعلوها نبرة رضا وابتهاج جعلت چينا ترتعد.

ثم قال الصياد وشبح صوته يخيم على *موريل*: «سلموا أنفسكم.. على الأميرة ألا تخاف منا، وكذلك الباقون. نحن معنيون فقط بسلامتكم ونود أن نحرسكم لتعودوا إلى القلعة قبل أن تتعرضوا لأي حادث مؤسف».

كرهت چينا صوت الصياد الناعم المخادع؛ وكرهت هذا الموقف الذي يمنعهم عن الهرب منه؛ وكرهت فكرة أنهم مضطرون إلى المكوث في مكانهم يستمعون إلى أكاذيبه الناعمة الملتوية، وودت لو أن تصيح في وجهه وتقول له إنها مسئولة هنا، *وإنها* لن تصغي إلى تهديداته، وإنه في القريب العاجل سوف يندم، ثم شعرت بالفتى 412 يأخذ نفسًا عميقًا، وأدركت تمامًا ما الذي كان على وشك أن يفعله..

كان سيصرخ.

فأطبقت يدها بقوة على فمه، فأخذ يقاومها محاولاً أن يدفعها بعيدًا، إلا أنها كتفت ذراعيه بيدها الأخرى وظلت ممسكة بهما بقوة على جانبيه؛ فچينا قوية البنية -بالنسبة لحجمها- وسريعة الحركة أيضًا، على عكس الفتى 412 وهو على هذه الهيئة النحيلة الضعيفة.

وشعر الفتى 412 بالحنق الشديد، بعد أن أضاعت چينا آخر فرصة له كي يحرر نفسه ويتخلص من أسرهم.

كان بإمكانه أن يعود إلى جيش الشباب بطلًا مقدامًا، أحبط بشجاعة محاولة السحرة للهرب. وبدلًا من ذلك، ها هو الآن مطبق الفم بهذه اليد الصغيرة القذرة، وهو ما جعله يشعر بالإعياء. ومما زاد من حنقه أن چينا أقوى منه. هذا ليس عدلًا؛ فهو فتى وهي مجرد فتاة بلهاء. فأخذ في فورة غضبه يركل ويرفس بقدميه، وضرب ظهر المركب ضربة خرجت بصوت جلي. وعلى الفور كان نكو قد انقضّ عليه، وهو يكتف رجليه ويمسكه بقوة حتى إنه عجز تمامًا عن الحركة أو إصدار أي صوت.

لكن كان الأوان قد فات ووقعت الكارثة، وبدأ الصياد يعمر مسدسه برصاصة فضية؛ فركلة الفتى 412 كانت كل ما يحتاج إليه كي يحدد موقعهم بالضبط. ابتسم الصياد وهو يلف المسدس على الحامل ذي القوائم الثلاثة في مواجهة الضباب، ويصوبه نحو چينا مباشرة.

سمعت مارشا طقطقة معدنية صادرة عن الطلقة الفضية وهي تُعمر المسدس؛ صوتًا سمعته مرة من قبل ولم تنسَه حتى اليوم. فكرت بسرعة. كان في وسعها أن تستخدم تعويذة **التطويق والوقاية**، إلا أنها تعرف الصياد جيدًا وتعلم أن كل ما سيفعله حينها أنه سيراقب الموقف وينتظر إلى أن يتلاشى تأثير السحر، فقالت في سرها إن الحل الوحيد إذن هو **الإسقاط**. وكان كل ما تتمناه أن تمتلك القدر الكافي من الطاقة الذي يمكنها من الحفاظ عليه.

أغمضت عينيها وقامت **بالإسقاط**؛ **أسقطت** صورة *لموريل* بكل ركابه وهم يخرجون مبحرين من الضباب بأقصى سرعة. كانت هذه الصورة -ومثل كل صور الإسقاط- صورة عكسية في المرآة، لكنها تمنت مع

الابتعاد السريع لمركب رلجيبه ألا يلاحظ الصياد ذلك وسط هذا الظلام.

جاء صوت أحد الجدافين يقول: «سيدي. إنهم يحاولون أن يسبقونا!».

وتوقف صوت تجهيز المسدس، وأخذ الصياد يسبهم.

وصاح فيهم قائلًا: «اتبعوهم أيها الحمقى!».

وببطء، انسحب المركب الصاروخي بعيدًا عن **الضباب**.

وعاد الصياد يصيح مرة أخرى بغضب؛ فهو لا يحتمل منظر فريسته وهي تهرب منه للمرة الثالثة هذا المساء: «جدفوا بسرعة أكبر!».

بينما علا وجهي جينا ونكو ابتسامة عريضة في وسط **الضباب**، والنتيجة حتى الآن أنهم تقدموا خطوة على أعدائهم.

14

قناة ديبين



كانت *مارشا في حالة نشاط زائد.* زائد جدًا.

فالحفاظ على تواصل عمل تعويذتين في وقت واحد كان أمرًا قاسيًا عليها. خاصة أن إحداهما - كونها تعويذة **إسقاط**- تُعد شكلًا **معكوسًا للسحر**. وخلافًا لأغلب التعاويذ التي تستخدمها مارشا، هذه التعويذة من التعاويذ التي لها صلة بعالم **الشياطين**، أو العالم **الآخر** كما تحب مارشا أن تسميه؛ وهذا الأمر يحتاج إلى ساحر شجاع وماهر كي يستخدم **السحر المعكوس** دون استدعاء **الشياطين**. وقد أحسن ألثر بلا شك تعليم مارشا؛ لأن العديد من التعاويذ التي تعلمها من دومدانيال كانت بالفعل تستخدم **السحر الأسود** الذي **يستدعي**

الشياطين، وقد أتقن ألثر بمهارة مع مرور الزمن إبطال هذا النوع من السحر؛ ولذلك أدركت مارشا أنه طوال فترة استخدامها **الإسقاط**، فإن **الشياطين** تحوم حولهم، منتظرة الفرصة كي تقتحم التعويذة؛ مما يفسر سبب شعور مارشا وكأن عقلها بات مشحونًا على آخره لا يستوعب أي شيء آخر، وبالتأكيد غير قادر على أن يبذل أي مجهود يجعلها تتصرف بشكل لائق.

فصاحت بحدة في نكو: «تصرف يا نكو وحرك هذا المركب الأخرق»، شعر نكو بالإهانة؛ فلم يكن هناك داعٍ لأن تتحدث معه مارشا بهذه الطريقة.

وغمغم قائلًا: «فليأتِ إذن أحد ويجدف، كما أني أحتاج لأن أرى إلى أين نحن ذاهبون».

فضاعفت مارشا من الجهد الذي تبذله لتشق نفقًا وسط **الضباب**؛ مما أدى بدوره إلى زيادة حدتها، بينما ظل سايلاس ملتزمًا الصمت؛ لأنه يعلم أن مارشا مضطرة لأن تستخدم كمًا هائلًا من الطاقة والمهارات **السحرية**، وداخله إحساس بالغيرة الممزوجة بالاحترام؛ فهو بكل تأكيد ما كان سيجرؤ يومًا على أن يحاول استخدام سحر **الإسقاط**، ناهيك عن تكوين ضبابة ضخمة والحفاظ عليها في نفس الوقت. فكان لا بد إذن أن يترك لها الأمر – وهي بلا شك كفء لذلك.

ترك سايلاس مارشا تمارس **سحرها**، وجدف هو بموربيل مخترقًا الشرنقة البيضاء السميكة لنفق **الضباب**، بينما كان نكو يدير دفة المركب متوجهًا نحو ضوء السماء المرصعة بالنجوم الذي ظهر له في نهاية النفق.

ولم يمضِ وقت طويل حتى شعر نكو أن قاع المركب يحتك برمال خشنة، وارتجَّ *موربيل* وهو يرتطم بتلة من نبات السعادي.

فقد وصلوا أخيرًا إلى أمان مستنقعات مرام.

تنفست مارشا الصُّعداء وتركت **الضباب** يتفرق، وبات الجميع في حالة استرخاء، فيما عدا چينا التي حتمًا تعلمت الكثير من نشأتها كفتاة وحيدة بين ستة أولاد فتوجهت إلى الفتى 412، وبحركة خاطفة من حركات المصارعة انقضت عليه ممسكة بذراعه وقلبته على وجهه فوق ظهر المركب.

قال لها نكو: «اتركيه يا چينا».

فردت عليه: «لماذا أتركه؟».

رد: «إنه ليس سوى فتى أبله».

فقالت بغضب: «لقد كاد أن يتسبب في قتلنا جميعًا بعد أن أنقذنا حياته عندما كان مدفونًا وسط الثلج، وبعد كل ذلك يريد هو أن يخوننا».

ظل الفتى 412 صامتًا؛ مدفونًا وسط الثلج؟ أنقذوا حياته؟ إن كل ما يتذكره أنه غطَّ في نوم عميق أمام برج السحرة، ثم استيقظ ليجد نفسه حبيسًا في غرفة مارشا.

قال سايلاس: «اتركيه يا چينا، إنه لا يعي شيئًا مما يحدث».

فقالت چينا وهي تحرر الفتى 412 بتردد: «كما تشاء. لكنه في رأيي جبان».

اعتدل الفتى 412 ببطء وجلس وهو يدلك ذراعه، لم تعجبه نظرات الآخرين إليه، ولم يعجبه– على وجه الخصوص– أسلوب الفتاة الأميرة

وهي تصفه بالجبان، خاصة بعد أن كانت تعامله من قبل بطريقة لطيفة ومهذبة. ومن ثم، تقوقع على نفسه، مبتعدًا عنها بقدر المستطاع، وحاول أن يسترجع كل الأحداث في رأسه، لكن الأمر لم يكن هينًا، فكل شيء بدا له غير منطقي، حاول أن يتذكر ما كان يُقال له في جيش الشباب. حقائق. ليس هناك إلا حقائق. حقائق حسنة، وحقائق سيئة. إذن:

الحقيقة الأولى. تم اختطافه: سيئ.

الحقيقة الثانية. سرقة زيه: سيئ.

الحقيقة الثالثة. تم دفعه في ماسورة القمامة: سيئ للغاية.

الحقيقة الرابعة. تم دفعه على متن مركب رائحته كريهة في طقس بارد: سيئ.

الحقيقة الخامسة: لم يقتله السحرة (حتى الآن): جيد.

الحقيقة السادسة: على الأرجح أن السحرة سيقتلونه قريبًا: سيئ.

ظل الفتى 412 يعدد الحقائق الحسنة والسيئة. وككل مرة كانت كفة الحقائق السيئة هي التي ترجح، فلم يثر الأمر دهشته.

تدحرج نكو وچينا نازلَيْن من على سطح موربيل، وزحفا على أيديهما وأقدامهما فوق حشائش الضفة بجانب شاطئ رملي صغير يرسو عليه *موربيل* الآن بعد أن أُنزلت أشرعته، وأراد نكو أن ينال قسطًا من الراحة بعد أن تحمل على عاتقه مسئولية المركب طوال الفترة السابقة. لقد تحمل مسئوليته كربان بشكل جدي، وعندما كان على متن *موربيل* كان

يعتقد أنه إذا حدث لهم أي مكروه فسيكون ذلك لتقصير منه بشكل أو بآخر. أما چينا فكانت مبتهجة؛ لأنها أخيرًا وجدت نفسها على أرض جافة من جديد - أو بالأحرى أرض رطبة نوعًا ما - فقد كان العشب الذي جلست عليه نديًا وليِّنًا كأنه نما على قطعة ضخمة من الإسفنج المبلل، وغطته طبقة ثلجية خفيفة.

وبعد أن باتت چينا على مسافة آمنة، تجرأ الفتى 412 أخيرًا أن يرفع رأسه وينظر حوله، فرأى ما جعل شعر رأسه يقف.

رأى **سحرًا**، وكان **سحرًا** قويًّا.

أخذ الفتى 412 يُحدق إلى مارشا، واستطاع أن يلاحظ ما لم يلاحظه أحد غيره؛ فقد لاحظ غلالة من الطاقة السحرية التي تحيط بها؛ غلالة أرجوانية متوهجة تشع وميضًا أرجوانيًّا عبر سطح عباءة الساحرة العظمى ويمنح شعرها الداكن الملفوف لمعة أرجوانية قوية، بينما أخذت عينا مارشا الخضراوان البراقتان تتلألآن وهما تحدقان إلى الأفق البعيد اللامتناهي- تراقبان فيلمًا صامتًا لا يستطيع أحد سوى مارشا أن يراه. ووجد الفتى 412 نفسه، رغم تدريبات جيش الشباب المعادية للسحرة، منبهرًا تمامًا بوجود **السحر**.

كان الفيلم الذي تشاهده مارشا بالطبع فيلمًا لمركب *ريبيه* والصورة طبق الأصل لطاقمه المكون من الركاب الستة. كانوا يبحرون بسرعة نحو مصب النهر العريض وأوشكوا على الوصول إلى البحر عند الميناء. وكانوا، لدهشة الصياد، يبحرون بسرعة فائقة بالنسبة لمركب شراعي صغير مثله، ورغم أن المركب الصاروخي تمكن بشكل أو بآخر من أن

يجعل ليروم على مرمى البصر منه فإنه لم يستطع أن يقترب منه بالقدر الكافي الذي يسمح للصياد بأن يُطلق رصاصته الفضية. وبدأ الإرهاق يتسرب إلى الجدافين العشرة، والصياد بُح صوته من الصياح فيهم بأن يجدفوا: «اسرعوا أيها الحمقى!».

كان التلميذ يجلس في مؤخرة المركب بانصياع تام طوال المطاردة. ومع تزايد غضب الصياد، قلت جرأة التلميذ على الكلام، وازداد تقوقعه في الفراغ الضئيل الذي شغله عند قدمي الجداف العاشر الذي كان يتصبب عرقًا. لكن بمرور الوقت، بدأ الجداف العاشر يغمغم بتعليقات عن الصياد في غاية الوقاحة من بين أنفاسه اللاهثة، وتشجع التلميذ قليلًا فأخذ ينظر وسط الماء، ويحملق في ليروم المسرع، وكلما أمعن النظر أكثر خالجه شعور بأن هناك أمرًا مريبًا يحدث.

وأخيرًا، تجرأ التلميذ وصاح في الصياد قائلًا: «هل أدركت أن اسم المركب مكتوب من اليسار إلى اليمين؟».

رد: «لا تحاول أن تتذاكى معي يا فتى».

صحيح أن الصياد يتمتع بنظر ثاقب، لكن ليس بجودة نظر فتى في العاشرة والنصف من عمره؛ هوايته جمع النمل ووضع علامات عليه، كما أن الساعات الطويلة التي أمضاها وهو يراقب النهر بجهاز التصوير الخاص بسيده- المخبأ بعيدًا في أرض الأشرار- لم تذهب هباءً؛ فقد بات يعرف اسم وتاريخ كل مركب من المراكب التي تبحر هناك، وهو الآن يعرف أن اسم المركب الذي كانوا يتتبعونه *قبل* **الضباب** هو مركب *موريل* الذي بناه روبرت جرينج وكان يؤجره لاصطياد سمك الرنكة، كما

أنه يعرف أيضًا أن اسم المركب بعد **الضباب** صار ليروم. و ليروم هو *موريل* معكوس *في المرآة*، والفترة التي قضاها وهو تلميذ يتدرب على يد دومدانيال تجعله يدرك تمامًا ماذا يعني ذلك.

فـ «ليروم» كان إسقاطًا وشبحًا وخيالًا ووهمًا.

ولحسن حظ التلميذ الذي كان على وشك الإدلاء بهذه المعلومة المثيرة للصياد- أنه في هذه اللحظة تحديدًا؛ وبالعودة إلى *موريل* الحقيقي، لعق ماكسي يد مارشا بطريقة الكلاب الذئبية الطيبة التي ينهال فيها سيل لعابها فارتجف جسدها، وفقدت تركيزها لثانية واحدة. فاختفى ليروم في التوّ أمام عيني الصياد، ثم ظهر بسرعة، ولكن بعد فوات الأوان؛ لقد انكشف أمر ليروم.

صاح الصياد غاضبًا، وضرب بقبضته صندوق الطلقات، وصاح مرة أخرى، لكنها هذه المرة من الألم؛ فقد كسر أحد أصابعه - الخنصر - وكان ذلك *مؤلمًا* حقًا، ثم صاح في الجدافين وهو يداوي إصابته قائلًا: «لفوا أيها الحمقى!».

توقف المركب الصاروخي، وعكس الجدافين اتجاه جلستهم وبدءوا يجدفون بضجر في الاتجاه المعاكس، ووجد الصياد نفسه يجلس في مؤخرة المركب، بينما أصبح التلميذ- لفرحته- الآن في المقدمة.

لكن المركب الصاروخي لم يعد بنفس كفاءته التي بدأ بها رحلته، وسرعان ما بدأ التعب والإرهاق يتسللان إلى الجدافين وصاروا لا يتقبلون ببساطة تلك الإهانات التي يصيح بها في وجوههم بهستيريا ذلك الرجل

الذي أوشك على تنفيذ جريمته، فتداعى تناغم تجديفهم، وبعد أن كان المركب الصاروخي يتحرك بانسيابية أصبحت حركته مختلة ومزعجة.

جلس الصياد عند مؤخرة المركب يحدق غاضبًا؛ فللمرة *الرابعة* خلال هذا المساء تفلت منه الآثار التي يقتفيها، وتفشل المطاردة.

أما التلميذ فكان، خلافًا للصياد، مستمتعًا بانعطافهم للوراء؛ لقد صار يجلس على مستوى منخفض بعد أن أصبح الآن عند مقدمة المركب. ومثل ماكسي، أخرج أنفه في الهواء وأخذ يستمتع بنسمات هواء الليل وهي تمر به سريعًا، وداخله شعور بالارتياح بعد أن أمكنه القيام بواجبه، وهو ما سوف يجعل سيده يفخر به، وأخذ يتخيل نفسه وقد عاد إلى سيده وكيف أنه يشرح له الطريقة التي اكتشف بها تعويذة **إسقاط** شريرة وأنقذ الموقف. فربما يُرضي سيده هذه المرة ويجعله ينسى إحباطه الشديد منه لافتقاده النبوغ **السحري**. رغم أنه حاول بالفعل - هكذا حدّث نفسه - لكن لسبب ما، أيًا كان هو، لم يتمكن من اكتساب هذه المهارات.

كانت چينا هي من رأت ضوء الكشاف المرعب يظهر من خلف منعطف بعيد فصاحت قائلة: «لقد عادوا من جديد!».

قفزت مارشا من مكانها، وفقدت تمامًا سحر **الإسقاط**. وبعيدًا عند الميناء، اختفى إلى الأبد رايبيه وطاقمه. وهو منظر أثار دهشة صياد سمك كان بمفرده عند سور الميناء.

انتفض نكو وانطلق مسرعًا على حشائش الضفة الخضراء، تتبعه چينا، وهو يقول: «لابد أن نخفي المركب».

دفع سايلاس ماكسي عن متن المركب وأمره بأن يذهب ويتمدد على الأرض، ثم ساعد مارشا في النزول، بينما ترجل الفتى 412 وراءهم.

جلست مارشا على حشائش ضفة قناة ديبين وهي مُصرّة على أن تحافظ على جفاف حذائها الأرجواني المصنوع من جلد الثعبان لأطول فترة ممكنة. بينما خاض الآخرون جميعهم، بمن فيهم الفتى 412، وهو ما أدهش چينا، في المياه الضحلة وأخذوا يدفعون بالمركب *موريل* لإبعاده عن الرمال، حتى جعلوه يطفو على السطح ثانية، ثم خطف نكو حبلًا وجذب *موريل* في القناة إلى أن انزوى به في ركن وأصبح غير مرئي من جهة النهر. فمياه الجزر تنخفض الآن، و*موريل* يطفو على مستوى منخفض في مياه القناة، وصاريه القصير تخفيه عن الأنظار ضفافُ القناة المرتفعة شديدة الانحدار.

كان صوت الصياد وهو يصيح في الجدافين يصل إليهم عبر المياه. رفعت مارشا رأسها عاليًا فوق سطح القناة لتتبين الأمر، فرأت مشهدًا لم تره قطُّ من قبل؛ كان الصياد واقفًا عند مؤخرة المركب الصاروخي في موضع خطير جدًا يهدده بالسقوط، ملوحًا بعنف في الهواء بذراع واحدة، ويواصل توجيه وابل من السباب للجدافين الذين كانوا قد فقدوا تمامًا وقتئذ قدرتهم على التجديف بشكل متناغم، وتركوا المركب الصاروخي ينجرف يمينًا ويسارًا وسط المياه.

قالت مارشا: «لا ينبغي عليَّ فعل ذلك. حقًا لا ينبغي عليَّ. إنه أمر مؤسف وعمل انتقامي، كما أنه يقلل من شأن القوة **السحرية**. *لكن ما باليد حيلة!*».

أخذت چينا ونكو والفتى 412 ينظرون من أعلى القناة ليشاهدوا هذا الذي كانت مارشا على وشك أن تفعله، ورأوا - وهم يراقبون الموقف - مارشا وهي تشير بأصبعها نحو الصياد وتهمهم قائلة: «**اقفز برأسك في المياه!**»، فوجد الصياد نفسه لوهلة يخالجه شعور غريب، وكأنه على وشك الإقدام على فعل شيء أحمق للغاية، وهو ما كان بالفعل مقدمًا عليه، ولسبب ما لا يعرف من أين أتى، رفع ذراعيه برشاقة فوق رأسه، ووجه يديه نحو المياه، وببطء انحنى بركبتيه، ثم قفز برأسه قفزة ماهرة من على متن المركب. وقام- بإتقان- بلفة في الهواء قبل أن يهبط في المياه المثلجة.

بتردد، وتباطؤ، جدف الجدافون للوراء وساعدوا الصياد اللاهث وأخرجوه من الماء ورفعوه على متن المركب.

ثم قال الجداف العاشر: «ما كان ينبغي عليك أن تفعل ذلك يا سيدي، خاصة في هذا الجو القارس».

كان الصياد في حالة لا تسمح له بالرد؛ فأسنانه كانت تصطك بشدة حتى إنه بات شبه عاجز عن التفكير، فضلًا عن الكلام. التصقت ملابسه المبللة بجسده الذي أخذ يرتجف بشدة في برودة الليل، أخذ يتفحص المستنقع بوجه كئيب، وهو على يقين تام أن فرائسه هربت هناك، لكنه لم يجد أي أثر لها. ولأنه صياد محنك، أدرك أنه لن يستطيع أن يُقحم نفسه في مستنقعات مرام مترجلًا وسط هذا الليل، لقد انتهت مهمته إذن عند هذا الحد؛ فالآثار التي يقتفيها اختفت ولا بد أن يعود إلى القلعة.

وبدأ المركب الصاروخي رحلة العودة الطويلة في هذا البرد القارس، بينما تقوقع الصياد عند مؤخرة المركب، وهو يداوي أصبعه المكسور، ويفكر متأملًا العار الذي لحق بمهمة الصيد التي كان موكلًا بها، والذي لحق بسمعته أيضًا.

قالت مارشا: «هذا هو ما يستحقه هذا الرجل البشع الضئيل».

وهنالك انبثق صوت مألوف من قاع القناة قائلًا: «وإن كنت لا أُطلق عليه احترافًا، لكنه مبرر تمامًا يا عزيزتي. وأنا شخصيًا لو عاد بي الزمن إلى أيام شبابي، لأغراني ذلك أيضًا».

قالت مارشا لاهثة، وقد علا وجهها لون ورديٌ: «ألثر!».

15

منتصف الليل عند الشاطئ



صاحت چينا *والسعادة تغمر قلبها: «العم ألثر!»*، واندفعت مسرعة نحو الضفة لتذهب إليه حيث كان واقفًا على الشاطئ يحدق حائرًا إلى صنارة في يده.

استقبلها ألثر قائلًا بابتهاج: «الأميرة!» وعانقها عناقَ طيفٍ؛ ذلك العناق الذي يجعل چينا تشعر وكأن نسيمًا صيفيًا دافئًا قد تسرب إليها.

ثم واصل كلامه قائلًا: «في الحقيقة، لقد اعتدت وأنا فتى صغير أن أحضر إلى هنا وأصطاد، ويبدو أنني جلبت معي أيضًا الصنارة، لقد تمنيت أن أجدكم جميعًا هنا».

ضحكت چينا؛ فقد كان صعبًا عليها أن تتخيل أن العم ألثر كان يومًا فتى صغيرًا.

ثم سألته: «هل ستأتي معنا يا عم ألثر؟».

رد: «أسف أيتها الأميرة، لا أستطيع، فأنت تعلمين قوانين الحياة الشبحية:

الشبح لا يستطيع أن يطأ بقدمه مكانًا

إلا حيث وطأت قدماه من قبل في أثناء حياته.

وللأسف، أنا لم أبتعد وأنا صغير عن حدود هذا الشاطئ؛ فالأسماك الجيدة كثيرة جدًا في هذا المكان»، ثم قال مغيرًا الموضوع: «أهذه السلة التي أراها في قاع المركب سلة رحلات؟».

فهناك تحت لفة حبل مبللة تقبع سلة الرحلات التي أعدتها لهم سالي مولن فانحنى سايلاس ورفعها.

ثم قال متأوهًا: «أخ! ظهري. ترى، ما *هذا* الذي وضعته فيها؟»، رفع سايلاس الغطاء، وقال: «هذا هو السبب إذن، إنها مملوءة عن آخرها بكعك الشعير. أعتقد أنه كان يصلح تمامًا لرصف الطرق، أليس كذلك؟».

ردت چينا معترضة: «أبي، لا تكن فظًا. على أية حال، نحن نحب كعك الشعير، أليس كذلك يا نكو؟».

علا وجه نكو تكشيرة، بينما بدا على وجه الفتى 412 بصيص أمل؛ فأخيرًا هناك طعام، وهو من شدة جوعه لا يتذكر آخر ما تناوله من طعام. نعم، نعم، تناول عصيدة باردة متحجرة قبل نوبة حراسة السادسة صباحًا، كم بدا ذلك بعيدًا.

أخرج سايلاس الأصناف الأخرى التي أصبحت شبه مهروسة أسفل كعك الشعير، والتي شملت علبة كبريت، وصفيحة ماء، وبعض قطع الشيكولاتة، وسكرًا ولبنًا. بدأ سايلاس يجهز لإشعال نار هادئة، ثم علق الصفيحة فوقها لغلي الماء، بينما احتشد الجميع حول النار المتراقصة يمينًا ويسارًا، وهم يدفئون أياديهم الباردة، ويمضغون أثناء ذلك قطع الكعك السميكة.

حتى مارشا تجاهلت معرفتها بشهرة هذا الكعك بميله لأن يجعل الأسنان تلتصق ببعضها والتهمت قطعة بأكملها، بينما أجهز الفتى 412 على نصيبه وتناول كل الفتافيت التي تبقت من الآخرين، ثم استلقى فوق الرمال المبللة متسائلًا في سره عما إذا كان هناك أمل في أن يستعيد قدرته على الحركة من جديد، بعد أن شعر وكأن كتلة أسمنتية صُبَّت في جوفه.

أما جينا فوضعت يدها في جيبها وأخرجت بيتروك تريلاوني الذي جلس في راحة يدها ساكنًا وهادئًا تمامًا. وبرفق، ربتت عليه ربتاتٍ خفيفة فأخرج أرجله الأربع القصيرة السمينة وأخذ يحركها في الهواء وهو مغلوب على أمره بعد أن وجد نفسه يرقد على ظهره مثل الخنفساء المقلوبة.

ضحكت جينا ضحكة خفيفة وقالت: «أخ! أنت مقلوب رأسًا على عقب»، ثم عدلته ففتح عينيه وأخذ يرمش بطرف عينه ببطء.

ألصقت جينا إحدى فتافيت كعك الشعير على إبهامها مقدمةً إياها لصخرها الأليف.

أخذ بيتروك يرمش بطرف عينه مرة أخرى، يفكر بتردد في مسألة تناولها، ثم بدأ يقضم فيها بحرص، بينما كانت جينا في غاية الانبهار.

وقالت بدهشة: «لقد أكلها!».

فقال نكو: «لابد طبعًا أن يأكلها. ككعكة صخرية لصخر أليف. ليس هناك أنسب من ذلك».

لكن حتى بيتروك تريلاوني لم يتمكن من أن يضغط على نفسه ويأكل أكثر من قطعة واحدة كبيرة من فتافيت كعك الشعير ثم راح يحدق حوله لعدة دقائق، وبعد ذلك أغمض عينيه وعاد لينام من جديد في دفء كف جينا.

وسرعان ما بدأت صفيحة الماء تغلي فوق النار، فأسقط فيها سايلاس قطع الشيكولاتة الداكنة وأضاف اللبن، وخلطها بالطريقة التي يحبها، وعندما بدأت الفقاقيع تطفو على السطح، سكب السكر وأخذ يقلب.

قال نكو: «أفضل مشروب شيكولاتة ساخن في العالم». لم يعترض أحد على كلامه، ومرت الصفيحة عليهم واحدًا تلو الآخر وسرعان ما تم الإجهاز عليها.

وبينما راح الجميع يأكلون ويشربون، أخذ ألثر يمارس تقنياته الخاصة في رمي الصنارة في الماء بطريقة بدا بها منشغلًا، وعندما وجدهم قد انتهوا من طعامهم وشرابهم، ذهب إليهم وأخذ يحوم حول النار، وبدا جادًا، ثم قال: «هناك أمر ما حدث بعد أن تركتم القلعة».

شعر سايلاس بتوعك في معدته، ولم يكن ذلك بسبب كعكة الشعير، بل من الخوف.

فسأله سايلاس مرتعبًا، وهو متأكد تمامًا من أنه سيسمع منه أن سارة والأبناء تم أسرهم: «ما هذا الأمر يا ألثر؟».

عرف ألثر ما الذي يفكر فيه سايلاس.

فقال له: «ليس هذا يا سايلاس، سارة والأبناء بخير، لكن الموقف أصبح سيئًا جدًّا. فدومدانيال عاد إلى القلعة».

شهقت مارشا مندهشة وقالت: «ماذا؟ إنه لا يستطيع العودة. أنا الساحرة العظمى. والتميمة معي أنا، كما أنني تركت البرج وهو يعجُّ بالسحرة؛ أي أن البرج فيه من **السحر** ما يكفي لأن يُلقي بهذا العجوز إلى أرض الأشرار التي كان مدفونًا فيها حيث أصله. هل أنت متأكد من أنه عاد يا ألثر، وأن الأمر ليس خدعة يلعبها في غيابي الأمين الأعلى، هذا الجُرذ الخسيس؟

رد ألثر قائلًا: «لا، ليست خدعة، فقد رأيته بنفسي. فما إن انعطف موربيل عند صخرة راقن حتى **جسد** نفسه في فناء برج السحرة، وراح المكان كله يطقطق من تأثير **السحر الأسود**، وكانت الرائحة لا تُطاق؛ مما أصاب السحرة بهلع أعمى، وانطلقوا فارين وهم مذعورون، هنا وهناك، كأنهم حشد من النمل داست على بيته قدم».

قالت مارشا وهي ترمي نظرة في اتجاه سايلاس: «يا له من أمر مشين! ترى، ما الذي كانوا يفكرون فيه حينها؟ إن توعية السحرة العاديين

المتوسطين هذه الأيام أصبحت مروعة. وأين كانت إندور؟ فمن المفترض أنها نائبتي. لا تقل لي إن الهلع أصابها هي أيضًا».

رد: «لا، لم يحدث ذلك، بل خرجت وواجهته، ووضعت **لوحًا خشبيًا** تغلق به أبواب البرج».

قالت مارشا وهي تتنفس الصُّعداء: «ياه! عظيم. البرج في مأمن الآن».

ردّ ألثر: «لا، لم يعد في مأمن. لقد ضرب دومدانيال إندور **بصاعقة**. لقد ماتت». عقد ألثر عقدة متشابكة للغاية في صنارته، وقال: «أنا آسف».

تمتمت مارشا: «ماتت».

قال: «ثم نقل دومدانيال السحرة».

«جميعهم؟ إلى أين؟».

«جميعهم أُرسلوا جهة أرض الأشرار، ولم يكن في وسعهم أن يفعلوا أي شيء. أتوقع أنه يحبسهم الآن في أحد جحوره هناك».

«يا للهول! هذا فظيع *يا ألثر*».

«ثم وصل الأمين الأعلى – هذا الرجل البشع الضئيل – مع حاشيته، وأخذوا ينحنون لسيدهم دومدانيال ويتمسحون به لدرجة أن لعابهم كان فعلًا *يسيل* على كل جزء منه. الأمر التالي الذي أعرفه أن الأمين الأعلى صاحَب دومدانيال إلى داخل برج السحرة وصعد به إلى... إلى... في حقيقة الأمر، إلى جناحكِ يا مارشا».

«جناحي *أنا*؟ دومدانيال في جناحي *أنا*؟»..

«في الحقيقة، سوف يُسعدكِ أن تعلمي أنه لم يكن في حالة تسمح له بأن يعجبه الجناح أو لا بعد العناء الذي لاقاه حتى يصل إليه، لقد اضطروا أن يصعدوا السلم بأنفسهم كل هذه المسافة. **فالسحر** الذي تبقى لم يكن كافيًا لتشغيل السلم، ولا أي شيء آخر في البرج».

أخذت مارشا تهز رأسها غير مصدقةٍ ما تسمعه، ثم قالت: «ما كنت أتصور أبدًا أن دومدانيال سيكون في وسعه أن يفعل ذلك. *أبدًا*».

وعقَّب سايلاس قائلًا: «ولا أنا أيضًا».

قالت مارشا: «لقد ظننت أننا كسحرة سنظل صامدين حتى تصل الأميرة إلى السن المناسبة كي تعتلي العرش. وبذلك سوف نتمكن حينها من التخلص من هؤلاء الحراس الأمناء، وجيش الشباب، وكل هذه **الشياطين** التي تزحف على القلعة وتنشر بها الوباء وتجعل حياة الناس هناك في غاية البؤس والشقاء».

قال ألثر معلقًا: «وأنا أيضًا كنت أظن ذلك. المهم، تابعت دومدانيال وهو يصعد السلم، كان يتحدث بكلام للأمين الأعلى قائلًا له إنه لا يصدق كم أنه كان محظوظًا، ليس فقط لأنك تركت القلعة، بل لأنكِ أخذت معك أيضًا العائق الوحيد الذي كان يحول دون رجوعه».

«عائق؟!».

«چينا».

نظرت چينا لألثر بفزع قائلة: «*أنا*؟ أنا عائق؟ لماذا؟».

راح ألثر يحدق إلى النار المشتعلة، وهو مستغرق في التفكير، ثم قال: «يبدو أنك يا أميرة كنت بشكل أو بآخر تمنعين ذلك **النكرومانسر**

البشع العجوز من العودة مرة أخرى إلى القلعة، بمجرد وجودك أنت هناك، وغالبًا كانت والدتك كذلك. ولقد كنت أتساءل دومًا لماذا أرسل السفاح لقتل الملكة وليس لقتلي أنا؟».

ارتجف جسم چينا، وخالجها فجأة شعور بالخوف، فأحاطها سايلاس بذراعه قائلًا: «كفى يا ألثر، لا داعي لأن تثير الرعب في نفوسنا. بصراحة، أعتقد أنك غفوت للحظة واستيقظت من النوم على هذا الكابوس، وأنت تعلم أن الكوابيس تنتابك كل حين. إن الحراس الأمناء ليسوا سوى مجموعة من قُطّاع الطرق، وأي ساحر أعظم يحترم نفسه قادر على طردهم منذ سنوات».

دمدمت مارشا: «أنا لن أبقى جالسةً هنا وأسكت على كل هذه الإهانات. فإنك لا تعلم أي شيء عن كل المحاولات التي قمنا بها كي نتخلص منهم. لا تعلم أي شيء على الإطلاق. ولقد بذلنا قصارى جهدنا حتى نحافظ على صمود برج السحرة لبعض الوقت، ومن دون مساعدة منك يا سايلاس هيب».

رد سايلاس: «في الحقيقة، أنا لا أفهم لماذا كل هذا الانزعاج يا مارشا، فدومدانيال ميت».

قالت مارشا بهدوء: «لا، ليس ميتًا».

قال سايلاس: «كُفّي عن هذا الحمق يا مارشا. لقد ألقى به ألثر من أعلى البرج منذ أربعين عامًا».

هتف نكو وچينا مندهشيْن: «أفعلت ذلك فعلًا يا عم ألثر؟»، فردَّ ألثر غاضبًا: «لا! *لم أفعل ذلك*، هو الذي ألقى بنفسه».

فقال سايلاس بعناد: «أيًا كان الأمر، المهم أنه مات».

قال ألثر، بصوت هادئ، محدقًا إلى النار المشتعلة: «ليس بالضرورة».

كان الضوء الصادر عن الجذوة المشتعلة يلقي بظلال متراقصة على الجميع فيما عدا ألثر الذي كان يحلق بينهم بتعاسة شارد الذهن يحاول أن يحل العقدة التي عقدها منذ قليل في الصنارة. ازداد وهج النار للحظة وأضاء الحلقة التي كانوا يجلسون فيها، ثم تحدثت چينا فجأة وقالت هامسة: «ما الذي حدث فعلًا عند سطح برج السحرة مع دومدانيال يا عم ألثر؟».

رد: «إنها قصة مرعبة نوعًا ما يا أميرة، ولا أريد أن أبث في نفسك الخوف»، فقال نكو: «هيا، هيا، احكِها لنا يا عم ألثر، إن چينا تحب القصص المرعبة».

فبدأ ألثر يحكي قائلًا: «في الحقيقة، من الصعب عليَّ أن أحكيها عن لساني أنا؛ ولذلك سوف أحكيها لكم كما سمعتها ذات مرة تُروى وسط حشد مجتمع حول نار في أعماق الغابة. كانت ليلة مثل هذه الليلة، كان الليل قد انتصف والقمر بدرًا، وقد حكتها ساحرة عجوزٌ من ساحرات وندرون، تشتهر بالحكمة، لبناتها الساحرات».

وهكذا، وبجانب النار المشتعلة، حوَّل ألثر ميلا شكله إلى سيدة ضخمة لها هيئة مريحة ترتدي ملابس خضراء. وبدأ يحكي، متحدثًا بالصوت الهادئ الرنان المميز للساحرات:

«بدأت القصة على سطح قمة هرم ذهبي يعلو برجًا فضيًا شاهقًا هو برج السحرة، وكان برج السحرة يومض في ضوء شمس أول الصباح،

ومن فرط ارتفاعه بدت الجماهير المحتشدة عند سفحه كالنمل بالنسبة للرجل الذي كان يزحف لأعلى على أحد جوانب الهرم شديدة الانحدار. كان الرجل الشاب قد نظر مرة إلى هذا الحشد وشعر بدوار، لأنه يخاف من الارتفاعات، وهو الآن يثبت نظره على الشخص الموجود أمامه: إنه رجل أكبر سنًّا لكنه رشيق، ومن حسن حظه أنه لا يخشى الارتفاعات. كانت عباءة الرجل الأكبر سنًّا بلونها الأرجواني ترفرف في الهواء وسط الرياح القوية التي دائمًا ما تعبث حول قمة البرج. بدا الرجل بالنسبة للجماهير في الأسفل كأنه وطواط أرجواني يزحف لأعلى متوجهًا إلى قمة الهرم.

«سأل المشاهدون عند سفح البرج أنفسهم ماذا يفعل ساحرهم الأعظم؟ لكن، أليس هذا تلميذه الذي يتبعه، أو ربما أيضًا يطارده؟

«اقترب التلميذ ألثر ميلا تمامًا من سيده دومدانيال، بينما الأخير كان قد وصل إلى قمة الهرم، وهي منصة مربعة الشكل تعلو الهرم من الذهب الخالص ومطعمة بحروف هيروغليفية من الفضة تسحر البرج، ثم وقف دومدانيال معتدل القامة، بينما كانت عباءته الأرجوانية السميكة ترفرف وراءه، وحزامه المصنوع من الذهب والبلاتين يومض في ضوء الشمس، وراح يتحدى تلميذه بأن يقترب منه.

«كان ألثر ميلا يعلم أنه لا خيار أمامه، فباغت دومدانيال بحركة جريئة يغلفها الذعر فطُرح دومدانيال أرضًا، فانقضَّ تلميذه عليه وخطف تميمة «أخو» المرصعة بالذهب والمطعمة باللازوردي المتدلية من عنق سيده في سلسلة فضية سميكة».

«وبعيدًا في الأسفل، في فناء برج السحرة، كان الجماهير يلهثون غير مصدقين أنفسهم وهم ينظرون بعيون شبه مغمضة في الضوء الساطع للهرم الذهبي يراقبون التلميذ وهو يتشاجر مع سيده؛ فقد كانا يحاولان التوازن على سطح المنصة الصغير، وهما يتدحرجان هنا وهناك وقت أن كان الساحر الأعظم يحاول أن يحرر التميمة من قبضة ألثر ميلا.

«ثبت دومدانيال ألثر ميلا بنظرة مشئومة، وعيناه الخضراوان الداكنتان تشعان غضبًا، بينما تلقت عينا ألثر ذواتا اللون الأخضر الفاتح هذه النظرات بثبات وبلا خوف. شعر ألثر أن التميمة تفلت منه، جذبها بشدة فتفتتت السلسلة إلى مئات القطع، وفلتت التميمة من السلسلة وأصبحت في قبضته.

فهمهم دومدانيال قائلًا: «خذها. لكنني سأعود لأستردها. سوف أعود مع الابن السابع للابن السابع».

«وهنالك أطلق الجماهير صرخة مدوية في الأسفل أثناء مشاهدتهم الساحر الأعظم يلقي بنفسه من قمة الهرم ويسقط من فوق البرج، باسطًا عباءته كأنها جناحان، لكنها لم تبطئ من سرعة سقوطه على الأرض.

وبعد ذلك اختفى.

بينما كان التلميذ على سطح قمة الهرم يمسك في قبضته بقوة تميمة «أخو»، وينظر مصدومًا مما رآه؛ فسيده دخل الهوة.

احتشد الجماهير حول البقعة المحروقة التي تشير إلى مكان اصطدام دومدانيال بالأرض. وكان كل منهم قد رأى شيئًا مختلفًا عما رآه الآخر؛ أحدهم يقول إنه تحول إلى وطواط وطار بعيدًا، وآخر يقول إنه رأى حصانًا

داكن اللون يظهر ويجري منطلقًا في الغابة. وثالث يقول إنه رأى دومدانيال يتحول إلى ثعبان ثم يزحف ويختبئ أسفل صخرة، لكنَّ أحدًا منهم لم يرَ الحقيقة التي رآها ألثر.

«بدأ ألثر ميلا ينزل من على سطح الهرم مغمض العينين؛ حتى لا يشعر بهذا الارتفاع المريع عن سطح الأرض الذي يصيبه بالدوار، ولم يفتح عينيه إلا عندما دخل زاحفًا من فتحة صغيرة إلى المكتبة القابعة داخل الهرم الذهبي. وهنالك توجّس، ما الذي حدث؟ فعباءته الصوفية الخضراء التي يرتديها التلامذة من السحرة تحولت إلى عباءة أرجوانية من الحرير، وحزامه البسيط الذي يرتديه حول سترته ثقُل وزنه بشكل واضح، وأصبح الآن حزامًا من الذهب مطعمًا بشكل معقد بحروف أبجدية وتعاويذ من البلاتين تمنح الحماية والقوة للساحر الأعظم، ووجد ألثر نفسه قد أصبح الساحر الأعظم.

«نظر ألثر إلى التميمة التي يمسكها بيد مرتجفة؛ إنها قطعة حجر صغيرة مستديرة من اللازوردي الأزرق تتخللها خطوط من الذهب محفور عليها تنين سحري. كانت هذه القطعة ثقيلة الوزن في راحة يده، يحيط بها إطار ذهبي تشتبك نهايته عند الطرف العلوي للحجر في صورة حلقة، ويتعلق بالحلقة جزء من السلسلة الفضية التي انكسرت بعد أن خطف ألثر التميمة منها.

«بعد لحظة تفكير، انحنى ألثر وأخذ رباطًا جلديًا من حذائه الطويل، وأدخله في حلقة التميمة. وتمامًا كما فعل من قبله كل السحرة العظماء، علقها حول عنقه، وبعد ذلك أخذ طريق النزول الطويل من داخل البرج،

بخصلات شعره الطويل البنية التي كانت لاتزال مشعثة بسبب القتال، وبوجهه الشاحب القلق وعينيه الخضراوين المتسعتين رهبة، وخرج إلى الجماهير الذين كانوا ينتظرون في الخارج ويهمسون فيما بينهم.

«عندما اندفع ألثر من الباب الضخم المصنوع من الفضة الخالصة والذي يحرس مدخل برج السحرة، رحبوا به منبهرين دون أن ينطق أحد بكلمة واحدة؛ فلا أحد يستطيع أن يجادل في وجود الساحر الأعظم الجديد، وتفرقت الجماهير وسط همهمات هامسة، رغم أن صوتًا واحدًا صاح ليقول:

«كما نلتها سوف تخسرها».

«تنهد ألثر؛ فهو يعلم أن كلام الرجل صحيح».

«وبينما أخذ ألثر طريق العودة وحيدًا إلى البرج ليبدأ في فك **السحر الأسود** الذي قام به دومدانيال، رُزقت أسرة فقيرة من السحرة تقطن في غرفة صغيرة ليست بعيدة - بمولود جديد.

«إنه ابنهم السابع، واسمه سايلاس هيب».

خيم الصمت حول النار، بينما استعاد ألثر ببطء هيئته الأصلية، وشعر سايلاس برجفة تسري في جسده؛ إنه لم يسمع هذه القصة تروى بهذا الشكل من قبل.

ثم همس بصوت أجش: «يا له من أمر غريب يا ألثر! أنا لم أكن أعرف أي شيء عن كل ذلك، فكيف تسنى للساحرة الأم معرفة كل هذا؟».

رد ألثر قائلًا: «كانت تراقب الجماهير، ثم جاءت لزيارتي فيما بعد في ذلك اليوم لتهنئني لأنني أصبحت الساحر الأعظم، وقصصت عليها القصة من جانبي أنا. فإذا أردت أن تنشر الحقيقة، فما عليك سوى أن تحكيها للساحرة الأم. لكن بالطبع كون الناس سيصدقون القصة بعد ذلك أم لا، فهذا شأن آخر».

كانت جينا مستغرقة في التفكير، ثم سألت ألثر: «لكن، لماذا يا عم ألثر كنت تطارد دومدانيال؟».

رد: «هذا سؤال وجيه، وأنا لم أتحدث عنه للساحرة الأم، فهناك بعض الأمور **الشيطانية** التي لا يجوز الخوض فيها ببساطة واستخفاف. لكن مع ذلك، ينبغي عليكم أن تعرفوا الحقيقة؛ ولذلك سوف أتحدث. فصباح ذلك اليوم، مثل كل يوم، كنت أرتب مكتبة الهرم؛ إذ من ضمن المهام التي يوكل بها إلى التلميذ المحافظة على نظام المكتبة بصفة دائمة، وأنا كنت أتعامل مع المهام الموكلة إليَّ بجدٍّ، حتى وإن كانت لخدمة سيد لا يُطاق مثله. المهم، وجدت في صباح ذلك اليوم على وجه الخصوص **وصفة سحرية** غريبة بخط يد دومدانيال مندسة في أحد الكتب. ولقد سبق لي أن رأيت شيئًا كهذا من قبل، لكنني لم أتمكن من قراءة المكتوب عليها. وبينما كنت أتفحص هذه **الوصفة السحرية**، خطرت لي فكرة فرفعتها أمام المرآة واكتشفت أنني كنت محقًا؛ فقد كانت مكتوبة بطريقة الكتابة في المرآة. وبدأ يعتريني إحساس غير مريح تجاهها؛ لأنني أدركت أنها لا بد أن تكون **وصفة سحرية معكوسة**، تستخدم **سحرًا** من عالم **الظلام**، أو من **العالم الآخر**، كما أفضل أن أطلق عليه. المهم، كان

لا بد لي أن أعرف حقيقة أمر دومدانيال وما الذي يفعله. ومن ثم، قررت المخاطرة بقراءة **الوصفة السحرية**، وما إن بدأت حتى حدث أمر مفزع».

همست چينا: «ماذا حدث؟».

«**ظهر شبح** وراء ظهري، أو على الأقل هذا ما كنت أراه في المرآة أمامي؛ لأنني عندما استدرت خلفي لم أجد شيئًا رغم أنني كنت أشعر بوجوده؛ كنت أشعر به ويده على كتفي، ثم سمعته؛ سمعت صوته الأجوف يحدثني، وقال لي إن دوري قد حان، وإنه جاء ليأخذني *كما كان مرئيا*.

ارتجف ألثر وهو يتذكر تلك الأحداث، ورفع يده على كتفه اليسرى كما فعل الشبح، فحتى الآن مازالت كتفه تؤلمه من البرد منذ صباح ذلك اليوم.

ارتجف الجميع فاقتربوا أكثر من النار.

«قلت **للشبح** إنني لست مستعدًا، ليس بعد؛ فمعرفتي الجيدة **بالعالم الآخر** تجعلني أدرك أنه لا ينبغي- بأي حال من الأحوال- أن ترفض لهم طلبًا، إلا أنهم مستعدون للانتظار، فالوقت لا يعني شيئًا بالنسبة لهم؛ فهم لا يعملون شيئًا سوى الانتظار. قال لي **الشبح** إنه سوف يعود في اليوم التالي ومن الأفضل لي أن أكون مستعدًا حينها. ثم تلاشى واختفى.. وبعد أن ذهب، قرأت الكلمات المعكوسة، وفهمت منها أن دومدانيال باعني كجزء من صفقة مع **العالم الآخر**، فعلمت حينها أنه بكل تأكيد يستخدم **السحر المعكوس**، وهو صورة عكسية في المرآة **للسحر**، ولكن من النوع الذي يستغل الناس، وأنني وقعت في شَرَكه».

كانت النار المشتعلة على الشاطئ قد بدأت تخمد، واحتشد الجميع مقتربين أكثر منها ومن بعضهم في ظل وميضها الذي يتلاشى، بينما واصل ألثر سرد قصته.

«وفجأة، دخل دومدانيال ورآني وأنا أقرأ **الوصفة السحرية**، وأنني ما زلت موجودًا، ولم يتم أخذي فأدرك أن خطته اُكتشفت، وانطلق جريًا. تسلق سلم أرفف المكتبة كالعنكبوت، ثم جرى على الأرفف العلوية، وحشر نفسه في الباب المسحور المؤدي إلى سطح الهرم من الخارج، ثم سخر مني وتحداني أن أتبعه إن كنت أجرؤ؛ فقد كان يعلم أنني أخاف من الارتفاعات، ولم يكن أمامي خيارٌ آخر سوى أن أتبعه، وهذا هو ما فعلته».

كان الجميع صامتين؛ فلم يكن أحد قد سمع من قبل - ولا حتى مارشا نفسها - القصة الكاملة لحكاية هذا **الشبح**.

قطعت چينا هذا الصمت قائلة: «يا له من أمر مريع! لكن، هل عاد إليك **الشبح** مرة أخرى؟».

رد: «لا أيتها الأميرة، فببعض المساعدات تمكنت من عمل **وصفة مضادة للسحر المعكوس**، وأبطلت مفعولها». أخذ ألثر يفكر لوهلة، ثم قال: «كل ما أريد أن تعرفوه أنني لست فخورًا بما فعلته على سطح برج السحرة، رغم أنني *لم* أدفع دومدانيال من عليه؛ إنه تصرف يشبع أن يحاول التلميذ الاستيلاء على منصب أستاذه».

فقالت چينا: «لكن كان لا بد لك أن تفعل ذلك يا عم ألثر، أليس كذلك؟».

رد: «بلى، كان لا بد أن أفعل ذلك، ولا بد أن نفعله مرة أخرى».

فقالت مارشا معلنةً: «وسوف يكون ذلك الليلة. سأعود في الحال وأطرد هذا الشرير خارج البرج. وسوف أجعله يُدرك أن الساحرة العظمى لا تعامَل باستخفاف».

قفز ألثر في الهواء ووضع يده الشبحية على ذراع مارشا، ثم قال لها: «لا، لا يا مارشا».

فاعترضت مارشا قائلة: «لكن يا ألثر...».

فقاطعها قائلًا: «لم يعد هناك سحرة في البرج ليحموكِ، كما أنني سمعت أنك أعطيت سالي **تعويذة السلامة**. أرجوكِ لا تذهبي. ذهابك فيه خطورة كبيرة. ولابد أن تأخذي الأميرة إلى بر الأمان، وأن تحافظي على سلامتها، وأنا سأعود إلى القلعة وسأبذل قصارى جهدي هناك».

هدأت مارشا وعادت للوراء مستلقية على الرمال المبللة، كانت تعلم في قرارة نفسها أن ألثر مُحقٌ، ثم بدأت آخر شرارات شعلة النار تدمدم عندما أخذت ندف الثلج الكبيرة تتساقط، وخيم الظلام عليهم. وضع ألثر صنارته الشبحية على الرمال وراح يحلق فوق قناة ديبين، وأخذ ينظر عبر المستنقعات الممتدة على طول الأفق البعيد. كان منظرها في نور القمر يبعث على الأمن والطمأنينة، مع كل هذا الاتساع الذي تغمره الثلوج وتتناثر عليه الجزر الصغيرة هنا وهناك على مرمى البصر.

قال ألثر وهو عائد إليهم محلقًا: «الزوارق. هكذا كان الناس يتحركون وسط المستنقعات أيام شبابي. وهذا هو بالفعل ما سوف تحتاجون إليه».

فقالت مارشا بكآبة: «هذا أمر في وسعك القيام به يا سايلاس. فأنا مرهقة جدًا على أن ألهو بزوارق».

فنهض سايلاس وقال: «هيا بنا يا نكو. سوف **نحوّل** *موربيل* إلى بعض الزوارق».

كان *موربيل* لايزال يطفو على سطح القناة بالقرب من منعطفها، بعيدًا عن الأنظار من جهة النهر. وخالج نكو شعور بالحزن والأسى بعد أن قُدّر على مركبهم المخلص أن يختفي، لكنه يعرف **قوانين السحر**، ويعرف كذلك أن المادة لا تفنى ولا تنشأ من العدم مع استخدام التعاويذ السحرية؛ أي أن *موربيل* واقعيًا لن يفنى، وإن كان يأمل أن يُعاد تشكيله على هيئة مجموعة من الزوارق الأنيقة.

كان سايلاس يمعن النظر إلى *موربيل*، ويحاول أن يفكر في التعويذة المناسبة، فقال له نكو: «هل أستطيع أن أحصل لنفسي على زورق سريع يا أبي؟».

«أنا لا أعلم شيئًا عن الزوارق «السريعة» هذه التي تتحدث عنها يا نكو، وسوف أكون سعيدًا لو تمكنت أصلًا من أن أجعلها تطفو على سطح الماء، دعني أفكر الآن، أعتقد أن كلاً منا سيحتاج إلى أحدها. والآن، **تحوّل إلى خمسة**.. أخ! ما هذا الإزعاج؟».

فقد ظهرت أمام أعينهم خمسة *موربيل* متناهية في الصغر وهي تتأرجح على سطح الماء لأعلى ولأسفل.

فقال نكو متذمرًا: «أبي، ما هذا الذي فعلته؟».

فردّ: «انتظر لحظة يا نكو، فأنا أفكر. وجدتها – **يُجدد إلى زورق!**».

«أبي!»..

إذ تحولت القوارب الخمسة هذه المرة إلى زورق ضخم جدًا محشور وسط ضفتي القناة.

فهمهم سايلاس في سره قائلًا: «دعني أحاول أن أكون منطقيًا الآن».

فاقترح عليه نكو قائلًا: «لماذا لا تطلب خمسة زوارق فحسب يا أبي؟».

رد: «فكرة صائبة يا نكو، سوف نقبلك ساحرًا رغم صغر سنك. **أنا أحتاج زوارق تستخدمها نحن الخمسة**».

وأخفقت التعويذة قبل أن تكتمل، وانتهى طلب سايلاس إلى زورقين فقط وكومة بائسة من الأخشاب والحبال بنفس لون *موريل*.

قال نكو، وقد أحبطه أنه لم يحصل على زورق لنفسه: «اثنان فقط يا أبي؟».

فردَّ سايلاس: «عليهم أن يصرّفوا أمورهم بذلك. فلا يمكن تغيير المادة أكثر من ثلاث مرات، فبعد ذلك ستصبح هشة».

في واقع الأمر، كان سايلاس مبتهجًا أنه تمكن أصلًا من أن يحصل على أية زوارق.

وسرعان ما جلست جينا ونكو والفتى 412 على متن ما أطلق عليه نكو زورق *موريل الأول*، بينما حُشر سايلاس ومارشا معًا على متن زورق *موريل الثاني*، وأصر سايلاس أن يجلس في المقدمة؛ لأنه كما قال لمارشا: «أنا الذي يعرف الطريق يا مارشا، ومن المنطقي أن أجلس أنا في المقدمة».

كانت مارشا ساخطة، لكن مع شدة إرهاقها فضلت ألا تدخل معه في جدال.

ثم قال سايلاس للكلب الذئبي: «اذهب هناك يا ماكسي، اذهب مع نكو».

لكن ماكسي، بما أن كل مبتغاه في الحياة أن يكون إلى جوار سيده، لن يثنيه أحد عن ذلك، ومن ثم فقد قفز في «حجر» سايلاس، ومال الزورق بشكل خطير.

قالت مارشا التي عاودها الإحساس بالرعب بعد أن وجدت نفسها مرة أخرى قريبة بهذا الشكل من المياه: «ألا تستطيع أن تسيطر على هذا الحيوان؟».

«بالطبع أستطيع، إنه ينفذ ما أقوله له بالحرف الواحد، أليس كذلك يا ماكسي؟».

وتمتم نكو معترضًا.

فقال سايلاس للكلب بنبرة حازمة: «اذهب واجلس في الخلف يا ماكسي»، بدا ماكسي محبطًا مهيض الجناح، وقفز فوق مارشا في طريقه إلى مؤخرة الزورق، واستقر وراءها.

قالت مارشا: «إنه لن يجلس خلفي».

رد سايلاس قائلًا: «كما أنه لا يستطيع أن يجلس إلى جواري، فلا بد أن أركز في الطريق».

فتدخل ألثر قائلًا وهو يحوم بقلق حولهم: «لقد حان الوقت لأن تتحركوا قبل أن تتراكم الثلوج، كم كنت أتمنى أن أكون معكم».

ثم حلق عاليًا وأخذ يراقبهم وهم ينطلقون مجدفين في قناة ديبين التي بدأت الآن تمتلئ بالماء مع حركة المد التي سوف تتوغل بهم في

مستنقعات مرام. وتقدم زورق چينا ونكو والفتى 412، وتبعه زورق سايلاس ومارشا وماكسي.

جلس ماكسي وراء مارشا معتدلًا، وراح يتنفس كما تتنفس الكلاب المتحمسة، بينما زفيره يضرب في عنقها من الخلف، وراح يستنشق الروائح الجديدة والرطبة التي تهب عليه من المستنقعات، ويُنصت لأصوات الحيوانات الصغيرة المختلفة وهي تمر حولهم في الخارج مسرعة دون أن تعترض طريقهم، وكلما تملك ماكسي الحماس أخذ لعابه يسيل على شعر مارشا.

ولم يمضِ وقت طويل حتى وصلت چينا إلى قناة ضيقة تتفرع من قناة ديبين فتوقفت.

ونادت على سايلاس تسأله: «هل نواصل التقدم من هنا؟».

بدا سايلاس حائرًا؛ فهو لا يتذكر مطلقًا هذا المكان. وفي اللحظة التي كان يتساءل فيها في سره أيرد بنعم أم بلا، إذا بصرخة مدوية من چينا تقطع حبل أفكاره، وإذا بيد لزجة بنية اللون من الوحل الذي يغطيها، ولها أصابع مكففة ومخالب عريضة سوداء - تمتد من وسط المياه وتمسك بمؤخرة الزورق.

16

الغول



أخذت *اليد البنية الموحلة تتحسس المنطقة على امتداد جانب الزورق*، متجهة نحو چينا، ثم أطبقت بقوة على مجدافها، فسحبت چينا منها المجداف وكانت على وشك أن تضرب به هذا الشيء البني اللزج بقوة عندما سمعت صوتًا يقول لها: «لا، لا داعي لذلك».

وهنالك بدأ كائن غريب يشبه كلب البحر مغطى بفرو بني ناعم يدفع بنفسه من وسط المياه حتى خرج رأسه، وأخذت عينان سوداوان براقتان مستديرتا الشكل تحملقان في چينا التي كانت لا تزال ترفع المجداف عاليًا في الهواء.

ثم قال لها: «ليتك تنزلينه، فقد يؤذي أحدًا»، ثم واصل الكائن الغريب كلامه، وسألها غاضبًا بصوت عميق مقرقر ومتقطع بتلك اللكنة المتشدقة العريضة المميزة: «أين كنتم طوال هذا الوقت؟ انتظرتكم ساعات طويلة هنا في هذا الصقيع. أعجبكم هذا؟ أعجبكم أن أظل محشورًا هكذا في القناة لا أفعل شيئًا سوى أن *أنتظر قدومكم*؟».

انعقد لسان چينا ولم ترد إلا بصرخة حادة قصيرة. وكأنها فقدت القدرة على النطق، وسألها نكو الذي كان يجلس خلف الفتى 412؛ حتى يضمن ألا يقوم بأي تصرف أحمق فلم يكن يرى هذا الكائن الغريب: «ماذا بك يا چينا؟».

فأشارت له چينا إلى الكائن الغريب الذي بدا عليه كأنه يشعر بالإهانة: «هذا... هذا...».

فسألها الكائن الغريب: «ماذا تقصدين بقولك *هذا*؟ أتقصدينني به؟ أتقصدين أنني *غول*؟».

فهمهمت چينا تقول: «غول؟ لا. أنا لم أقل ذلك».

«إذن، أنا الذي قلته. فهذا هو أنا. أنا الغول. الغول. أنا الغول. اسم جميل، أليس كذلك؟».

فردت چينا بأدب: «رائع».

فسألهم سايلاس بعد أن لحق بهم بزورقه: «ماذا بكم؟ كفى يا ماكسي. قلت لك كفى!».

كانت عينا ماكسي قد وقعتا على الغول، وبدأ ينبح بهلع وجنون، فاختفى الغول بمجرد أن رآه تحت سطح الماء. فمنذ سنوات طويلة؛ منذ

أيام رحلات الصيد الشريرة التي كانت تصطاد الغيلان وكان يشارك فيها بكفاءة عالية أسلاف ماكسي - أصبح الغول في مستنقعات مرام كائنًا نادرًا، يحمل ذكريات طويلة.

ثم ظهر الغول من جديد، لكن على مسافة آمنة، وقال وهو ينظر بنظرة شريرة إلى ماكسي: «إنها لم تذكر لي شيئًا عن وجود واحد منهم».

فقال سايلاس متسائلًا: «أغول ذلك الذي أسمع؟».

فرد الغول: «نعم»!

«غول زيلدا؟».

«نعم».

«هل أرسلتك إلينا؟».

رد الغول: «نعم».

فقال سايلاس وقد بدا في غاية الارتياح: «عظيم. سوف نتبعك».

فقال الغول: «نعم»، وبدأ يسبح وسط قناة ديبين وانعطف عند الفتحة الثانية.

كانت تفريعة القناة عند المنعطف الثاني أكثر ضيقًا من القناة نفسها، وتتعرج على نور القمر في مسار ثعباني يصل لأعماق المستنقعات المغطاة بالثلوج، وكانت الثلوج تتساقط بشكل ثابت، وكل شيء يسوده الهدوء والسكينة، عدا الصوت القادم من جهة الغول، وهو يسبح أمام الزورقين. وكل حين، يطل برأسه من المياه القاتمة ويسألهم: «مازلتم تتبعونني؟».

فقالت چينا لنكو وهما في الزورق يجدفان في القناة التي كانت تزداد ضيقًا أكثر فأكثر: «أهناك شيء آخر يظن أننا نستطيع أن نفعله.

وكأن أمامنا خيارًا آخر».

لكن الغول كان يأخذ المهام الموكلة إليه على محمل الجد، فواصل مسيرته وهو يكرر نفس السؤال كل حين، إلى أن وصلوا إلى مستنقع صغير تتفرع منه عدة قنوات كبيرة.

تحدث الغول قائلًا: «من الأفضل أن ننتظر الآخرين، لا أريد أن يضلوا طريقهم».

فالتفتت جينا للخلف تنظر إلى أين وصلت مارشا وسايلاس، فوجدتهما بعيدَين بمسافة؛ حيث كان سايلاس هو الوحيد الذي يقوم بالتجديف؛ فمارشا كانت قد استسلمت تمامًا ورفعت كلتا يديها وأطبقتهما بإحكام فوق رأسها، وظهر خلفها الخطم الطويل المدبب لكلب ذئبي حبشي يتفحص –بغطرسة– المشهد أمامه، وكل حين يسيل من فمه نهر طويل من اللعاب المتلألئ مباشرة على رأس مارشا.

وبعد أن دفع سايلاس الزورق إلى المستنقع ونحّى المجداف جانبًا بسأم، قالت له مارشا معلنة: «أنا لن أجلس أمام هذا الحيوان ولو للحظة واحدة. إن شعري كله أصبح مغطى بلعاب هذا الكلب. إنه مقزز. سوف أنزل من الزورق، فالمشي أفضل».

جاء صوت الغول من وسط الماء بجوار مارشا قائلًا: «لا ينبغي عليك أن تفعلي ذلك يا مولاتي»، ثم حدق بمارشا، وعيناه السوداوان البراقتان تطرفان وسط فروته البنية، وقد بدا مبهورًا بحزام الساحرة العظمى وهو يتلألأ في نور القمر؛ إذ على الرغم من أن الغول مخلوق يعيش في وحل المستنقعات، فهو يعشق كل ما يسطع ويلمع. وهو لم يرَ في حياته من

قبل شيئًا ساطعًا ولامعًا مثل هذا الحزام الذهبي البلاتيني الذي ترتديه مارشا.

واصل الغول كلامه باحترام وقال لها: «أكيد أنت لا تريدين أن تسيري هنا يا مولاتي. فما إن تبدئي في اتباع نيران المستنقع حتى يقودك ذلك إلى أرض المستنقع المتحرك قبل أن تفطني لذلك. وهناك أعداد لا حصر لها ممن تابعوا السير خلف هذه النيران، فما عاد منهم أحد».

ثم خرجت من أعماق حلق ماكسي قرقرة، ووقف شعر رأسه، وفجأة –انصياعًا لفطرة قديمة غالبة على الكلاب الذئبية– قفز في الماء وراء الغول.

فصاح سايلاس: «ماكسي. ماكسي. أيها الكلب الأحمق».

لكن ماكسي فوجئ بأن الماء في المستنقع شديد البرودة فأخذ يعوي ويجدف بأرجله للخلف ليعود إلى زورق سايلاس ومارشا.

إلا أن مارشا دفعته بعيدًا، ثم قالت معلنة: «هذا الكلب لن يعود إلى الزورق ثانيةً».

فقال سايلاس معترضًا: «إنه سيتجمد من البرد يا مارشا».

ونادى نكو على الكلب قائلًا: «تعالَ هنا يا ماكسي. هيا يا عزيزي». وأمسك بطوق ماكسي وبمساعدة جينا رفع الكلب إلى زورقهم. فمال الزورق بشكل خطير، لكن الفتى 412 الذي لم يرغب في أن ينتهي به الحال إلى مثل ما انتهى بماكسي ويسقط في الماء – عدل وضع الزورق بأن أمسك بقوة في جذع شجرة.

ظل جسم ماكسي يرتعش لفترة، ثم فعل مثلما يفعل أي كلب تبلل شعره – راح يهز جسمه بسرعة فائقة.

هتف نكو وچينا: «ماكسي!».

بينما ظل الفتى 412 في صمته المطبق كعادته، كان لا يحب الكلاب مطلقًا، والكلاب الوحيدة التي يعرفها هي كلاب الحراس الأمناء الشريرة. ورغم أنه يرى في ماكسي اختلافًا كبيرًا عنها، فقد ظل يتوقع أن ينال منه عضة في أي لحظة؛ ولذلك اعتبر الموقف الذي وجد نفسه فيه عندما هدأ ماكسي ووضع رأسه على «حجره» واستغرق في النوم– من جملة المواقف البشعة التي تنهال عليه في هذا اليوم الذي مثّل أسوأ يوم في حياته. لكن على الجانب الآخر، كان ماكسي فرِحًا؛ إذ كانت سترة الفتى 412 المصنوعة من جلد الغنم دافئة ومريحة. وقضى الكلب بقية الرحلة يحلم بأنه عاد إلى البيت من جديد ويربض متوقعًا أمام النار مع بقية أفراد أسرة هيب.

وفجأة، اختفى الغول.

فنادت چينا عليه بأدب: «يا غول، أين أنت يا سيد غول؟».

لكنهم لم يسمعوا له صوتًا، لم يسمعوا سوى صمت عميق يغشى سطح المستنقعات عندما تغطي الثلوج جميع مناظرها؛ صمت تهمد معه أصوات خرير الماء، ويُرسل كائناتها الموحلة إلى سكون الطين.

قالت مارشا لسايلاس بغضب توبخه: «والآن فقدنا أثر هذا الغول اللطيف بسبب حيوانك الأحمق. أنا لا أفهم لماذا جلبته معك».

تنهد سايلاس؛ فهو ما كان يمكن أن يتخيل أنه سيأتي يومٌ يشارك فيه مارشا أوفرستراند نفس الزورق. لكن لو كان له أن يتخيل هذا الموقف في لحظة جنون بالطبع– فهذا هو ما كان سيتصوره بالضبط.

أخذ سايلاس يستكشف الأفق آملًا أن يعثر على كوخ الحارسة الذي تقطن فيه العمة زيلدا، إنه كوخ مبنيٌّ على جزيرة دراجين؛ إحدى الجزر العديدة المنتشرة في المستنقعات، والتي باتت جزرًا حقيقية عندما غُمرت المستنقعات بالفيضان. لكن سايلاس لم يرَ أمامه إلا سطحًا أبيض مستويًا ممتدًا لمساحات شاسعة في جميع الاتجاهات. ومما زاد الأمر سوءًا، أنه رأى شبورة المستنقعات قد بدأت ترتفع وتنجرف نحو الماء، وهو يعلم أنها إذا هجمت عليهم فلن يتمكن أبدًا من رؤية كوخ الحارسة، مهما يكن قريبًا منه.

ثم تذكر أن الكوخ أصبح مسحورًا؛ مما يعني أنه في أي حال من الأحوال لن يستطيع أحد أن يراه.

وأصبحوا جميعًا في تلك اللحظة في أمسّ الحاجة إلى الغول.

وفجأة قالت چينا: «هناك ضوء! لا بد أنها العمة زيلدا قد خرجت تبحث عنا. إنه في هذا الاتجاه!».

التفتت كل العيون نحو المكان الذي أشار إليه أصبع چينا.

كان هناك بالفعل ضوء خفاق يقفز على المستنقعات، وكأنه يتنقل من كتلة أعشاب إلى أخرى.

قالت چينا بحماس: «إنها قادمة نحونا».

فعقّب نكو قائلًا: «لا، بل تبتعد عنا».

قال سايلاس: «ربما ينبغي علينا أن نذهب إليها ونقابلها».

لم تكن مارشا مقتنعة بهذا الكلام، وقالت: «ما أدراكم أنها زيلدا. فقد يكون ذلك أي شخص آخر، أو أي شيء».

خيم الصمت على الجميع وهم يفكرون فيما يمكن أن يكون *هذا الشيء* الذي يحمل ضوءًا ويتقدم نحوهم، إلى أن قال سايلاس: «إنها *بالفعل* زيلدا، أستطيع أن أراها».

فقالت مارشا: «هذا وهمٌ. إنها نيران المستنقع، كما قال هذا الغول الذكي».

رد: «مارشا، أنا أعرف زيلدا عندما أراها، وأنا أستطيع أن أراها الآن. إنها تحمل معها ضوءًا. فها هي تقطع كل هذا الطريق لتبحث عنا ونحن لا نفعل شيئًا سوى *الجلوس* هنا. أنا ذاهب إليها».

قالت له مارشا بنبرة لاذعة: «يقولون إن الحمقى يرون ما يريدون أن يروه في نيران المستنقع، ولقد أثبت يا سايلاس على التوّ صدق هذه المقولة».

همّ سايلاس بالنزول من الزورق، فشدته مارشا من عباءته وقالت له كأنها تكلم ماكسي: «*اجلس*».

لكن سايلاس دفع نفسه بعيدًا عنها، منجذبًا بهذا الضوء الخفاق وبخيال العمة زيلدا الذي يظهر ويختفي وسط الشبورة الصاعدة. أحيانًا تكون قريبة منهم جدًا بدرجة مستفزة، على وشك أن تصل إليهم جميعًا وتأخذهم إلى مكان فيه نار تدفئهم وأسرّة وثيرة، وأحيانًا أخرى للأسف تتلاشى بعيدًا وهي تدعوهم لأن يتبعوها ويكونوا معها. لكن سايلاس ما

عاد يحتمل أن يظل بعيدًا عن هذا الضوء، فقفز، وانطلق نحو الوميض الخفاق.

صاحت جينا قائلة: «أبي، هل نستطيع أن نأتي معك؟».

فقالت مارشا بحزم: «لا، لا تستطيعون. وسوف أجعل هذا الأحمق السخيف يعود رغم أنفه».

وبينما كانت مارشا على وشك أن تسحب أنفاسها لتستخدم **تعويذة الكيد المرتد**، إذا بقدم سايلاس تزل ويقع على الأرض السبخية برأسه في المقدمة ممددًا، وبعد أن وجد نفسه على الأرض لاهث الأنفاس، شعر بأن المستنقع من أسفله بدأ يتحرك، وكأن هناك كائنات حية تتقلب في أعماق الوحل، ثم عندما حاول أن ينهض وجد نفسه عاجزًا عن ذلك، كأنه التصق بالأرض تمامًا. وقع سايلاس في حيرة شاعرًا بدوار نيران المستنقع، لا يعرف سببًا لعدم قدرته على الحركة، حاول أن يرفع رأسه ليرى ما الذي يحدث حوله، إلا أنه عجز أيضًا عن ذلك. وهنالك، أدرك الحقيقة المُرة؛ فهناك شيء ما يجذبه من شعره.

رفع سايلاس يديه إلى رأسه، وتملكه رعب شديد وهو يتحسس أصابع صغيرة متيبسة في شعره، تلف وتعقد حولها خصلات شعره الأشعث الطويل الملفوف، وتسحبه لأسفل داخل السبخة، فأخذ يقاوم باستماتة ليخلص نفسه. لكن، كلما ازدادت مقاومته ازداد تشابك الأصابع في شعره، وأخذت تجذبه ببطء وبثبات لأسفل إلى أن غطى الوحل عينيه، وأوشك على أن يغطي أنفه.

كانت مارشا ترى كل ذلك، لكنها تعلم ما يكفي لأن يجعلها لا تهرع إليه وتساعده.

صاحت چينا وهي تهمُّ بالنزول من على متن الزورق: «أبي، سأساعدك يا أبي!».

فقالت لها مارشا: «لا! هذا هو ما تفعله نيران المستنقع، إنها سوف تسحبك أنت أيضًا».

فصرخت چينا تقول: «لكننا لا نستطيع أن نقف هكذا نشاهده وهو يغرق».

وفجأة، ظهر كائن قصير وبدين بني اللون يجلس القرفصاء ويدفع نفسه من وسط الماء، ثم زحف إلى الضفة وهو يقفز من كتلة زرع إلى أخرى بمهارة فائقة، وانطلق نحو سايلاس.

وقال الغول غاضبًا: «ماذا تفعل هنا في أرض المستنقع المتحرك يا سيدي؟»، فغمغم سايلاس قائلًا: «مــاذذذا؟»؛ إذ كانت أذنا سايلاس مملوءتين بالوحل ولا يستطيع أن يسمع سوى صياح وعويل الكائنات الموجودة تحت سطح الأرض أسفل منه. وكانت الأصابع المتيبسة لا تزال تجذبه وتلف شعره، وبدأ يشعر بألم الجروح التي أصيب بها من جراء الأسنان الحادة التي تقرض رأسه، وأخذ يقاوم في هلع، لكن كل حركة مقاومة كانت تجذبه داخل الوحل وتطلق موجة جديدة من الصرخات المدوية.

برعب شديد، أخذت چينا ونكو يراقبان سايلاس وهو يغطس ببطء في الوحل اللزج. لكن، لماذا لا يتصرف الغول ويفعل شيئًا؟ لا بد أن

يفعل شيئًا الآن قبل أن يختفي سايلاس إلى الأبد. ما عادت چينا تحتمل أكثر من هذا فانطلقت فجأة من الزورق، وهمَّ نكو ليتبعها. أما الفتى 412، فلأنه سمع من قبل كل شيء عن نيران المستنقع من الشخص الوحيد الذي نجا من فرقة فتيان بجيش الشباب فُقدت في أرض المستنقع المتحرك منذ عدة سنوات- أمسك بچينا بقوة ليجذبها إلى الزورق، لكنها دفعته بعيدًا بغضب.

لفتت هذه الحركة الفجائية انتباه الغول، فقال لها بحزم: «ابقي مكانك يا آنسة»، وشد الفتى 412 سترة چينا بعزم، فجلست على الأرض، وأخذ ماكسي يعوي.

بدا القلق في عيني الغول السوداوين البراقتين؛ فهو يعلم لمن هي هذه الأصابع التي تلف وتعقد، ويعلم أنها تعدُّ مأزقًا.

فقال: «أيتها الجنيات الصغيرة السمراء، أيتها الكائنات البغيضة، تذوقي نفَس الغول أيتها الكائنات الحقيرة!»، ثم انحنى الغول نحو سايلاس، وأخذ نفسًا عميقًا جدًّا ثم زفره على الأصابع التي تجذب سايلاس. سمع سايلاس من أعماق السبخة صراخًا مدويًا يثير الأعصاب كأنه صوت أظافر تخدش سبورة، وانزلقت الأصابع التي كانت تعقد في شعر سايلاس، وأخذت السبخة تتحرك مع انجراف هذه الكائنات بعيدًا في الأعماق.

وأخيرًا، وجد سايلاس نفسه حرًّا من جديد.

ساعده الغول في الجلوس ونظف عينيه من الوحل.

ثم قال له معترضًا: «قلت لكم إن نيران المستنقع سوف تقودكم إلى أرض المستنقع المتحرك، وحدث ذلك بالفعل، أليس كذلك؟».

لم يكن في وسع سايلاس أن ينطق بكلمة واحدة، فرائحة نفَسِ الغول النفاذة لاتزال ملتصقة بشعره وتشل حركته.

قال له الغول: «أنت بخير الآن يا سيدي. لكنك بصراحة كنت على وشك الهلاك. لا أجد داعيًا لأن أخبرك بذلك، لكنني لم أجد نفسي مضطرًا لأن أتنفس في جنية واحدة من الجنيات الصغيرة السمراء منذ أن نهبت هذه الجنيات الكوخ. فعلًا، ما أروع نفَس الغول! وإن كان البعض لا يحبه كثيرًا، لكنني دائمًا أقول لهم إنهم سوف يغيرون رأيهم إذا ما وقعوا في يد الجنيات الصغيرة السمراء التي تعيش في أرض المستنقع المتحرك».

فهمهم سايلاس وهو لا يزال يشعر بدوار: «نعم، نعم. فعلًا. أشكرك أيها الغول. أشكرك من كل قلبي».

ثم قاده الغول بحرص إلى الزورق.

وقال الغول لمارشا: «من الأفضل أن تجلسي في المقدمة يا مولاتي، فهو ليس في حالة تسمح له بأن يقود مثل هذه الأشياء».

ساعدت مارشا الغول لإعادة سايلاس إلى الزورق، ثم انسلَّ الغول عائدًا إلى الماء.

قال الغول وهو يحملق في ماكسي: «سوف آخذكم الآن إلى الآنسة زيلدا. لكن بعد إذنكم أبعدوا هذا الحيوان عني. لقد فوجئت بنباح هذا

الكلب وأصابني بحكة بغيضة، وجسمي مغطى الآن بنتوءات. هنا، انظري»، وأشار لمارشا على بطنه كي تتحسسه.

فقالت له مارشا وهي توشك أن تسقط مغشيًا عليها: «هذا من كرم أخلاقك، لكن أشكرك، ليس الآن».

«نؤجلها لمرة أخرى إذن».

«نعم».

«كما تشائين»، ثم أخذ الغول يسبح نحو قناة صغيرة لم يلحظها أحد من قبل.

ثم كرر – وليس للمرة الأخيرة– سؤاله المعتاد: «ما زلتم تتبعونني؟».

17
ألثر وحيدًا



بينما *كان الغول والزورقان* يبحرون في طريق معقد وطويل يتعرج وسط المستنقعات، كان ألثر يتبع نفس المسار الذي اعتاد من قبل مركبه الصغير *مولي* أن يسلكه عائدًا إلى القلعة.

كان ألثر يحلق بالطريقة التي يعشق التحليق بها – على ارتفاع منخفض وبسرعة مذهلة – ولم يستغرق وقتًا طويلًا كي يلحق بالمركب الصاروخي الذي كان المشهد عليه يثير الشفقة بجدافيه العشرة وهم يجدفون بسأم مع زحف المركب ببطء وهو يشق طريق العودة وسط ماء النهر. بينما جلس الصياد عند مؤخرة المركب منحنيًا للأمام وجسمه يرتعش، يتأمل مصيره صامتًا في

هدوء. وجلس التلميذ عند مقدمة المركب وهو يرفس، ومن حين لآخر يركل جانب المركب من باب الملل محاولًا أن يعيد لأصابع قدميه إحساسها؛ مما أصاب الصياد بأقصى درجات التوتر.

مر ألثر محلقًا فوق المركب دون أن يراه أحد – **فهو يظهر** فقط لمن يختارهم – وواصل رحلته. كانت السماء الصافية فوقه قد بدأت تتلبد بالغيوم؛ حيث غطتها سحب ثلجية كثيفة، واختفى القمر وغرقت ضفاف النهر في الظلام، تلتمع فوقها طبقة من الثلوج. ومع اقتراب ألثر من القلعة، بدأت رقائق ثلج كبيرة تتساقط بشكل طفيف من السماء، وعندما وصل عند الانحناء الأخير للنهر الذي ينعطف عند صخرة راقن، ازداد تساقط الثلوج فجأة.

أبطأ ألثر على الفور من سرعته، فحتى الأشباح نفسها تجد صعوبة في رؤية طريقها وسط العواصف الثلجية الشديدة، وأخذ يحلق بحرص متجهًا نحو القلعة، ثم سرعان ما رأى في طريقه– وسط الثلوج الكثيفة التي تتساقط وتحجب الرؤية– كتلًا من الأخشاب متوهجة، هي كل ما تبقى من مقهى سالي مولن للشاي والجعة. كان الثلج يئز ويقرع مع تساقطه على العوامة المتفحمة، وتمنى ألثر في سره بعد أن توقف قليلًا وأخذ يحوم فوق أنقاض ما كان مفخرة سالي وبهجتها– أن يكون الصياد في مكان ما وسط برودة مياه النهر يستمتع تمامًا بهذه العاصفة الثلجية.

ثم حلق ألثر فوق مقلب القمامة، مارًا بباب الجرذان المخلوع، وارتفع محلقًا بميل شديد فوق سور القلعة. اندهش ألثر أن يرى القلعة يسودها كل هذا الهدوء والسلام؛ إذ كان يتوقع– بشكل أو بأخر– أن يجد صخب

المساء المعتاد، لكن الوقت حينها كان قد تجاوز منتصف الليل وكانت الأفنية الخالية من المارة، والبيوت الحجرية القديمة- تكسوها طبقة ثلجية جديدة. انعطف ألثر عند القصر وحلق فوق الشارع العريض المعروف بطريق السحرة، وبدأ يتوتر. ترى، ماذا سيجد هناك؟

حلق ألثر لأعلى عند السطح الخارجي للبرج، وسرعان ما وقعت عيناه على النافذة الصغيرة المتشابكة التي كان يبحث عنها، اخترق شبح ألثر النافذة، ووجد نفسه واقفًا أمام الباب الأمامي لجناح مارشا، أو ما كان كذلك منذ عدة ساعات ماضية، أخذ ألثر نفسًا عميقًا ليهدئ من روعه، ثم بحرص **شتت هيئته** بالقدر الذي يسمح له بالمرور عبر الألواح الخشبية للباب الأرجواني القوي ومفصلاته الفضية السميكة. وبمهارة، **أعاد هيئته** من جديد على الجانب الآخر من الباب. رائع. لقد عاد مرة أخرى إلى غرفة مارشا.

وبات الآن في نفس الغرفة مع دومدانيال **النكرومانسر، الساحر الشيطاني.**

كان دومدانيال مستلقيًا على أريكة مارشا، يغطُّ في نومه وعباءته السوداء ملتفة حول جسده، وقد سقطت قبعته السوداء ذات الشكل الأسطواني القصير واستقرت فوق عينيه، بينما استقر رأسه على وسائد الفتى 412، كان فم دومدانيال مفتوحًا على آخره مصدرًا صوتًا مزعجًا، لم يكن المنظر يسرُّ على الإطلاق.

راح ألثر يحدق إلى دومدانيال مندهشًا أن يرى سيده السابق مرة أخرى في نفس المكان الذي قضيا فيه معًا سنوات طويلة، وإن كانت

سنوات لا يتذكرها ألثر بأي خير، حتى وإن كان تعلَّم وقتها كل شيء عن **السحر** وعرف عنه أكثر مما أراد. فدومدانيال كان ساحرًا أعظم مغرورًا، صُحبته مزعجة، لا يعنيه مطلقًا شأن القلعة ولا الناس الذين يحتاجون إلى مساعدته هناك. لا يسعى إلا لتحقيق رغباته في الوصول إلى النفوذ الكامل والشباب الدائم، أو بالأحرى إلى سن منتصف العمر الدائمة، بما أنه استغرق بعض الوقت في تحقيق هذه الرغبات.

بدا دومدانيال لألثر للوهلة الأولى- وهو مستلق أمامه ويغطُّ- كما هو، منذ تلك السنوات البعيدة، لكن بعد أن راح يدقق فيه عن قُرب وجد أنه لم يسلم من التغيير؛ فقد علا بشرة **النكرومانسر** لون رمادي يشي بسنوات طويلة قضاها أسفل سطح الأرض في صحبة **الأشباح والأرواح**، تحيط به هالة من **عالم الشياطين** تعبق الغرفة برائحة التراب المتعفن والأرض الرطبة، وبينما كان ألثر يراقبه أخذ خط رفيع من لعاب دومدانيال يسيل ببطء من ركن فمه وانساب نحو ذقنه، ثم سقط على عباءته السوداء.

بدأ ألثر، في صحبة شخير دومدانيال، يتفحص الغرفة التي بدت له تمامًا كما كانت دائمًا، وكأن مارشا على وشك أن تدخل في أي لحظة وتجلس وتحكي له عن يومها، كما كانت تفعل دائمًا. إلا أنه لاحظ علامة الحرق الكبيرة في المكان الذي تلقت فيه السفاحة ضربة **الصاعقة**، والتي أحدثت تجويفًا عميقًا بحجم جسمها في سجادة مارشا الحريرية الثمينة.

فقال ألثر في سره: «**إذن فقد حدث ذلك حقًّا**».

أخذ شبح ألثر يحوم فوق الفتحة الصغيرة لماسورة القمامة التي لا تزال مفتوحة، ونظر في ظلامها البارد فارتجف جسمه ووجد نفسه يفكر مليًا متخيلًا كمْ الرعب الذي تعرضت له مارشا والجميع عندما قاموا بهذه الرحلة. ولأنه أراد أن يفعل أي شيء - ولو صغيرًا - فقد تخطى الحدود الفاصلة بين عالم الأشباح وعالم الأحياء، وأقدم على أن **يُحدث** شيئًا.

وبعنف، صَفق باب الفتحة الصغيرة.

طراخ!

فاستيقظ دومدانيال فزعًا، ثم جلس معتدلًا وأخذ ينظر حوله، وهو يتساءل في سره لوهلة أين هو، ثم سرعان ما تذكر. وتنهد بسعادة؛ فقد عاد للمكان الذي ينتمي إليه؛ عاد إلى غرفة الساحر الأعظم؛ عاد يعتلي قمة البرج؛ عاد لينتقم، ثم نظر دومدانيال حوله متوقعًا أن يرى تلميذه الذي من المفترض أنه عاد منذ ساعات ومعه الأنباء التي تبشره أخيرًا بنهاية الأميرة وهذه المرأة البشعة مارشا أوفرستراند، بالإضافة إلى اثنين من أفراد أسرة هيب كانا أيضًا جزءًا من الصفقة، فكلما قل عدد من بقوا على قيد الحياة كان ذلك أفضل، ثم اعترته رعشة من برودة الجو، فطقطق بأصابعه بنفاد صبر لإعادة إشعال النار في المدفأة. توهجت النار ثم، هووف! أطفأها ألثر، ونفخ في الدخان الصاعد من المدفأة وأعاده إلى الغرفة مرة أخرى، وأخذ دومدانيال يسعل.

وقال ألثر في سره: ربما أصبح وجود **النكرومانسر** هنا أمرًا واقعًا، وربما لا يكون في وسعي أن أفعل شيئًا *حيال ذلك*، إلا أن إقامته هنا لن تروق له كثيرًا مادمتُ موجودًا.

لم يعد التلميذ إلا في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، بعد أن صعد دومدانيال الطابق الأعلى لينام، لكنه عانى كثيرًا؛ لأن الملاءات بدت كأنها تنوي أن تخنقه. كان الفتى شاحب الوجه من شدة الإرهاق والبرد، وعباءته الخضراء يكسوها الثلج، وجسده يرتجف عندما أدخله الحارس الذي رافقه حتى الباب ثم خرج فورًا، ليجد التلميذ نفسه وحيدًا في مواجهة سيده.

كان دومدانيال ثائرًا عندما انفتح الباب ودخل منه التلميذ.

وقال للفتى الذي ظل يرتجف أمامه: «أتمنى أن تكون قد أحضرت لي أنباء مثيرة».

كان ألثر يحوم فوق الفتى الذي كاد يعجز عن الكلام من فرط إرهاقه، أشفق ألثر على حاله. فليس خطأه أن وجد نفسه يتتلمذ على يد دومدانيال، نفخ ألثر في النار وجعلها تشتعل من جديد، رأى التلميذ ألسنة النار تقفز في المدفأة فتحرك نحوها.

دوى صوت دومدانيال كالصاعقة ليقول له: «إلى أين أنت ذاهب؟».

«أنا... أنا أشعر بالبرد يا سيدي».

رد: «لن تتقدم خطوة نحو النار إلا عندما تقول لي ما الذي حدث، هل قُتلوا؟».

بدا الفتى حائرًا، ثم همهم: «لقد... لقد أخبرته بأنه **إسقاط**».

«ما الذي *تحاول* أن ترمي إليه يا فتى؟ ما هذا الذي كان **إسقاطًا**؟ مركبهم!».

ارتفع صوت دومدانيال بغضب، كان يتوقع الإجابة، وإن أراد أن يسمعها بأذنيه، وقال: «أظن إذن أنكم تصرفتم حيال ذلك. أمر بسيط للغاية. المهم، هل تخلصتم منهم؟ هل *قتلوا*؟ نعم *أم لا*؟».

فهمس الفتى مذعورًا: «لا». بينما كانت ثيابه المشبعة بالماء تقطر على الأرض بعد أن بدأ الثلج الذي كان يكسوها يذوب بفعل حرارة النار التي يؤججها ألثر.

ألقى دومدانيال نظرة مهلكة إلى الفتى.

ثم قال له: «أنت كتلة من الإحباط وخيبة الأمل. وأنا الذي خضت متاعب لا حصر لها كي أنقذك من *عار* أسرتك. لقد منحتك تعليمًا يحلم به معظم الفتيان. وماذا تفعل أنت في المقابل؟ تتصرف بحمق *بالغ*! أنا لا أفهم فعلًا، ففتى مثلك كان من المفترض أن يعثر على هؤلاء الرعاع في غمضة عين. لكنك تعود بقصة عن **الإسقاط** و... *والماء يتساقط منك على الأرض*!».

وقرر دومدانيال في سره أنه مادام قد استيقظ من النوم، فليس هناك سبب يمنع من إيقاظ الأمين الأعلى من نومه هو *أيضًا*، أما عن الصياد فهو ينتظره بمنتهى الحماس ليرى كيف سيبرر موقفه. انطلق دومدانيال من الغرفة وصَفَق الباب وراءه بشدة، وبدأ ينزل السلم الفضي الذي بات ساكنًا وأخذ يصلصل أثناء مروره بطوابق مهجورة لا حصر لها خيم عليها الظلام، يتردد فيها صدى صوت خروج جميع السحرة العاديين في وقت مبكر من ظهر ذلك اليوم.

كان برج السحرة باردًا وكئيبًا بغياب **السحر** عنه، وهبت رياح باردة أخذت تعوي وهي تنسحب لأعلى وكأنها تدخل مدخنة ضخمة. وكانت الأبواب تفتح وتغلق بأسى في الغرف الخالية. لاحظ دومدانيال كل هذه التغيرات برضا نفس وهو ينزل السلم الحلزوني الذي أصابه بدوار من كثرة درجاته؛ فالبرج حاله سيتغير من الآن فصاعدًا، سوف يصبح مكانًا يُمارس فيه **السحر الأسود** الجاد. وما عاد مكانًا يصلح لهؤلاء السحرة العاديين المزعجين، المتبخترين هنا وهناك، بأعمالهم السحرية العادية المثيرة للشفقة، ولا مكانًا للبخور الصيباني والأصوات المرحة السعيدة التي كانت تنتشر في أجوائه، ولا مكانًا أيضًا - وبكل تأكيد - للألوان والأضواء الزاهية. إن **سحره** سوف يُستخدم لما هو أعظم من ذلك، فيما عدا أنه سيضطر لاستخدامه في إصلاح السلم.

وفي نهاية الأمر، ظهر دومدانيال في البهو الذي أطبق عليه الظلام والسكون، كانت أبواب البرج الفضية الكبيرة مفتوحة على مصاريعها في حزن وأسى، تاركةً الثلوج تتسلل إلى الداخل وتغطي الأرضيات التي باتت ساكنة، وتحولت إلى أحجار رمادية كئيبة، خرج دومدانيال مندفعًا من الباب وانطلق بخطًى واسعة عابرًا الفناء.

سار دومدانيال غاضبًا وهو يدك الثلوج، يشق طريقه على امتداد طريق السحرة، وتمنى في سره لو أنه فكر في أن يغير عباءة وخُف النوم قبل أن يخرج من البرج مندفعًا هكذا، ثم وصل إلى بوابة القصر بوجه مبلل وبلا ملامح محددة، ورفض الحارس الوحيد لدى البوابة السماح له بالدخول،

فضربه دومدانيال **بصاعقة** ودخل مندفعًا بخطوات واسعة، وسرعان ما استيقظ الأمين الأعلى من نومه فزِعًا لليوم الثاني على التوالي.

وبالعودة إلى البرج، كان التلميذ قد توجه باضطراب إلى الأريكة وألقى بنفسه عليها وغطَّ في سُبات عميق بارد ومزعج فأشفق ألثر عليه وأبقى النار مشتعلة، ثم انتهز الفرصة بعد أن نام التلميذ وراح يُحدِث بعض التغييرات الإضافية؛ فحلَّ أربطة المظلة الثقيلة التي تعلو السرير حتى صارت معلقة على خيط واحد، وأزال الفتيل من كل الشموع، وأضاف لونًا أخضر قاتمًا إلى خزانات الماء، ثم أسكن عائلة ضخمة شرسة من الصراصير في المطبخ، ووضع جرذًا مزعجًا أسفل ألواح الأرضيات، وفك المسامير التي تثبت أركان المقاعد المريحة. وبعد أن خطرت الفكرة على باله، قام بتبديل قبعة دومدانيال الصلبة ذات الشكل الأسطواني التي كانت ملقاة على السرير بأخرى تشبهها تمامًا لكن أكبر قليلًا.

ومع بزوغ الفجر، ترك ألثر التلميذ نائمًا وسلك طريقه إلى الغابة، قاطعًا الطريق الذي اتخذه يومًا ما مع سايلاس في زيارة لسارة وجيلين منذ سنوات عدة ماضية.

18

كوخ الحارسة



كان *الصمت المُطبق على كوخ الحارسة* هو الذي أيقظ چينا من نومها صباح اليوم التالي. فبعد عشر سنوات من الاستيقاظ كل يوم على ضوضاء العشوائيات، ناهيك عن الشغب والصخب الذي كان يقوم به الأولاد الستة، كان هذا الصمت يصم الآذان. فتحت چينا عينيها، ولوهلة، ظنت أنها لا تزال تحلم. لكن، أين هي؟ لماذا هي هنا وليست في البيت تنام في سريرها الدولاب؟ لماذا چوچو ونكو فقط هما الموجودان هنا؟ وأين ذهب بقية إخوتها؟

ثم تذكرت!

فاعتدلت وجلست بهدوء؛ حتى لا توقظ الفتيين اللذين كانا ممددين بجانب الأخشاب المشتعلة بالمدفأة في الطابق السفلي من كوخ العمة زيلدا. لفَّت چينا لحافها حول جسدها، فرغم النار المشتعلة كان الجو داخل الكوخ باردًا ورطبًا، ثم رفعت يدها بتردد على رأسها.

إذن، إنها حقيقة لا *خيال*؛ الطوق الذهبي لا يزال موجودًا على رأسها. وهي ما زالت الأميرة. إنه لم يكن مجرد وهم بسبب عيد ميلادها.

طوال اليوم السابق، صاحب چينا ذلك الإحساس الوهمي الذي اعتادته كلما حل يوم عيد ميلادها؛ ذلك الإحساس بأن يوم عيد ميلادها - بصورة ما - هو جزء من عالم آخر، من زمن آخر، وأن كل ما يحدث لها فيه ليس حقيقيًا، وهو الإحساس الذي لازمها طوال الأحداث المذهلة التي عاشتها يوم عيد ميلادها العاشر؛ إحساس بأنه أيًا كان هذا الذي يحدث لها في ذلك اليوم، فكل شيء سوف يعود إلى طبيعته في اليوم التالي، ولا داعي لأن تشغل بالها كثيرًا به.

لكن هذه المرة لم تعد الأمور إلى مجراها الطبيعي، كما أنها شغلت بال چينا.

انكمشت چينا لتدفئ جسدها، وراحت تفكر في الأمر. إنها *أميرة*.

وچينا كثيرًا ما كانت تتقمص مع أقرب صديقاتها «بو» دورًا خياليًا تتحاوران فيه حول أنهما في الحقيقة الأختان الأميرتان اللتان افترقتا عند مولدهما عن بعضهما لسنوات طويلة، ثم جمع القدر بينهما وجعلهما تتشاركان نفس الطاولة في الفصل السادس بالمدرسة الثالثة بالجانب

الشرقي، حتى أوشكت چينا أن تصدق ذلك، فالقصة كانت تبدو بشكل أو بآخر صحيحة تمامًا.

رغم أنها حين زارت بو لتلعب معها في غرفتها، كان صعبًا عليها أن تتخيل أن بو يمكن أن تنتمي لأسرة أخرى غير أسرتها. وقالت چينا في سرها حينها إن بو تشبه أمها تمامًا، بشعرها الأحمر الساطع والنمش الكثيف الذي يعلو بشرتها، فلابد أن تكون ابنتها. لكن بو شعرت بالإهانة عندما ذكرت لها چينا هذا الكلام؛ ولذا لم تُعِد چينا ذكره مرة أخرى.

لكن هذا لم يمنع چينا من أن تتساءل في سرها لماذا يختلف شكلها تمامًا عن والدتها، وعن أبيها، وإخوتها؟ لماذا هي الوحيدة التي شعرها أسود؟ لماذا ليست عيناها خضراوين؟ وكانت چينا تودُّ كثيرًا أن تتحول عيناها هي أيضًا وتصبحا خضراوين، بل إنها ظلت حتى اليوم السابق تأمل أن تتحقق أمنيتها.

وجدت چينا نفسها تشتاق لحماس سارة وهي تقول لها كما كانت تراها تقول للأولاد جميعًا: «أعتقد أن عينيك بدأتا تتحولان بالفعل. إن بهما اليوم مسحة من اللون الأخضر لا تخطئها عين»، ثم تواصل قائلة: «أنت *بالفعل* تكبرين بسرعة يا چينا، وأوشكت عيناكِ أن تكونا في درجة اخضرار عيني أبيك».

لكن عندما طلبت منهم أن يخبروها بحقيقة أمر *عينيها*، ولماذا لم تتحولا حتى ذلك الوقت إلى اللون الأخضر مثل عيون إخوتها، كانت سارة تكتفي بأن تقول لها: «لكنك *ابنتنا* الصغرى يا چينا، ولك وضع خاص، وعيناكِ جميلتان».

لكن هذا الكلام لم ينطلِ عليها؛ فجينا تعلم أن البنات أيضًا يستطعن أن يكتسبن العيون الخضراء التي تميز الساحرات، فهناك ميرندا بوت التي تسكن في آخر الطرقة، كان جدها يدير محلاً لعباءات السحرة المستعملة، وميرندا عيناها خضراوان، رغم أن جدها فقط هو الذي كان ساحرًا، لماذا إذن هي ليست مثلهم؟

أحست جينا بالإحباط وهي تفكر في سارة، وتساءلت في سرها متى ستراها مرة أخرى، وعما إذا كانت سارة لاتزال ترغب في أن تكون أمها بعد أن تغير كل شيء الآن.

هزت جينا رأسها وأصرّت في سرها أن تكف عن هذا التفكير الأحمق، ثم وقفت، واللحاف لا يزال حولها، ومرت من فوق الولدين النائمين. توقفت للحظة تنظر إلى الفتى 412، وتساءلت في سرها ما الذي جعلها تظن أنه جوجو، لابد أن ضوء الكوخ هو الذي خدع بصرها.

كان الظلام لا يزال يخيم على الكوخ من الداخل فيما عدا الضوء الباهت الذي تلقيه النار المشتعلة في الغرفة، إلا أن عيني جينا بدأتا تعتادان هذا الظلام، وأخذت تتجول في أنحاء الغرفة، وهي تجر اللحاف على الأرض خلفها وتتفحص مكانها الجديد.

لم يكن الكوخ كبيرًا، كان الطابق السفلي عبارة عن غرفة واحدة، تتوسط أحد حوائطها مدفأة ضخمة مكشوفة، بداخلها كومة من القطع الخشبية الكبيرة مازالت متوهجة فوق سطح المدفأة الحجري وينبعث منها دخان خفيف. كان نكو والفتى 412 لا يزالان يغطان في النوم على السجادة أمام النار، كلاهما يلتفُّ بلحاف من ألحفة العمة زيلدا التي

صنعتها من أقمشة مختلفة بألوان زاهية، يتوسط الغرفة سلم ضيق له دولاب في الأسفل، مكتوب عليه «جرعات غير مستقرة وسموم خاصة»، بحروف ذهبية متشابكة، على باب مُحكم الغلق. نظرت جينا لأعلى من عند السلم الضيق، وهو سلم يؤدي إلى غرفة واسعة مظلمة، ما زالت العمة زيلدا ومارشا وسايلاس نائمين فيها، وبالطبع ماكسي الذي يصل غطيطه إلى جينا في الأسفل - أم أنه شخير سايلاس وغطيط ماكسي معًا؟ فالسيد وكلبه عندما ينامان لا يمكن التمييز بين صوتيهما.

كانت أسقف الطابق السفلي منخفضة، تظهر فيها العوارض الخشبية المقطعة بالفأس التي شُيد بها الكوخ، ويتدلى منها كل ما يمكن أن يخطر على البال؛ مجاديف وقبعات وحقائب من القواقع ومجاريف وأجولة بطاطس وأحذية وشرائط ومكانس وحزم من الخيزران، وصفصاف معقود وبالطبع مئات من حزم الأعشاب، منها ما زرعته العمة زيلدا بنفسها ومنها ما جلبته من سوق الأغراض السحرية الذي يُقام كل عام ويوم واحد عند الميناء. فالعمة زيلدا - بصفتها ساحرة بيضاء - تستخدم الأعشاب في تحضير الوصفات السحرية وتحضير الجرعات والأدوية أيضًا، وسوف تكون شخصًا محظوظًا لو تمكنت من أن تذكر للعمة زيلدا نوعًا من الأعشاب لا تعرفه هي.

أخذت جينا تنظر حولها، وداخَلها إحساس رائع من كونها هي الوحيدة المستيقظة وأنها تستطيع أن تتجول بحُرية من دون أن يزعجها أحد. وخطرت على بالها فكرة؛ ما أغرب أن يجد المرء نفسه في كوخ حوائطه الأربعة مستقلة بذاتها لا تتصل بحوائط الجيران! إحساس بدا لها مختلفًا

تمامًا عن العشوائيات وضجيجها، لكن سرعان ما شعرت بالألفة مع المكان وكأنها في بيتها. وواصلت چينا جولتها الاستكشافية، فلاحظت المقاعد القديمة التي بدت رغم ذلك مريحة، والمائدة المتينة التي لا يبدو عليها أنها ستنهار في أي لحظة، والأرض الحجرية التي تم تنظيفها حديثًا، والتي لدهشتها، خلت تمامًا من أي شيء، *فيما عدا* بعض السجاجيد البالية، وزوج حذاء طويل خاصًا بالعمة زيلدا موجودًا بجانب الباب.

ثم ألقت نظرة خاطفة على المطبخ الصغير الملحق بالغرفة؛ بحوضه الكبير، وبعض البرطمانات والمقلايات النظيفة والمرتبة على مائدة صغيرة. لكن الجو فيه كان باردًا ولم يسمح لها بأن تطيل الوقوف فيه، ثم عادت لتتجول من جديد في الغرفة، حتى وصلت إلى نهايتها، إلى حيث يوجد حائط تعلوه أرفف مصطفة بزجاجات وبرطمانات الوصفات والعقاقير ذكرتها بالبيت؛ بعضها تعرَّفته وتذكرت أن سارة كانت تستخدمه، مثل **خلطات الضفادع، والخلطة السحرية، والخميرة الأساسية**، وهي جميعًا أسماء مألوفة لها، ثم رأت مكتبًا صغيرًا مغطًى برزم وأقلام وورق وكراسات نظيفة ومرتبة، تحيط به أكوام من كتب **السحر** متراصَّة فوق بعضها بميل، تصل إلى السقف وتكاد من كثرتها أن تغطي حائطًا بأكمله، تمامًا مثل البيت، فيما عدا أن الكتب لم تكن تغطي الأرضية أيضًا.

بدأ ضوء الفجر يتسلل عبر النوافذ المكسوة بطبقة من الندى، فقررت چينا أن تلقي نظرة بالخارج. سارت على أطراف أصابعها إلى الباب الخشبي الكبير، وببطء شديد رفعت مزلاجًا ضخمًا مزيتًا تمامًا وفتحته بسهولة، ثم دفعت الباب بحرص؛ آملةً ألا يُصدِر صريرًا، وهو بالفعل لم

يصدر؛ لأن العمة زيلدا - كسائر الساحرات - تهتم بوجه خاص بالأبواب. فوجود باب يصدر صريرًا في بيت ساحرة بيضاء يُعد فأل شؤم، وعلامة تدل على **سحر** أخطأ وجهته وتعاويذ بُنيت على أساس خاطئ.

تسللت چينا بهدوء إلى الخارج، وجلست على عتبة الباب ولحافها ملفوف حولها، وأنفاسها تتحول أمامها إلى ضباب وسط برودة وقت الفجر، كان الضباب الذي يعلو المستنقع كثيفًا ومنخفضًا، يحتضن الأرض ويدور كالدوامة على سطح الماء وحول جسر خشبي صغير يعبر قناة عريضة إلى المستنقع في الجهة الأخرى. كان الماء يفيض على ضفاف القناة التي تعرف بالغِمد، وهي قناة تحيط بجزيرة العمة زيلدا تمامًا كأنها خندق مائي. كان الماء فيه داكنًا ومسطحًا تمامًا، حتى بدا كأن هناك غلافًا رقيقًا مشدودًا على سطحه، ومع ذلك عندما أمعنت چينا النظر في الماء، رأته يزحف ببطء على أطراف ضفتي القناة ويهيم على أرض الجزيرة.

ولأن چينا كانت تراقب لسنوات طويلة حركة المد والجزر وهي ترتفع وتنخفض، علمت أن حركة المد مرتفعة هذا اليوم بعد أن كان القمر ليلة أمس بدرًا، كما علمت أيضًا أنها سرعان ما ستنخفض مرة أخرى، تمامًا كما كان يحدث في النهر الذي كانت تطل عليه من نافذتها الصغيرة في البيت، إلى أن ينخفض منسوب الماء بالقدر الذي ارتفع به، تاركًا وراءه الوحل والرمال للطيور المائية كي تغطس فيها بمناقيرها الطويلة المعقوفة.

بدأ قرص شمس الشتاء باصفراره الباهت ينبثق ببطء من وسط الضباب الكثيف، وبدأ السكون الذي كان يحيط بچينا يتبدل بأصوات

حيوانات عاودت نشاطها مع بزوغ الفجر. وفجأة، قفزت چينا وقد باغتها صوت قرق كأنه تمامًا قرق دجاج، ثم نظرت في اتجاه الصوت، ولدهشتها، رأت طيف مركب صيد يلوح من بعيد وسط الضباب.

وچينا، بعد أن شاهدت في الأربع والعشرين ساعة الماضية من الغرائب والعجائب التي ما كانت تحلم يومًا أنها ممكنة، لم يدهشها كثيرًا أن ترى مركب صيد طاقمه من الدجاج، وكل ما فعلته أنها جلست على عتبة الباب تنتظر أن يمر المركب أمامها. مرت عدة دقائق، وبدا لها أن المركب لا يتحرك، وتساءلت في سرها عما إذا كان المركب قد جنح على الجزيرة. وبعد دقائق، وبعد أن خفت حدة الضباب، تبينت الأمر؛ فمركب الصيد لم يكن إلا عشة دجاج، وقد بدأت عشرات الدجاجات عند الممر الخشبي عملها اليومي بانهماك، تنبش وتلتقط الحَبَّ بمناقيرها.

فقالت چينا في سرها: «فعلًا، إن الأشياء في حقيقتها ليست دائمًا كما تبدو».

ثم تسلل من وسط الضباب نداء طير يشبه صوت المزمار، وطرطشة مياه بدت لچينا، أو هكذا كانت تأمل، كأنها أصوات حيوانات صغيرة مكسوة بالفراء، ثم خطر على بالها أن هذه الأصوات قد تكون لثعابين البحر أو الأنقليس، لكنها قررت ألا تشغل بالها بذلك.

انحنت چينا للوراء واستندت إلى قائم الباب، وأخذت تتنفس في الهواء الطلق الذي تنبعث منه رائحة الملح الخفيفة التي تميز المستنقعات. إن عبيرها رائع. يبعث على السلام والسكينة.

وإذا بنكو يظهر فجأة ويقول لها: «بخ! وجدتك يا چين».

ردت چينا معترضةً: «نكو، أنت مزعج جدًا. اسكت».

جلس نكو إلى جوارها على عتبة الباب، وخطف طرفًا من لحافها ليلف به نفسه.

وقال لها: «لو سمحتِ».

فقالت: «ماذا قلت؟».

رد: «لو سمحتِ يا چينا، هل أستطيع أن أشاركك اللحاف؟

نعم تستطيع يا نكو. ياه! أشكرك كثيرًا يا چينا، هذا كرم منك. لا شكر على واجب يا نكو».

رد نكو بابتسامة عريضة: «إذن لن أفعل. أظن أنه من المفترض أن أنحني لكِ أيضًا وأنا ممسك بعباءتي بعد أن أصبحتِ الآن الآنسة سمو الأميرة».

ضحكت چينا وقالت: «الأولاد لا ينحنون وهم ممسكون بعباءاتهم، إنهم ينحنون فقط».

نهض نكو في التوِّ، متظاهرًا برفع قبعة ويلف ذراعه في الهواء بها، وانحني بشكل مبالغ فيه، و أخذت چينا تصفق له.

وضحكت مرة أخرى وقالت له: «رائع. يمكنك أن تفعل ذلك صباح كل يوم».

رد نكو بنبرة جادة جدًا، وهو يعيد قبعته الوهمية على رأسه: «أشكرك يا سمو الأميرة».

ثم قالت چينا، وقد بدا عليها النعاس: «ترى، أين الغول الآن؟».

تثاءب نكو، ثم قال لها: «على الأرجح في قاع بركة من برك الوحل في مكان ما. لا أظن أنه نائم ومغطى في سرير الآن».

«إنه لن يطيق ذلك، أليس كذلك؟ هذا أجف وأنظف مما يحتمل».

قال نكو: «إذن، أنا عن نفسي سوف أذهب لأنام مرة أخرى، فأنا لا أزال أحتاج لأكثر من ساعتين راحةً حتى لو لم تذهبي أنت أيضًا لتنامي»، ثم ترك لحاف چينا ودخل البيت مترنحًا وعاد إلى لحافه الذي كان مكومًا بجانب النار، ثم أدركت چينا أنها هي أيضًا مرهقة، وبدأت تشعر بوخز في جفونها ينبئها بأنها لم تنل كفايتها من النوم بعد، وبدأت تشعر بالبرد، فقامت ولفت اللحاف حولها، وانسحبت داخل الكوخ الذي بدأ يتسلل إليه ضوء الصباح وأوصدت الباب بمنتهى الهدوء.

19
العمة زيلدا



«صباح الخير عليكم جميعًا!».. هكذا أيقظت العمة زيلدا بمرح كومة الألحفة والمتدثرين بجوار النار. واستيقظ الفتى 412 في حالة من الهلع؛ ظنًا منه أنه لابد أن ينطلق مسرعًا من سريره في جيش الشباب ويصطف في الخارج خلال ثلاثين ثانية بالتمام والكمال في طابور الصباح الرسمي، ثم بدأ يحدق في حيرة إلى العمة زيلدا التي بدت له بعيدة كل البعد عن معذبه المعتاد صباح كل يوم؛ القائد كاديت ذي الرأس الحليق- والذي كان يستمتع جدًا بإلقاء دلو ماء مثلج على

كل من سوّلت له نفسه ألا يقفز من السرير على الفور. آخر مرة حدث له ذلك، اضطر الفتى 412 أن ينام في سرير مبلل وبارد لعدة أيام قبل أن يجف منه الماء. وجد الفتى 412 نفسه ينتفض واقفًا على قدميه، بوجه تعلوه نظرة فزع، لكنه سرعان ما بدأ يهدأ قليلًا عندما لاحظ أن العمة زيلدا لا تحمل دلو ماء مثلج في يدها بل صينية عليها أقداح مملوءة باللبن الساخن وكومة ضخمة من الخبز المدهون بالزبد.

قالت لهم العمة زيلدا: «لا داعي للاستعجال أيها الشباب. ابقوا كما أنتم في الدفء، واشربوا هذا قبل أن يبرد»، وقدمت للفتى 412 قدح لبن وأكبر قطعة خبز؛ فهو يحتاج أن «يُسمن» - هكذا حدثت نفسها.

عاد الفتى 412 يجلس في مكانه، ولف لحافه حول جسمه. وبحذر، شرب اللبن الساخن وأكل شريحة الخبز بالزبد، وكان بين كل رشفة وقضمة كبيرة ينظر حوله، وعيناه الرماديتان الداكنتان تحدقان بتوجس وخيفة.

استقرت العمة زيلدا على كرسي قديم بجوار النار، وألقت في المدفأة بعض القطع الخشبية، وسرعان ما تأججت النار، ثم أخذت في سعادة تدفئ يديها قرب النار، بينما أخذ الفتى 412 ينظر إليها كلما شعر أنها لا تلاحظه. كانت تلاحظه تمامًا، لكنها اعتادت رعاية الكائنات المجروحة والمذعورة، والفتى 412 في نظرها لا يختلف عن مجموعة الحيوانات التي تغذيها بانتظام حتى تستعيد عافيتها. بل في واقع الأمر، لقد ذكرها الفتى 412 بالأرنب الصغير المذعور الذي أنقذته منذ فترة ليست ببعيدة

من مخالب حيوان الوشق الذي يعيش في المستنقع. ظل هذا الوشق يعذب الأرنب لساعات، وهو يقرص أذنه ويقذفه هنا وهناك، مستمتعًا بمشهد الذعر المميت الذي بدا على الأرنب قبل أن يقرر في نهاية الأمر أن يكسر عنقه، لكن الوشق أثناء إحدى رمياته المتحمسة للأرنب المذعور ألقى به في طريق العمة زيلدا، فخطفته العمة زيلدا ودسته في حقيبتها الواسعة التي دائمًا ما تكون معها وذهبت به إلى البيت مباشرة، تاركةً الوشق يطوف في الأنحاء باحثًا عن فريسته المفقودة.

قضى ذلك الأرنب أيامًا بجوار النار ينظر إلى العمة زيلدا بنفس الطريقة التي ينظر بها الفتى 412 إليها الآن، وقالت العمة زيلدا في سرها، وهي تشغل نفسها بالنار، حرصًا منها على ألا تبث الخوف في قلب الفتى 412 بالنظر إليه طويلًا- إنه هو أيضًا سيتعافى بكل تأكيد كما تعافى الأرنب من قبل.

التقطت نظرات الفتى 412 التي كان ينظر بها من طرف عينه إلى العمة زيلدا- صورتها بشعرها الرمادي المجعد ووجنتيها الموردتين، وابتسامتها المريحة، وعينيها - عيني الساحرة الزرقاوين الودودتيْن اللتين تشعان بريقًا. لكنه احتاج لبضع نظرات أخرى كي يتفحص هيئتها كاملةً وهي في هذا الثوب الضخم المصنوع من الأقمشة الملونة، والذي يجعل من الصعب تحديد حجمها، خاصة وهي جالسة هكذا؛ فثوبها أعطى انطباعًا للفتى 412 بأن العمة زيلدا دخلت خيمة ضخمة مصنوعة من أقمشة مختلفة ذات ألوان زاهية، وأخرجت للتوّ رأسها من قمة الخيمة

لترى ما يجري حولها. وعلى الفور، ارتسمت ابتسامة على ركن فمه وهو يتخيل هذه الصورة.

لاحظت العمة زيلدا بوادر هذه الابتسامة وأسعدها ذلك؛ فهي لم تر من قبل فتى مذعورًا وشاحبًا بهذا الشكل، ويؤلمها أن تفكر فيما يمكن أن يكون قد أوصله إلى هذه الحالة. ورغم أنها سمعت من قبل كلامًا عن جيش الشباب أثناء زياراتها التي تقوم بها كل حين إلى الميناء، فإنها لم تصدق كل القصص البشعة التي كانت تسمعها؛ فهل من المعقول أن يكون هناك من يعامل الأطفال بهذه الطريقة؟ إلا أنها بدأت تتساءل في سرها الآن عما إذا كانت هذه القصص فيها من الواقع أكثر مما كانت تدرك.

ابتسمت العمة زيلدا للفتى 412، ثم دفعت نفسها لتنهض وهي تتأوه بارتياح، وذهبت تلهي نفسها في جلب مزيد من اللبن الساخن.

وفي تلك الأثناء، استيقظ نكو وچينا، حدّق بهما الفتى 412 ثم ابتعد قليلًا، متذكرًا تمامًا ما فعلته فيه چينا ليلة أمس. ابتسمت چينا له وجفونها لا تزال مثقلة بالنوم، ثم قالت له: «هل نمت جيدًا؟».

فأومأ لها برأسه ثم أخذ يحدق إلى فنجانه الذي لم يتبق فيه سوى قليل من اللبن.

اعتدل نكو وجلس، وهمهم بتحية في اتجاه چينا والفتى 412، ثم خطف شريحة خبز، وراح يأكلها مندهشًا أن يجد نفسه يتضور جوعًا إلى هذا الحد، ثم عادت العمة زيلدا إلى جوار النار حاملةً معها إبريقًا مملوءًا باللبن.

ابتسمت لنكو وقالت له: «نكو! لقد تغيرت بعض الشيء منذ آخر مرة رأيتك فيها. كنت حينها مجرد طفل صغير. كان ذلك أيام ما كنت أزور أمك وأباك في العشوائيات. يا لها من أيام جميلة!».

وتنهدت، ثم أعطت له اللبن الساخن.

وقالت لچينا وهي تبتسم لها ابتسامة عريضة: «وهذه حبيبتنا چينا! كنت دائمًا أود أن أزوركم وأراكِ، لكن الأمور باتت صعبة جدًا بعد... لا بأس، بعد فترة. لكن سايلاس أوضح الصورة وحكى لي كل شيء عنكم».

ابتسمت چينا بخجل، سعيدةً بأن العمة زيلدا قالت لها «حبيبتنا»، ثم أخذت فنجان اللبن الذي قدمته لها العمة وجلست بكسلٍ، تنظر إلى النار المشتعلة.

عم الجميع صمت هانئ لبعض الوقت، لم يقطعه سوى غطيط سايلاس وماكسي الصادر عن الطابق العلوي، وقرمشة شرائح الخبز في الأسفل. وبينما كانت چينا مستندة إلى الحائط بجانب النار، ظنت أنها تسمع مواءً خافتًا داخل الحائط. ولأن هذا بداهة أمر مستحيل، قررت في سريرتها أن الصوت لا بد أن يكون قادمًا من الخارج وتجاهلته، لكن المواء استمر وأصبح أعلى وأكثر حدة - هكذا شعرت چينا - فوضعت أذنها على الحائط وسمعت صوتًا واضحًا لقطة غاضبة.

فقالت: «هناك قطة في الحائط...».

رد نكو قائلًا: «هيا، أكمليها، إنها مزحة جديدة لا أعرفها».

«إنها ليست مزحة. هناك بالفعل قطة في الحائط. أنا أسمعها».

فهبّت العمة زيلدا واقفةً، وقالت:

«يا للهول! لقد نسيت تمامًا أمر بيرت! چينا حبيبتي، هل تسمحين وتفتحين الباب للقطة»، لكن چينا بدت مرتبكة.

فأشارت لها العمة زيلدا إلى باب خشبي صغير موجود عند أسفل الحائط بجوارها. شدت چينا الباب بقوة، فانفتح فجأة، وخرجت منه بطة تتهادى في مشيتها.

قالت العمة زيلدا بنبرة اعتذار: «أنا آسفة يا عزيزتي بيرت. انتظرتِ هنا لوقت طويل؟».

أخذت بيرت تتهادى بلا اتزان فوق كومة الألحفة، ثم جلست بجانب النار. كانت البطة غاضبة، وأدارت ظهرها عن عمدٍ للعمة زيلدا ونفشت ريشها، فانحنت العمة زيلدا وربتت على ظهرها.

ثم قالت: «دعوني أقدم لكم قطتي بيرت».

وإذا بثلاثة أزواج من العيون تحدق باندهاش إلى العمة زيلدا. غَصَّ نكو وهو يبتلع اللبن وأخذ يسعل، أما الفتى 412 فبدا مُحبَطًا، فبعد أن بدأ يحب العمة زيلدا، اكتشف أنها أيضًا مجنونة كالآخرين.

قالت چينا في سرها إنه لا بد لأحد منهم أن يقول لها الحقيقة، ومن الأفضل أن يقولوا لها ذلك مباشرة، قبل أن يقحموا أنفسهم بتحويل الأمر إلى (دعنا ندعي أن البطة هي القطة كي نمزح فقط مع العمة زيلدا)، فقالت: «لكن بيرت بطة».

ردت العمة زيلدا: «نعم، نعم. إنها بالطبع بطة، أو بالأحرى هي بطة منذ فترة، أليس كذلك يا بيرت؟».

أطلقت البطة مواءً قصيرًا.

فأردفت: «المقصد أن البط يستطيع الطيران والسباحة، وهذا أمر مفيد جدًا في المستنقعات، وأنا لم أصادف قطة واحدة تحب أن تبتل أرجلها، وكذلك بيرت؛ ولذا قررت أن تصبح بطة لتستمتع بالماء. أنتِ بالفعل تستمتعين بها يا بيرت، أليس كذلك؟».

لم تجبها، فلأن بيرت في الأصل قطة، فقد استغرقت في النوم بجانب النار.

أخذت چينا تربت على ظهر البطة وتتحسس ريشها، وتتساءل في سرها عما إذا كان ملمسها مثل فروة القطة، لكنها وجدت ريشها لينًا وأملس تمامًا كريش البط.

فهمست لها چينا: «مرحبًا يا بيرت».

لم يتفوه نكو والفتى 412 بكلمة، فلم يكن أيٌّ منهما مستعدًا لأن يتحدث مع بطة.

ثم قالت العمة زيلدا: «مسكينة عزيزتي بيرت. إنها كثيرًا ما تحبس في الخارج. فمنذ أن دخلت الجنيات الصغيرة السمراء التي تعيش في أرض المستنقع المتحرك من خلال نفق القطة وأنا أحاول دائمًا أن أجعل بابه **مسحورًا بتعويذة الغلق المحكم**. فلا تتخيلوا صدمتي عندما نزلت من الطابق العلوي صباح ذلك اليوم لأجد المكان مليئًا بهذه الكائنات الصغيرة الشريرة، كانت تبدو كبحرٍ من الوحل وهي تتسلق بأعداد كبيرة على الجدران وتدس أصابعها الطويلة المتيبسة في كل شيء وتحدق إليّ بعيونها الصغيرة الحمراء. لقد أكلتْ يومها كل شيء يمكن أن تأكله،

وما لم تتمكن من أكله أشاعت فيه الفوضى. وبعد ذلك بالطبع، ما إن رأتني حتى بدأت تصيح بصياحها المدوي». اعترى العمة زيلدا رجفة، ثم واصلت قائلة: «كان الوضع سيئًا للغاية، ولولا الغول لا أعلم ماذا كنت أفعل. لقد قضيت أسابيع أنظف الوحل من على الكتب، ناهيكم عن إعادة تركيب الوصفات مرة أخرى. بمناسبة الحديث عن الوحل، أيحب أحدكم أن يأخذ غطسة في العين الساخنة؟».

بعد هذا الوقت بقليل، كانت جينا ونكو يشعران أخيرًا بالنظافة بعد أن أرشدتهم العمة زيلدا إلى المكان الذي ينبع منه ماء العين الساخنة في كوخ الاستحمام بالفناء الخلفي، بينما رفض الفتى 412 أي شيء من هذا القبيل، وجلس رابضًا بجانب النار، بقبعته الحمراء محشورة على رأسه حتى أذنيه وبسترة البحارة التي يرتديها والمصنوعة من جلد الغنم. فالفتى 412 كان يشعر وكأن برد اليوم السابق مايزال ينخر في عظامه، حتى إنه ظن أنه لن يشعر بالدفء أبدًا. تركته العمة زيلدا يجلس بجانب النار لبعض الوقت، لكن عندما قررت جينا ونكو أن يخرجا ويستكشفا الجزيرة، دفعته ليخرج معهما.

ثم قالت وهي تناول نكو مصباحًا: «انتظر، خذ هذا معك». فنظر نكو إلى العمة زيلدا نظرة ساخرة؛ إذ ماذا سيفعلون بمصباح وهم في وضح النهار الآن؟!

فقالت العمة زيلدا: «الضباب المالح».

رد نكو متسائلًا: «ماذا؟».

فشرحت له قائلة: «الضباب المالح. إنه للضباب المالح الذي يعلو المستنقعات والذي ينجرف من جهة البحر. انظر، إنه يحاصرنا من كل الجهات اليوم». وأشاحت له بيدها، ثم واصلت: «في الأيام الصافية، يمكنك أن ترى الميناء من حيث نحن واقفون هنا. والضباب المالح منخفض اليوم، ونحن على ارتفاع يجعلنا أعلى منه، لكن لو ارتفع فسوف يغطينا، وحينها سوف تحتاجون إلى المصباح».

ومن ثم، أخذ نكو المصباح، وانطلقوا جميعًا يستكشفون الجزيرة، وهم محاصرون بالضباب المالح الممتد كالسحابة المموجة فوق المستنقعات في الأسفل، بينما جلست العمة زيلدا وسايلاس ومارشا بالداخل يتحدثون في أمور جادة بجانب النار.

كانت جينا هي التي تتقدمهم، يتبعها نكو مباشرة، بينما الفتى 412 كان يسير متقهقرًا في الخلف، وكل حين تعتريه رعشة، ويتمنى في سره لو يعود ويجلس بجانب النار، كان طقس المستنقعات الدافئ الرطب قد أذاب الثلوج؛ مما جعل الأرض مبللة وموحلة، سارت جينا في الممشى الذي يهبط بهم إلى ضفاف قناة الغِمد. كانت حركة المد قد انحسرت واختفى الماء تمامًا، تاركًا وحل المستنقعات، والذي بات مغطى بآثار أرجل مئات الطيور، وبعض الخطوط المتعرجة لآثار ثعابين الماء.

كانت جزيرة دراجين نفسها تمتد لمسافة ربع ميل، وتبدو كأنها بيضة خضراء عملاقة شُقت بالطول وغطست أعلى سطح المستنقع، وامتد حول الجزيرة ممشى مواز لضفة قناة الغِمد، وهو الطريق الذي انطلقت فيه جينا، وراحت تتنفس الهواء البارد المشبع بالملح الذي يهب عليهم

من جهة الضباب المالح، راق چينا محاصرة الضباب المالح لهم، وجعلها تشعر بالأمان. فعلى الأقل لا أحد يستطيع أن يعثر عليهم الآن. وعدا مركب عشة الفراخ الذي رأته چينا ونكو صباح ذلك اليوم، وجدوا في طريقهم ماعزة مربوطة بحبل وترعى وسط بعض الأعشاب الطويلة، كما وجدوا مستعمرة أرانب تعيش في جحور على الضفة، قامت العمة زيلدا بعمل سور لها حتى تبعد الأرانب عن قطعة الأرض التي تزرعها بالكرنب شتاءً.

مروا أثناء سيرهم في الممشى البالي بجحور وأنواع عديدة من الكرنب وانعطفوا إلى رقعة منخفضة من الوحل وحشائش كان اخضرارها الزاهي مريبًا.

همست چينا لنكو تقول له وهي تتراجع قليلًا للوراء: «أتعتقد أن هناك احتمالًا لوجود بعض هذه الجنيات الصغيرة السمراء؟».

وهنالك، ظهرت بعض الفقاقيع وطفت على سطح الوحل، وسمعوا ضجيجًا وكأن هناك من يحاول أن يسحب حذاءً برقبة خارج المستنقع. قفزت چينا للوراء مذعورة وهي ترى الوحل يفور ويرتفع.

وإذا بالغول بوجهه البني العريض يطفو على السطح ويقول: «لو كان هذا لا يخصني، فدعوني وشأني» وراح يفتح ويغمض عينيه السوداوين المستديرتين ليزيل عنهما الوحل، ونظر إليهم نظرة غائمة.

ثم قال ببطء: «صباح الخير».

ردت چينا قائلة: «صباح الخير يا سيد غول».

«لا داعي لأن تناديني بسيد، غول فقط».

سألته چينا بأدب: «هل هذا هو المكان الذي تسكن فيه؟ أتمنى ألا نكون قد أزعجناك».

رد: «في الحقيقة أنتم أزعجتموني، فأنا أنام بالنهار»، ثم راح يفتح ويغمض عينيه من جديد، وبدأ يغطس في الوحل وهو يقول لهم: «لكن ليس بسببكم أنتم، المهم لا تذكروا كلمة الجنيات الصغيرة السمراء؛ لأن ذلك يوقظني من النوم. فمجرد سماع الكلمة يجعلني أنتفض مستيقظًا من نومي».

فقالت چينا: «أنا آسفة، سوف نرحل بعيدًا ونتركك في سلام».

رد الغول موافقًا: «نعم، نعم»، ثم اختفى مرة أخرى في الوحل.

وهكذا، عاد نكو وچينا والفتى 412 على أطراف أصابعهم.

ثم قالت چينا: «الغول كان غاضبًا، أليس كذلك؟».

رد نكو قائلًا: «أظن أنه هكذا دائمًا، إنه على ما يرام».

قالت چينا: «أتمنى ذلك».

ثم واصلوا طريقهم دائرين حول الجزيرة حتى وصلوا إلى النهاية؛ إلى «البيضة» الخضراء، وهي عبارة عن تلة ضخمة خضراء تتناثر عليها شجيرات شوكية صغيرة ومستديرة، تجولوا عبر التلة، ثم توقفوا قليلًا وأخذوا يراقبون الضباب المالح وهو يدور أسفلهم كالدوامة.

التزم نكو وچينا الصمت؛ حتى لا يوقظا الغول من جديد، لكن عندما وصلوا إلى قمة التلة ووقفوا عليها، قالت چينا: «ألا تشعر بشيء غريب أسفل قدميك؟».

رد نكو: «الآن وقد ذكرت ذلك، نعم، هناك شيء غير مريح في حذائي الطويل. أعتقد أنه ما زال مبللًا».

«لا أقصد ذلك، بل أقصد الأرض تحت قدميك، إنها تبدو وكأن بها... وكأن بها...».

فزودها نكو بالكلمة التي تبحث عنها قائلًا: «فجوات».

«نعم، هذا ما أقصده، فجوات»، ثم دكت الأرض بقدمها بقوة فوجدتها صُلبة، رغم إحساسها بأن شيئًا يجعلها تبدو مختلفة.

فقال نكو: «لا بد أنها جحور كل تلك الأرانب».

ثم واصلوا جولتهم نازلين من فوق التلة وتوجهوا نحو بركة بط بجانبها بيت خشبي للبط. لاحظت مجموعة من البط وجود هؤلاء الزوار فبدأت تتهادى على العشب الأخضر آملةً أن يكونوا قد جلبوا معهم بعض الخبز لها.

فإذا بجينا تقول فجأة وهي تبحث حولها عن الفتى 412: «نكو، أين ذهب؟».

قال نكو: «ربما عاد إلى الكوخ، أعتقد أنه لا يسعده كثيرًا أن يكون في صحبتنا».

«لا، لا أعتقد. لكن، أما كان من المفترض أن نضعه نصب أعيننا ونرعاه؟ أقصد أنه ربما سقط في قطعة الأرض الموحلة التي يسكن فيها الغول، أو في القناة، أو ربما وقع في يد جنية من الجنيات الصغيرة السمراء».

«صه! سوف توقظين الغول مرة أخرى».

«لكن ربما فعلًا أن جنية أخذته، ينبغي علينا أن نحاول البحث عنه».

قال نكو بتردد: «أعتقد أن العمة زيلدا ستحزن لو فقدناه».

فردت جينا: «وأنا أيضًا».

فسألها نكو: «لا أظن أنك تُحبينه، أليس كذلك؟ ليس بعد أن كاد هذا التافه الأحمق يتسبب في قتلنا».

ردت جينا: «إنه لم يقصد ذلك، هذا هو ما أدركته الآن. لقد كان خائفًا مثلنا تمامًا، ولو فكرت قليلًا فستجد أنه غالبًا لا يعرف شيئًا في حياته سوى جيش الشباب الذي عاش فيه طوال عمره ولم يكن لديه يومًا أم ولا أب. إنه ليس مثلنا. أقصد ليس مثلك».

فقال لها نكو: «لقد كان ولا يزال لك أم وأب يا حمقاء. كما تشائين إذن، سوف نذهب للبحث عن هذا الفتى إذا كانت هذه فعلًا هي رغبتك».

نظرت جينا حولها، وهي تتساءل في سرها من أين يبدأن، وأدركت أنها ما عادت ترى الكوخ، بل في واقع الأمر، لم تعد تستطيع أن ترى إلا نكو، فقط بسبب المصباح الذي يشع ضوءًا أحمر خافتًا.

لقد ارتفع الضباب المالح وأحاط بهم.

20

الفتى 412



لقد سقط *الفتى* 412 في حفرة. إنه لم يقصد ذلك، ولا يعلم أصلًا كيف حدث هذا. لكن ها هو هنا الآن في قاع حفرة.

وكان قبل أن يسقط في الحفرة مباشرة قد قرر في سره أنه حتمًا ما عاد يحتمل التجول في موكب الفتاة الأميرة والفتى الساحر؛ فلقد بدا عليهما أنهما لا يريدان صحبته، كما أنه شعر بالبرد والملل. ومن ثم، قرر أن يتسلل عائدًا إلى الكوخ؛ آملًا أن ينفرد بالجلوس مع العمة زيلدا بعض الوقت.

ثم فوجئ بالضباب المالح يهجم عليه.

لكن لحسن حظه أن جيش الشباب على الأقل كان قد أعده لمواجهة مثل هذه المواقف، فقد سبق أن أُرسلت فرقته مرات عديدة إلى الغابة في ليالٍ يغلفها الضباب، وتُركت هناك ليبحث فتيانها وحدهم عن

طريق العودة. وبالطبع لم يكن الجميع يحالفهم الحظ ويعودون؛ فكان هناك دائمًا فتى سيئ الحظ يقع في براثن ولفرين، أو يقع في فخ نصبته إحدى ساحرات ويندرون. لكن الفتى 412 كان محظوظًا، وتعلَّم كيف يحافظ على هدوئه ويتحرك بسرعة وسط ضباب الليل. وهكذا، بدأ الفتى 412، بهدوء تام كالضباب المالح نفسه، يأخذ طريق العودة إلى الكوخ، ومر بلحظة كان فيها قريبًا من نكو وجينا لدرجة أنهما لو كانا مدا ذراعيهما حينها لتمكنا من لمسه، لكنه سحب نفسه ومر بجوارهما في هدوء، مستمتعًا بحُريته وإحساسه بالاستقلال.

بعد قليل، وصل الفتى 412 إلى التلة الكبيرة المكسوة بالعشب الأخضر التي تقع عند نهاية الجزيرة. أربكه ذلك؛ لأنه كان واثقًا من أنه مر بها من قبل، ومن المفترض أن يكون في ذلك الوقت قد أوشك على الوصول إلى الكوخ. ترى، أتكون هذه التلة تلة أخرى؟ ربما أنها تلة تقع عند الطرف الآخر للجزيرة.. ثم بدأ يتساءل في سره: هل ضل الطريق؟ وخطر على باله أنه قد يدور ويدور مرات عديدة حول الجزيرة دون أن يصل *أبدًا* إلى الكوخ. ومع شرود ذهنه واستغراقه في التفكير للخروج من هذا المأزق، زلت قدمه وسقط برأسه وسط شجيرة صغيرة، وللأسف كانت شوكية، ومن هنا كانت البداية. ففي لحظة، كان موجودًا فوق الشجيرة، ثم وجد نفسه وقد هوى داخلها وسقط في ظلام دامس.

صرخة الذهول التي انطلقت منه ضاعت وسط الضباب المالح المثقل بالرطوبة، وهبط مرتطمًا بشدة على ظهره. وللحظات، ظل الفتى 412 ممددًا

وجسمه ملتوٍ، عاجزًا عن الحركة، وتساءل في سره عما إذا كان قد أصيب بكسر في إحدى عظامه، فاعتدل جالسًا، وعلم أنه لم يُصب بأدنى كسر؛ لأنه لم يشعر بأي ألم شديد في جسمه. فلحسن حظه أنه سقط على قاع شبه رملي، امتص صدمة السقوط. همَّ الفتى 412 بالنهوض، إلا أن رأسه ارتطم بصخرة منخفضة تعلوه. وهنالك، شعر فعلًا بألم شديد.

مد الفتى 412 يده لأعلى، بينما يده الأخرى تحمي رأسه، وحاول أن يتحسس الحفرة التي سقط فيها، لكن الصخرة كان سطحها يميل لأعلى بانسياب تام ولا يوحي له بأي حل؛ بأي شيء يستطيع أن يتشبث به، أو يسند قدمه ليتسلقها. لا يتحسس سوى صخرة باردة كالجليد سطحها ناعم كالحرير.

كما كان الظلام دامسًا داخل الحفرة، وليس هناك أي وميض يأتي من فوقه. ورغم أنه أخذ يُحدق طويلًا وسط هذا الظلام آملًا أن تألفه عيناه بدا كأنه فقد بصره.

جثا الفتى 412 على يديه وركبتيه وبدأ يتحسس الأرض الرملية من حوله بعد أن طرأت له فكرة جامحة بأنه ربما يستطيع أن يحفر طريقًا للخروج. لكن ما إن بدأت أصابعه تحفر في الرمال حتى اصطدمت بأرض حجرية ناعمة، ومن فرط نعومتها وبرودتها تساءل في سره عما إذا كان ذلك رخامًا؛ فقد سبق له أن رأى الرخام عدة مرات أثناء دوريات الحراسة عند القصر، لكن أن يكون موجودًا هنا في مستنقعات مرام، في وسط هذا العدم، فهذا أمر غير مفهوم على الإطلاق.

جلس الفتى 412 على الأرض الرملية، وأخذ يحرّك أصابعه المتوترة وسط الرمال، يفكر في مخرج سريع من هذا المأزق. وبينما كان يتساءل في سره هل تعثر حظه وتوقف عند هذا الحد- وقعت يداه على شيء معدني. في أول الأمر، داخَله أمل؛ فربما هذا هو ما يبحث عنه، مزلاج خفي لمقبض سري. لكن قلبه خفق عندما ضم يده على هذا الشيء المعدني ووجد أنه ليس إلا مجرد خاتم. رفع الفتى 412 الخاتم وأخذ يهزه في راحة يده ويحدق به رغم أنه كان لا يرى شيئًا في هذا الظلام الدامس.

ثم همهم قائلًا في سره، وهو يحاول أن يرى الخاتم، ويفتح عينيه بأقصى اتساع لهما، وكأن ذلك سيُحدث فرقًا: «ليتني كان معي ضوء».

وظل قابضًا على الخاتم في راحته فبدأ الخاتم- بعد مئات السنين التي قضاها وحيدًا في ظلام هذا المكان البارد أسفل سطح الأرض- يتسرب إليه ببطء دفء من تلك اليد البشرية التي تمسكه لأول مرة منذ زمن سحيق؛ يوم أن فُقد.

بدأ الفتى 412 يشعر بالارتياح وهو جالس هكذا بالخاتم في يده، وأدرك أن الظلام لا يخيفه، وأنه يشعر بالأمان. بل في واقع الأمر وجد نفسه يشعر بأمان لم يشعر به منذ سنوات طويلة؛ فهو الآن يبعد أميالًا طويلة عن معذبيه في جيش الشباب، ويعلم أنهم لن يتمكنوا أبدًا من العثور عليه هنا. فابتسم، وتقهقر للخلف مستندًا إلى الحائط، لا يساوره شك في أنه سوف يجد طريقًا للخروج.

ثم فكر في أن يجرب الخاتم في أصابع يده، فوجده أكبر من كل أصابعه العجفاء. فأدخله في إبهامه اليمنى، وهي الإصبع الأكثر امتلاءً، وأخذ يلفه حولها مستمتعًا بإحساس الدفء؛ أو بالأحرى إحساس الحرارة المنبعث منه. وسرعان ما اعتراه إحساس غريب؛ فالخاتم- والذي بدا كأنه عاد إلى الحياة- بدأ يُحكم دائرته حول إبهامه، وبات الآن مقاسه تمامًا، ولم يقتصر الأمر على ذلك؛ إذ بدأ الخاتم يُشع ضوءًا ذهبيًا خافتًا.

فأخذ الفتى 412 يحدق إليه في سعادة غامرة، وهو يرى غنيمته لأول مرة؛ إنه لم ير خاتمًا مدهشًا كهذا الخاتم من قبل؛ رأى تنينًا ملفوفًا حول إصبعه، وذيله مشبوك في فمه، وعيناه الزمرديتان الخضراوان تحدقان إلى وجهه، فاعتراه إحساس غريب تمامًا من فكرة أن التنين نفسه يحدق به. وبحماس، وقف ومد يده اليمنى التي يلبس بها الخاتم أمام عينيه؛ هذا الخاتم التنيني الذي بات ملكًا خالصًا له؛ الخاتم الذي أصبح الآن يشع ضوءًا في غاية السطوع وكأنه سراج منير.

بدأ الفتى 412 ينظر حوله في الضوء الذهبي الصادر عن خاتمه، فأدرك أنه موجود في نهاية نفق، ورأى أمامه ممرًا شُق بدقة وسط الصخور، عرضه ضيق وجوانبه مرتفعة، ويواصل انحداره أسفل سطح الأرض.

نظر الفتى 412 لأعلى، وهو يرفع يده بعيدًا فوق رأسه وسط الظلام الآتي من أعلى، لكنه وجد أنه -لا محالة- لن يستطيع التسلق لأعلى

والخروج، فقرر مترددًا أنه ليس أمامه سوى أن يتبع مسار النفق آملًا أن يؤدي به إلى الخارج.

وهكذا، انطلق الفتى 412 في طريقه وهو يمد يده بالخاتم أمامه، كانت الأرض الرملية للنفق تمتد في مسار منحدر انحدارًا ثابتًا للأسفل، مع التفافه وانعطافه من هنا وهناك، مؤديًا به إلى نهايات مسدودة وأحيانًا يلف به في مسارات دائرية، حتى فقد الفتى 412 في نهاية المطاف إحساسه بأي اتجاه وصار يشعر بدوار من فرط حيرته، وبدا له النفق كأن من بناه تعمد وضعه في حيرة وارتباك، ولقد نجح في ذلك.

وهذا هو السبب - كما ظن الفتى 412 - الذي جعله يسقط من فوق درجات السلم.

التقط الفتى 412 أنفاسه وهو عند أسفل السلم، وقال في سره إنه بخير، لكن رغم أنه لم يبتعد كثيرًا شعر بأن هناك شيئًا مفقودًا منه. نعم. *لقد فقد الخاتم*. ولأول مرة منذ أن دخل هذا النفق يشعر بالخوف. إن الخاتم لم يكن فقط يضيء له الطريق، بل كان يؤنسه، ويمده بالدفء، وهو ما لاحظه الفتى 412 عندما بدأ جسمه يرتعش من شدة البرودة، نظر حوله بعينين تحدقان إلى الظلام الدامس، باحثًا بلا أمل عن الضوء الذهبي الخافت.

لكنه لم ير سوى ظلام. *ظلام فقط*. ووجد نفسه يشعر بالرثاء لحاله؛ كرثائه لحال صديقه الحميم الفتى 409 عندما سقط من على متن مركب

أثناء حملة ليلية ولم يُسمح لهم بالتوقف لانتشاله. أطرق الفتى 412 رأسه ووضعه بين راحتيه، وأحسَّ أنه استسلم للأمر الواقع.

وفجأة سمع صوتًا جميلًا فيه رقة وعذوبة يتسلل إليه، ويناديه للتوجه نحوه؛ فتقدم الفتى 412 زاحفًا على يديه وقدميه بخطوات صغيرة للغاية؛ تجنبًا للسقوط من فوق درجات أخرى ثانيةً، متوجهًا نحو الصوت، يرافقه برد الرخام الذي يزحف عليه، وراح يزحف بثبات نحو الصوت وبات الشدو أكثر رقة وأقل إلحاحًا، إلى أن خمد على نحو غريب. وفجأة، أدرك الفتى 412 أنه يضع يده فوق الخاتم.

وهكذا، تمكن الفتى 412 من العثور على الخاتم، أو بالأحرى تمكن الخاتم من العثور عليه. وبابتسامة عريضة تغمرها السعادة، أدخل التنين في أصبعه، وبدأ الظلام يتلاشى من حوله رويدًا رويدًا.

كان الأمر سهلًا بعد ذلك؛ حيث أرشد الخاتم الفتى 412 إلى الطريق على امتداد النفق الذي تحول إلى نفق متسع ومستقيم، له جدران رخامية مزينة - في ثراء - بمئات الأشكال البسيطة بدرجات زاهية من الأزرق والأصفر والأحمر، لكنه لم يتوقف كثيرًا عند هذه الأشكال، إنه لا يريد سوى طريق للخروج. ومن ثم، ظل يواصل السير إلى أن وجد ما كان يأمل أن يجده؛ وجد سلمًا يؤدي لأعلى. خالج الفتى 412 شعور بالارتياح، وبدأ يتسلق السلم، ووجد نفسه يسير لأعلى على منحدر رملي شديد الانحدار، والذي سرعان ما أدى إلى نهاية مسدودة.

وأخيرًا، وسط الضوء الصادر عن الخاتم، رأى الفتى 412 مخرجه؛ إنه سلم متنقل مستند إلى حائط ويعلوه باب مسحور. تسلق السلم، ووصل لأعلاه، ثم دفع الباب. ولحسن حظه، تحرك. دفعه بقوة أكبر. فانفتح وأخرج الفتى 412 رأسه ليطل منه فلم يجد سوى ظلام حوله، لكن الاختلاف الذي شعر به في الهواء حدَّثه بأنه بات الآن فوق سطح الأرض. انتظر لوهلة يحاول أن يستجمع قواه، وحينئذٍ لاحظ شريطًا رفيعًا من الضوء ممتدًا على الأرض، وأخذ يتنفس الصعداء؛ لقد علم أين هو الآن؛ إنه في دولاب العمة زيلدا الخاص بالوصفات غير المستقرة والسموم الخاصة. وفي صمت، دفع الفتى 412 نفسه من الباب المسحور، وأوصده وراءه وأعاد السجادة التي كانت تغطيه إلى مكانها، ثم - بحرص شديد - فتح باب الدولاب وأطل منه ليرى ما إذا كان هناك أحد في الخارج أم لا.

كانت العمة زيلدا في المطبخ تحضِّر وصفة جديدة، ومع تسلل الفتى 412 أمام باب المطبخ رفعت العمة زيلدا عينيها ونظرت إليه نظرة عابرة، لكنها بدت منشغلة بعملها، فلم تكلمه، فمرَّ مسرعًا وتوجه ليجلس بجانب النار وبدا عليه الإرهاق فجأة، فخلع خاتمه التنيني ودسه في مأمن - الجيب الذي اكتشفه داخل قبعته الحمراء - واستلقى بجوار بيرت على السجادة أمام النار، وغطَّ في نوم عميق.

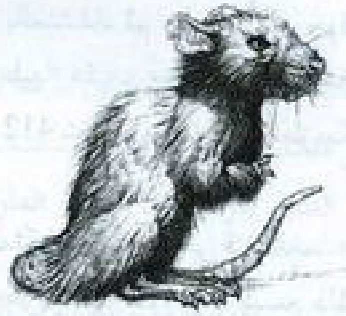
ولأنه كان مستغرقًا في نومه فلم يسمع مارشا بعد أن نزلت من الطابق العلوي وأمرت أعلى رزمة من رزم كتب العمة زيلدا السحرية وأكثرها عُرضةً للتهاوي بأن ترفع نفسها. وبكل تأكيد لم يسمع ذلك الصوت

الناعم لكتاب كبير وقديم هو كتاب *فك السحر الأسود*، وهو يجذب نفسه من أسفل الرزمة المتأرجحة، ثم يطير ويهبط على أكثر المقاعد راحةً بجانب النار، كما أنه لم يسمع صوت صفحاته وهي تتقلب بانصياع تام إلى أن وجدت الصفحة المحددة التي تريدها مارشا، حتى إنه لم يسمع صرخة مارشا عندما كادت تدوسه وهي في طريقها إلى المقعد، وداست على بيرت بدلًا منه، فقد كان يرى حلمًا غريبًا عن سرب من البط والقطط الغاضبة تطرده من النفق، ثم تحمله عاليًا إلى السماء وعلمته كيف يطير.

وارتسمت ابتسامة على وجه الفتى 412 أثناء نومه وأحلامه؛ لقد أصبح حُرًّا.

21

الجُرذ



سألت *چينا الفتى* 412: «كيف عُدت بهذه السرعة؟».

لقد استغرق الأمر من چينا ونكو فترة الظهيرة بأكملها كي يعثرا على طريق العودة إلى الكوخ وسط الضباب المالح. وطوال ذلك الوقت الذي ضلوا فيه الطريق، كان نكو يحاول أن يحدد المراكب العشرة التي يفضلها، ثم بدأ يتخيل- بعد أن هاجمه الجوع- أفضل عشاء يحب أن يتناوله، بينما قضت چينا معظم ذلك الوقت تفكر بتوتر فيما يمكن أن يكون قد ألمَّ بالفتى 412، وقررت أنها ستعامله بطريقة ألطف من الآن فصاعدًا. هذا لو لم يكن قد سقط أساسًا في قناة الغِمد وغرق.

ولذلك، عندما عادت جينا أخيرًا إلى الكوخ وهي مبللة وتشعر بالبرد، ولاتزال آثار الضباب المالح عالقة بملابسها، لتجد الفتى 412 يجلس متأنقًا إلى جوار العمة زيلدا على الأريكة، وهو يبدو راضيًا عن نفسه، لم يستفزها ذلك بالقدر الذي استفز نكو الذي اكتفى بأن غمغم متذمرًا وخرج ليأخذ غطسًا في العين الساخنة، أما جينا فجعلت العمة زيلدا تجفف لها شعرها بالمنشفة، ثم جلست إلى جوار الفتى 412 وسألته السؤال الذي يلح عليها: «كيف عُدت بهذه السرعة؟».

نظر إليها الفتى 412 بنظرة بلهاء دون أن ينطق بكلمة كعادته، فحاولت جينا مرة أخرى:

«لقد خشيت أن تكون قد وقعت في قناة الغِمد».

بدا الاندهاش على الفتى 412 وهو يسمع ذلك من جينا؛ فهو لم يتوقع أن الفتاة الأميرة سيعنيها ما إذا كان قد سقط في القناة أو حتى في حفرة، على ذكر ذلك.

كررت جينا: «سررتُ لعودتك سالمًا.. لقد استغرقت منا العودة وقتًا طويلًا، وكنا طوال الوقت نضل طريقنا».

ابتسم الفتى 412، وكادت تقفز داخله رغبة بأن يحكي لها عما حدث له ويريها خاتمه، لكن السنوات الطويلة التي قضاها ملتزمًا بكتمان أسراره علمته كيف يكون حريصًا، والشخص الوحيد الذي شاركه في أسراره كان الفتى 409، ورغم أن جينا بها لمسة لطيفة تذكره بالفتى 409، فإنها أميرة، والأسوأ من ذلك، أنها فتاة؛ ولذا التزم الصمت.

لاحظت جينا الابتسامة التي علت وجهه وأسعدها ذلك، وكانت على وشك أن تطرح عليه سؤالًا آخر، عندما صاحت العمة زيلدا بصوت هز زجاجات الوصفات وهي تقول: «هناك جُرذ رسول!».

انتفضت مارشا التي كانت جالسة إلى مكتب العمة زيلدا بعيدًا في نهاية الغرفة من مكانها، ولدهشة جينا قبضت على يدها وجرتها بالقوة من فوق الأريكة.

قالت لها جينا معترضةً: «ما هذا؟!»، لكن مارشا لم تُعِر اعتراضها أي اهتمام، وتوجهت إلى السلم وهي تجرها. وفي منتصف السلم، اصطدمت بسايلاس وماكسي اللذين هرعا من الطابق العلوي ليشاهدا الجُرذ الرسول.

قالت مارشا بحدة، وهي تحاول أن تبتعد بقدر الإمكان عن ماكسي أثناء نزوله متجنبةً أن يسيل لعابه على عباءتها: «هذا الكلب يجب ألا يُسمح له بالصعود إلى الطابق العلوي».

سقط على يد مارشا لعاب ماكسي الذي كان يسيل من فرط حماسه، ثم انطلق وراء سيده إلى الطابق السفلي، بعد أن داست رجله بقوة على قدم مارشا وهو في الطريق. لا يعير ماكسي انتباهًا يُذكر لمارشا؛ فهو لا يعنيه أمر الابتعاد عن طريقها ولا يهتم بما تقوله؛ لأن نظرته إلى العالم من وجهة نظر الكلاب تجعل سايلاس هو الكلب الأعلى ومارشا لا يأتي مكانها إلا في القاع.

ولحسن حظ مارشا أن هذه الأفكار التي دارت حينها في رأس ماكسي مرت دون أن تلاحظها، فدفعت ماكسي أثناء مرورها، ثم صعدت بخطى واسعة، وهي تجر چينا وراءها، لتبعدها عن طريق الجُرذ الرسول.

سألتها چينا وهي تلتقط أنفاسها بعد أن وصلتا إلى غرفة السندرة: «لماذا؟ لماذا فعلت ذلك؟».

فقالت لها مارشا وهي تلهث قليلًا: «إنه الجُرذ الرسول، نحن لا نعلم أي نوع من الجرذان هو، فقد لا يكون مؤجرًا كجرذ كاتم أسرار».

سألتها چينا في حيرة: «جرذ ماذا؟».

همست مارشا وهي تهم بالجلوس على سرير العمة زيلدا الواسع، والمغطى بمجموعة من الألحفة التي صنعتها من الأقمشة الملونة – نتاج ليالٍ طويلة قضتها في وحدتها بجانب المدفأة: «في الحقيقة...»، وأشارت لچينا بضربات خفيفة على السرير بجوارها، فتقدمت چينا وجلست حيث أشارت لها مارشا.

سألتها مارشا بصوت خفيض: «هل تعلمين شيئًا عن الجرذان الرسل؟».

ردت چينا بشك: «أعتقد ذلك، لكن لم يكن لدينا منها في البيت قطُّ. فكنت أظن أنه لابد أن تكون للشخص مكانة مرموقة حتى يكون له جرذ رسول».

قالت مارشا: «لا، أي شخص يستطيع أن يكون له جرذ رسول، أو يرسل واحدًا».

ردت چينا بصوت علته نبرة أمل: «ربما تكون أمي هي التي أرسلته لنا».

فقالت مارشا: «إنه مجرد احتمال، نحن نحتاج الآن أن نعرف ما إذا كان هذا الجُرذ كاتم أسرار نستطيع الوثوق به أم لا. فالجُرذ كاتم الأسرار دائمًا ينطق بالصدق ويحتفظ بالأسرار على الدوام، وهو باهظ الثمن».

فقالت چينا في سرها باكتئاب إنه في هذه الحالة لا يمكن أن تكون سارة هي التي أرسلته.

واصلت مارشا كلامها قائلة: «ولذلك علينا الانتظار لنتبين الأمر. وفي تلك الأثناء، أنا وأنت سوف ننتظر هنا تحسبًا لاحتمال أن يكون هذا الجُرذ جاسوسًا، وجاء ليرى أين تختبئ الساحرة العظمى والأميرة».

فأومأت لها چينا برأسها ببطء، فها هي هذه الكلمة مرة أخرى؛ الأميرة. فحتى الآن، لا تزال هذه الكلمة تدهشها، لا تصدق تمامًا أنها هي نفسها هذه الأميرة، لكنها جلست رغم ذلك بهدوء إلى جوار مارشا، تحدق إلى جوانب غرفة السندرة.

كانت الغرفة تبدو على غير ما كانت تتوقع؛ كانت واسعة ومتجددة الهواء وكان سقفها مائلًا وله نافذة صغيرة تطل على المستنقعات المغطاة بالثلوج، وكان السقف محمولًا على عوارض خشبية ضخمة يتدلى منها ما بدا لچينا تشكيلة من الخيام الضخمة مصنوعة من الأقمشة الملونة، حتى أدركت أنها لابد أنت تكون ثياب العمة زيلدا. كان بالغرفة ثلاثة أسرَّة، خمنت چينا من شكل غطاء السرير الذي يجلسان عليه أنه سرير

العمة زيلدا، وأن السرير المحشور هناك بعيدًا عند فجوة بالحائط بجانب السلم والمغطى بشعر كلب هو سرير سايلاس، أما السرير الثالث فيقبع في الركن البعيد من الغرفة، وهو سرير ضخم مبنيٌ في الحائط، ذكّرها بسريرها. وشعرت عندما نظرت إليه بحنين إلى البيت ترك في حلقها غُصّة.. خمنت چينا أن هذا السرير هو سرير مارشا؛ حيث كان بجانبه كتابها *فك السحر الأسود*، وقلم أنيق من حجر العقيق اليماني، ورزمة من الجلد الرقيق - الذي يستعمل للكتابة - من أجود الأنواع تغطيه علامات ورموز سحرية.

تابعت مارشا نظرات چينا، وقالت لها: «هيا، يمكنك أن تجربي الكتابة بقلمي، سوف يعجبك، إنه يكتب بأي لون تطلبينه، إذا كان في حالة مزاجية جيدة».

وبينما أخذت چينا تجرب الكتابة بقلم مارشا الذي بدا لها أن مزاجه كان متعكرًا لإصراره بعد كل عدة أحرف تكتبها على أن يكتب بلون أخضر متوهج- كان سايلاس في الغرفة السفلى يحاول أن يسيطر على حالة الاهتياج التي اجتاحت ماكسي بعد أن وقع نظره على الجُرذ الرسول.

كان سايلاس منشغلًا بماكسي عندما لمح نكو قادمًا من العين الساخنة مبللًا، فقال له: «نكو، لو سمحت، أمسك ماكسي ولا تجعله يقترب من الجُرذ». فقفز نكو مع ماكسي قفزة سريعة على الأريكة، وبنفس السرعة هب من عليها الفتى 412.

قال سايلاس متسائلًا: «ترى، أين هو هذا الجُرذ؟».

كان هناك جرذ بني ضخم يجلس على النافذة من الخارج، ويدق على زجاجها، فتحت العمة زيلدا النافذة فقفز منها، ثم أخذ ينظر حوله في الغرفة بعينيه البراقتين اللتين تتحركان سريعًا.

قال سايلاس بلغة السحر: «**صِر أيها الجُرذ**».

فنظر إليه الجُرذ بنفاد صبر.

«**صِر أيها الجُرذ**».

عقد الجُرذ ذراعيه منتظرًا، ورمق سايلاس بنظرة قاسية.

فقال سايلاس معتذرًا: «آآ... آسف. فلقد مر زمن طويل منذ آخر مرة جاءني فيها جرذ رسول. نعم نعم، *تذكرت*. **تكلم أيها الجُرذ**».

فتنهد الجُرذ قائلًا: «أف! أخيرًا»، ثم رفع جسمه لأعلى وقال: «يجب أن أسأل أولًا: هل يوجد هنا من يتحدث باسم سايلاس هيب؟»، ثم حدق الجُرذ مباشرة إلى سايلاس.

قال سايلاس: «إنه أنا».

رد الجُرذ: «هذا هو ما توقعته متوافقًا مع الأوصاف»، ثم تنحنح معظمًا في نفسه، ووقف معتدلًا، وشبك رجليْه الأماميتين خلف ظهره.

«أنا جئت هنا كي أوصل رسالة لسايلاس هيب، الرسالة أرسلتها اليوم في الثامنة صباحًا سيدة تدعى سارة هيب وتقطن في بيت چيلين.

«تقول الرسالة:

مرحبا يا عزيزي سايلاس، وحبيبتي چينا وملاكي نكو..

لقد أرسلت الجُرذ لبيت زيلدا مع تمنياتي بأن يجدكم بخير. أخبرتنا سالي أن الصياد كان يتعقبكم، ولقد جفاني النوم من طول تفكيري في هذا الأمر؛ فذلك الرجل سُمعته سيئة. وبحلول الصباح كنت في حيرة من أمري ومقتنعة بأنكم وقعتم في يده (رغم أن چيلين قالت لي إنكم بخير). لكن العزيز ألثر جاءنا مع أول ضوء للنهار، أخبرنا بهروبكم الذي أسعدنا للغاية. وقال لنا إن آخر مرة رآكم فيها كنت تستعدون للتوجه إلى مستنقعات مرام، وكان يتمنى لو يستطيع الذهاب معكم.

هناك نبأ أريد أن أخبرك به يا سايلاس، سايمون اختفى أثناء توجهنا إلى هنا. كنا حينها على طريق ضفة النهر الذي يؤدي إلى الغابة حيث يوجد الجزء الخاص بچيلين عندما أدركت أنه غير موجود. وأنا لا أدري ما الذي حدث له. نحن لم نر أية حراس، ولا أحد منا رآه أو سمعه وهو يذهب. أنا خائفة جدًا عليه وأخشى أن يكون قد سقط في أحد الفخاخ التي تعدها هؤلاء الساحرات الشريرات، سنخرج اليوم للبحث عنه.

لقد أشعل الحراس النيران في مقهى سالي، لكنها تمكنت من الهرب. إننا لا نعلم - على وجه الدقة- كيف فعلت ذلك، لكنها وصلت إلينا هنا صباح اليوم بأمان، وطلبت مني أن أقول لمارشا بالنيابة عنها إنها ممتنة لها غاية الامتنان؛ لأنها أعطتها ***تعويذة***

السلامة*. وفي الواقع، نحن جميعًا ممتنون لها. لقد كان ذلك في غاية الكرم منها.*

أرجوك يا سايلاس أرسل لنا الجُرذ بأخباركم.

بكل الحب والإخلاص إليكم جميعًا

من حبيبتكم سارة

«الرسالة انتهت».

ثم جلس الجُرذ مترهلًا على إطار النافذة وقد بدا عليه الإرهاق.

وقال: «أنا أشتاق لفنجان شاي».

كان سايلاس في غاية التوتر.

ثم تحدث قائلًا: «لا بد أن أذهب إليهم وأبحث عن سايمون. فلا أحد يعرف ما الذي يمكن أن يكون قد حدث له».

حاولت العمة زيلدا أن تهدئه، وذهبت لإحضار فنجانين من الشاي المُحلى الساخن، أعطت واحدًا للجرذ والآخر لسايلاس. تجرع الجُرذ فنجان الشاي دفعة واحدة، بينما جلس سايلاس مكتئبًا يرتشف من فنجانه رشفات صغيرة.

تحدث نكو قائلًا: «إن سايمون قوي جدًا يا أبي، لا تقلق، سوف يكون على ما يُرام. أعتقد أن كل ما في الأمر أنه ضل طريقه فحسب، ولو ذهبت إليه لوجدته جالسًا الآن مع أمي».

لكن سايلاس لم يقتنع بهذا الكلام.

ثم قالت العمة زيلدا إن الشيء الوحيد المنطقي الذي يمكن القيام به الآن هو تناول العشاء. ووجبات عشاء العمة زيلدا تُذهِب العقل وتُنسي الناس متاعبهم؛ فهي طاهية مضيافة تحب أن تستقبل أكبر عدد من الناس حول مائدتها، وعلى الرغم من أن ضيوفها دائمًا يستمتعون بأحاديثها، فإن طعامها قد يفوق قدرتهم على التحدي، والوصف الأكثر شيوعًا الذي يُطلق على طعامها أنه طعام «مثير»، مثل قولهم: «فطيرة الخبز والكرنب هذه، كانت مثيرة جدًا يا زيلدا، ولم تكن تخطر على بالي قطُّ هذه الوصفة»، أو «أعترف أن مربى الفراولة هذه مثيرة للغاية مع شرائح سمك ثعبان البحر».

ولإلهاء سايلاس، أوكلت إليه مهمة ترتيب المائدة، ودُعي الجُرذ على العشاء.

قدمت العمة زيلدا ضفادع وأرانب بالخضار مع رءوس اللفت المغلي مرتين، تلا ذلك حلوى الكرز والجزر الأبيض. أخذ الفتى 412 يأكل بنهم وهو في غاية الابتهاج؛ إذ كان الطعام أفضل كثيرًا من الطعام الذي يُقدَّم في جيش الشباب، حتى إنه تناول طبقين آخرين، وهو ما أدخل السرور على قلب العمة زيلدا التي لم يحدث لها من قبل أن طلب منها أحد طبقًا ثانيًا، ناهيك عن الثالث.

كان نكو سعيدًا لأن الفتى 412 يأكل بكل هذا النهم؛ فمعنى ذلك أن العمة زيلدا لم تلحظ قطع الضفادع التي جمعها نكو وأخفاها أسفل سكينه، أو حتى إن كانت لاحظت، فلم يزعجها ذلك كثيرًا، كما تمكن

نكو من أن يُطعم ماكسي أذن الأرنب الكاملة التي وجدها في طبقه، فأراح نفسه وأبهج ماكسي.

أما مارشا فقد نادت من أعلى واعتذرت نيابة عن نفسها وعن چينا عن عدم حضور العشاء بسبب وجود الجُرذ الرسول. فكر سايلاس داخله في أن حجتها هذه كانت واهية، وشك في أنها تستخدم - سرًا - بعض التعاويذ لتعد مأكولات شهية في الخفاء.

وعلى الرغم من أن مارشا لم تحضر فإن العشاء كان ممتعًا، كما كانت صحبة الجُرذ الرسول لطيفة. ولأن سايلاس لم يزعج نفسه بأن يبطل تعويذة **تكلم أيها الجُرذ**، انطلق الجُرذ الثرثار يتحدث في أي موضوع يخطر على باله، بدءًا من الحديث عن مشاكل شباب الجرذان اليوم، إلى فضيحة مقانق الجرذان التي تم اكتشافها في مطعم الحراس، والتي أحزنت مجتمع الجرذان بأسره، ناهيك عن الحراس أنفسهم.

وعندما أوشك العشاء على الانتهاء، سألت العمة زيلدا سايلاس عما إذا كانوا سيرسلون الجُرذ الرسول إلى سارة ذلك اليوم.

بدا القلق على الجُرذ، فعلى الرغم من أنه جرذ ضخم ويستطيع- كما يقول للجميع- «أن يتولى أمر نفسه»، فإن مستنقعات مرام في المساء ليست مكانه المفضل، وممصات أي روح مائية ضخمة تستطيع أن تودي بحياة أي جرذ، كما أنه لا الجنيات الصغيرة السمراء ولا الغيلان من الصحبة التي يختارها الجرذان؛ فالجنيات سوف تجر أي جرذ إلى الأرض الموحلة لمجرد التسلية والمرح؛ والغول الجائع سوف يسعده أن

يغلي الجُرذ لعمل يخنة لصغاره الغيلان، وهي في رأي الجُرذ الرسول ليست سوى كائنات شرهة ومزعجة.

(الغول بالطبع لم يكن حاضرًا على العشاء، وهو لم يسبق له أن فعل ذلك؛ فهو يفضل أن يتناول ساندويتشات الكرنب المسلوق التي تصنعها له العمة زيلدا في ظل الجو الهانئ لقطعة أرض الوحل الخاصة به، كما أنه لم يأكل جرذانًا منذ فترة طويلة، فهو لا يستسيغها، كما أن عظامها الصغيرة تنحشر بين أسنانه).

رد سايلاس ببطء: «كنت أفكر في أنه قد يكون من الأفضل لو أرسلنا الجُرذ في الصباح. لقد تكبد مشقة وعناء الرحلة الطويلة التي قام بها، ومن حقه أن يستريح قليلًا».

بدت السعادة على وجه الجُرذ، وقال: «تمامًا كما تقول يا سيدي، فالعديد من الجرذان الرسل يضلون الطريق؛ لأنهم لم ينالوا قسطًا كافيًا من الراحة، ولم يتناولوا عشاء طيبًا. واسمحي لي يا سيدتي أن أقول لك إن العشاء كان بشكل استثنائي مثيرًا»، وأحنى رأسه للعمة زيلدا.

ابتسمت العمة زيلدا وقالت له: «إن هذا لمن دواعي سروري».

وفجأة، انتفض الجميع وهم يسمعون إناء الفلفل يتحدث بصوت مارشا قائلًا: «*هل هذا الجُرذ كاتم أسرار؟*».

فقال سايلاس متذمرًا: «كان الأحرى بك- على الأقل- أن تنبهينا إلى أنك سوف تبدئين بث صوتك في المكان. لقد كدت أشرق بحلوى الجزر الأبيض».

إلا أن إناء الفلفل أصر على سؤاله: «*أهو من هذه الجرذان أم لا ؟*».

فسأل سايلاس الجُرذ الذي أخذ يحدق بإناء الفلفل وبدا- ولو لمرة واحدة- عاجزًا عن الكلام: «أأنت منهم؟ هل أنت جرذ كاتم أسرار؟».

فردَّ الجُرذ، وهو لا يدري أيوجه كلامه لسايلاس أم لإناء الفلفل: «نعم. أنا كذلك بكل تأكيد يا سيدتي. فأنا مستأجر بوصفي جرذًا كاتم أسرار للمسافات الطويلة. وفي خدمتك يا سيدتي».

«عظيم، وأنا سأنزل إليكم».

نزلت مارشا السلم درجتين في الخطوة الواحدة، وتقدمت في الغرفة بخطوات واسعة ممسكة بكتاب، وثيابها الحريرية تكنس الأرض خلفها، مرسلةً في الهواء كومةً من برطمانات الوصفات، بينما كانت جينا تتبع خطاها بسرعة، متحمسة لأن ترى أخيرًا جرذًا رسولًا بأم عينيها.

قالت مارشا متذمرة، وهي تنظف عباءتها بتوتر مما علق بها من أفضل **الخلطات الذكية** ذات الألوان المتعددة الخاصة بالعمة زيلدا: «إن المكان هنا صغير جدًا، أنا لا أستطيع أن أتخيل فعلًا كيف تتصرفين فيه يا زيلدا».

همهمت العمة زيلدا من تحت ضرسها بينما كانت مارشا ذاهبة لتجلس إلى المائدة بجوار الجُرذ: «كنت أحسن التصرف هنا قبل أن تأتي»، علا الشحوب وجه الجُرذ من أسفل فروه البني؛ فما كان يمكن أن تذهب به يومًا أقصى أحلامه البرية إلى أن يتوقع أن يقابل الساحرة العظمى نفسها. فانحنى لها، بل انحنى لها أرضًا، وفقد توازنه وسقط في بقايا حلوى الكرز والجزر الأبيض.

هتفت مارشا: «أُريدك أن تعود مع الجُرذ يا سايلاس».

فرد سايلاس قائلًا: «ماذا قلت؟ أعود الآن؟».

فقال الجُرذ بتردد موجهًا كلامه إلى مارشا: «أنا غير مصرح لي باصطحاب مسافرين معي يا صاحبة الجلالة والسمو. في واقع الأمر يا ذات المقام الرفيع أقول ذلك مع احترامي الشديد...».

فقاطعته مارشا وقالت بحدة: «**توقف عن الكلام أيها الجُرذ**».

أخذ الجُرذ يتحدث وهو يحرك شفتيه بلا صوت إلى أن أدرك أن صوته لا يخرج. فعاود الجلوس، وأخذ يلعق حلويات الكرز والجزر الأبيض من على أرجله في تردد وانتظر. فليس أمامه خيار آخر غير ذلك؛ لأن الجُرذ الرسول لا يستطيع الرحيل إلا ومعه رد على رسالته أو رفض للرد. وحتى ذلك الوقت، لم يحصل على أي منهما. ومن ثم، وباعتباره جرذًا محترفًا حقيقيًا، فقد جلس صابرًا، وأخذ يتذكر باكتئاب كلمات زوجته ذلك الصباح عندما قال لها إنه ذاهب في مهمة لساحرة.

فقالت له زوجته داوني حينها، وهي تشيح له بإصبعها: «ستانلي، لو كنت مكانك، ما كنت سأقحم نفسي في أي شيء متعلق بأي ساحر أو ساحرة. أتذكر زوج إيلي الذي انتهى به الأمر إلى أن سحر ذلك الساحر الصغير الممتلئ هناك في البرج وأوقعه في قدر ساخن؟ لقد ظل غائبًا لمدة أسبوعين، وحين عاد كان في حالة يُرثى لها. لا تذهب يا ستانلي، أرجوك».

لكن ستانلي شعر سرًا بالإطراء عندما طلب منه مكتب الجرذان شخصيًا الذهاب في مهمة خارجية؛ على وجه التحديد إلى ساحرة،

وأسعده تولي هذه المهمة لاختلافها عن مهمته السابقة. لقد قضى الأسبوعين الماضيين ينقل رسائل بين أختين كان بينهما شقاق، وكانت هذه الرسائل يومًا بعد يوم كلماتها تقل وحدتها تزيد، حتى قضى يوم عمله السابق يجري ذهابًا وإيابًا بين الأختين دون أن يتمكن من إبلاغ أية رسائل في الواقع؛ لأن كل أخت منهما كانت تود أن تقول للأخرى إنها لا تكلمها. ولم يتخلص من عبء هذه المهمة إلا عندما ألغتها الأم بعد أن صدمتها الفاتورة الضخمة التي وصلتها فجأة من مكتب الجرذان؛ لذا قال ستانلي- بسعادة- لزوجته إنهم إذا كانوا يحتاجون إليه فلابد أن يذهب، وواصل قائلًا: «فمهما يكن، فأنا أحد القليلين من الجرذان الذين يحملون لقب كاتم الأسرار للمسافات البعيدة في القلعة».

فردت عليه: «وكذلك أكثرهم حمقًا».

ولذلك، جلس ستانلي إلى المائدة بين بقايا أغرب وجبة عشاء تناولها في حياته، وهو يستمع إلى الساحرة العظمى التي كانت لدهشته متذمرة، وهي تملي على أحد السحرة العاديين ما يجب أن يفعل، ثم ألقت مارشا بالكتاب الذي في يدها على المائدة بعنف، فجعلت الأطباق تهتز وتتخبط مُحدثة صوتًا.

«لقد تصفحت كتاب زيلدا *فك السحر الأسود*. كنت أتمنى لو كان عندي نسخة منه في برج السحرة، إنه كتاب قيم جدًا»، وربتت ربتات خفيفة على الكتاب تأكيدًا لكلامها، لكن الكتاب أخطأ في فهمها، وفي التوّ ترك المائدة وطار عائدًا إلى كومة كتب العمة زيلدا في مكانه؛ مما وتّر مارشا كثيرًا.

ثم واصلت مارشا كلامها قائلة: «سايلاس، أريد منك أن تذهب إلى سالي وتأخذ منها **تعويذة السلامة**، فنحن نحتاج إليها هنا».

رد سايلاس: «كما تشائين».

قالت مارشا: «لا بد أن تذهب يا سايلاس، إن سلامتنا قد تتوقف عليها. لقد وجدت أن قوتي السحرية أضعف مما كنت أظن وأنا بدونها».

رد سايلاس بنفاد صبر، وذهنه منشغل بسايمون: «حسنًا. حسنًا، كما تشائين يا مارشا».

وبإلحاح، قالت: «بل في واقع الأمر، أنا بصفتي الساحرة العظمى آمرك بأن تذهب».

رد سايلاس غاضبًا: «حسنًا! قلت لك حسنًا يا مارشا. سوف أذهب. وكنت على أية حال ذاهبًا. فسايمون اختفى، وأنا ذاهب للبحث عنه».

ردت مارشا دون أن تعير انتباهًا لكلام سايلاس كعادتها: «عظيم. والآن، أين هو هذا الجُرذ؟».

فرفع الجُرذ رجله، وهو لا يزال عاجزًا عن الكلام.

«رسالتك هي كالتالي: الساحر، عاد للراسل، مفهوم؟».

فأومأ لها ستانلي برأسه غير واثق تمامًا من أنه فهم الرسالة، وود لو أن يقول للساحرة العظمى إن ذلك مخالف لقوانين مكتب الجرذان، فهم لا يتعاملون مع الطرود، سواء كانت بشرية أو غير ذلك، وتنهد «كم كانت زوجته محقة».

«سوف توصل هذا الساحر بأمان وبشكل لائق وبوسائل مناسبة لعنوان الراسل، مفهوم؟».

فأومأ لها ستانلي برأسه من جديد بتعاسة؛ فماذا تقصد بالوسائل المناسبة؟ وافترض أن القصد من ذلك أن سايلاس لا يستطيع أن يقطع النهر سابحًا، أو أن يسافر متطفلاً في حقيبة أحد المارة المترجلين. رائع.

ثم أنقذه سايلاس الذي قال: «لا أحتاج لأن أُشحن وكأنني طرْدٌ يا مارشا شكرًا.

سوف أستخدم الزورق، ويستطيع الجرذ أن يأتي معي ليدلني على الطريق».

ردت مارشا: «عظيم. لكنني أريد تأكيدًا على الأمر، **تكلم أيها الجُرذ**».

فرد الجُرذ بوهنٍ: «نعم، تم التأكيد على الأمر».

رحل سايلاس والجُرذ الرسول في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، بعد شروق الشمس مباشرة، مستقلين الزورق *موريل الأول*. كان الضباب المالح قد اختفى بين ليلة وضحاها، وألقت شمس الشتاء ظلالاً ممتدة عبر المستنقعات وسط الضوء الرمادي في أوائل ساعات النهار.

استيقظت جينا ونكو وماكسي مبكرًا ليودعوا سايلاس ويحملوه رسائل لسارة والأولاد، كان الجو باردًا ومشبعًا بالندى، وكان زفيرهم يخرج متعلقًا في الهواء على هيئة سحب بيضاء. شد سايلاس عباءته الزرقاء الصوفية الثقيلة حول جسمه ورفع غطاء رأسه، بينما وقف الجُرذ الرسول إلى جواره وقد اعترته رعشة ناتجة عن البرد.

فالجُرذ سمع صوت اختناق الكلب الرابض وراءه مباشرة، عندما كان نكو يُمسك - بقبضة قوية - طوق الكلب، وكأن ذلك لم يكن كافيًا، فقد رأى الغول أيضًا.

ابتسمت العمة زيلدا عند رؤية الغول وقالت له: «أيها الغول العزيز، شكرًا جزيلًا أنك أتعبت نفسك ولم تنَم، إليك بعض الساندويتشات لتساعدك على مواصلة الطريق، سوف أضعها في الزورق. هناك بعضها يا سايلاس لك أنت والجُرذ أيضًا».

«باه! أشكرك يا عمة زيلدا. ماذا وضعت في الساندويتشات بالضبط؟».

«أفضل كرنب مسلوق».

«باه! إنها لفتة لطيفة منك»، وغمر سايلاس شعور بالسعادة أنه قام بإخفاء بعض قطع الخبز والجبن في كُمّه.

كان الغول يطفو بتذمر في قناة الغِمد، ولم ينشرح قلبه كثيرًا على ذكر ساندويتشات الكرنب، فهو لا يروقه الخروج من الوحل في ضوء النهار، حتى وإن كان ذلك في عز الشتاء. فضوء النهار يؤلم عينيه الضعيفتين، كما أن الشمس تحرق أذنيه إذا لم يتوخَّ الحذر.

أما الجُرذ فجلس منزعجًا على ضفة قناة الغِمد، محصورًا بين أنفاس الكلب من خلفه وأنفاس الغول من أمامه.

قال سايلاس للجرذ: «هيا. اصعد. أعتقد أنك تريد أن تجلس في المقدمة، ماكسي يحب دائمًا ذلك».

فرد الجُرذ وهو يأخذ نفسًا: «أنا لست كلبًا، كما أنني لا *أسافر* مع غيلان».

فقالت له العمة زيلدا: «هذا الغول آمن».

فهمهم الجُرذ قائلًا: «ليس هناك غول آمن». وما إن لمح مارشا تخرج من الكوخ لتودع سايلاس حتى سكت، وقفز بمهارة على متن الزورق واختبأ أسفل الدكة.

قالت چينا لسايلاس وهي تعانقه بقوة: «خذ حذرك يا أبي».

عانق نكو أيضًا سايلاس، وقال له: «لابد أن تجد سايمون يا أبي. ولا تنس أن تظل على جانب النهر إذا كنت في مواجهة حركة المد؛ فالمد دائمًا يتدفق بسرعة أكبر في منتصف النهر».

ابتسم سايلاس وقال: «لن أنسى. احرصا على أنفسكما، وعلى ماكسي أيضًا».

«مع السلامة يا أبي».

بدأ ماكسي ينبح ويعوي وهو يرى، والحزن يعتريه، أن سايلاس *بالفعل* سيتركه ويرحل.

لوَّح لهم سايلاس بيده وهو يقول لهم: «مع السلامة»، ويدير دفة الزورق متأرجحًا في القناة. ليبدأ الغول يسأل كالمعتاد: «ما زلتم تتبعونني؟».

أخذت چينا ونكو يراقبان الزورق وهو يشق طريقه ببطء في القنوات المتعرجة حتى خرج إلى المساحات الممتدة لمستنقعات مرام، إلى أن توارى عن أنظارهم غطاء رأس سايلاس الأزرق، ثم قالت چينا بهدوء:

«أتمنى أن يصل أبي بسلام؛ فهو يضل الطريق بسهولة».

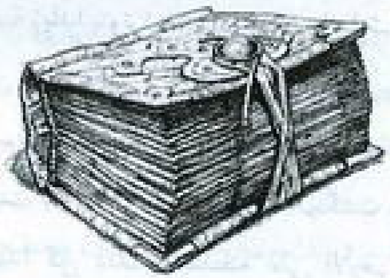
فرد نكو: «إن الجُرذ الرسول سوف يضمن له الوصول؛ فهو يعلم أن مارشا سوف تعتفه إن لم يفعل».

وفي أعماق مستنقعات مرام، جلس الجُرذ الرسول في الزورق يتفحص أول طرد يوصله في حياته. وقرر – في سرّه- أنه لن يذكر ذلك لداوني، ولا لزملائه في المكتب، وتنهد قائلا في سريرته إن المهمة برمتها غير طبيعية على الإطلاق.

لكن بعد مرور الوقت، ومع إبحار سايلاس ببطء وبعض الانجراف وسط القنوات المتعرجة للمستنقع، بدأ ستانلي ينظر إلى أن هذه الطريقة في السفر ليست بهذا السوء؛ فهو في نهاية الأمر حصل على توصيلة تقلّه إلى وجهته، وكل ما كان عليه أن يفعله هو أن يجلس في الزورق، ويروي بعض القصص ويستمتع بالرحلة، بينما يقوم سايلاس بالعمل كله.

وهذا هو تمامًا ما فعله الجُرذ الرسول بعد أن ودع سايلاس الغول في نهاية قناة ديبين وبدأ يجدف في النهر في طريقه إلى الغابة.

22
السحر



في *تلك الليلة، هبت الرياح* الشرقية على أنحاء المستنقعات، وأغلقت العمة زيلدا مصاريع النوافذ كما أغلقت بطريقة سحرية الباب المؤدي إلى نفق القطة، بعد أن تأكدت أولًا أن بيرت بمأمن داخل الكوخ، ثم قامت بجولة حول الكوخ؛ لتشعل المصابيح وتضع شموع العواصف عند النوافذ كي تبقى الرياح على مسافة آمنة. كانت تأمل أن تقضي وقتًا هادئًا على مكتبها بعد ذلك لتعيد تحديث قائمة الجرعات التي تحضّرها، لكنها وجدت مارشا قد سبقتها وجلست إلى المكتب قبلها، كانت تتصفح بعض كتب السحر الصغيرة، وتكتب ملاحظاتها بانهماك، وكل حين تجرب تعويذة سريعة لترى ما إذا كان مفعولها لا يزال

ساريًا، وهو ما كان يصاحبه أصوات فرقعات خفيفة وانبعاث دخان له رائحة غريبة، كما أن العمة زيلدا لم يسرها أيضًا رؤية ما فعلته مارشا في المكتب نفسه، فقد زودت مارشا المكتب برجْل بطة حتى يكف عن الاهتزاز، وذراعين تساعدان على ترتيب الأوراق.

فقالت لها العمة زيلدا بتوتر: «حين تنتهين يا مارشا، أريد مكتبي كما كان».

ردت مارشا بنبرة مرحة وقالت لها: «تفضلي يا زيلدا»، وأخذت كتابًا مربعًا صغيرًا وذهبت به عند المدفأة، تاركةً المكتب في فوضى عارمة، فأزاحت العمة زيلدا كل ذلك وأسقطته على الأرض قبل أن تتمكن الذراعان من الإمساك به، وجلست وهي تتنهد.

انضمت مارشا إلى جينا ونكو والفتى 412 بجانب النار وجلست إلى جوارهم، ثم فتحت الكتاب، وتمكنت جينا من قراءة عنوانه الذي كان:

تعاويذ السلامة

وأسحار غير مؤذية

للمبتدئين

ولذوي العقول البسيطة

ألفته وتضمنه رابطة تأمين السحرة

فقالت جينا: «العقول البسيطة؟ أليس ذلك غير لائق بعض الشيء؟»

فردت عليها مارشا: «لا تعيري انتباهًا لذلك، إنه قديم جدًا لكن الكتب القديمة كثيرًا ما تكون هي الأفضل. إنها لطيفة وبسيطة. كان هذا قبل محاولات السحرة أن يضع كل منهم اسمه على التعاويذ لمجرد أنه أصلح فيها بدون خبرة، وهنا تبدأ المتاعب. أتذكر ذات مرة أنني رأيت ما بدا لي أنه **تعويذة اذهب واجلب** سهلةً. كانت الطبعة الأخيرة وبها العديد من **الوصفات السحرية** الجديدة تمامًا وغير المستخدمة، وهو ما كان من المفترض أن يجعلني أتعامل معها بحذر أكبر. وعندما استخدمتها كي **تذهب وتجلب** لي حذائي المصنوع من جلد الأفعى، جلبت معها أيضًا الأفعى التعسة. وليس ذلك مما يحب المرء أن يصطبح عليه».

وانهمكت مارشا في تصفح الكتاب.

«هناك نسخة سهلة **لتعويذة اجعل نفسك خفيًا** في مكان ما هنا، عثرت عليها أمس. آه! وجدتها».

نظرت جينا من فوق كتف مارشا على الصفحة المصفرة التي فتحتها، وكان هذا الكتاب مثل كل كتب السحر، كل صفحة منه لها تعويذة مختلفة، كانت في الكتب القديمة تُكتب يدويًا بدقة تامة بعدة أحبار لها ألوان غريبة، ثم تُطوى الصفحة أسفل كل تعويذة لتكون جيبًا توضع فيه **الوصفات السحرية** لها. وتحتوي **الوصفة السحرية** على البصمة أو الدمغة **السحرية** للتعويذة، وتُكتب في كثير من الأحيان على قطعة من الرَّق، رغم أنها قد تُكتب على أي شيء آخر. وكانت مارشا قد رأت **وصفات سحرية** مكتوبة على قطع من الحرير، وعلى الأخشاب، والأصداف، حتى

على شرائح الخبز، وإن كانت الأخيرة لم تأت بالمفعول الصحيح بعد أن قرضت الجرذان أطرافها.

وكانت كتب **السحر** هذه تعمل بالطريقة التالية:

كان الساحر الأول- أو الساحرة الأولى- مبتكر التعويذة يدوّن كلماتها وتعليماتها على أي شيء يكون في متناول يده. وكان من الأفضل أن تُكتب التعويذة كلها دفعة واحدة؛ لأن سمعة السحرة سيئة في مسألة النسيان، كما أن **السحر** سيتلاشى لو لم يتم أسره بسرعة؛ ولهذا السبب فإن الساحر - أو الساحرة - إذا ما طرأت على ذهنه أي تعويذة أثناء تناوله وجبة الإفطار فإنه يكتبها على شريحة من الخبز (ومن الأفضل ألا تكون مدهونة بالزبد)؛ هذه هي **الوصفة السحرية**. ويتوقف عدد **الوصفات السحرية** المكتوبة على عدد المرات التي دوّن فيها الساحر - أو الساحرة - **التعويذة**، أو على عدد شرائح الخبز التي تم إعدادها لتناولها في الإفطار. وبعد أن يكون الساحر- أو الساحرة- قد قام بجمع عددٍ لا بأس به من التعاويذ، كان عادة يقوم بعد ذلك بضمها في كتاب ليحفظها، علمًا بأن العديد من كتب السحر يتم تجميعها من كتب قديمة تمزقت وأُعيد تجميعها في أشكال متعددة؛ ولذلك يُعد العثور على كتاب **سحر** كامل بكل **وصفاته السحرية** في جيوبه- كنزًا ثمينًا. فالشائع هو العثور على كتب خالية من الناحية النظرية، مع وجود **وصفة سحرية** واحدة أو وصفتين من الوصفات الأقل شيوعًا في مكانها.

وبعض السحرة لا يبتكرون أكثر من **وصفة سحرية** أو اثنتين لتعاويذهم الأكثر تعقيدًا، وهذه الوصفات من الصعب جدًا العثور عليها، على الرغم

من أن معظم **الوصفات السحرية** يمكن العثور عليها في مكتبة الهرم هناك في برج السحرة. ياه! لكم اشتاقت مارشا إلى مكتبة برج السحرة، أكثر مما اشتاقت لأي شيء آخر في البرج، على الرغم من أن مجموعة كتب **السحر** الخاصة بالعمة زيلدا أدهشتها وأسعدتها كثيرًا.

قالت مارشا وهي تعطي الكتاب لجينا: «تفضلي. ما رأيك لو أخرجت **وصفة سحرية**؟».

فأخذت جينا الكتاب الصغير والثقيل بشكل لافت للنظر وكان مفتوحًا على صفحة متسخة ومستهلكة، مكتوبة بحبر أرجواني باهت، وبحروف كبيرة وأنيقة، وهو ما جعلها سهلة القراءة.

كانت كلماتها كالتالي:

اجعل نفسك خفيًا
تعويذة ثمينة ومقدرة
لكل من يرغب
(لأسباب متعلقة بسلامته الشخصية
أو سلامة الآخرين)
ألا يعثر عليه من قد يتسببون
في الإضرار به

قرأت جينا الكلمات ولديها إحساس بالرهبة؛ فهي لا تود أن تفكر فيمن يريد أن يتسبب في الإضرار بها، ثم تحسست داخل الجيب

الورقي السميك الذي يحتوي على **الوصفات السحرية**، وبدا لها أن الجيب من الداخل يحتوي على قطع عديدة ملساء ومستوية، ثم وقعت أصابعها على واحدة منها فسحبتها ووجدتها قطعة صغيرة بيضاوية من الأبنوس المصقول.

قالت مارشا باستحسان: «لطيفة جدًا، سوداء كسواد الليل، مناسبة تمامًا. هل تستطيعين رؤية الكلمات المكتوبة على هذه **الوصفة السحرية**؟».

ضيقت جينا عينيها محاولةً أن ترى الكتابة الموجودة على قطعة الأبنوس، كانت الكلمات صغيرة جدًا، ومكتوبة بخط قديم بحبر ذهبي باهت. فأخرجت مارشا عدسة مكبرة عريضة من حزامها، وفتحتها وأعطتها لجينا.

وقالت لها: «جربي هذه، فقد تساعدك».

فأخذت جينا تمرر العدسة ببطء على الحروف الذهبية، ثم قرأت بصوت مسموع الكلمات التي باتت واضحة تمامًا، وكانت كالتالي:

اجعلني أتلاشَ في الهواء

اجعل كل من يكرهونني يجهلوا مكاني

اجعل الذين يطاردونني يمروا بي ولا يشعروا بوجودي

اجعل الأذى الخارج من أعينهم لا ينال مني

قالت مارشا: «لطيفة وبسيطة، وليست صعبة في تذكرها إذا طرأت أي تعقيدات. بعض التعاويذ في مجملها جيدة ومفيدة، لكن حاولي أن تحفظي هذه الكلمات في حالة تعرضك لأية متاعب. وهو ليس بالأمر اليسير. والآن، أنت تحتاجين لأن **تبصمي** على التعويذة».

فسألتها جينا: «لا أفهم. ماذا أفعل؟».

«أمسكي **الوصفة السحرية** قريبًا منكِ ورددي كلمات التعويذة وأنت ممسكة بها. لابد أن تتذكري الكلمات كما هي *بالضبط*. وفي الوقت الذي ترددين فيه الكلمات لا بد أن تتخيلي أن التعويذة تتحقق بالفعل. وهذا هو الجزء المهم فعلًا».

لم يكن الأمر بهذه السهولة التي توقعتها جينا، خصوصًا أن نكو والفتى 412 كانا يراقبان ما تفعله. فحينما كانت تتذكر الكلمات بالشكل الصحيح، كانت تنسى الجزء الخاص بأن تتخيل أنها تتلاشى في الهواء، وحينما كانت تركز تفكيرها في أنها تتلاشى في الهواء، كانت تنسى الكلمات. فقالت لها مارشا وهي تشجعها على الرغم من أن جينا أرهقتها بعد أن نفذت كل شيء على الوجه الصحيح فيما عدا كلمة واحدة: «جربي مرة أخرى، فالكل يعتقد أن التعاويذ أمر بسيط، لكنها ليست كذلك. على أية حال، لقد أوشكتِ على الوصول».

أخذت جينا نفسًا عميقًا، ثم قالت لنكو والفتى 412: «كُفًا عن النظر إليّ».

ابتسم الفتيان ابتسامة عريضة وأخذا يحدقان إلى بيرت بدلًا منها. أخذت بيرت تتقلب في نومها منزعجةً؛ فهي دائمًا تعلم عندما يكون هناك من ينظر إليها.

وهكذا، فات نكو والفتى 412 أن يشاهدا **اختفاء** جينا لأول مرة.

صفقت مارشا بيديها وقالت لها: «لقد نجحتِ!».

فجاء صوت جينا من الهواء قائلًا: «هل نجحت؟ هل *فعلتها*؟».

ثم قال نكو وهو يضحك: «جينا. جينا. أين أنت؟».

نظرت مارشا في ساعتها، وقالت: «والآن لا تَنْسَيْ مفعول التعويذة فاستخدامها لأول مرة لا يدوم طويلًا. **ستظهرين** بعد دقيقة تقريبًا، ومن المفترض أن مفعولها في المرات التالية سيدوم حسب رغبتكِ أنتِ».

أخذ الفتى 412 يراقب هيئة جينا الضبابية وهي تتحول من جديد إلى **مادة** وسط الضوء المتراقص الذي تلقيه شموع العمة زيلدا، وظل واقفًا مشدوهًا وقد فغر فاه، فهو أيضًا يريد أن يجرب.

ثم وجد مارشا تقول لنكو: «هيا يا نكو، دورك».

غضب الفتى 412 من نفسه، فما الذي جعله يفكر في أن مارشا سوف تسأله هو؟ بالطبع لن تفعل ذلك، فهو ليس منهم، ليس سوى عبد مطيع في جيش الشباب.

رد نكو عليها: «شكرًا، أنا لديّ طريقتي الخاصة في **الاختفاء**، ولا أريد أن تختلط عليّ الأمور».

فنكو يتعامل مع **السحر** على اعتباره مهنة، وهو ليس في نيته أن يمتهن السحر، حتى وإن كان من عائلة تمتلك قوة **سحرية** وإن تعلم **أسس السحر**. وهو لا يفهم لماذا يحتاج أن يتعلم أكثر من وصفة سحرية لكل تعويذة. فما الداعي لأن يشغل ذهنه بكل ذلك؛ خصوصًا أن في اعتقاده أنه قد تعلم كل التعاويذ التي يمكن أن يحتاج إليها في حياته؟ فالأحرى به أن يستخدم الفراغ الموجود في ذهنه فيما هو أفيد، مثل أوقات المد والجزر، وتجهيزات المراكب، وأشكال وأنواع الأشرعة والصواري.. وما إلى ذلك.

فقالت له مارشا التي تعلم تمامًا أن أي محاولة لإجبار نكو على أن يفعل شيئًا هو غير معنيٍّ به ستبوء بالفشل: «كما تشاء، لكن تذكر أن **غير المرئيين** الذين **اختفوا** بنفس الطريقة هم فقط من يستطيعون أن يرى بعضهم بعضًا. فإذا اختفيت عن طريق تعويذة مختلفة يا نكو فلن تكون مرئيًا لأي شخص آخر استخدم تعويذة أخرى، حتى وإن كانوا هم أيضًا **غير مرئيين**. اتفقنا؟».

فأومأ لها نكو برأسه غير مكترثٍ، ولا مقتنع بأهمية ذلك، ثم قالت مارشا وهي تلتفت إلى الفتى 412: «والآن، جاء دورك».

احمر وجه الفتى 412 خجلًا، وأطرق برأسه وأخذ يحدق إلى قدميه. *لقد سألته*. لكن رغم رغبته الشديدة التي تملكته في تلك اللحظة لأن يجرب التعويذة، فإنه كره الطريقة التي نظر بها الجميع إليه، وكان واثقًا من أنه سيبدو في غاية الحمق لو حاول.

قالت له مارشا: «ينبغي عليك فعلًا أن تحاول، وأنا أريد منكم جميعًا أن تكونوا قادرين على **الاختفاء**».

فرفع الفتى 412 رأسه مندهشًا، فهل مارشا تقصد أنه لا يقل أهمية عن الطفلين الآخرين المنتميَيْن *إليها*؟

ثم جاء صوت العمة زيلدا من الطرف الآخر من الغرفة قائلًا: «*بالطبع* سيحاول».

وقف الفتى 412 بطريقة بلهاء، وأخرجت مارشا من الكتاب **وصفة سحرية** أخرى وأعطتها له وهي تقول: «والآن **ابصم** كلماتها في ذهنك».

أمسك الفتى 412 **الوصفة السحرية** في يده، بينما كان نكو وچينا ينظران إليه بفضول يريدان أن يشاهدا كيف يتصرف الآن وقد حان دوره.

همّت مارشا تحدثه بطريقة رقيقة وقالت له: «قل الكلمات التي حفظتها»، لكن الفتى 412 كعادته لم ينبس بكلمة، لكنه شعر بأن كلمات التعويذة ترن في رأسه وتملؤه طنينًا. وقف شعر رأسه القصير تحت قبعته الحمراء، وبدأ يشعر بأن **السحر** يصيبه بوخزات خفيفة في يده.

قالت چينا لاهثة: «لقد اختفى!».

وأطلق نكو صفارة إعجاب وقال: «إنه لا يضيع وقته، أليس كذلك؟».

تملّك الفتى 412 الغضب؛ فلم يكن هناك داعٍ لأن يسخروا منه هكذا. وفوق ذلك، لماذا تنظر مارشا إليه بهذه النظرة الغريبة؟ هل أخطأ في شيء؟

قالت مارشا بمنتهى الهدوء: «عُد فورًا»، كان في نبرتها شيء بث بعض الخوف في قلب الفتى 412، لكن ما الذي حدث لكل ذلك؟

ثم طرأت على ذهنه فكرة غريبة. وبمنتهى الهدوء مر من فوق بيرت، ومر بجوار چينا دون أن يلمسها وأخذ يتجول وسط الغرفة. لم يشاهده أحد منهم وهو يفعل كل هذا. ومازال الجميع يحدقون إلى الفراغ الذي كان توًا واقفًا فيه.

شعر الفتى 412 بإحساس مثير يعتريه؛ لقد نجح إذن، إنه يستطيع أن يستخدم **السحر**. يستطيع **أن يتلاشى في الهواء**! لا أحد يستطيع أن يراه. إنه حر!

أخذه الحماس وقفز قفزة صغيرة على قدم واحدة، ولم يلحظه أحد. رفع ذراعيه في الهواء، وأخذ يلوح بهما فوق رأسه، ولم يلحظه أحد. وضع إبهامه في أذنه وهز أصابعه، ولم يلحظه أحد. وإذا به فجأة، وفي صمت، تزل قدمه ويسقط على شمعة من شموع العواصف فيطفئها، وانزلقت قدمه تحت السجادة وسقط على الأرض.

فقالت مارشا بغضب: «*ها أنت* أيها الفتى».

ووجد نفسه جالسًا على الأرض يمسك بركبته المصابة، وبدأ **يظهر** رويدًا رويدًا أمام جمهوره المنبهر.

قالت له چينا: «أحسنت. لكن كيف فعلت كل ذلك بهذه السهولة؟».

هز الفتى 412 رأسه، إنه لا يعرف بأي حال من الأحوال كيف تسنى له ذلك. كل ما يعرفه أنه حدث. لكنه كان شعورًا رائعًا.

بدت مارشا في حالة مزاجية غريبة، وبعد أن ظن الفتى 412 أنه سيسعدها بما قام به، فإذا بها تبدو غير ذلك تمامًا.

«لا ينبغي عليك أن **تبصم** التعاويذ بهذه السرعة، فقد يعرضك ذلك للخطر، فقد كان من الممكن ألا تعود مرة أخرى بالشكل المناسب».

لكن ما لم تقله مارشا للفتى 412 أنها لم ترَ في حياتها شخصًا يجرب لأول مرة استخدام تعويذة سحرية ويجيدها بهذه السرعة. وما زاد من حيرتها أنها شعرت عندما أعاد **الوصفة السحرية** بطنين **سحري** وكأن شحنات كهربائية قفزت من يده.

ثم قالت له وهي تعيدها إليه: «لا. احتفظ بالوصفة، وأنت أيضًا يا چينا. فمن الأفضل للمبتدئين أن يحتفظوا **بالوصفات السحرية**؛ لأنهم قد يستخدمونها».

وضع الفتى 412 **الوصفة السحرية** في جيب بنطلونه، وهو متحير. كان رأسه لايزال هائمًا في إثارة **السحر**، ويعلم تمامًا أنه أتقن ما فعله. فلماذا إذن تبدو مارشا غاضبة؟ ما الذي أخطأ فيه؟ ربما أن جيش الشباب كان محقًّا في أن الساحرة العظمى بالفعل مختلة عقليًّا. ترى، ماذا كانت كلمات تلك الأنشودة التي كانوا يلقونها صباح كل يوم في جيش الشباب قبل أن ينطلقوا لحراسة برج السحرة والتجسس على كل السحرة، الخارج والداخل منهم، خصوصًا الساحرة العظمى؟

مجنونة مثل الحبار
كريهة مثل الفأر
ضعها في فطيرة
وارمها للقطط الشريرة!

لكن الأنشودة ما عادت تُضحك الفتى 412، وبدت له كأنها لا تنطبق على مارشا بكل تأكيد، بل في واقع الأمر أمعن الفتى 412 التفكير في جيش الشباب، فأدركَ أكثر أين هي الحقيقة..

فجيش الشباب هو الجنون.

ومارشا هي **السحر**.

23
الجناحان



في *تلك الليلة، تحولت الرياح الشرقية* إلى عاصفة، وأخذت مصاريع النوافذ تتخبط، واهتزت الأبواب وتأرجح الكوخ كله. ومن آن لآخر، كانت الرياح تشتد أكثر وهي تعوي حول الكوخ، وتنفخ في الدخان الصاعد من المدخنة وتعيده إلى المدفأة مرة أخرى، فيصيب الرابضين الثلاثة بجوار المدفأة بألحفتهم بالاختناق ويجعلهم يسعلون.

أما في الغرفة العلوية فكان ماكسي الذي رفض أن يترك سرير سيده، يغطُّ بصوت عالٍ كعادته، مصيبًا مارشا والعمة زيلدا بتوتر شديد، سرق النوم من عيونهما.

نهضت العمة زيلدا بهدوء ونظرت من النافذة كما كانت تفعل دائمًا في الليالي العاصفة، منذ أن قرر أخوها الصغير ثيو، وهو من المتحولين مثل أخيها الأكبر بنيامين هيب، أنه لم يعد يحتمل العيش تحت السحب؛ فثيو كان أمله أن يحلق عاليًا وسط السحب في ضوء الشمس إلى الأبد. ومن ثم، جاء إلى أخته ذات يوم من أيام الشتاء ليودعها، وفي فجر اليوم التالي جلست عند قناة الغمد وهي تشاهده لآخر مرة وهو يتحول التحول الأخير إلى هيئة طائر النَّوء التي اختارها لنفسه. كانت آخر مرة رأته فيها عندما رأت ذات مرة الطائر القوي يتجه من فوق مستنقعات مرام نحو البحر، وأيقنت داخلها وهي تراقب هذا الطائر أنها على الأرجح لن ترى أخاها مرة أخرى، لأن طيور النَّوء تقضي حياتها في التحليق فوق المحيطات ونادرًا ما تعود إلى البر، إلا إذا حدث ذلك مصادفةً مع هبوب عاصفة. تنهدت العمة زيلدا، ثم عادت إلى السرير على أطراف أصابعها.

أما مارشا فحشرت رأسها في الوسادة محاولةً أن تبعد عن أذنيها غطيط الكلب والعاصفة بعوائها المدوي وهي تجتاح المستنقعات، ويعترضها الكوخ فتحاول أن تجتازه بعد أن تضربه بقوة. لكن الأصوات لم تكن فقط هي ما منع مارشا من النوم؛ إذ كان هناك شيء آخر يدور في رأسها. شيء رأته بأم عينيها هذه الليلة بعث في نفسها الأمل في المستقبل. مستقبل؛ يعيد القلعة إلى سابق عهدها خالية من السحر الأسود. وهكذا، أخذت تفكر وهي ممددة في سريرها تخطط لخطوتها التالية.

وفي الطابق السفلي، هجر النوم الفتى 412 هو أيضًا، فلقد وجد نفسه منذ أن استخدم التعويذة السحرية يشعر بإحساس غريب، وكأن سربًا من النحل يطن عند رأسه، فتخيل بعض مفعول **السحر** الذي خلفته التعويذة وهو يدور ويدور في دوامة، وتساءل في سره: لماذا جينا التي تغط الآن في النوم، ليست مستيقظة مثله؛ لا يطن رأسها مثل رأسه؟ ثم أخرج الخاتم وأدخله في أصبعه، وعلى التوّ أضاء بريقه الذهبي الغرفة، وأضاء ذهنه بفكرة؛ فلابد أن الأمر متعلق بالخاتم، هذا هو السبب الذي يجعل رأسه يطن، وهذا هو السبب الذي جعله يستخدم التعويذة السحرية بهذه السهولة. إن ما عثر عليه إذن **خاتم سحريٌ**.

بدأ الفتى 412 يتذكر الأحداث التي وقعت بعد أن استخدم التعويذة، كان يجلس مع جينا يتصفحان كتاب التعاويذ السحرية إلى أن لاحظتهما مارشا وجعلتهما يتركان الكتاب وهي تقول لهما إنها لا تريد مزيدًا من العبث في المكان، وكفى هذا اللهو، ثم حدث بعد ذلك في وقت متأخر من المساء أن كان الجميع بعيدين، فيما عدا مارشا التي وضعته في مأزق وقالت له إنها تريد أن تتحدث معه غدًا، وعلى انفراد. وهو ما كان يعني- حسب طريقة تفكير الفتى 412 -أن يتوقع من ذلك بعض المتاعب.

كل هذه الأفكار جعلته يشعر بالانزعاج. لم يكن قادرًا على التفكير بشكل مباشر؛ لذا، قرر أن يعد قائمة؛ قائمة جيش الشباب للحقائق، وهي دائمًا ما تجدي معه.

الحقيقة الأولى: ليس هناك استدعاء لطابور الصباح المبكر: جيد.

الحقيقة الثانية: الطعام أفضل بكثير: جيد.

الحقيقة الثالثة: العمة زيلدا سيدة لطيفة: جيد.

الحقيقة الرابعة: الفتاة الأميرة ودود: جيد.

الحقيقة الخامسة: أصبح معه خاتم ***سحري****:* جيد.

الحقيقة السادسة: الساحرة العظمى غاضبة: سيئ.

أثارت القائمة دهشته، فما حدث في حياته من قبل أن فاق عدد الحقائق الجيدة مثيله من الحقائق السيئة. لكن بشكل أو بآخر، جعلت هذه النتيجة الحقيقة السيئة الوحيدة لها وقع أسوأ عليه؛ لأنه ولأول مرة شعر بأن في يده شيئًا ثمينًا يمكن أن يفقده، ثم غطَّ أخيرًا في نوم متقلب واستيقظ مبكرًا مع بزوغ الفجر.

كانت الرياح في صباح اليوم التالي قد هدأت، وساد الكوخ جو عام من التوقعات.

فالعمة زيلدا خرجت في الفجر تبحث عن طيور النَّوء ربما جاءت بها الرياح بعد الليلة العاصفة أمس، لكنها لم تعثر على أيٍّ منها، وهو ما كانت تتوقعه كما جرت العادة، وإن كانت دائمًا تتمنى عكس ذلك.

كانت مارشا تتوقع عودة سايلاس ومعه تعويذة **السلامة**.

كانت جينا ونكو يتوقعان وصول رسالة من سايلاس.

كان ماكسي يتوقع وصول إفطاره.

أما الفتى 412 فكان يتوقع المتاعب.

سألت العمة زيلدا الفتى 412: «ألا تريد أن تأكل عصيدتك؟ لقد أكلت طبقين بالأمس، واليوم لا تكاد تأكل شيئًا».

فهز لها رأسه.

ثم قالت له، وقد بدا عليها القلق: «تبدو ذابلًا بعض الشيء، هل أنت بخير؟».

فأومأ لها برأسه، وإن كان يشعر بعكس ذلك.

بعد الإفطار، بينما كان الفتى 412 يطوي لحافه بشكل مرتب، تمامًا كما كان يطوي ملاءاته في الجيش صباح كل يوم من أيام حياته، سألته جينا عما إذا كان يود أن يخرج إلى زورق *موريل الثاني* معها هي ونكو؛ ليراقبوا عودة الجُرذ الرسول، لكنه هز لها رأسه، وهو ما لم يدهشها؛ فهي تعلم أن الفتى 412 لا يحب المراكب.

ثم قالت له بمرح، وهي تنطلق جريًا لتنضم إلى نكو في الزورق: «أراك لاحقًا إذن».

أخذ الفتى 412 يراقب نكو وهو يقود الزورق على امتداد قناة الغمد ويدخل المستنقعات، وبدت له أرض المستنقع بائسة وباردة هذا الصباح وكأن الرياح الشرقية التي هبت عليها أمس قد جرفت معها سطحها، وأسعده أنه سيمكث في الكوخ بجانب النار.

ثم جاء صوت مارشا من خلفه يقول له: «ها أنت» فوثب الفتى 412 فزِعًا، بينما واصلت هي كلامها قائلة: «أريد أن أتحدث معك عن شيء».

وقع قلب الفتى 412، وقال في سره: إذن، حان وقت المتاعب، إنها سوف ترسله بعيدًا عن هنا. سوف ترسله إلى جيش الشباب؛ فقد كان ينبغي عليه أن يدرك أنه في حلم جميل لن يطول.

لاحظت مارشا الشحوب الشديد الذي علا وجهه فجأة، فسألته: «هل أنت بخير؟ أهذا بسبب فطيرة رِجل الخنزير التي تناولتها ليلة أمس؟ فحتى أنا وجدتها عسيرة الهضم، كما كان نومي مضطربًا، خصوصًا مع هذه الرياح الشرقية الرهيبة. وعلى ذكر الرياح، أنا لا أفهم لماذا لا يستطيع هذا الكلب المقزز النوم في مكان آخر؟».

علت وجه الفتى 412 ابتسامة، فبالنسبة له على الأقل يسعده أن ماكسي ينام في الغرفة العلوية.

واصلت مارشا كلامها قائلة: «فكرت أنك قد تود أن تريني الجزيرة. أعتقد أنك تعرف الآن الطريق حولها».

نظر الفتى 412 إلى مارشا مذعورًا؛ فما الذي تشك فيه؟ أتعلم أنه عثر على النفق؟

فابتسمت مارشا وقالت له: «لا تقلق هكذا. هيا بنا. ماذا لو أخذتني إلى أرض الغول، فأنا لم أرَ من قبل المكان الذي يعيش فيه؟».. وهكذا، انطلق الفتى 412، وهو يتحسر على الدفء الذي تركه في الكوخ، وتوجها إلى أرض الغول.

كان منظرهما معًا يشكل ثنائيًا غريبًا؛ الفتى 412، العبد المطيع في جيش الشباب سابقًا، شخص هامشي ضئيل الحجم، حتى وهو في سترته الضخمة المصنوعة من جلد الغنم وبنطلون البحارة الواسع ذي الأرجل المرفوعة لا يرى إلا لوهلة بقبعته ذات اللون الأحمر الزاهي، والتي يرفض حتى الآن أن يخلعها، ولو كان ذلك من أجل العمة زيلدا. تعلوه بكثير مارشا أوفرستراند- الساحرة العظمى- سائرة للأمام بخطوات واسعة وسريعة، خطوات تجعل الفتى 412 يهرول من حين لآخر حتى يلحق بها، بينما يلمع حزامها المصنوع من الذهب والبلاتين في ضوء شمس الشتاء الضعيف، وتنسال خلفها عباءتها الثقيلة المصنوعة من الحرير والفرو في تهر أرجواني اللون.

لم يمضِ وقت طويل حتى وصلا إلى أرض الغول فسألته مارشا، وقد اعتراها بعض الذهول غير مصدقة كيف يمكن لأي كائن أن يعيش في مكان بهذه البرودة وموحل بهذا الشكل: «أهذا هو المكان؟».

فأومأ لها الفتى 412 برأسه فخورًا بنفسه أنه استطاع أن يجعل مارشا ترى شيئًا لم تكن تعلمه من قبل، ثم بدأت حديثها قائلة: «رائع. إنك تتعلم شيئًا كل يوم، وبالأمس...»، ثم قالت، وهي تنظر في عيني الفتى 412 حتى لا يفلت منها وينظر بعيدًا: «أنا بالأمس تعلمت شيئًا أيضًا؛ شيئًا مثيرًا للغاية».

أخذ الفتى 412 ينقل قدميه بلا اتزان وهو ينظر بعيدًا، لا يعجبه مغزى كلامها.

قالت مارشا بصوت خفيض: «تعلمت أنك تملك موهبة **سحرية** طبيعية، لقد نفذت التعويذة بسهولة كما لو كنت تتعلم **السحر** منذ سنوات طويلة. أنت لم تتعامل مع أي تعاويذ من قبل، أليس كذلك؟».

فهز لها الفتى 412 رأسه ونظر لأسفل، وهو مازال يشعر أنه أخطأ في شيء.

واصلت مارشا كلامها قائلة: «تمامًا كما كنت أظن. أعتقد أنك التحقت بجيش الشباب منذ أن كنت، ترى... في الثانية والنصف من عمرك.. فهذه هي السن التي اعتادوا أن يأخذوهم فيها».

كان الفتى 412 لا يعلم بأي حال من الأحوال كم مكث في جيش الشباب، ولا يتذكر أي شيء في حياته غير جيش الشباب، وظن بالتالي أن مارشا على حق فأومأ لها برأسه.

«كلنا يعلم أن جيش الشباب هو آخر مكان يمكن أن تكون له صلة بأي شكل من أشكال **السحر**، ومع ذلك، لسبب أو لآخر، فأنت تمتلك طاقتك السحرية الخاصة، لقد ذهلت أمس وأنت تناولني **الوصفة السحرية**».

أخرجت مارشا شيئًا صغيرًا ذا بريق من جيب بحزامها ووضعته في يد الفتى 412. نظر الفتى 412 في يده ووجد زوجين فضيين من الأجنحة الصغيرة يستقران في راحة يده المتسخة. كان الجناحان يبرقان في الضوء ويبدوان أنهما قد يطيران في أي لحظة. اقترب منهما أكثر وأمعن النظر إليهما. فرأى حروفًا متناهية الصغر ترصع كل جناح منهما بالذهب الخالص، علم الفتى معنى ذلك؛ علم أنه يحمل في يده **وصفة سحرية**،

وإن كانت هذه المرة ليست مكتوبة على قطعة من الخشب، ولكن على جوهرة جميلة.

قالت له مارشا: «بعض **الوصفات السحرية** الخاصة بالمستويات الأعلى من السحر قد تكون جميلة جدًا، فليست كل الوصفات السحرية مكتوبة على شرائح الخبز المبللة. أتذكر أول مرة جعلني ألثر فيها أرى هذه الوصفة السحرية، بدت لي حينها كواحدةٍ من أجمل وأبسط الوصفات السحرية التي رأيتها في حياتي، ولا أزال حتى اليوم أراها هكذا».

راح الفتى 412 يحدق بالجناحين، كان أحدهما مكتوبًا عليه «حلّق معي»، وعلى الآخر «بحُرية».

فردد الفتى 412 في سره **حلق معي بحُرية**، وهو يهيم في وقْع صدى الكلمات في سره، وإذا به...

لقد حدث ذلك تلقائيًا.

وهو غير مدرك على وجه اليقين أنه يفعل ذلك.

لقد ردد الكلمات فحسب في سره، وحلمه بالطيران ورد على ذهنه، ثم قالت مارشا باندهاش: «كنت أعلم أنك ستفعل ذلك! كنت متأكدة!».

تساءل الفتى 412 في سرّه ماذا تقصد بذلك، إلى أن أدرك أنه بدا وكأنه في طول قامة مارشا، أو حتى أطول منها، بل في واقع الأمر كان يحلق فوقها. نظر الفتى 412 لأسفل متوقعًا أن مارشا ستقول له مثلما قالت له ليلة أمس؛ تقول له: كفى عبثًا واهبط *في الحال*، لكنه وجد لحسن حظه أن وجهها علته ابتسامة واسعة، وعينيها الخضراوين تشعان

بالحماس؛ ثم قالت مارشا مظللة على عينيها اللتين ضيقتهما وهي تنظر عاليًا إلى شمس الصباح لتشاهد الفتى 412 وهو يحلق أعلى أرض الغول: «هذا مستوى متقدم من **السحر**، هذا إنجاز لا يصل إليه أي شخص إلا بعد سنوات طويلة. أنا لا أصدق نفسي».

ربما لم يكن ينبغي على مارشا أن تصدق؛ لأن الفتى 412 نفسه لم يكن يصدق ذلك هو أيضًا. لا يصدقه فعلًا!

وإذا به فجأة يسقط مصدرًا صوت طرطشة قوية وسط أرض الغول.

وعلى الفور، ظهر من وسط الوحل زوجان من العيون السوداء المستديرة تنظران بسخط وتطرفان مؤنبتين، ويقول صاحبهما: «أف! ألا يستطيع غول مسكين مثلي أن ينعم بالسلام؟».

أخذ الفتى 412 يقاوم على سطح الوحل، وتشبث على التوّ في الغول وهو يشهق قائلًا: «أغغغ!».

قال الغول متذمرًا، وهو يجر الفتى 412 إلى حافة الأرض الموحلة: «أنا لم يغمض لي جفن أمس. قطعت كل هذا الطريق حتى النهر، والشمس تضرب في عيني، والجُرذ يثرثر في أذني»، ثم رفع الفتى 412 على الضفة بجوار أرضه الموحلة، وواصل قائلًا: «أتمنى أن تتركوا لي بعض الوقت لأنام حتى غدٍ. لا أريد أي زوار. أريد فقط أن أنام. هل فهمتم؟ أنت بخير يا فتى؟».

فأومأ له الفتى 412 برأسه، وهو لا يزال يغمغم.

جثت مارشا على ركبتيها وأخذت تجفف وجه الفتى 412 بمنديل أنيق من الحرير الأرجواني، وهنالك بدا على الغول قصير النظر الدهشة.

فقال باحترام: «أخ! صباح الخير يا مولاتي، آسف، لم أعلم أنك هنا».

«صباح الخير أيها الغول. تأسف على إزعاجك، ونشكرك كثيرًا على مساعدتك لنا. سوف نرحل الآن ونتركك في سلام».

«لا تشغلي بالك، إنه لمن دواعي سروري».

وبهذه الكلمات، غطس الغول إلى قاع أرضه الموحلة، واختفى تمامًا، مخلفًا وراءه فقط بعض الفقاقيع على السطح.

سارت مارشا والفتى 412 بتمهل عائدَيْن إلى الكوخ، وقررت في سرها أن تتجاهل حقيقة أن الفتى 412 أصبح مغطى من رأسه إلى أخمص قدميه بالوحل، فهناك أمر تريد أن تثيره معه، ولقد اتخذت قرارها ولا تريد إرجاء الأمر.

قالت له: «ما رأيك في أن تكون تلميذي وتتدرب على يدي؟».

توقف الفتى 412 وسط الطريق وراح يحدق إليها، وبياض عينيه يبرق وسط الوحل الذي يغطي وجهه غير مصدق. هل صحيح ما يسمعه؟

«سوف تكون أول تلميذ لي، فأنا حتى الآن لم أجد التلميذ المناسب».

أخذ الفتى 412 يحدق إليها لا يصدق ما يحدث له.

فقالت له مارشا محاولةً أن تشرح له: «ما كنت أقصده أنني لم أجد من قبل شخصًا له أي بريق **سحري**، وأنت لديك هذا البريق. لا أعلم لماذا، ولا كيف اكتسبته، لكنك تمتلكه. وبقوتك وقوتي معًا أعتقد أننا

سنستطيع أن نطرد **الشياطين**، أو ما أطلق عليه **العالم الآخر**، ربما حتى للأبد. ما رأيك؟ هل توافق أن تكون تلميذي؟».

كان الفتى 412 مذهولًا؛ إذ كيف يتأتى له أن يساعد مارشا؛ الساحرة العظمى؟ لقد أخطأت في فهم الموضوع برمته. إنه مزيف. فالخاتم التنيني هو الذي يمتلك القوة السحرية لا هو. وعلى الرغم من أنه كان في قرارة نفسه يرغب أن يوافق، فإنه لا يستطيع.

فهز لها رأسه.

فقالت له مارشا مندهشة: «لا! أنت ترفض؟!».

وببطء، أومأ لها برأسه.

«مستحيل» ولأول مرة في حياتها، لم تجد مارشا ما تقوله؛ فما كان يخطر ببالها أبدًا أن الفتى 412 سوف يرفض فرصة أن يتدرب على يد الساحرة العظمى، لا أحد من قبل رفض فرصة التتلمذ على يد ساحرة عظمى أو ساحر أعظم، فيما عدا سايلاس بالطبع؛ هذا الأحمق.

فسألته: «هل أنت مدرك ما تقول؟».

لم يُجِبْها، ووجد نفسه في غاية التعاسة، لقد أخطأ بشكل أو بآخر في تصرفه مرة أخرى.

قالت له مارشا بنبرة ألطف: «أنا أطلب منك أن تعيد التفكير في الموضوع»، ثم لاحظت كَمَّ الخوف الذي بدا عليه، فقالت له: «إنه قرار مهم لكل منا. وللقلعة أيضًا. أتمنى أن تغير رأيك».

لم يعرف الفتى 412 كيف يمكن له أن يغير رأيه، وناول مارشا **الوصفة السحرية** ليعيدها إليها، كانت تلمع لمعانًا شديدًا وسط راحته الموحلة.

وكانت مارشا هي التي هزت له رأسها هذه المرة.

قالت: «إنها دليل على عرضي الذي قدمته لك، والذي لا يزال قائمًا. لقد أعطاها لي ألثر عندما طلب مني أن أكون تلميذته، وأنا بالطبع وافقت على الفور حينها، وإن كنت أرى أن الموضوع مختلف معك؛ فأنت تحتاج لبعض الوقت تفكر فيه، وأنا أريد منك أن تحتفظ بها في تلك الأثناء».

ثم قررت مارشا أن تغير الموضوع فقالت فجأة: «والآن، أتجيد اصطياد الحشرات؟».

كان الفتى 412 يجيد تمامًا اصطياد الحشرات، ولقد كان لديه العديد من الحشرات الأليفة على مدار السنوات الماضية، منها خنفساء الحنظب، وكان اسمها ستاج، وميلي الدودة الألفية، وإرني حشرة أم مقص، وهي التي كان يفضلها على وجه الخصوص. وإن كان قد احتفظ أيضًا بعنكب منزلي ضخم بأرجل يغطيها الشعر، وكان اسمه جو ذا الأرجل السبع، ولقد عاش جو ذو الأرجل السبع في ثقب بالحائط الذي يعلو سريره، إلى أن شك الفتى 412 في أنه أكل إرني، وربما عائلة إرني بأسرها أيضًا. وبعد ذلك الحدث، وجد جو نفسه يسكن أسفل سرير القائد كاديت الذي يصيبه الذعر من العناكب.

سعدت مارشا كثيرًا بغنيمة الحشرات التي خرجا بها؛ فالحشرات السبع والخمسون بأشكالها المتنوعة سوف تفي بالغرض، كما أنه من الصعب على الفتى 412 أن يحمل أكثر من هذا الكمّ.

ثم قالت له: «سوف نُخرج **برطمانات الوقاية** عندما نعود لنضع فيها هذه الحشرات على الفور».

ازدرد الفتى 412 لعابه بصعوبة؛ فهذا إذن كان هدفها من اصطياد الحشرات؛ إنها تريد أن تصنع منها مربى.

ثم شعر بدغدغة تسير على ذراعه بينما كان يتبع مارشا في طريق العودة إلى الكوخ، وتمنى ألا تكون شيئًا بأرجل عديدة.

24
الحشرات المدرعة



كانت هناك *رائحة كريهة تزكم الأنوف* لجرذان مسلوقة وسمك متعفن تنبعث خارج الكوخ، بينما كانت چينا ونكو يجدفان بزورق *موريبل الثاني* على امتداد قناة الغمد في طريق عودتهما، بعد يوم طويل قضياه في المستنقعات دون أن تظهر أية إشارات للجرذ الرسول.

قال نكو وهو يربط الزورق ويتساءل في سره عما إذا كان يغامر ويدخل الكوخ: «ترى، هل وصل الجُرذ هنا قبلنا وسلقته العمة زيلدا لنا لنتناوله على العشاء؟».

«كفى، كفى يا نكو. لقد أحببت هذا الجُرذ الرسول. أتمنى أن يرسله لنا أبي في القريب العاجل».

سارت چينا ونكو في الممشى المؤدي إلى الكوخ، وكل منهما يسد بإحكام أنفه بيده. بحذر، ودفعت چينا الباب ودخلت.

«أف!».

كانت الرائحة في الداخل أسوأ، فبالإضافة إلى رائحة الجرذان المسلوقة والسمك المتعفن، كانت هناك حتمًا رائحة تهب عليهم لروث قطة مر عليه وقت طويل.

جاء صوت العمة زيلدا من المطبخ، وأدركت چينا أن هذه الرائحة البشعة تنبعث من هناك، وقالت لهما: «ادخلوا يا أحبابي، نحن هنا نطبخ».

فقال نكو في سره إنه إذا كان ذلك هو العشاء فمن الأفضل له أن يأكل جوربه.

ثم قالت العمة زيلدا بابتهاج: «لقد حضرتما في الوقت المناسب».

رد عليها نكو من خارج المطبخ، وهو يتساءل في سره عما إذا كانت العمة زيلدا فقدت تمامًا حاسة الشم أم أن السنوات الطويلة التي قضتها تشتم في الكرنب المسلوق قد قتلت عندها هذه الحاسة تمامًا: «ياه! رائع!».

اقتربت چينا ونكو بتردد من المطبخ، يتساءلان: ما هذا العشاء الذي يمكن أن تكون رائحته مقززة بهذا الشكل؟

ولدهشتهما وسعادتهما أيضًا، لم تكن هذه الرائحة رائحة العشاء، كما أنها لم تكن رائحة الطعام الذي تعده العمة زيلدا، إنما رائحة شيء يُعده الفتى 412.

كان منظر الفتى 412 غريبًا جدًا؛ إذ كان يرتدي بدلة من التريكو متعددة الألوان أكبر من مقاسه، عبارة عن سترة واسعة كثيرة الألوان وسروال قصير متهدل من التريكو، لكن قبعته الحمراء كانت لاتزال محشورة في رأسه بإحكام يتصاعد منها بخار خفيف وهي تجف من حرارة المطبخ، بينما بقية ملابسه كانت تجف بجوار النار.

فالعمة زيلدا انتصرت أخيرًا في معركة إقناع الفتى 412 بالاستحمام، ليس لأي سبب آخر غير أنه هو نفسه كان في غاية الانزعاج عندما عاد مغطى بالوحل الأسود اللزج بعد أن سقط في أرض الغول، وأسعده حتمًا أن يختفي في كوخ الاستحمام ويغطس فيه ليزيل عنه كل هذا الوحل، لكنه لم يخضع وظل متمسكًا بقبعته الحمراء، وخسرت العمة زيلدا هذه المعركة. ومع ذلك، أسعدها أنها تمكنت أخيرًا من أن تنظف ملابسه،وشعرت كم أنه يبدو لطيفًا في بدلة سايلاس التريكو التي كان يرتديها وهو طفل. بينما وجد الفتى 412 نفسه يبدو في غاية الحمق، وتجنب النظر إلى جينا عندما وصلت.

ركز في تقليب عجينة لينة ينبعث منها دخان، ومازال غير مقتنع بأن العمة زيلدا لا تعد مربى الحشرات، خاصة أنها تجلس إلى مائدة المطبخ وأمامها برطمانات مربى فارغة. وكانت منشغلة بفتح البرطمانات وإعطائها

لمارشا الجالسة على الناحية الأخرى من المائدة، تُخرج **وصفات سحرية** من كتاب سميك جدًا **للتعاويذ** عنوانه كالتالي:

المادة الواقية للحشرات المدرعة

500 وصفة سحرية

كلها مضمونة.. إنها طبق الأصل ومفعولها 100%

مثالية لسحرة اليوم المدركين أهمية

مسألة السلامة

قالت العمة زيلدا وهي تفسح لهما مكانًا: «تعاليا اجلسا هنا، نحن نعد **برطمانات الوقاية**. مارشا تعد **الوصفات السحرية**، وأنتما يمكنكما أن تعدا الحشرات إذا شئتما».

جلست جينا ونكو إلى المائدة، وهما يحرصان على ألا يتنفسا إلا عبر الفم، واكتشفا أن هذه الرائحة تنبعث من مقلاة بها خلطة لزجة لونها أخضر زاهٍ، يقلبها الفتى 412 بتركيز وحرص شديدين.

دفعت العمة زيلدا بإناء كبير إلى جينا ونكو قائلة: «تفضلا، تفضلا الحشرات»، نظرت جينا خلسةً في الإناء، فرأت فيه كل أشكال وأحجام الحشرات وهي تزحف على سطحه الداخلي.

ارتعشت جينا مشمئزة وقالت: «يع!» فجينا لا تطيق الحشرات الزاحفة أبدًا، ونكو أيضًا لم يسعده هذا المنظر كثيرًا. فمنذ أن أسقط «إد»

و«إريك» على عنقه دودة ألفية عندما كان صغيرًا وهو يتجنب أي حشرة زاحفة.

لكن العمة زيلدا لم تعر لكلامهما اهتمامًا وقالت لهما: «هراء، إنها ليست سوى كائنات ضئيلة الحجم بأرجل متعددة، كما أنها خائفة منكما أكثر من خوفكما منها. وإليكما ما سنفعله الآن، أولًا ستمرر مارشا **الوصفة السحرية** علينا، وكل منا سيمسك بهذه **الوصفة** حتى تأخذ كل حشرة **بصمتنا** وتتعرف إلينا عندما يتم إطلاق سراحها. بعد ذلك، سوف تضع **الوصفة السحرية** في البرطمان، أنتما الاثنان تستطيعان أن تضيفا حشرة في البرطمان ثم تعطياه إلى الفتى 412، وهو سوف يغطي البرطمان **بالمادة الحافظة**، وسأغلق أنا الغطاء بإحكام. بهذه الطريقة، سوف ننتهي من العمل في أسرع وقت».

وهذا بالفعل هو ما فعلوه، بَيْدَ أن چينا انتهى بها الأمر إلى أنها هي التي كانت تغلق غطاء البرطمانات بعد أن زحفت على ذراعيها أولى الحشرات، التي انزعجت تمامًا بعد أن راحت چينا تقفز وتصيح بصوت مدوٍّ.

ومع بداية العمل بآخر برطمان، تنفسوا جميعًا الصُّعداء. بدأت العمة زيلدا بفتح الغطاء، ومررت البرطمان لمارشا التي قلبت صفحة كتاب التعاويذ وأخرجت منه مرة أخرى **وصفة سحرية** صغيرة على شكل درع، ثم مررتها عليهم؛ حتى يمسكها كل منهم لوهلة، ثم أسقطتها في برطمان المربى وأعطت البرطمان لنكو الذي فوجئ بما كان ينتظره؛ فقد رأى في قاع إناء الحشرات الحشرة الأخيرة التي لم تكن إلا دودة ألفية ضخمة

لونها أحمر، تمامًا مثل تلك التي تسللت من أسفل رأسه إلى ظهره منذ سنوات بعيدة. كانت الحشرة تجري بجنون، تلف وتلف داخل الإناء، باحثةً عن مكان تختبئ فيه، ولولا أنها جعلت نكو يرتعد خوفًا منها لأشفق هو عليها. لكن كل ما كان يفكر فيه نكو حينها هو أنه لابد أن يلتقطها من الإناء. كانت مارشا منتظرة **بالوصفة السحرية** الموجودة أصلًا داخل البرطمان، وكان الفتى 412 متماسكًا ومعه آخر مغرفة مملوءة بخلطة **الوقاية** المقززة. بينما كان الجميع ينتظرون.

أخذ نكو نفسًا عميقًا، وأغمض عينيه ومد يده في الإناء، رأته الدودة الألفية متجهًا نحوها، فهرعت إلى الجهة المعاكسة وراح نكو يتحسس سطح الإناء من الداخل، لكن الدودة الألفية كانت تتحرك أسرع منه، وتجري مسرعة بخطوات صغيرة إلى أن وقعت عيناها على مأوى في كُم نكو المتدلي فهرعت إليه.

قالت مارشا: «لقد أمسكتها يا نكو! إنها في كُمِّكَ. ضعها بسرعة في البرطمان»، ودون أن يجرؤ على النظر، أخذ نكو يهز كُمَّه بهلع فوق البرطمان فأوقعه. انقلب البرطمان، وسالت **الوصفة السحرية** على المائدة، ثم سقطت على الأرض **واختفت**.

قالت مارشا: «يا له من إزعاج! هذا لأنها من الوصفات السحرية غير المستقرة»، وأخرجت **وصفة سحرية** أخرى وبسرعة أسقطتها في البرطمان، ونسيت مسألة طبع **البصمات** عليها.

ثم قالت بتوتر: «أسرع، هيا، **المادة الحافظة** تفقد مفعولها سريعًا، هيا».

وبسرعة ومهارة، وصلت إلى الدودة التي كانت في كُمّ نكو، ووضعتها في البرطمان مباشرة. وفي التوّ كان الفتى 412 قد غطاها بخلطة **المادة الحافظة** الخضراء، وأغلقت چينا البرطمان بإحكام، ووضعت البرطمان على المائدة بابتهاج، راح الجميع يراقبون **برطمان الوقاية** الأخير وهو يتحول.

كانت الدودة الألفية قابعة في **برطمان الوقاية** مصدومةً. لقد كانت مستغرقة في النوم أسفل صخرتها المفضلة عندما أمسك شيء ضخم برأس أحمر الصخرة ورفعها عاليًا في الفضاء. لكنِ الأسوأ كان في الطريق؛ فالدودة الألفية - وهي كائن يعيش في عزلة- ألقيت وسط كومة من الحشرات المتسخة المزعجة غير المهذبة بالمرة؛ حيث كانت تركلها وتدفعها، حتى إنها كانت تحاول أن تعض أرجلها، والدودة الألفية لا تحب أن يعبث أحد بأرجلها؛ فأرجلها كثيرة، وتحتاج كل رِجل منها أن تحافظ تمامًا على ترتيب عملها على أكمل وجه، وإلا فسوف تجد نفسها في مواجهة المتاعب التي تبدأ مع إصابة رِجل واحدة، وحينها قد تظل الحشرة تجري حول نفسها في دوائر. ومن ثم، توجهت الدودة الألفية إلى قاع كومة من الحشرات الأولية لتقبع بينها في عزلة، إلى أن أدركت أن كل الحشرات قد رحلت *وما عاد هناك مكان تختبئ فيه*. وأي دودة ألفية تعلم أن عدم وجود مكان تختبئ فيه يعني نهاية العالم بالنسبة لها، ولقد أيقنت الدودة الألفية صدق ذلك القول؛ لأنها بلا شك باتت تسبح الآن في خلطة خضراء لزجة سميكة، وتشعر بشيء بشع يحدث لها، لقد بدأت تفقد أرجلها واحدة تلو الأخرى.

لكن الأمر لم يقتصر على ذلك، فجسمها الأملس بدأ طوله ينكمش وحجمه يتضخم، وبات شكلها الآن مثل مثلث قصير وعريض برأس مدبب، وبات على ظهرها زوج من الأجنحة المدرعة القوية خضراء اللون، وأصبح جسمها من الأمام مغطى بقشور خضراء ثقيلة وكأن كل هذا لم يكن كافيًا، فكل أرجلها اختفت ولم يتبق منها *إلا أربع فقط*؛ أربع أرجل خضراء سميكة، هذا إن كان يمكن أن تسمى أرجلًا أصلًا؛ فهي بلا شك ليست كالأرجل التي تسمى أرجلًا؛ اثنتان منها تقعان عند مقدمة جسمها واثنتان في الخلف، والرجلان الأماميتان أقصر من الرجلين الخلفيتين، ولها خمس قطع مدببة في طرف كل منهما، تستطيع الدودة الألفية أن تحركها حولها، كما أن إحدى الرجلين الأماميتين تحمل عصا معدنية حادة وصغيرة، أما الرجلان الخلفيتان فطرف كل منهما أصبح له شيء مسطح كبير أخضر اللون، وكل واحد من هذه الأشياء المسطحة عليه خمسة أشياء أخرى صغيرة مدببة خضراء اللون، إنها كارثة بكل ما في هذه الكلمة من معنى. فكيف يمكن لأي كائن أن يعيش بأربع أرجل فقط، هي أرجل بدينة تنتهي بقطع مدببة؟ كيف يمكن لكائن أيًا كان أن يكون بهذا الشكل؟

إن هذا الكائن الذي يحير الدودة الألفية، رغم عدم علمها بذلك، ليس سوى الحشرة المدرعة.

كانت الدودة الألفية السابقة قد باتت حشرة مدرعة كاملة-رابضةً الآن في **المادة الواقية** السميكة ذات اللون الأخضر. تحركت الحشرة ببطء كأنها تختبر شكلها الجديد. وارتسم على وجهها تعبير الاندهاش

وهي تحدق من داخل البرطمان إلى العالم في الخارج من خلال غشاوة خضراء، تنتظر لحظة تحريرها.

قالت مارشا بفخر، وهي تحمل البرطمان عاليًا في الضوء وتنظر بإعجاب إلى الدودة الألفية السابقة: «هذه هي الحشرة المدرعة المثالية، إنها أفضل حشرة صنعناها، إنجاز رائع من الجميع».

ثم سرعان ما كانت البرطمانات السبعة والخمسون تصطف على أطر النوافذ تحرس الكوخ. كان منظرها مخيفًا، بكائناتها الخضراء الزاهية وهي تسبح حالمةً في الخلطة اللزجة الخضراء، تقتل الوقت بالنوم إلى أن يأتي شخص وينزع غطاء هذه البرطمانات ويحررها. عندما سألت جينا مارشا ماذا سيحدث حين تنزع الغطاء، قالت لها مارشا إن الحشرة المدرعة سوف تقفز حينها من البرطمان وتدافع عنهم حتى آخر نفس، أو حتى تتمكن- بشكل أو بآخر- أن تمسكها وتعيدها إلى البرطمان، وهو ما لا يحدث في العادة؛ فالحشرة المدرعة المُحررة لا تنوي أبدًا العودة من جديد إلى أي برطمان.

وبينما كانت العمة زيلدا ومارشا تنظفان البرطمانات والمقلايات، جلست جينا لدى الباب، وهي تسمع أصوات الأواني والأطباق القادمة من المطبخ. ومع قدوم الشفق، أخذت جينا تراقب الضوء الأخضر الصادر عن البرطمانات السبعة والخمسين الصغيرة وهو منعكس على الأرض الحجرية الباهتة، ورأت في كل منها ظلًا صغيرًا يتحرك ببطء، يتحيَّن اللحظة التي يتم فيها تحريره.

25

ساحرة ويندرون



بحلول *منتصف الليل*، كان جميع من *في الكوخ* يغطُّون في النوم ما عدا مارشا. كانت الرياح الشرقية قد هبت من جديد، جالبة معها الثلوج هذه المرة، وأخذت **برطمانات الوقاية** تتخبط على أطر النوافذ بأسى مع تحرك الكائنات الموجودة بداخلها؛ حيث أزعجها هبوب العاصفة الثلجية في الخارج. كانت مارشا تجلس إلى مكتب العمة زيلدا على ضوء متراقص لشمعة واحدة؛ حتى لا توقظ النائمين بجوار المدفأة، وكانت مستغرقة في كتاب *فك السحر الأسود*.

أما في الخارج فكان الغول يقضي هذا الوقت من منتصف الليل في الحراسة وحيدًا، وهو يسبح أسفل سطح قناة الغِمد مباشرةً ليبقى بمعزلٍ عن الثلوج.

وبعيدًا في الغابة، كان سايلاس أيضًا يقضي سهرته في هذا الوقت من منتصف الليل وحيدًا وسط ثلوج كثيفة متساقطة تتخلل أغصان الأشجار المتشابكة العارية من الأوراق. كان سايلاس واقفًا أسفل شجرة دردار قوية شاهقة الارتفاع، وجسمه يرتعش قليلًا، ينتظر حضور مورروينا مولد.

وتعود قصة تعارف سايلاس ومورروينا مولد لزمن بعيد مضى. فذات ليلة، وكان سايلاس حينها تلميذًا شابًا وقد خرج في مهمة لألثر في الغابة- سمع الأصوات الدموية المروعة لمجموعة من حيوانات الولڤرين من المكان. وعلم حينها معنى ذلك؛ لقد وجدت حيوانات الولڤرين فريسة لليلتها وكانت تقترب منها لقتلها. أشفق سايلاس على الحيوان المسكين، فهو يعلم تمامًا مدى الرعب الذي يتملك الفريسة المحاصرة بعيون الولڤرين الصفراء اللامعة، وهو نفسه تعرض لهذا الموقف من قبل، ولم ينسه قطُّ، لكنه كان محظوظًا، فلأنه ساحر، استخدم تعويذة سريعة **للتجميد**، وفرَّ على الفور.

عودة إلى تلك الليلة التي كان مكلفًا فيها بمهمة لألثر، سمع سايلاس صوتًا خافتًا يدوي في رأسه قائلًا: *ساعدني*.

ولأن ألثر علّمه من قبل أن يلاحظ مثل هذه الأمور؛ لذا راح سايلاس يتتبع مصدر الصوت إلى أن وجد نفسه خارج حلقة من الولڤرين، وفي داخلها رأى ساحرة شابة، كانت **متجمدة**.

في أول الأمر، ظن سايلاس أن الساحرة الشابة تجمدت من شدة الخوف؛ لأنها كانت تقف وسط الحلقة، وعيناها متسعتان من فرط رعبها، وشعرها متشابك من الجري وسط الغابة هربًا من مجموعة الولڤرين، وعباءتها السوداء الثقيلة ملتصقة تمامًا بجسمها.

استغرق الأمر من سايلاس عدة دقائق حتى يُدرك أن الساحرة الشابة، من شدة هلعها، **جمدت** نفسها بدلًا من أن تجمد حيوانات الولڤرين، وأصبحت بذلك في طريقها لأن تكون أسهل وليمة عشاء حصلت عليها الولڤرين منذ آخر تدريب ليلي لجيش الشباب على مهمة الإنجاز أو الموت. وبينما أخذ سايلاس يراقب الموقف، كانت حيوانات الولڤرين قد بدأت تقترب أكثر؛ استعدادًا للقتل، وأحاطت الساحرة الشابة، وهي تقترب منها أكثر فأكثر، ببطء وتعمد، مستمتعة بمنظر الوليمة الشهية. انتظر سايلاس إلى أن باتت كل حيوانات الولڤرين في مرمى بصره، وبسرعة سحر المجموعة بتعويذة **التجمد**، ولأنه لم يكن متأكدًا كيف **يبطل سحر تعويذة** الساحرة فقد رفعها. وكانت لحسن حظه إحدى أصغر ساحرات ويندرون حجمًا وأخفهن وزنًا، وحملها إلى مكان آمن، ثم ظل معها طوال الليل إلى أن تخلصت من حالة **التجمد** التي كانت عليها.

لم تنس مورروينا مولد قطُّ صنيع سايلاس معها. ومن حينها، كلما غامر سايلاس بالدخول في الغابة، علم أن ساحرات ويندرون في صفه، وعلم أيضًا أن مورروينا مولد لن تتوانى لحظة في مساعدته إذا ما احتاج إليها، وكل ما كان عليه أن يفعله هو انتظار قدومها بجوار شجرتها في منتصف

الليل، وهذا هو ما كان يفعله في تلك الليلة بعد كل هذه السنوات الطويلة.

سمع سايلاس في وسط الظلام صوتًا هادئًا يتحدث بطنين الغابة الرقيق الذي يشبه حفيف أوراق الأشجار وهو يقول له: «إذن، أليس هذا هو عزيزي سايلاس هيب الشجاع؟ ما الذي جاء بك إلى هنا في ليلة عيد منتصف الشتاء؟».

انتفض سايلاس لدى سماعه، وقال في ارتباك وهو ينظر حوله: «أهذا أنتِ يا مورروينا؟».

ردت عليه مورروينا، بعد أن ظهرت من وسط الظلام وندف الثلج تتساقط حولها: «بشحمها ولحمها». كانت عباءتها السوداء المصنوعة من الفرو مغطاة بالثلوج، وكذلك شعرها الأسود الطويل الذي تثبته عصابة الرأس الجلدية التقليدية ذات اللون الأخضر التي تميز ساحرات ويندرون. وقبل أن تخرج إلى سايلاس، كانت عيناها الزرقاوان البراقتان تلمعان في الظلام بالطريقة التي تلمع بها عيون كل الساحرات اللائي أخذن يراقبن سايلاس وهو يقف أسفل شجرة الدردار لبعض الوقت إلى أن قررت مورروينا أنها في أمان وتستطيع الظهور.

قال لها سايلاس الذي أحسَّ فجأة بخجل: «مرحبًا يا مورروينا، أنتِ كما أنتِ، لم يتغير فيكِ شيء» رغم أنها بالفعل تغيرت، وزاد وزنها كثيرًا منذ آخر مرة رآها فيها سايلاس، ومما لا شك فيه أنه لن يستطيع أن يحملها مرة أخرى بعيدًا عن دائرة من حيوانات الولڤرين إذا ما حدث ووقعت في أسرها من جديد.

ردت: «ولا أنت يا سايلاس هيب، فما زلت كما أنت بشعرك الأصفر المجنون، وعينيك الجميلتين بلونهما الأخضر الداكن. هل هناك ما أستطيع أن أقدمه لك؟ لقد انتظرت طويلًا حتى أرد لك صنيعك. إن ساحرة ويندرون لا تنسى أبدًا».

شعر سايلاس بتوتر شديد، لا يدري سبب ذلك تحديدًا، لكنه يعلم أنه أمر يرتبط بظهور مورروينا بالقرب منه، وتمنى في سره ألا يكون قد أخطأ بمقابلته لها. «أ...أتتذكرين ابني الأكبر سايمون؟».

«في الحقيقة، نعم، أتذكر أنك قلت لي إن لك رضيعًا اسمه سايمون، لقد حدثتني عنه أثناء زوال مفعول سحر **التجمد** عني. كان يعاني متاعبَ في أسنانه- حسبما أتذكر- وكنت لا تحصل على قسط كافٍ من النوم. كيف حال أسنانه الآن؟».

«أسنانه؟ بخير على حسب علمي. إنه الآن في الثامنة عشرة من عمره، ومنذ ليلتين اختفى في الغابة».

«أخ! إنه أمر سيئ. هناكَ الآن **أشياء** تأتي لنا هنا في الغابة من الخارج؛ **أشياء** خرجت من القلعة؛ **أشياء** لم نشاهدها من قبل، وليس من مصلحة الفتيان أن يخرجوا ويصبحوا بين هذه **الأشياء**، ولا السحرة أيضًا يا سايلاس هيب»، ثم وضعت مورروينا يدها على ذراعه، فقفز سايلاس على التوّ.

خفضت مورروينا صوتها وقالت بهمس مبحوح: «نحن الساحرات حساسات يا سايلاس».

لم يتمكن سايلاس من الرد بأكثر من صرير خافت. إن مورّوينا أصبحت قوية إلى حد كبير، لقد نسي كيف أن ساحرات ويندرون الحقيقيات الراشدات يتمتعن **بالقوة والصلابة**.

«إننا نعلم أن هناك **سحرًا أسود** بشعًا دخل في قلب القلعة، وكذلك برج السحرة، ربما **أخذ** ولدك».

رد سايلاس بحزن: «كان عندي أمل أن تكوني قد رأيته».

قالت مورّوينا: «لا، لم أره. لكن سوف أبحث لك عنه، وإذا عثرت عليه فسوف أعيده إليك سالمًا، لا تخف».

رد سايلاس ممتنًا: «أشكرك يا مورّوينا».

«لا تشكرني يا سايلاس، هذا أمر بسيط بالنسبة لما قدمته لي. أنا ممتنة لك للغاية أن منحتني فرصة لمساعدتك، إذا تمكنت».

«لو.. لو علمت أية أخبار، يمكنك أن تجديني في بيت الأشجار عند جِبلين فأنا أقيم هناك الآن مع سارة والأولاد».

«هل لديك أولاد آخرون؟».

«آآ – نعم. خمسة الآن. كان لدينا سبعة، لكن...».

«سبعة أبناء، إنها هبة من السماء. الابن السابع للابن السابع. من المؤكد أنه يمتلك قوة **سحرية** فعلًا».

«لقد مات».

«ياه! أسفة يا سايلاس. إنه خسارة فادحة لنا جميعًا، كان يمكن أن نستفيد منه اليوم».

«نعم».

«سوف أتركك الآن يا سايلاس، وسوف تتكفل بحماية بيت الأشجار وكل من فيه مما هو أسوأ من ذلك مع هذا **السحر الأسود** الذي يلوح في الأجواء. وغدًا، كل أهل بيت الأشجار مدعوون للانضمام إلينا في عيدنا؛ عيد منتصف الشتاء».

تأثر سايلاس من هذه اللفتة اللطيفة.

وقال لها: «أشكرك يا مورّوينا، هذا كرم منك».

«إلى أن نلتقي يا سايلاس. أتمنى لك عيدًا سعيدًا غدًا»، ومع هذه الكلمات اختفت مرة أخرى وسط الغابة، تاركة سايلاس واقفًا وحده أسفل شجرة الدردار الشاهقة.

وهمس هو لها وسط الظلام قائلًا: «مع السلامة يا مورّوينا»، ثم انطلق مسرعًا وسط الثلوج، ليعود إلى بيت الأشجار، حيث تنتظره سارة وجِبلين لسماع آخر الأخبار.

بحلول صباح اليوم التالي، كان سايلاس قد قرر أن مورّوينا مُحقّة، فمن المؤكد أن سايمون **أخذ** إلى القلعة، فكان هناك شيء ما بداخله يحدثه بأن سايمون هناك.

لكن سارة لم تكن مقتنعة.

«أنا لا أرى لماذا تولي كل هذا الاهتمام لتلك الساحرة؟ إنها لا تعرف شيئًا بشكل قاطع. افترض الآن أن سايمون في الغابة، وانتهى بك الأمر بأن **تُؤخذ** أنت، فماذا سنفعل نحن إذن حينها؟».

لكن سايلاس لن يثنيه شيء عما كان يفكر فيه، **فبدل** سترة قصيرة رمادية لها غطاء رأس كتلك التي يرتديها العمال بثيابه، وودع سارة والأبناء، ثم ترجل من فوق الشجرة، كادت رائحة الطعام المنبعثة من عند ساحرات ويندرون احتفالًا بعيد منتصف الشتاء- تجعل سايلاس يعدل عن رأيه ولا يرحل، لكنه أصر في سره على الانطلاق للبحث عن سايمون.

صاحت سالي تناديه وهو يطأ بقدمه على الأرض بعد نزوله من فوق الشجرة: «سايلاس!».

وألقت إليه تعويذة **السلامة** التي أعطتها لها مارشا.

التقطها سايلاس وقال لها: «أشكرك يا سالي».

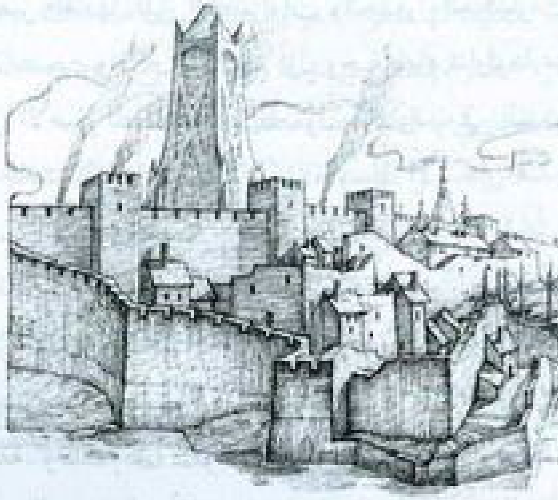
وراحت سارة تراقب سايلاس وهو يُحكم غطاء رأسه وينطلق وسط الغابة متوجهًا إلى القلعة، وكانت كلماته الأخيرة لهم: «لا تقلقوا. سأعود قريبًا ومعي سايمون».

شعرت بالقلق.

وهو لم يعد.

26

عيد منتصف الشتاء



قالت *سارة لجيلين بعد أن رحل سايلاس صباح ذلك اليوم:* «لا، شكرًا يا جيلين. أنا لن أذهب إلى احتفال عيد منتصف الشتاء الذي تقيمه تلك الساحرات؛ فطائفتنا لا تحتفل بهذا العيد».

ردت جيلين قائلة: «على أية حال سأذهب أنا، وأعتقد أنه ينبغي علينا جميعًا أن نذهب؛ فلا يجوز أن نرد دعوة ساحرة من ساحرات ويندرون باستخفاف يا سارة؛ إنه لشرف لنا أن طُلب منا الحضور. بل في واقع الأمر، أنا لا أتخيل كيف تمكن سايلاس من أن يحصل على دعوة لنا جميعًا».

لكن سارة لم ترد بأكثر من همهمة.

ومع مرور فترة الظهيرة وانبعاث رائحة حيوانات الولفرين المشوية وسط الغابة، ووصولها إلى بيت الأشجار، بدأ الأبناء يتوترون. فچيلين يقتصر طعامها على الخضراوات والجذور والمكسرات - فهو كما ذكر إرك بصوت واضح تمامًا بعد أول وجبة طعام تناولوها عند چيلين- صورة طبق الأصل للطعام الذي يطعمون به الأرانب في البيت.

كانت الثلوج تتساقط بكثافة وسط الأشجار عندما فتحت چيلين الباب السحري لبيت الأشجار، فأسقطت السلم الخشبي الطويل الذي ابتكرت له بنفسها نظام بكرات ذكيًا لرفعه وإسقاطه - فاستقر على طبقة الثلوج التي أصبحت تغطي الأرض في ذلك الحين، وبيت الشجرة نفسه تم بناؤه فوق سلسلة من القواعد أقيمت على امتداد ثلاث أشجار بلوط عتيقة. وظلت هذه القواعد جزءًا من هذه الأشجار بعد أن وصلت منذ مئات السنين إلى أقصى ارتفاع لها. وعلى مدى السنين، أقيم عدد من الأكواخ العشوائية على القاعدة وتغطى سطحها باللبلاب، وأصبحت هذه الأكواخ مع الأشجار تشكل نسيجًا واحدًا رائعًا حتى إنها ما عادت تُرى من على سطح أرض الغابة.

اشترك سام وإد وإريك وجوجو في الإقامة بكوخ الضيوف القابع عند قمة الشجرة الوسطى، ولديهم حبل خاص بالكوخ ينزل بهم إلى سطح أرض الغابة، ويتشاجرون في كل مرة على من منهم سيستخدمه أولًا، بينما كانت چيلين وسارة وسالي يستخدمن السلم الرئيسي الأكثر ثباتًا.

ارتدت چيلين ملابس أنيقة تليق باحتفال عيد منتصف الشتاء. ولأن چيلين دُعيت من قبل منذ عدة سنوات ماضية، بعد أن عالجت ابن إحدى الساحرات، فهي تعلم أن هذه المناسبة لها مذاق خاص. وچيلين امرأة صغيرة الحجم، أرهقتها تقلبات الجو بعد كل هذه السنوات التي عاشتها في العراء بالغابة، لها شعر أحمر وعينان بنيتان ضاحكتان، وهي عمومًا ترتدي سترة خضراء قصيرة وبسيطة وغطاءً للساقين وعباءة، لكنها اليوم ارتدت ثوبها الخاص باحتفال عيد منتصف الشتاء.

قالت لها سارة على سبيل الاعتراض: «يا إلهي! لقد بذلت مجهودًا كبيرًا يا چيلين، أنا لم أرَ هذا الثوب من قبل عليك، إنه... إنه فعلًا مختلف».

إن چيلين لا تخرج كثيرًا في مناسبات، لكن لو حدث لها أن فعلت، فهي تبدو حينها في غاية الأناقة، فالثوب الذي ترتديه اليوم يبدو كأنه صُنع من مئات أوراق الأشجار متعددة الألوان، حيكت جميعها معًا ثم رُبطت من منتصفها بوشاح أخضر براق.

ردت چيلين قائلة: «شكرًا يا سارة، لقد صنعته بنفسي».

قالت سارة: «هذا ما توقعته».

ثم أعادت سالي رفع السلم لأعلى عبر الباب السحري، وانطلقت المجموعة وسط الغابة تسير في أعقاب الرائحة الشهية المنبعثة من حيوانات الولفرين المشوية.

قادت چيلين المجموعة وسط مسارات الغابة المكسوة بطبقة سميكة من الثلوج التي تساقطت حديثًا وتعلوها في كل الاتجاهات آثار لأرجل

حيوانات بجميع الأشكال والأحجام. وبعد مسيرة طويلة ومرهقة وسط مسارات وقنوات وأخاديد معقدة، وصلوا أخيرًا إلى ما كان يومًا محجرًا يُستخرج منه الإردواز للقلعة، والذي أصبح اليوم المكان الذي تُعقد فيه اجتماعات ساحرات ويندرون.

كان هناك تسع وثلاثون ساحرة يرتدين جميعًا عباءات عيد منتصف الشتاء الحمراء، وقد تجمعن حول نار تزأر في وسط المحجر. كانت الأرض مغطاة بنباتات خضراء مقطوفة حديثًا تعلوها طبقة رقيقة من الثلوج التي تتساقط بلطف حولهن، والتي يذوب كثير منها ويئز بفعل حرارة النار المشتعلة، كانت هناك روائح مثيرة للغاية تنبعث في الأجواء لأطعمة متبلة. وكانت الأسياخ تلف، وحيوانات الولڤرين تُشوى. والأرانب تسوّى في مراجل تغلي، والسناجب تُطهى في أفران تحت سطح الأرض، هذا عدا المائدة الطويلة المفروشة بأكوام ترتفع عاليًا تشمل كل أنواع الحلوى والأطعمة المتبلة، كانت الساحرات قد قايضت بها من قبل مع تجار الشمال وخزنتها لهذه المناسبة - أهم يوم في السنة كلها. اتسعت عيون الأولاد من فرط الدهشة، إنهم لم يروا من قبل كل هذا الطعام في مكان واحد، حتى سارة أقرت في سرها أن الحفل كان باهرًا.

وقعت عينا مورروينا مولد عليهم وهو يحومون في حيرة لدى بوابة المحجر، فرفعت ثيابها الحمراء المصنوعة من الفراء قليلًا وانطلقت إليهم لترحب بهم.

«مرحبًا بكم جميعًا. سعداء بحضوركم».

وعلى الفور، أفسح جميع الساحرات الطريق باحترام لمورروينا- الساحرة الأم - حتى تصطحب ضيوفها المحرجين نوعًا ما إلى أفضل الأماكن بجوار النار.

ابتسمت مورروينا وقالت: «أنا سعيدة جدًا أن قابلتك أخيرًا يا سارة. أشعر كأنني أعرفك من قبل، لقد حكى لي سايلاس الكثير عنك يوم أن أنقذني».

قالت سارة: «فعلًا؟».

«بكل تأكيد، لقد أخذ يتحدث عنك وعن طفلكما طوال الليل».

«حقًا؟».

ثم وضعت مورروينا ذراعها حول كتف سارة وقالت لها: «كلنا هنا نبحث عن الفتى، أنا واثقة أن كل شيء سينتهي على خير. وبالنسبة لأولادك الثلاثة الآخرين أيضًا الذين هم بعيدون عنكِ الآن، لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام».

فقالت سارة متسائلة: «أولادي الثلاثة الآخرون؟».

«نعم، أولادك الثلاثة».

أخذت سارة تعدهم بسرعة، فهي أحيانًا تنسى عددهم.

وقالت: «هما اثنان، تقصدين الاثنين الآخرين».

وتواصل حفل منتصف الشتاء حتى وقت متأخر من الليل، وبعد مشروب الساحرات الذي تناولت منه سارة كثيرًا، نسيت كل همومها ودواعي قلقها على سايمون وسايلاس. لكن للأسف، عاودها القلق ثانيةً صباح اليوم التالي مصحوبًا بصداع شديد.

أما عيد منتصف الشتاء بالنسبة لسايلاس فكان عمومًا يومًا هادئًا.

لقد أخذ طريق ضفة النهر الذي يمتد بطول الحدود الخارجية للغاية، ثم دار حول سور القلعة، متوجهًا نحو البوابة الشمالية تصاحبه موجات ثلجية متساقطة وطقس قارس البرودة، أراد سايلاس أن يصل إلى مكان مألوف له قبل أن يقرر الخطوة التالية التي سيقوم بها؛ فجذب غطاء رأسه حتى غطى عينيه الخضراوين اللتين تميزان السحرة، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم عبر الجسر المتحرك المغطى بالثلوج الذي يؤدي إلى البوابة الشمالية.

كان جرينج في نوبة عمل عند مدخل البوابة، متعكر المزاج؛ فالأمور في بيته كانت متأزمة، وظل طوال ذلك اليوم يفكر مليًا في مشاكله العائلية.

صاح جرينج متذمرًا، وهو يدك قدمه في الثلج: «أنت! أسرع. لقد تأخرت على دورية التنظيف».

فمر سايلاس بسرعة.

فقال جرينج فجأة: «ليس بهذه السرعة! ليس قبل أن تدفع «جروت»[1] واحدًا».

بدأ سايلاس يفتش في جيبه وأخرج منه «جروت»، تعلوه طبقة لزجة من أثر حلوى الكرز والجزر الأبيض التي أعدتها العمة زيلدا أمس وكان سايلاس قد دسها في جيبه؛ حتى يتجنب تناولها، أخذ جرينج الجروت

---

(1) عملة قديمة تساوي 4 بنسات.

واشتمها بريبة، ثم فركها في سترته الطويلة التي بلا كُمين ونحّاها جانبًا؛ فزوجته السيدة جرينج تستمتع كل ليلة بمهمة غسيل أية نقود لزجة؛ ولذا أضافها إلى الكومة التي ستُنظف، وترك سايلاس يمر.

وبينما كان سايلاس يهم في طريقه، نادى عليه جرينج وقال له: «أنت، ألم أقابلك من قبل ؟».

فهز له سايلاس رأسه.

«في حفلات رقص موريس؟».

هز سايلاس رأسه من جديد وواصل السير.

«في دروس العزف على العود؟».

«لا»، ثم تسلل سايلاس وسط الظلام واختفى.

همهم جرينج وهو يقول في سره: «أنا متأكد أنني أعرف هذا الرجل، كما أنه ليس من العمال، ليس بهاتين العينين الخضراوين اللامعتين اللتين تبدوان مثل زوج من اليرقات في دلو فحم». أخذ يفكر لدقائق، ثم قال: «إنه سايلاس هيب! يا لجرأته. لن يفلت مني».

ولم يمض وقت طويل عندما مر أحد الحراس بجرينج، وسرعان ما كان الأمين الأعلى قد تم إخباره بعودة سايلاس إلى القلعة. لكن رغم كل محاولاته التي لا بد أنه قام بها، لم يستطع أن يعثر على سايلاس؛ فتعويذة السلامة الخاصة بمارشا تؤدي عملها بإتقان.

في تلك الأثناء، كان سايلاس قد انطلق مسرعًا وسط العشوائيات القديمة، سعيدًا بالتخلص من جرينج والثلوج. كان يعلم وجهته. أراد أن يمر ببيته القديم مرة أخرى، رغم أنه لا يعلم تحديدًا السبب، فسار في

الطرقات المظلمة المألوفة مسرورًا بتنكره بهذا الشكل؛ لأنه لا أحد يلتفت إلى العمال من الطبقات الدنيا. وتفاجأ وهو يُدرك مدى الإهانة وعدم الاحترام التي يُعامل بها العمال؛ فلا أحد كان يُفسح له الطريق كي يمر، وكان المارة يدفعونه بعيدًا عن طريقهم، ويتركون الأبواب تصفق في وجهه، ومرتين قيل له بفظاظة إن مكانه هناك في تنظيف الشوارع، حتى قال سايلاس في سره إن مهنته كساحر عادي على ما يبدو ليست مهنة سيئة على كل حال.

كان باب غرفة أسرة هيب قد تُرك مفتوحًا ببؤس، ويبدو أنه لم يتعرف إلى سايلاس وهو يدخل على أطراف أصابعه في الغرفة التي قضى فيها معظم السنوات الخمس والعشرين الماضية من حياته. جلس سايلاس على مقعده المفضل الذي صنعه بنفسه، وراح يتفحص الغرفة بأسى وحزن، شاردًا في أفكاره؛ بدت له الغرفة صغيرة على نحو غريب الآن بعد أن خلت من الأولاد والضوضاء وسارة وهي تشرف على مجريات الأمور اليومية، كما بدت له في حالة رثة بشكل محرج، حتى بالنسبة له، علمًا بأنه لا يدقق كثيرًا في مسألة النظافة.

ثم سمع صوتًا فظًا من الخارج يقول له: «كانوا يعيشون في مقلب قمامة هؤلاء السحرة المقززون، أليس كذلك؟ أنا عن نفسي لم يكن الوقت يسعفني معهم قطُّ». التفت سايلاس وراءه فرأى رجلًا بدينًا واقفًا لدى مدخل الباب، وخلفه عربة خشبية ضخمة في الطرقة.

«لم أكن أتصور أنهم سيرسلون من يساعدهم. لقد أحسنوا صنعًا. كان سيستغرق مني ذلك يومًا كاملًا. العربة في الخارج على اليمين. كل هذا لابد أن يذهب إلى المقلب. كتب **السحر** يجب أن تُحرق. مفهوم؟».

«ماذا تقول؟».

«يا إلهي! أرسلوا لي واحدًا أصم هنا. النفايات.. إلى العربة.. إلى مقلب القمامة، إنها ليست كيمياء. والآن أعطني كومة الأخشاب التي ركنت عندها ودعني أواصل العبور».

قام سايلاس من على الكرسي وكأنه في حلم، وناوله لرجل النظافة، الذي أخذه منه وقذفه بعنف في العربة، انفلق الكرسي واستقر أجزاءً في قاعها. ولم يمضِ وقت حتى كان قابعًا أسفل كومة هائلة من ممتلكات تراكمت على مدار حياة أسرة هيب وملأت العربة عن آخرها، ثم قال عامل النظافة: «تمام. سوف أذهب بكل هذا إلى مقلب القمامة قبل أن يغلق، بينما تضع أنت كتب **السحر** في الخارج، فيأخذها رجل المطافئ غدًا في طريقه».

ثم ناول سايلاس مكنسة كبيرة وقال له: «سوف أتركك هنا كي تكنس كل شعر الكلب المقزز وخلافه. بعد ذلك، بمكنتك أن تعود إلى بيتك. يبدو عليك الإرهاق. لست معتادًا أنت العمل الشاق، هه!» ثم ضحك الرجل ضحكة خافتة وضربه على كتفه بودّ. تنحنح سايلاس وضحك ضحكة باهتة.

وأخيرًا، ذكره الرجل قبل أن يرحل ويجر العربة في الطرقة في طريق رحلتها إلى مقلب قمامة ضفة النهر وهو يقول له: «لا تنسَ كتب **السحر** هذه».

قام سايلاس- ورأسه يدور - بكنس الغبار وشعر الكلب وأوساخ عمرها خمسة وعشرون عامًا وكومها في كومة مرتبة، ثم نظر بأسى إلى كتب **السحر**.

وإذا بصوت ألثر إلى جانبه يباغته قائلًا: «سوف أساعدك إن شئت»، ووضع الشبح ذراعه على كتف سايلاس.

قال له سايلاس بنبرة كئيبة: «مرحبًا يا ألثر. يا له من يوم!».

«نعم، إنه يوم كئيب. أنا آسف يا سايلاس».

همهم سايلاس قائلًا: «كل شيء راح والآن راحت الكتب أيضًا. كان لدينا كتب قيمة هنا. العديد من **الوصفات السحرية** النادرة. كل ذلك سوف يذهب ليُحرق».

قال ألثر: «ليس بالضرورة، تستطيع أن تجد لها مكانًا في غرفتك الموجودة على السطح، سوف أساعدك **بتعويذة النقل** إذا شئت».

علا وجه سايلاس بريق أمل.

«ذكرني فقط كيف أستخدمها يا ألثر، وأنا سوف أتولى الأمر بعد ذلك. أنا متأكد أنني أستطيع».

قامت تعويذة **النقل** التي استخدمها سايلاس بمهمتها بشكل رائع. فاصطفت الكتب بنظام، ثم انفتح على الفور الباب المسحور لغرفة سايلاس وسارة القديمة، ودخلت منه الكتب وهي تطير، كتابًا تلو كتاب، وتراصّت فوق بعضها، ورغم أن كتابًا أو كتابين شذّا عن المجموعة وتوجها نحو الباب ثم خرجا وواصلا الطيران إلى منتصف الطرقة قبل أن **ينادي** سايلاس عليهما ليعودا- فإنه في نهاية التعويذة صارت كل كتب

السحر محفوظة بأمان في السطح. ومن باب الحرص، **أخفى** سايلاس الباب السحري، وحينها أصبح من المُحال أن يتكهن أحد بما هو موجود في هذا المكان.

وهكذا، خرج سايلاس لآخر مرة من غرفته الخالية التي يتردد فيها صدى الصوت، وانطلق في الطرقة 223، بينما كان ألثر يحلق بجواره طوال الطريق.

قال له ألثر: «تعال وامكث معنا لفترة، هناك عند فجوة السور».

«أين؟».

«أنا نفسي اكتشفتها مؤخرًا، بعد أن قادني أحد القدماء إليها؛ إنها حانة قديمة موجودة داخل سور القلعة، ثم تم سد مدخلها بقوالب من الطوب منذ عدة سنوات بأمر من إحدى الملكات التي لم يعجبها شرب الجعة. يبدو أنك طالما سرت عند سور القلعة - ومن منا لم يفعل ذلك - فشبحك يستطيع بالتالي أن يدخلها؛ ولذلك، تجده دائمًا مكتظًا، إن الجو هناك رائع، ربما سيرفع من روحك المعنوية».

«دعني أفكر في الأمر، فلا أظن أن ذلك سيروق لي. على أية حال، أشكرك يا ألثر، ولكن، أليس هذا هو المكان الذي رجموا فيه الراهبة بالطوب؟».

«ياه! ذكرتني بها، إنها الأخت برتاديت، وهي شخصية مرحة جدًّا، وتعشق الجعة. وبالمناسبة، هي روح المرح والبهجة في الحفلات. المهم، لديّ بعض الأخبار عن سايمون، أعتقد أنه ينبغي عليك أن تسمعها».

هتف سايلاس: «سايمون؟ أهو بخير؟ أين هو؟».

«إنه هنا يا سايلاس، في القلعة. تعال معي إلى فجوة السور. هناك شخص تحتاج أن تتحدث معه».

كانت حانة فجوة السور تعج بالضوضاء.

اصطحب ألثر سايلاس إلى كومة من الأحجار المتداعية تستند إلى جدار القلعة، قبالة البوابة الشمالية، ثم قاده إلى فجوة صغيرة في السور تختبئ خلف كومة من الركام، وتمكن سايلاس بصعوبة من أن يحشر نفسه فيها ويمر منها، وحينما دخل الحانة وجد نفسه في عالم آخر تمامًا.

كانت فجوة الجدار في الأصل حانة قديمة بُنيت داخل السور العريض للقلعة، وعندما سلكت مارشا الطريق المختصر منذ عدة أيام متجهةً إلى الجانب الشمالي، مرت في جزء من فوق سطح الحانة، لكنها لم تدرك شيئًا عن وجود مجموعة من الأشباح مباشرة تحت قدميها، تقضي وقتها وهي تتسامر وتتحدث عن السنوات الطويلة الماضية.

احتاج سايلاس- وهو القادم من ضوء الثلوج الساطع- لعدة دقائق حتى تعتاد عيناه الضوء الخافت المتراقص للمصابيح المعلقة بطول الحوائط. وبعد أن اعتاد هذا الضوء، بدأ يدرك أنه يرى أمامه أغرب تشكيلة من الأشباح؛ منها من كانت متجمعة حول موائد قائمة على قواعد. ومنها من كانت تقف معًا في مجموعات صغيرة بجوار نار شبحية، أو جالسة فحسب تتأمل على انفراد في أحد الأركان، كانت هناك مجموعة ضخمة من السحرة العظماء، تعكس عباءاتهم الأرجوانية أنماطًا مختلفة من الصيحات التي ظهرت على مدى القرون. كان هناك فرسان بكامل ملابسهم الحربية، وخدم في أزيائهم المميزة، ونساء يرتدين

الخُمُر. وملكات شابات بثياب حريرية فاخرة، وملكات أكبر سنًا يتشحن بالسواد، مستمتعين جميعهم ببعضهم البعض.

قاد ألثر سايلاس وسط الزحام، بينما كان سايلاس يبذل قصارى جهده؛ حتى لا يخترق أيًا من الأشباح أثناء سيره، رغم أنه شعر مرة أو مرتين بنسيم بارد مع اختراقه أحد هذه الأشباح. لم يبدُ على أي منهم الانزعاج بوجوده، بل إن بعض الأشباح كانت تومئ له برأسها بمودة، وأخرى كانت غارقة في أحاديث مطولة فلم تلاحظ وجوده أصلًا، وكان انطباع سايلاس أن أي صديق لألثر هو ضيف مرحب به في فجوة الجدار.

كان مالك الحانة الشبحي قد تخلى منذ زمن عن الحوم حول براميل الجعة؛ حيث إن الأشباح جميعها منذ أول مرة وصلت فيها وهي تشرب في نفس القدح، حتى إن بعض هذه الأقداح دامت لمئات السنين. حيًا ألثر بمرح مالك الحانة الذي كان مندمجًا في الحديث مع ثلاثة من السحرة العظماء وعابر سبيل قديم كان قد غطَّ في نوم عميق أسفل مائدة منذ زمن سحيق ولم يستيقظ بعد ذلك. ثم أخذ سايلاس إلى ركن هادئ عند سيدة بدينة في رداء الراهبات تجلس في انتظارهما.

تحدث ألثر قائلًا: «أقدم لك الراهبة برناديت، وهذا سايلاس هيب، أيتها الراهبة برناديت الشخص الذي حدثتك عنه. إنه والد الفتى».

لكن رغم الابتسامة المشرقة التي كانت تعلو وجهها، انتاب سايلاس هاجس بأن هناك كارثة تنتظره.

أدارت الراهبة ذات الوجه المستدير عينيها البراقتين إلى سايلاس وقالت له بصوت رقيق فيه خفة ونشاط: «إن ابنك هذا يتصرف كالرجال، أليس كذلك؟ إنه يعرف ماذا يريد، ولا يخشى الخروج لتحقيق مآربه».

«بلى، أعتقد ذلك. وهو بلا شك يريد أن يكون ساحرًا، أنا أعلم ذلك تمامًا. إنه يريد أن يتتلمذ على يد ساحر، لكن بالطبع مع الأوضاع اليوم...».

ردت الراهبة توافقه الرأي: «فعلًا؛ فهذا الزمان لا ينفع فيه أن تكون ساحرًا شابًا ولك آمال وطموحات. لكن، ليس هذا هو السبب الذي جعله يعود إلى القلعة».

«إذن، فقد عاد بالفعل عاد. ياه! لقد ارتاح بالي. كنت أظن أنه تم اختطافه، أو أنه قُتل».

وضع ألثر يده على كتف سايلاس، وقال له: «للأسف يا سايلاس لقد تم اختطافه أمس. كانت الراهبة برناديت هناك. وستحكي لك».

أطرق سايلاس برأسه ووضعه بين كفيه وتأوه.

ثم سألها: «كيف؟ ما الذي حدث؟».

قالت الراهبة: «في الحقيقة، يبدو أن هذا الشاب سايمون له حبيبة».

«فعلًا؟».

«نعم بكل تأكيد، اسمها لوسي جرينج».

«أنت لا تقصدين بالطبع ابنة جرينج حارس البوابة؟ يا للهول!».

قالت الراهبة برناديت: «أنا متأكدة أنها فتاة لطيفة يا سايلاس».

«إذن، أتمنى ألا تكون مثل أبيها، هذا هو كل ما أستطيع قوله. *لوسي جرينج*. يا للهول!».

«اسمع الآن يا سايلاس، لقد عاد سايمون إلى القلعة لسبب مُلح؛ فهو ولوسي كان لديهما موعد سري في الكنيسة؛ كي يتزوجا. يا له من موقف رومانسي!»، وعلت وجه الراهبة ابتسامة حالمة.

«يتزوجان؟ أنا لا أصدق ذلك، أنا أصاهر هذا الرجل البشع!» شحب وجه سايلاس أكثر من بعض الموجودين بالحانة.

فقالت الراهبة برناديت: «لا يا سايلاس، لم تصاهره، فللأسف، سايمون ولوسي لم يتزوجا».

«للأسف؟».

«لأن جرينج اكتشف الأمر، وقدم رشوة إلى الحراس الأمناء. إن رفضه أن تتزوج ابنته من أسرة هيب لا يقل عن رفضك أنت أن يتزوج ابنك من أسرة جرينج. واقتحم الحراس الكنيسة، وأرسلوا العاشقة المنهارة إلى بيتها وأخذوا سايمون»، ثم تنهدت الراهبة وقالت: «إنه تصرف في منتهى الوحشية. منتهى الوحشية».

فسألها سايلاس بهدوء: «أين أخذوه؟».

فقالت الراهبة برناديت بصوتها العذب: «في حقيقة الأمر يا سايلاس، أنا نفسي كنت في الكنيسة من أجل ذلك الزواج، فأنا أعشق الأفراح. وقد مر الحارس الذي كان يصطحب سايمون نافذًا من خلالي؛ ولذا علمت ما الذي كان يفكر فيه في تلك اللحظة. كان يفكر في أنه يحب أن يأخذ ابنك إلى دار القضاء، إلى الأمين الأعلى بنفسه. أنا في غاية

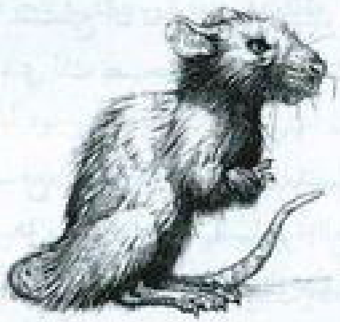
الأسى أن اضطررت أن أحكي لك ذلك يا سايلاس»، ووضعت الراهبة يدها الشبحية على ذراع سايلاس، وكانت لمسة دافئة لكنها لم تطمئن سايلاس.

كانت هذه هي الأخبار التي خشي سايلاس أن يسمعها، سايمون في يد الأمين الأعلى، كيف سينقل هذا النبأ البشع إلى سارة؟ قضى سايلاس بقية ساعات اليوم في فجوة السور منتظرًا، بينما حشد ألثر بقدر وسعه أكبر عدد من الأشباح وأرسلهم إلى دار القضاء؛ كي يبحثوا عن سايمون ويستكشفوا ما يحدث له هناك.

لم يتوصل أحد منهم إلى شيء، وبدا الأمر وكأن سايمون تلاشى في الهواء.

27

رحلة ستانلي



في عيد منتصف *الشتاء*، قامت زوجة ستانلي بإيقاظه من نومه بعد أن وصلته رسالة عاجلة من مكتب الجرذان.

ثم قالت متذمرة: «أنا لا أفهم لماذا لا يتركونك اليوم على الأقل في إجازة؟ كل شيء عندك يا ستانلي هو العمل، العمل، العمل؛ نحن نحتاج إلى إجازة».

رد عليها ستانلي بصبر: «داوني يا حبيبتي، إذا لم أنجز عملي فلن نحصل على إجازة. هكذا هو الأمر بمنتهى البساطة. هل قالوا لماذا يريدونني؟».

هزت داوني كتفها بغضب قائلة: «لم أسأل. أظن أن الأمر متعلق بهؤلاء السحرة عديمي النفع مرة أخرى».

«إنهم ليسوا بهذا السوء، حتى الساحرة العظ... أخ!».

«أهؤلاء إذن هم من ذهبت إليهم؟».

«لا».

«بل نعم. أنت لا تستطيع أن تخفي عني شيئًا، حتى وإن كنت كاتم أسرار. دعني إذن أسدي لك نصيحة صغيرة يا ستانلي».

«واحدة فقط؟».

«لا تورط نفسك مع السحرة يا ستانلي؛ إنهم يجلبون المتاعب.. صدقني، أنا متأكدة. هل تعلم ما فعلته الساحرة العظمى الأخيرة، تلك المرأة التي تدعى مارشا؟ لقد سرقت الابنة الوحيدة لأسرة مسكينة من السحرة وهربت بها. لا أحد يعرف السبب. والآن خرج بقية أفراد الأسرة.. ترى، ما لقبها؟ آه! تذكرت، هيب، وذهبوا ليبحثوا عنها. صحيح أن الحسنة الوحيدة في ذلك أنه أصبح لدينا ساحر أعظم جديد نحيُّه، لكن يا لهول العمل الذي ينتظره كي يجد حلاً للفوضى التي تركها السحرة الآخرون وراءهم! ولذلك لن نستطيع أن نراه لفترة.. أرأيت المصيبة التي حلت بهؤلاء الجرذان بعد أن أصبحوا هكذا بلا مأوى؟».

قال ستانلي بضجر، وقد نفد صبره، يريد الانطلاق إلى مكتب الجرذان ليعرف مهمته القادمة: «أي جرذان تتحدثين عنهم؟».

«أتحدث عن كل جرذان مقهى سالي مولن للشاي والجعة. أتعلم ماذا حدث في تلك الليلة التي تولى فيها الساحر الأعظم الجديد مهامه؟ لقد

تركت سالي بعض كعك الشعير البشع هذا في الفرن لوقت طويل جدًا فاحترق المكان كله، وبات هناك ثلاثون أسرة من الجرذان بلا مأوى.. إنه لأمر فظيع في مثل هذا الطقس الذي نحن فيه الآن».

«نعم فظيع فعلًا. حسنًا، الآن سوف أنطلق يا عزيزتي. أراك لاحقًا عندما أعود»، ثم أسرع خطاه متوجهًا إلى مكتب الجرذان.

يقع مكتب الجرذان أعلى برج المراقبة الموجود لدى البوابة الشرقية، أخذ ستانلي الطريق السريع، وهو يجري على سطح سور القلعة، مارًا فوق حانة فجوة السور التي لا يعلم هو نفسه شيئًا عن وجودها. وصل على الفور إلى برج المراقبة، وتسلق بخفة ماسورة صرف ضخمة ممتدة أعلى السور، وسرعان ما وجد نفسه على السطح، ثم قفز فوق حاجز الجُرذ ودق على باب كوخ صغير مكتوب عليه:

مكتب الجرذان الرسمي

مسموح بدخول الجرذان الرسل فقط

مكتب العملاء في الدور الأرضي

بجوار صفائح القمامة

نادى من داخل الغرفة صوت لم يعرفه ستانلي وقال له: «ادخل». فدخل على أطراف أصابعه؛ فنبرة الصوت الجديدة لم تعجبه مطلقًا.

لم يستوقف شكل الجُرذ صاحب الصوت الغريب ستانلي كثيرًا، فرئيسه الجديد جرذ أسود ضخم، يجلس خلف مكتب الرسائل، وجهه غير مألوف، وذيله الوردي الطويل ملفوف ومستند إلى المكتب، وينقر به على المكتب بنفاد صبر.

صاح الجُرذ الأسود فجأة: «أأنت الجُرذ كاتم الأسرار الذي أرسلت إليه للحضور؟».

تراجع ستانلي قائلًا بتردد: «تمامًا».

صاح فيه الجُرذ الأسود: «اسمها تمامًا *يا سيدي*».

تراجع ستانلي إلى الخلف وقال: «أخ!».

صحح له الجُرذ الأسود قائلًا: «اسمها *أخ يا سيدي*. أفهمت أيها الجرذ 101؟».

«الجُرذ101؟».

«الجُرذ101 *يا سيدي*. أنا آمرك بأن تلتزم حدودك يا 101، وتأكد أن أوامري ستنفذ هنا، وأول هذه الأوامر التي سنبدأ بها هي الأرقام، فكل جرذ رسول سيكون له رقم يُعرف به. فالجُرذ المرقم هو جرذ كفء، كما هو الحال في المكان الذي جئت منه».

جازف ستانلي وسأله: «من أين جئت؟».

صاح الجُرذ الأسود على الفور: «.. *يا سيدي*، ألا تفهم أبدًا؟ والآن، أمامك مهمة يا 101»، ثم أخرج الجُرذ الأسود ورقة من السلة التي رفعها من مكتب العملاء الموجود في الطابق السفلي، وكانت تحمل أمرًا

بتوصيل رسالة، ولاحظ ستانلي أنها مكتوبة على ورقة معنونة باسم قصر الأمناء، وموقعة من الأمين الأعلى بنفسه.

لكن لسبب لم يفهمه ستانلي لم تكن الرسالة الفعلية المطلوب منه أن يرسلها من الأمين الأعلى، ولكن من سايلاس هيب، يجب أن تُسلم إلى مارشا أوفرستراند.

قال ستانلي وقد وقع قلبه في جوفه: «يا للإزعاج!»؛ فالقيام برحلة أخرى عبر مستنقعات مرام- متحايلًا بكل الطرق أن يتجنب أفعى المستنقع- ليس المهمة التي كان يتمناها.

صحح له الجُرذ الأسود قوله مرة أخرى قائلًا: «..يا للإزعاج *يا سيدي*! قبول هذه المهمة ليس محل جدال؛ هذا شيء آخر لا بد أن تعلمه، أنت لم تعد كاتم أسرار».

«ماذا تقول؟ أنت لا تستطيع أن تفعل هذا».

«*يا سيدي*.. لا تستطيع أن تفعل هذا *يا سيدي*.. لكنني أستطيع أن أفعله، بل في واقع الأمر لقد فعلته».

ومن باب الاستفزاز، تسللت ابتسامة خبيثة إلى شوارب الجُرذ الأسود.

«لكنني قمت بكل الاختبارات، وأنهيت الدراسات العليا في تخصص كاتم الأسرار، وكان ترتيبي في القمة..».

«*وكان ترتيبي في القمة يا سيدي*.. لكن للأسف.. تم تجريدك من لقب كاتم الأسرار.. انتهى الأمر.. انصرف».

فهمهم ستانلي قائلًا: «لكن... لكن...».

صاح الجُرذ الأسود بحدة، وذيله ينقر بغضب: «والآن، اخرج من هنا».

وخرج ستانلي.

وفي الطابق الأرضي، ترك ستانلي أوراق مهمته لدى مكتب العملاء كالعادة. دقق أحد الجرذان من الموظفين في ورقة الرسالة، ثم وضع علامة بضربة من رجله السمينة على اسم مارشا.

ثم سأل ستانلي: «تعلم كيف تجدها، أليس كذلك؟».

رد ستانلي: «بالطبع».

قال الجُرذ: «عظيم. هذا هو ما نحب أن نسمعه».

همهم ستانلي قائلًا في سره: «غريب»؛ فستانلي لم يعجبه طاقم موظفي المكتب الجديد، وتساءل في سره: أين ذهبت الجرذان اللطيفة التي كانت تدير المكان من قبل؟

كانت الرحلة التي تكبدها ستانلي في ذلك اليوم الذي صادَف عيد منتصف الشتاء- رحلة طويلة ومهلكة.

أولًا، حصل على توصيلة متطفلًا على مركب نقل بضائع صغير كان متجهًا من الغابة إلى الميناء. ولسوء حظه، كان ربان المركب يؤمن بضرورة ترك قطة المركب جائعة وشرسة، وكانت القطة بلا شك في غاية الشراسة.. أمضى ستانلي يومه على المركب يحاول باستماتة تجنب القطة التي بدت كما لو كانت حيوانًا ضخمًا برتقالي اللون ذا أنياب صفراء وأنفاس كريهة، ثم تعثر حظه تمامًا قبل قناة ديبين مباشرة عندما وجد نفسه محاصرًا من القطة من جهة ومن بحَّار ضخم قوي البنية وفي

يده لوح خشبي كبير من جهة أخرى، ولم يكن هناك مفر أمام ستانلي سوى أن يقفز من على متن المركب في أقرب فرصة.

كان ماء النهر قارس البرودة، وحركة المد سريعة تجرف معها ستانلي في اتجاه تدفق النهر. ظل ستانلي يقاوم حتى يحتفظ برأسه فوق سطح الماء، في صراعه مع حركة المد، ولم يتمكن من الوصول إلى شاطئ النهر إلا عندما وصل إلى الميناء.

مكث ستانلي عند أسفل درجات سلم الميناء، لا يوحي منظره إلا بكونه قطعة رخوة من الفرو المبلل، وكان من شدة الإرهاق عاجزًا عن المواصلة، وظل على هذا الحال بينما كانت الأصوات تنجرف إليه من عند سور مرسى الميناء.

«ياه! انظري يا أمي! هناك جرذ ميت على درجات السلم هناك. هل أستطيع أن آخذه معي في البيت وأغليه على النار لأحصل على هيكله العظمي؟».

«لا يا بيتونيا، لا تستطيعين».

«لكن أنا ليس عندي هيكل عظمي لجرذ يا أمي».

«ولن تحصلي على واحد أيضًا. هيا».

فقال ستانلي في سره لو أن بيتونيا أخذته معها إلى البيت لما كان عارض أن يأخذ غطسًا لطيفًا في مقلاة بها ماء مغلي، فعلى الأقل كان ذلك سيدفئه قليلًا!

وبعد أن تمكن أخيرًا من الوقوف على رجليه، جر نفسه ليصعد درجات سلم مرسى الميناء، مدركًا أنه لا بد أن يجد دفئًا وطعامًا أولًا قبل

أن يواصل رحلته. وهكذا، قاده أنفه إلى مخبز ثم دخله متسللًا، ومكث بجوار الأفران وهو يرتجف، حتى بدأ الدفء يسري في جسمه رويدًا رويدًا، ثم جاءت صرخة من زوجة الخباز؛ تلتها ضربة قوية بمكنسة ألقت به في نهاية المطاف إلى الطريق.. لكن بعد أن تمكن من تناول معظم قطعة كعك بالمربى وقرض في ثلاثة أرغفة خبز وفطيرة بالكاستر.

بعد أن شعر ستانلي بالانتعاش، بدأ يبحث عن توصيلة تأخذه إلى مستنقعات مرام، ولم يكن الأمر سهلًا. فعلى الرغم من أن معظم الأشخاص في الميناء لا يحتفلون بعيد منتصف الشتاء، فإن كثيرًا منهم يتحججون بالعيد كي يمكثوا في بيوتهم ويتناولوا وجبة غداء دسمة ويغطوا في النوم بعد ذلك معظم فترة الظهيرة؛ ولذلك كان الميناء شبه مهجور. هذا بالإضافة إلى أن الرياح الشمالية الباردة التي كانت تجلب معها موجات من الثلوج أخلت الشوارع من المارة إلا المضطرين منهم.. وبدأ ستانلي يتساءل في سرّه عما إذا كان سيمكنه العثور على أي شخص وصل به الحُمق إلى أن يخرج في مثل هذا الطقس متوجهًا إلى المستنقعات.

وأخيرًا، وجد ستانلي جاك المجنون وعربته التي يجرها حمار.

وجاك المجنون يعيش في كوخ عند أطراف مستنقعات مرام، ويكسب قوت يومه بتقطيع نباتات قصبية تُستخدم في تسقيف أسطح المنازل بالميناء، كان جاك قد سلم على التوّ آخر طلبية، وكان في طريقه إلى البيت عندما رأى ستانلي يحوم بين بعض صناديق القمامة، وهو يرتعش من شدة البرد. ابتهج جاك المجنون برؤية الجُرذ؛ فهو يعشق الجرذان،

ويتمنى أن يأتي يوم يرسل إليه فيه شخص رسالة مع جرذ رسول.. وإن لم تكن الرسالة هي ما يتوق إليه جاك المجنون، بل الجُرذ نفسه.

أوقف جاك المجنون عربته وحماره بجوار الصناديق.

وقال: «ماذا بك أيها الجُرذ اللطيف؟ أتحتاج إلى توصيلة؟ أنا معي عربة دافئة متجهة إلى أطراف المستنقعات».

ظن ستانلي أنه سمع صوتًا، ثم قال في سره معنفًا نفسه: «لا تعشم نفسك يا ستانلي، توقف».

ثم نظر جاك المجنون من العربة إلى الجُرذ وهو يرسم على وجهه أعرض ابتسامة تُظهر أسنانه المتباعدة.

«هيا، لا تخجل، اقفز».

تردد ستانلي لوهلة، ثم قفز في العربة.

قال له جاك المجنون وهو يقهقه: «تعالَ واجلس إلى جواري أيها الجُرذ اللطيف، لف فروتك بهذا الغطاء ليحميك من برد الشتاء».

وقام جاك المجنون بلف ستانلي بغطاء تفوح منه بشدة رائحة الحمير، ثم أمر الحمار بالإسراع.. أرجع الحمار أذنيه إلى الخلف، وبدأ وسط موجات الثلوج المتساقطة يشق- بتثاقل- طريق العودة الذي يحفظه عن ظهر قلب عبر الممر الصاعد المؤدي إلى الكوخ الذي يقيم فيه مع جاك المجنون. لدى وصولهم، كان ستانلي قد استعاد إحساسه بالدفء من جديد، وكان ممتنًا غاية الامتنان لجاك.

حل جاك لجام الحمار وقاده داخل الكوخ، ثم قال بابتهاج: «ها نحن قد وصلنا إلى البيت أخيرًا»، تردد ستانلي في النزول من العربة، لا يريد ترك دفء الغطاء رغم علمه بأنه لا بد أن ينزل.

قال له جاك: «أنت على الرحب والسعة. وإن شئت، تستطيع البقاء هنا لفترة، وإنه ليروق لي وجود جرذ في البيت يجول هنا وهناك؛ فهو يضفي بهجة على المكان، ويؤنسني في وحشتي. أتفهم قصدي؟».

لكن ستانلي، بكل أسى، هز له رأسه رافضًا؛ فهو موكل بتوصيل رسالة، وهو جرذ محترف في مهنته تمامًا، حتى وإن كانوا قد سحبوا منه لقب كاتم الأسرار.

«نعم نعم، أظن أنك إذن واحد منهم»، وهنا خفض جاك صوته ونظر حوله وكأنه يتأكد من أن أحدًا لا يسمعه: «أظن أنك واحد منهم، أنت جرذ *رسول*.. أعلم أن معظم الناس لا يؤمنون بمهمة هذه الجرذان، لكنني أؤمن بها، لقد أسعدني لقاؤك»، ثم انحنى جاك المجنون ومد يده لستانلي ليسلم عليه. وكان صعبًا على ستانلي ألا يمد يده ليرد السلام، وأمسك جاك المجنون يد الجُرذ بيده.

ثم همس قائلًا: «أنت إذن جرذ رسول، أليس كذلك؟ أنت *بالفعل* جرذ رسول».

فأومأ له ستانلي برأسه، وإذا به يُفاجأ بجاك المجنون وقد أمسكه بيده اليمنى مسكة خبيثة وألقى عليه غطاء الحمار، ثم لفه بإحكام شديد منعه من أية محاولة للمقاومة، وأخذه إلى الكوخ.

تلا ذلك قعقعة شديدة، ووجد ستانلي نفسه حبيسًا في قفص، أُغلق بابه بإحكام. وبدأ جاك المجنون يقهقه، ووضع المفتاح في جيبه ثم جلس، وأخذ يراقب أسيره بابتهاج.

بدأ ستانلي يهز قضبان القفص بحنق. كان غضبه من نفسه أكثر من غضبه من جاك المجنون. فكيف *وصل* به الحُمق إلى هذا الحد؟ كيف سمح لنفسه بأن ينسى التدريبات التي تلقاها: إن الجُرذ الرسول يسافر *دائمًا* غير مكشوف الهوية. الجُرذ الرسول لا يكشف نفسه *أبدًا* للغرباء.

ثم قال جاك المجنون: «ياه! أيها الجُرذ اللطيف، كم سنستمتع معًا بوقتنا هنا. أنا وأنت فقط أيها الجُرذ اللطيف.. سوف نخرج لتقطيع بعض النباتات القصبية معًا، وإذا كنت مهذبًا فسوف نذهب إلى السيرك عندما يحضر إلى البلدة هنا ونشاهد البهلوانات. أنا أحب البهلوانات يا صديقي، سنحيا حياة سعيدة معًا، نعم سوف نفعل ذلك. بكل تأكيد»، ثم ضحك بسعادة في سره وذهب ليجلب تفاحتين ذابلتين من جوال معلق في السقف، أطعم واحدة للحمار ثم فتح مطواته وشق بحرص الأخرى، وأعطى النصف الأكبر لستانلي، لكنه رفض أن يلمسها.

فقال له جاك المجنون بفم ممتلئ بالطعام، وراح يرشه بفتافيت التفاح: «سوف تضطر لأن تأكلها في النهاية أيها الجُرذ اللطيف. فلن يكون هناك طعام آخر حتى يتوقف تساقط الثلوج وسيستغرق هذا وقتًا؛

فالرياح تتجه شمالًا، والصقيع الكبير في الطريق الآن. وهو دائمًا يأتي مع عيد منتصف الشتاء، فهو كالساعة لا يقدم ولا يؤخر».

وأخذ جاك المجنون يقهقه على نكتته، ثم لف نفسه في البطانية ذات رائحة الحمير، والتي كانت السبب في سقوط ستانلي.. ثم غطّ في نوم عميق.

ركل ستانلي قضبان القفص، وتساءل في سره إلى أي مدى يجب أن يكون نحيلًا حتى يستطيع أن يمر من بين القضبان، ثم تنهد بيأس.. «لا بد أن يكون نحيلًا جدًا».

28
الصقيع الكبير



ظلت *بقايا طعام عيد منتصف الشتاء التي شملت* الكرنب المطهو، ورءوس ثعبان البحر، والبصل الحريف - تفترش المائدة، بعد أن راحت العمة زيلدا تحاول أن تعيد الحياة إلى النار المدمدمة، ولقد باتت النوافذ من الداخل مكسوة بطبقة من الثلج، وواصلت درجة الحرارة داخل الكوخ انخفاضها.. ولاتزال العمة زيلدا تحاول، بلا جدوى، أن تبقي على النار مشتعلة. داست بيرت على كرامتها ودنت من ماكسي التماسًا للدفء، بينما جلس الباقون ملتفين بألحفتهم، محدقين إلى النار التي تقاوم محاولات إشعالها.

قالت مارشا غاضبةً: «لماذا لا تتركيني أحاول يا زيلدا؟ أنا لا أفهم

لماذا يجب علينا أن نجلس متجمدين من البرد بينما كل ما سأفعله أنا هو ذلك»، وطقطقت مارشا بأصابعها فاندلعت النار في المدفأة.

قالت العمة زيلدا بحدة: «أنت تعلمين يا مارشا أنني لا أحب **التدخل** في عناصر الطبيعة؛ فأنتم أيها السحرة من طائفتكم لا تحترمون الطبيعة الأم».

فردت مارشا وهي مدمدمة: «ليس عندما تحول الطبيعة الأم قدمي إلى قالبين من الثلج».

فقالت العمة زيلدا: «في الحقيقة، لو أنك ارتديتِ حذاء طويلًا منطقيًا مثلي بدلًا من التبختر هنا وهناك بحذاء ثعباني أرجواني رقيق، فسوف تدركين حينها الفرق».

تجاهلت مارشا كلامها وجلست تدفئ قدميها بجوار النار المشتعلة، ولاحظت أن العمة زيلدا لم تجرِ أي محاولات كي تعيد النار إلى حالتها الطبيعية، التي كانت عليها.

خارج الكوخ، كانت رياح الشمال تعوي، وازدادت كثافة موجات الثلوج التي تهب فجأة كل حين منذ وقت مبكر من اليوم. وباتت الرياح تهب مصحوبة بعاصفة ثلجية كثيفة، تدور كالدوامة فوق مستنقعات مرام، وبدأت تغطي سطح الأرض بطبقات سميكة من الثلوج. ومع دخول الليل وبدء إحساسهم أخيرًا بدفء النار التي أوقدتها مارشا، خمد صوت الرياح بعد أن تراكمت أكوام الثلوج مكونة تلًا في الخارج، وسرعان ما خيم على الكوخ صمت ثلجي ناعم من الداخل، بينما ظلت النار تشتعل بثبات في المدفأة، واقتدى الجميع بماكسي فاستغرقوا في النوم واحدًا تلو الآخر.

بعد أن نجح الصقيع الكبير في دفن الكوخ حتى سطحه بالثلوج، واصل مسيرته ومر عبر المستنقعات في الخارج، مغطيًا مياهها الآسنة بطبقة بيضاء سميكة من الثلوج، مجمدًا معه البرك والمستنقعات، ومرسلًا كائنات المستنقعات إلى جحورها في أعماق الوحل إلى حيث لا يستطيع الصقيع أن يطالها، ثم اجتاح الصقيع النهر وانتشر عبر اليابس من كلتا جهتيه، دافنًا حظائر ماشية وأكواخًا وأغنامًا تهيم هنا وهناك.

وبحلول منتصف الليل، وصل الصقيع إلى القلعة، حيث كان كل شيء معدًا.

فسكان القلعة، طوال الشهر الذي يسبق اجتياح الصقيع الكبير، يخزنون أكوامًا من الطعام، ويجازفون بدخول الغابة ليعودوا بأكبر قدر من الأخشاب، ويمكثون أوقاتًا لا بأس بها في غزل البطاطين من التريكو.. وفي هذا الوقت من كل عام، يصل تجار الشمال جالبين معهم إمدادات من الأقمشة الصوفية الثقيلة، وفراء الحيوانات القطبية السميك، والسمك المملح، ولا ينسون الأطعمة المتبلة التي تعشقها ساحرات ويندرون.. ويتمتع تجار الشمال بحاسة فطرية مذهلة تخبرهم بمواقيت الصقيع الكبير، فتجدهم يأتون قبل موعده بشهرٍ ويرحلون قبل أن يبدأ مباشرة.. وقد كان تجار الشمال الخمسة الذين كانوا في مقهى سالي مولن ليلة أن تم إشعال النار فيه آخر من رحل منهم؛ ولذلك لم يتفاجأ أحد في القلعة بوصول الصقيع الكبير، بل في الواقع كان هناك إجماع على أنه تأخر قليلًا عن موعده.. وفي حقيقة الأمر أن آخر من رحل من

تجار الشمال، رحلوا قبل موعدهم نتيجة الظروف غير المتوقعة التي مروا بها.

وكعادته دائمًا، نسي سايلاس أن الصقيع الكبير هلّ، ووجد نفسه منعزلًا داخل حانة فجوة السور بعد أن سد انجراف ثلجي مدخلها، ولأنه أصلًا ليس لديه مكان آخر يلجأ إليه، فقد مكث في الحانة وقرر أن يستغل الموقف لصالحه، بينما راح ألثر وبعض القدماء يتابعون مهمتهم وهي محاولة العثور على سايمون.

أما الجُرذ الأسود الذي ينتظر في مكتب الجرذان عودة ستانلي فوجد نفسه هو أيضًا منعزلًا في برج المراقبة عند البوابة الشرقية، بعد أن غطته الثلوج. فبعد أن امتلأت ماسورة الصرف بالماء إثر انفجار إحدى المواسير، تجمد الماء فيها بسرعة، وسدت عليه طريق الخروج.. بينما تركه جرذان مكتب خدمة العملاء على هذه الحال وعادوا إلى بيوتهم.

كان الأمين الأعلى ينتظر هو أيضًا عودة ستانلي؛ ليس فقط لأنه يريد المعلومات التي سيأتي بها عن مكان مارشا بالتحديد، ولكن لأنه كان ينتظر بتوتر معرفة نتائج الرسالة التي أوصلها الجُرذ. لكن الأمور ظلت على حالها دون أي جديد، ومنذ أن أرسل الجُرذ زرع الأمين الأعلى فصيلًا من الحراس الأمناء بكامل أسلحتهم لدى بوابة القصر، يواصلون ضرب الأرض بأقدامهم المتجمدة والتحديق إلى العاصفة الثلجية، منتظرين ظهور الساحرة العظمى، لكن مارشا لم تعد.

هب الصقيع الكبير جهة البر، بعد أن قضى الأمين الأعلى ساعات يتباهى فيها أمام دومدانيال بفكرته الذكية بسحب لقب كاتم الأسرار من

الجُرذ الرسول وإرساله برسالة مزيفة لمارشا، أخذ يحاول أن يتفادى سيده بقدر المستطاع بالمكوث في غرفة السيدات أطول مدة ممكنة.. والسبب في ذلك ليس لأنه يتفاءل بالغرفة، كما أنه ليس أحمق أيضًا، ولم يفُته أن يلاحظ أن أي خطة يناقشها في غرفة السيدات كانت من عادتها أن تنجح، رغم عدم علمه بسر ذلك، كما أنه يستمتع بالجلوس بجوار المدفأة الصغيرة الموجودة بالغرفة.. لكن السبب الأهم من هذا وذاك هو أن الأمين الأعلى يعشق التلصص. ولقد كان يومًا أحد هؤلاء الفتيان الصغار الذين لا يكفون عن *التنصت* سرًّا على الأحاديث التي يجريها الآخرون، وبالتالي تمكن في كثير من الأحوال أن يمسك ذلة على الآخرين ولم يخش أن يستخدم ذلك لصالحه، ولقد خدمه ذلك كثيرًا في ترقيه السلم الوظيفي، ولعب دورًا عظيمًا في تنصيبه أمينًا أعلى.

ولذلك، ربض الأمين الأعلى في غرفة السيدات أثناء الصقيع الكبير، وأوقد نار المدفأة، وراح يتربص بالمارة في طرب وابتهاج، وهو مختبئ خلف الباب الذي يبدو بريئًا بحروفه الذهبية الباهتة. ولكم كانت متعته وهو يرى شحوب وجوه البعض حين يباغتهم بظهوره ويواجههم بما ذكروه عنه من تعليقات مهينة، بل كانت متعته تزيد عندما يستدعي أحد الحراس ليصطحبهم مباشرة إلى الزنزانة، خاصة إن كان ذلك مصحوبًا ببعض التوسلات؛ فالأمين الأعلى يطربه سماع بعض التوسلات، ولقد أوقف حتى الآن ستة وعشرين شخصًا وأرسلهم إلى الزنازين لتلفظهم ببعض التعليقات الفظّة عنه.. والغريب في الأمر أنه لم يتبادر إلى ذهنه

ولو لمرة واحدة أن يتساءل في سره: لماذا لم يسمع تعليقًا لطيفًا واحدًا عنه؟

إلا أن الخطة الأكثر تشويقًا التي شغلت بال الأمين الأعلى هي سايمون هيب؛ فسايمون تم اصطحابه مباشرة من الكنيسة إلى غرفة السيدات، وتم تكبيله بالسلاسل في إحدى المواسير.. ولأن سايمون أخو چينا بالتبني، فقد ظن الأمين الأعلى أنه سيعلم أين ذهبت، وأمل أن يقنع سايمون بأن يتكلم.

ومع قدوم الصقيع الأكبر، بدون عودة الجُرذ ولا مارشا إلى القلعة، فترت همة سايمون في غرفة السيدات مع تواصل استجوابه عن مكان چينا. في أول الأمر، تملكه الرعب لدرجة أنه خاف أن يتكلم. لكن الأمين الأعلى رجل خبيث، وبدأ يكسب ثقة سايمون.

فكلما وجد هذا الرجل الضئيل ثقيل الدم وقتًا إضافيًا، دخل غرفة السيدات متبخترًا وثرثر بكلام فارغ عن يومه الشاق، فيستمع إليه سايمون بأدبٍ وتؤدة، بينما الرعب يملأ قلبه ويمنعه عن الكلام. بعد فترة، بدأ سايمون يجازف ببعض التعليقات، وبدا على الأمين الأعلى الابتهاج بعد أن بدأ سايمون يتفاعل معه، فأخذ يجلب له طعامًا وشرابًا إضافيين.. وبدأ سايمون يشعر بالارتياح، ولم يمضِ وقت طويل حتى وجد نفسه يبوح للأمين الأعلى برغبته في أن يكون الساحر الأعظم التالي، وبالإحباط الذي شعر به من الطريقة التي هربت بها مارشا، وقال له إنه تصرف ما كان سيُقدم هو عليه لو كان مكانها.

كان الأمين الأعلى يسمعه وهو يوافقه الرأي؛ إذ أخيرًا وجد فردًا واحدًا من أفراد أسرة هيب يتحدث بمنطق، وعندما عرض على سايمون فكرة أن يتتلمذ على يد الساحر الأعظم الجديد - وهو يقول له: «وسوف أبوح لك، وأنا أعلم أن هذا سوف يظل بيني وبينك يا سايمون، إن التلميذ الحالي لا يُثبت أية جدارة وهو غير مرضيٍّ عنه على *الإطلاق*، رغم أننا كنا نتوسم فيه خيرًا» - فبدأ سايمون هيب حينها يشعر بأن هناك مستقبلًا مشرقًا جديدًا ينتظره؛ مستقبلًا قد يعيش فيه باحترام ويتيح له فرصة أن يستخدم مهاراته **السحرية**؛ مستقبلًا لا يُعامَل فيه بالطريقة التي يُعامل بها حاليًا «كشخص حقير من أسرة هيب».. وهكذا، وفي وقت متأخر من إحدى الليالي، وبعد أن جلس الأمين الأعلى بشكل ودي إلى جوار سايمون وقدم له مشروبًا ساخنًا، أخبره سايمون بما أراد أن يعرفه - أخبره بأن مارشا وچينا ذهبتا إلى كوخ العمة زيلدا في مستنقعات مرام.

ارتسمت ابتسامة حادة على وجه الأمين الأعلى وسأله: «وأين ذلك المكان *بالتحديد* يا رجل؟».

واضطر هنا سايمون لأن يعترف بأنه لا يعلم *على وجه الدقة*.

فانطلق الأمين الأعلى من الغرفة، في نوبة غضب عارمة، متجهًا إلى الصياد الذي أخذ يستمع إليه في صمت وهو يتحدث بصخب عن حماقة كل أفراد أسرة هيب عمومًا وسايمون هيب على وجه الخصوص.

وأخذ الأمين الأعلى يتحرك ذهابًا وإيابًا بخطوات واسعة في غرفة الصياد بالثكنة العسكرية -غرفة تكاد تخلو من الأثاث - وهو يشيح بذراعيه في الهواء بطريقة مسرحية، ويقول ساخطًا: «ما أقصده يا جيرالد -

فهذا هو اسم الصياد وهو أمر لا يود أن يعلمه أحد، لكن مما كان يستفزه أن الأمين الأعلى يستخدم اسم «جيرالد» كلما سنحت له الفرصة – ما أقصده هو كيف يمكنني أن أصدق أن هناك شخصًا لا يعرف على وجه الدقة أين تسكن عمته؟ كيف يستطيع يا جيرالد أن يزور عمته إذا كان لا يعرف عنوانها؟».

فالأمين الأعلى لم يقصر يومًا في زيارة عماته رغم عددهن الكبير، ومعظمهن تمنى لو أن ابن أخيهن لا يعرف *تحديدًا* أين يسكنّ.

لكن سايمون بذلك كان قد أمد الصياد بما يكفيه من معلومات.. وما إن رحل الأمين الأعلى حتى بدأ الصياد يخطط وأخرج خرائطه ورسومه التوضيحية المفصلة عن مستنقعات مرام، ولم يمر وقت طويل حتى وضع علامات على المواقع المحتملة لكوخ العمة زيلدا، وأصبح مستعدًا مرة أخرى للمطاردة.

وهكذا، ذهب الصياد مذعورًا إلى دومدانيال.

كان دومدانيال يتسلل على سطح برج السحرة، ممضيًا الصقيع الكبير في استخراج كتب **النكرومانسي** التي أغلق عليها أثر أحد الدواليب، مستدعيًا مساعديه في المكتبة، وهما اثنان شريران قصيرا القامة من كائنات المأجوج. ولقد عثر دومدانيال على المأجوج بعد أن قفز من فوق البرج. إنها كائنات عادة ما تعيش في الأعماق السحيقة تحت سطح الأرض، وبالتالي تبدو كأنها ديدان ضخمة عمياء، بالإضافة إلى أن لها أذرعًا طويلة خالية من العظم، وليس لها أرجل، وتتحرك على الأرض

بحركة دودية على شريط من مادة لزجة، وهي تتحرك بسرعة فائقة تثير الدهشة عندما يحلو لها ذلك، كما أنها بلا شعر، ولونها أبيض يميل إلى الصفار وتبدو كأنها بلا عيون، وإن كانت في الواقع لديها عين واحدة صغيرة، لونها دائمًا أبيض يميل إلى الصفار، وتقع أسفل الملمحين الوحيدين في وجوهها.. وهما فجوتان مستديرتان لامعتان بهما أنف وشق للفم، والمادة اللزجة التي تفرزها هذه الكائنات مزعجة تمامًا ورائحتها مقززة، رغم أن دومدانيال نفسه يراها رائحة مقبولة لا بأس بها.

يصل طول قامة هذه الكائنات غالبًا إلى أربعة أقدام إذا فكرت في أن تمد أجسامها باستقامة، وإن كان ذلك أمرًا لم يحاول أحد أن يجربه قط. فهناك أمور أخرى أفضل من ذلك تستطيع أن تشغل بها يومك، مثل أن تخدش السبورة بأظافرك، أو أن تأكل دلوًا مملوءة ببيض الضفادع.. فلم يلمس أي أحد كائنًا من كائنات المأجوج من قبل إلا إن كان حدث ذلك عن طريق الخطأ؛ فمادتها اللزجة منفرة لدرجة أن مجرد تذكر رائحتها يكفي لأن يصيب العديد بالغثيان. والمأجوج تفقس تحت سطح الأرض من يرقات توضع في حيوانات غير متوقع أنها في حالة سُبات، مثل القنفذ أو الزغبة، وهي تتجنب السلاحف؛ لأنه من الصعب على صغار المأجوج الخروج من صَدَفتها.. وما إن يتسلل أول ضوء لشمس الربيع باعثًا الدفء في الأرض، حتى تنفجر هذه اليرقات، وتستهلك ما تبقى من الحيوان، ثم تحفر جحورًا على مسافات أعمق، إلى أن تصل إلى فجوة من فجوات المأجوج.. تحيط بمخبئه في أرض الأشرار، ودائمًا يتحصل على إمدادات ثابتة من هذه الكائنات، وهي كائنات تصلح لأن

تكون حرسًا ممتازًا؛ إذ إن عضتها تتسبب لمعظم من أصيبوا بها في تسمم سريع في الدم يودي بحياتهم في بضع ساعات، والخدش الذي يسببه مخلب المأجوج قد تقيح لدرجة أنه قد لا يشفى أبدًا. لكن الرادع الأكبر الذي تتميز به هذه الكائنات هو شكلها؛ فرءوسها المنتفخة ذات اللون الأبيض المائل إلى الصفار، والتي تبدو عمياء، وفكوكها الصغيرة المتحركة بشكل متواصل والمصطفة بأسنان صفراء تشبه الأشواك، تجعل منظرها مروعًا، ويبعد معظم الناس عنها بمسافات آمنة.

ولقد وصلت كائنات المأجوج قبل الصقيع الكبير مباشرة، وبث الرعب في نفس التلميذ إلى أقصى درجة؛ مما اعتبره دومدانيال فرصة رائعة للتسلية، وحجةً لتركه يرتعد في الخارج على منبسط السلم؛ حتى يعيد محاولة تعلم **جدول ضرب ثلاثة عشر**.

وقد أصاب كائنا المأجوج الصياد أيضًا بصدمة، فبعد أن وصل إلى آخر السلم الحلزوني ومر بخطوات سريعة بالتلميذ الذي كان عند منبسط السلم، متعمدًا تجاهله، زلت قدمه على شريط المادة اللزجة الذي امتد إلى جناح دومدانيال، إلا أنه استطاع في الوقت المناسب أن يعيد توازنه، ولكن بعد أن سمع ضحكة ساخرة من التلميذ.

ولم تمضِ لحظات إلا وسمع التلميذ ما أضحكه مرة أخرى، فأخيرًا سمع دومدانيال وهو يصيح في شخص آخر غيره.. وأخذ ينصت بابتهاجٍ وطربٍ لصوت سيده، بنبرته الغاضبة، وهو يخترق الباب الأرجواني الثقيل ويتردد في الخارج بوضوح تام.

كان دومدانيال يصيح قائلًا: «لا.. لا.. لا! أتعتقد أنني وصلت إلى درجة من *الجنون* أن أدعك تنطلق وحدك في مهمة صيد مرة أخرى؟ هذا كلام مجانين، ولو كان هناك أي شخص آخر أستطيع أن أوكل إليه هذه المهمة، فصدقني، *لكنت فعلت ذلك*. لا تتحرك حتى *أقول* لك أنا متى تذهب، وعندئذ سوف تذهب تحت *إشرافي أنا*. لا *تقاطعني*! لا، لن أسمع منك أي شيء آخر. والآن، *اخرج من هنا* - أم تحب أن يساعدك في ذلك أحد كائنات المأجوج؟».

كان التلميذ يراقب الباب الأرجواني عندما انفتح بقوة وخرج الصياد مسرعًا، لينزلق على شريط المادة اللزجة ويتدحرج على السلم بأسرع ما يمكن، واستطاع التلميذ بعد ذلك بشكل أو بآخر أن يحفظ **جدول ضرب ثلاثة عشر**، أو بالأحرى وصل إلى ثلاثة عشر في سبعة، وكان هذا أقصى ما في وسعه.

سمع ألثر - الذي كان منشغلًا بخلط جوارب دومدانيال ببعضها البعض - كل شيء، ثم نفخ في النار وأخمدها، وتابع الصياد وهو يخرج من البرج، **وتسبب** في سقوط كتلة ثلجية ضخمة من فوق القوس العظيم على الصياد عند مروره من أسفله، وظل الصياد ملقى هكذا وسط الثلوج لساعات قبل أن يفكر أحد في أن يحفر ويخرجه، وإن كان هذا الموقف لم يشفِ غليل ألثر كثيرًا؛ فالأمور لا تبدو مبشرة.

وفي أعماق الغابة المتجمدة، كانت ساحرات ويندرون يعدُّن الفخاخ على أمل أن يصطدن حيوان ولقرين غافلًا أو اثنين يساعدانهن في

التغلب على مواجهة ندرة الطعام في الفترة القادمة، ثم لجأن إلى الكهف الشتوي في محجر الإردواز الذي يؤوي جماعتهن فيكسينه بالفراء، ويقضين فيه الوقت في سرد القصص والروايات، ويتركن النار مشتعلة طوال الليل والنهار.

أما المقيمون في بيت الأشجار فتجمعوا حول الموقد الخشبي في الكوخ الكبير، وانهالوا بانتظام على كل ما تطاله أيديهم من مخزون چيلين من المكسرات والكرز. كوّمت سالي مولن نفسها في فرو الولڤرين، وراحت تتباكى في صمت على مقهاها وتواسي نفسها بالتهام كومة كبيرة من البندق، بينما تركت سارة وچيلين نار الموقد مشتعلة وواصلتا الحديث عن الأعشاب والجرعات طوال أيام البرد.

أما الأبناء الأربعة فقد أقاموا معسكرًا ثلجيًّا على سطح أرض الغابة يبعد قليلًا عن بيت الأشجار، وبدءوا يعتادون حياة البرية.. كانوا يعدون الفخاخ ويشوون السناجب وأي شيء آخر يستطيعون العثور عليه، وإن كان ذلك قد أثار اعتراض چيلين بشدة، لكنها لم تمنعهم؛ لأنه كان يُلهيهم بعيدًا عن بيت الأشجار، ويحافظ على مخزونها الشتوي من الطعام، والذي كانت سالي مولن تجهز عليه بسرعة. كانت سارة تزور الأولاد كل يوم، ورغم قلقها عليهم في أول الأمر وهم يعيشون مستقلين عنها في الغابة- فإنها انبهرت عندما رأت شبكة الأكواخ المقبية التي تشبه أكواخ الإسكيمو التي بنوها، كما أنها لاحظت أن بعض ساحرات ويندرون الأصغر سنًّا تعودن على زيارتهم ومعهن بعض الهدايا تشمل طعامًا وشرابًا، ثم سرعان ما أصبح من النادر أن تجد الأبناء إلا ومعهم

على الأقل اثنتان أو ثلاث من ساحرات ويندرون، يساعدنهم في إعداد وجبة طعام أو يجلسن معهم حول نار المعسكر، وهن يضحكن ويحكين القصص والروايات، وكانت مفاجأة لسارة أن ترى قدرة أبنائها على أن يعيلوا أنفسهم بهذا الشكل.. وبدوا جميعهم كأنهم نضجوا فجأة، حتى أصغرهم، وهو چوچو الذي لايزال في الثالثة عشرة من عمره. وبعد فترة، بدأت سارة تشعر كأنها دخيلة نوعًا ما عليهم في المعسكر، لكن رغم ذلك كانت تصر على زيارتهم كل يوم، من جهة كي ترعاهم، ومن جهة أخرى؛ لأنها بدأت تستسيغ مذاق السناجب المشوية.

29
أفاعٍ وجرذان



عندما ذهب نكو وفتح باب الكوخ الأمامي صباح اليوم التالي من هبوب الصقيع الكبير- وجد نفسه أمام حائط ثلجي، فبدأ يعمل بمجرفة فحم العمة زيلدا بهمة ونشاط ليشق نفقًا وسط الثلوج طوله ستة أقدام فتح على ضوء شمس شتوية ساطعة، وخرجت چينا والفتى 412 من النفق وهما يغمضان ويفتحان عيونهما في ضوء الشمس.

قالت چينا: «الضوء ساطع جدًا»، وظللت على عينيها وهي تنظر إلى الثلوج التي كانت تعكس بريقًا يكاد يؤلم العين.

كان الصقيع الكبير قد حول الكوخ إلى بيت من بيوت الإسكيمو المقببة وبات المستنقع حولهم وكأنه مشهد ينتمي إلى القطب الشمالي. فقد تغيرت كل ملامح المكان مع الثلوج التي يجرفها هبوب الرياح، والظلال الممتدة التي تلقيها شمس الشتاء المنخفضة في الأفق، واكتملت هذه الصورة بخروج ماكسي وتدحرجه على الثلوج. إلى أن بات أشبه بدب قطبي غمره إحساس مفرط بالحماس والإثارة.

ساعدت چينا والفتى 412 نكو في حفر ممر يؤدي بهم إلى قناة الغمد، ثم شنوا هجومًا على المخزون الضخم لمكانس العمة زيلدا، وبدءوا مهمة كنس الثلوج من فوق الجليد؛ حتى يتمكنوا من التزحلق على امتداد القناة، بدأت چينا التزحلق على الجليد، بينما كان الفتيان يتقاذفان بكرات الثلج، وتبين أن الفتى 412 يجيد التصويب، وانتهى الأمر بنكو أن بدا بشكل أو بآخر أشبه بماكسي.

كان سمك الجليد حوالي ست بوصات، وبدا في نعومة وانسياب الزجاج، واحتجز سطح الماء المتجمد عشرات الآلاف من الفقاقيع أعطت الجليد شكلًا غائمًا، لكن هذا لم يمنع أن الماء ظلَّ صافيًا بحيث أمكن رؤية أشكال النباتات الحبيسة بداخلها، ورؤية ما يقبع في الأسفل. أما ما كان قابعًا أسفل قدمي چينا بعد أن أزالت أولى طبقات الثلوج فهما العينان المحدقتان بلونهما الأصفر لأفعى عملاقة كانت تحملق فيها مباشرة.

صرخت چينا: «يا للهول!».

فسألها نكو: «ما خطبكِ يا چينا؟».

«إنهما عينان؛ عينا أفعى.. هناك أفعى ضخمة جدًّا تحت سطح الجليد».

هرع الفتى 412 ونكو إليها.

وقال نكو: «ياه! إنها ضخمة جدًّا».

انحنت چينا وأزالت مزيدًا من الثلوج، ثم قالت: «انظر، هذا ذيلها، إنه بجوار رأسها مباشرة، لا بد أنها تلتف حول محيط القناة بالكامل».

قال نكو معترضًا: «لا يمكن».

«أكيد».

«أعتقد أن الاحتمال الأرجح هو أن هناك أكثر من أفعى».

«ليس هناك إذن سوى طريقة واحدة لاكتشاف ذلك»، وأخذت چينا المكنسة وبدأت تزيح بها الثلوج، وهي تقول لهم: «هيا تقدموا». وبتردد، أخذ كل من نكو والفتى 412 مكنسته وانطلقا يعملان.

وبحلول أواخر فترة الظهيرة، اكتشفوا أن هناك بالفعل أفعى واحدة.

قالت چينا، بعد أن عادوا أخيرًا إلى نقطة البداية: «لا بد أن طولها يبلغ نحو ميل». كانت أفعى المستنقع تحدق إليهم من وسط الجليد بغضب؛ فهي لا تحب أن ينظر إليها أحد، خاصة إن كان من ينظر إليها *طعامًا*. وإن كانت الأفعى تفضل الماعز وحيوان الوشق، إلا أنها تعتبر أن كل ما لديه أرجل طعام، وهي من حين لآخر تلتهم مسافرًا غريب الأطوار، إذا ما وصل بأحدهم الإهمال الذي يجعله يسقط في القناة وينثر حوله مياهًا أكثر من اللازم، لكنها عمومًا تتجنب النوع ذا الساقين، فالطبقات

العديدة التي يلفون بها أجسامهم لا تُهضم، كما أنها على وجه الخصوص لا تحب مذاق الأحذية.

هب الصقيع الكبير، وجلست العمة زيلدا تنتظر انقشاعه، تمامًا كما تفعل كل عام.. وأخبرت مارشا التي نفد صبرها، أنه ليس هناك بصيص أمل بأي حال من الأحوال أن يعود سايلاس حاليًّا ومعه تعويذة **السلامة**. فمستنقعات مرام باتت منعزلة تمامًا، ومن ثم ليس أمام مارشا سوى أن تنتظر الذوبان الكبير مثل الآخرين جميعًا.

لكن الذوبان الكبير لم يبد أية إشارات تنذر بقدومه، بل في واقع الأمر كانت الرياح الشمالية تهب كل يوم وبصحبتها مزيد من العواصف الثلجية وتكوم معها مزيدًا من طبقات الثلج المنجرفة.

انخفضت درجات الحرارة بحدة، وكان الغول يتجمد من شدة البرد خارج أرضه الموحلة، فانسحب إلى كوخ الاستحمام في العين الساخنة؛ حيث كان يغفو هناك بابتهاج وسط أبخرتها.

أما أفعى المستنقع، فقبعت حبيسة في قناة الغمد، تُصبر نفسها بأي سمكة أو ثعبان بحر غير حريص يأتي في طريقها، تحلم باليوم الذي ستلتهم فيه من الماعز ما يسعه جوفها.

داوم نكو وچينا على التزحلق على الجليد. في أول الأمر، كانا يستمتعان به على امتداد الجليد الذي يعلو سطح قناة الغمد ويزعجان الأفعى، لكن فيما بعد، بدءا يجازفان بالتوغل في المكونات الطبيعية للمستنقع الذي يكسوه البياض، كانا لا يملان من قضاء ساعات

يتسابقان على القنوات المتجمدة، ويسمعان تشقق الجليد أسفل أقدامهما، وأحيانًا العواء الحزين للرياح المهددة بتساقط الثلوج من جديد. لاحظت چينا أن أصوات كل كائنات المستنقع اختفت، فاختفت الأصوات المنهمكة لخشخشة جرذان الحقول وطرطشة ثعابين المياه الهادئة، بينما تجمدت الجنيات الصغيرة السمراء التي تعيش في أرض المستنقع المتحرك بعيدًا في الأعماق تحت سطح الأرض لا تصدر ولا صرخة واحدة فيما بينها، تاركةً المستنقع في أمان. أما الأرواح المائية فغطَّت في نومها، وتجمدت ممصاتها أسفل سطح الجليد، تنتظر ذوبان الثلوج.

مرت أسابيع طويلة هادئة على كوخ الحارسة، لا تزال الثلوج تهب من جهة الشمال، كانت چينا ونكو يقضيان الساعات في الخارج يتزحلقان على امتداد جليد قناة الغمد، بينما كان الفتى 412 يمكث في الداخل، فكلما وجد نفسه في الخارج شعر بالتجمد من البرد مهما تطل أو تقصر المدة، وكأن جزءًا منه لم يطله الدفء منذ يوم أن دُفن في الثلوج خارج برج السحرة. أحيانًا، كانت چينا تجلس معه بجوار النار؛ فلقد أحبت الفتى 412، وإن كانت لا تعرف السبب، بما أنه لم يتحدث إليها قطُّ. وهي لم تأخذ هذا الموقف بشكل شخصي، فچينا تعلم أنه لم ينطق بكلمة واحدة مع أي شخص آخر منذ أن جاء إلى الكوخ.

وظل محور الحديث الرئيسي الذي تخوض فيه چينا مع الفتى 412 هو بيتروك تريلاوني، وقد بدأ الفتى 412 يتعود عليه ويحبه.

ففي ظهيرة بعض الأيام، كانت چينا تذهب وتجلس على الأريكة إلى جوار الفتى 412، بينما كان هو يراقبها وهي تُخرج صخرتها الأليفة من جيبها. كانت كثيرًا ما تجلس بجوار النار مع بيتروك، فبيتروك تذكرها بسايلاس، وكان هناك شيء بداخلها يحدثها بمجرد وجودها في يدها بأن سايلاس سوف يعود سالمًا.

وكانت چينا تقول للفتى 412، وهي تضع الصخرة الرمادية الملساء في يده المتسخة: «ضعه الآن في يدك».

وأحب بيتروك تريلاوني الفتى 412؛ أحبه لأن كفه عادة ما تكون لزجة بعض الشيء وتنبعث منها رائحة طعام؛ ولذلك كان بيتروك تريلاوني يُخرج أرجله الأربع القصيرة البدينة لتلتصق بكف الفتى 412، ويفتح عينيه، ثم يلعق يده، ويقول في سره بابتهاج: إن مذاقها لا بأس به، إنه بالتأكيد طعم ثعبان البحر. ترى، أهناك أيضًا مسحة من طعم الكرنب؟ ولأن بيتروك تريلاوني يحب مذاق ثعبان البحر، فقد كان يعيد لعق كف الفتى 412 مرة أخرى، ولأن لسانه جاف وخشن، كأنه لسان قطة متناهٍ في الصغر، كان يثير ضحك الفتى 412، فلسان بيتروك كان يدغدغه.

وكانت چينا تبتسم حينها للفتى 412 وتقول له: «إنه يحبك، إنه لم يلعق يدي قطُّ».

وكانت هناك أيام أخرى عديدة يقضيها الفتى 412 في الجلوس بجوار النار وهو يقرأ في مجموعة من كتب العمة زيلدا، مستغرقًا في عالم آخر جديد عليه تمامًا، لم يكن الفتى 412 قبل مجيئه إلى كوخ الحارسة قد قرأ كتابًا واحدًا في حياته. صحيح أنه تعلم القراءة في جيش الشباب،

لكن لم يكن مسموحًا له إلا بقراءة قائمة الأعداء الطويلة، والأوامر اليومية، وخطط المعارك. أما الآن، فالعمة زيلدا تمده طوال الوقت بمزيج من قصص المغامرات المبهجة وكتب **السحر**، والتي استوعبها الفتى 412 كما تمتص الإسفنجة المياه، ولقد حدث ذات يوم من هذه الأيام، بعد بداية الصقيع الكبير بنحو ستة أسابيع، بعد أن قررت جينا ونكو يومها أن يكتشفا ما إذا كان في وسعهما التزحلق وصولًا إلى الميناء- أن لاحظ الفتى 412 شيئًا.

كان يعلم من قبل أن العمة زيلدا صباح كل يوم، ولسبب ما، تضيء مصباحين وتختفي في دولاب الجرعات الموجود أسفل السلم. في أول الأمر، لم ير الفتى 412 شيئًا في ذلك؛ فالدولاب من الداخل مظلم، ولدى العمة زيلدا العديد من الجرعات لابد أن تعتني بها، وهو يعلم أيضًا أن الجرعات التي تحتاج لأن تُحفظ في مكان مظلم هي الأقل استقرارًا وتتطلب اهتمامًا بشكل دائم، حتى إن العمة زيلدا في اليوم السابق قضت ساعات تصفي **ترياقًا أمازونيًا** موحلًا تكتل في البرد. لكن الفتى 412 لاحظ صباح ذلك اليوم تحديدًا أن الأمور كانت هادئة تمامًا في دولاب الجرعات، والعمة زيلدا عمومًا ليست شخصًا هادئًا، وكلما مرت **ببرطمانات الوقاية** أخذت البرطمانات تقفز وتتحرك وتتخبط في بعضها، وعندما تكون في المطبخ يُسمع للقدور والمقلايات قرعٌ ورنٌ. ومن ثم، تساءل الفتى 412 في سره كيف تأتى لها أن تكون بهذا الهدوء في مثل هذا الحيز الضيق في دولاب الجرعات؟ ولماذا تحتاج إلى مصباحين؟

فنحّى الكتاب جانبًا، وتسلل على أطراف أصابعه إلى باب دولاب الجرعات، فلم يجد سوى صمت غريب باعتبار أن العمة زيلدا داخل الدولاب محشورة وسط مئات الزجاجات التي سوف تصلصل وتجلجل مع وجودها في هذا الحيز الضيق. وبتردد، دق الفتى 412 على الباب ولم ترد عليه العمة زيلدا، ثم أخذ ينصت مرة أخرى. ومرة أخرى، لم يسمع إلا صمتًا.. كان يعلم حينها أن عليه أن يعود إلى كتابه فحسب، لكن- لسبب ما- لم يكن كتاب «كل ما يشغل بالك عن صنع *المعجزات والتكهن بالقدح*» مثيرًا مثل موضوع العمة زيلدا. ومن ثم، دفع الباب ونظر داخل الدولاب.

كان الدولاب فارغًا.

لوهلة، خشي الفتى 412 أن يكون الأمر مزحة وأن العمة زيلدا سوف تباغته بقفزة في وجهه، لكن سرعان ما أدرك أنها بكل تأكيد ليست موجودة، ثم رأى بعينيه السبب؛ فالباب المسحور كان مفتوحًا، ورائحة الرطوبة المتعفنة التي يتذكرها تمامًا اندفعت من النفق ووصلت إليه. وقف الفتى 412 لدى الباب مترددًا، لا يعرف تحديدًا ماذا يفعل. وخطر على باله احتمال أن العمة زيلدا سقطت دون قصد من الباب المسحور وتحتاج إلى مساعدة، لكنه أدرك أيضًا أنه لو كان ذلك قد حدث فإن العمة زيلدا كانت ستُحشر في الباب لأنها تبدو أعرض كثيرًا من الباب.

وبينما كان يتساءل في سره كيف تمكنت العمة زيلدا من أن تحشر نفسها وتمر من الباب، رأى الفتى 412 بريقًا أصفر خافتًا لمصباح منير وسط الحيز الفارغ من الأرضية. وسرعان ما سمع الخطوات الثقيلة لحذاء

العمة زيلدا على الأرض الرملية للنفق وصوت أنفاسها المجهدة وهي تصعد المنحدر شديد الميل متجهة إلى السلم الخشبي. ومع بداية صعود العمة زيلدا وهي تنقل جسمها بتثاقل على السلم، أغلق الفتى 412 باب الدولاب بهدوء وعاد مسرعًا إلى مكانه بجوار النار.

ثم مرت عدة دقائق إلى أن ظهرت العمة زيلدا من دولاب الجرعات لاهثة الأنفاس تمامًا، وأطلت منه بارتياب ورأت الفتى 412 يقرأ كتاب «كل ما يشغل بالك عن صنع *المعجزات والتكهن بالقدح*» بشغف شديد.

وقبل أن تعود العمة زيلدا وتختفي من جديد في الدولاب، اندفع الباب الأمامي للكوخ، وظهر نكو وچينا تتبعه على بُعد خطوات، ثم ألقيا المزاليج ورفعا لأعلى ما بدا أنه جرذ ميت.

قالت چينا: «انظروا ماذا وجدنا».

بدا الفتى 412 مشمئزًا؛ فهو لا يحب الجرذان، بعد أن كان مضطرًا أن يعيش مع العديد والعديد منها مُكرهًا على الاستمتاع بصحبتها.

قالت العمة زيلدا: «اتركيه في الخارج، إنه فأل سيئ أن تمرري شيئًا ميتًا من عتبة الباب إلا إذا كنتِ ستأكلينه، وأنا لا يستهويني أكل هذا».

قالت چينا: «إنه ليس ميتًا يا عمة زيلدا، انظري»، ثم رفعت قطعة الفرو البنية للعمة زيلدا كي تتفحصها، ونظرت إليها العمة زيلدا بحذر.

قالت چينا: «لقد وجدناه خارج الكوخ القديم؛ ذلك الكوخ القريب من الميناء عند أطراف المستنقع، والذي يعيش فيه رجل وحمار، والعديد من الجرذان الميتة في أقفاص، لقد نظرنا من النافذة.. كان

المنظر بشعًا، ثم استيقظ الرجل ورآنا، فانطلقنا أنا ونكو جريًا ورأينا هذا الجُرذ. أعتقد أنه كان قد هرب منه توًا. فالتقطته ووضعته في سترتي وانطلقنا نعدو، ثم خرج الرجل وصاح فينا لأننا أخذنا الجُرذ، لكنه لم يتمكن من اللحاق بنا، أليس كذلك يا نكو؟».

رد نكو، باعتباره الرجل الذي لا ينطق إلا بما قلّ ودلّ: «بلى».

ثم قالت چينا: «على أية حال، أعتقد أنه الجُرذ الرسول ومعه رسالة من أبي».

فقالت العمة زيلدا: «لا يمكن، الجُرذ الرسول كان بدينًا».

أطلق الجُرذ الذي كان في يد چينا صريرًا ضعيفًا معبرًا عن اعتراضه ثم قالت العمة زيلدا وهي تلكزه في ضلوعه: «وهذا الجُرذ أنحل من الشوكة، أعتقد أنك أحسنت صنعًا أن جئت به إلى هنا، أيًا كان هو».

وهكذا، وصل ستانلي أخيرًا إلى مقصده، بعد ستة أسابيع تقريبًا من يوم أن أرسله مكتب الجرذان في مهمته، واستطاع مثل كل الجرذان الرسل، أن يواصل رفع شعار مكتب الجرذان: «لا شيء يقف أمام الجُرذ الرسول».

لكن حالة ستانلي كانت أضعف من أن تمكنه من تسليم الرسالة التي يحملها، فظل ممددًا على الوسادة أمام النار في وهنٍ، بينما چينا أخذت تطعمه ثعبان بحر مهروسًا. ورغم أنه ليس من محبي ثعابين البحر، خاصة إن كان مهروسًا، فإن الأسابيع الستة التي قضاها حبيسًا في قفص لا يشرب إلا الماء، ولا يأكل شيئًا على الإطلاق، جعلت ثعبان البحر يبدو

بالنسبة له رائعًا. والأروع أنه وجد نفسه ممددًا على وسادة أمام النار بعد أن كان يرتعد من شدة البرد في قاع قفص قذر، حتى وإن كانت بيرت تنفر فيه خلسة عندما لا يراها أحد.

استخدمت مارشا أمر **تكلم أيها الجُرذ** بعد أن أصرت چينا على ذلك، لكن ستانلي لم ينبس بكلمة واحدة وظل ممددًا على الوسادة واهنًا لا يقوى على أي شيء.

وبعد مرور عدة أيام من وصول ستانلي دون أن ينطق بكلمة، قالت مارشا: «مازلت غير مقتنعة بأنه الجُرذ الرسول، فالجُرذ الرسول كان لا يكف عن الكلام، حسبما أتذكر، وكان معظم ما يتحدث به كلامًا فارغًا».

نظر ستانلي لمارشا مقطبًا لها جبينه تمامًا، لكن مارشا لم تلحظ ذلك.

قالت چينا بإصرار: «إنه هو يا مارشا، لقد ربيت العديد والعديد من الجرذان ومن السهل عليَّ التمييز بينها. وهذا الجُرذ بكل تأكيد هو الجُرذ الرسول الذي كان عندنا من قبل».

ومن ثم، أخذ الجميع ينتظرون بتوتر أن يتعافى ستانلي بالقدر الذي يمكنه من **توصيل** الرسالة التي ينتظرونها بفارغ الصبر من سايلاس. وكانت فترة عصيبة؛ إذ ارتفعت حرارة الجُرذ وراح يهلوس، وهو يهمهم لساعات وساعات بكلام غير مفهوم، كاد يقود مارشا إلى الجنون. أعدت العمة زيلدا له كمية هائلة من نقيع لحاء الصفصاف، وظلت چينا بصبر تطعمه بقطَّارة صغيرة، وبعد أسبوع طويل مضطرب انخفضت أخيرًا درجة حرارته.

وفي نهاية نهار أحد الأيام، بينما كانت العمة زيلدا في دولاب الجرعات وكان الباب موصدًا بالمفتاح عليها (ولقد اعتادت غلقه بالمفتاح منذ أن تلصص الفتى 412 عليه)، وكانت مارشا تحل بعض التعاويذ المبنية على أسس رياضية على مكتب العمة زيلدا، تنحنح ستانلي واعتدل جالسًا، وأخذ ماكسي ينبح، وهمست بيرت من الدهشة، لكن الجُرذ الرسول تجاهلهما..

إنه يحمل رسالة، ولا بد أن يوصلها.

30
رسالة لمارشا



سرعان ما وجد ستانلي نفسه محاطًا بجمهور ينتظر تعافيه بفارغ الصبر. فترك ستانلي الوسادة وهو يعرج، ثم وقف وأخذ نفسًا عميقًا، وقال بصوت مرتجف: «أولًا، يجب أن أسأل: هل يوجد هنا أحد يتحدث باسم مارشا أوفرستراند؟».

فقالت مارشا بنفاد صبر: «أنت تعلم أنني موجودة هنا».

قال الجُرذ الرسول: «هذا لا يمنع أنني لابد أن أسأل جلالتك، فهذا جزء من البروتوكول، لقد جئت إلى هنا لتوصيل رسالة إلى مارشا أوفرستراند؛ الساحرة العظمى السابقة».

شهقت مارشا قائلةً: «ماذا قلت؟ السابقة؟! ماذا يقصد هذا الجُرذ الغبي بقوله الساحرة العظمى السابقة؟».

فقالت العمة زيلدا: «اهدئي يا مارشا، انتظري حتى نرى ماذا لديه».

واصل ستانلي حديثه قائلًا: «لقد أُرسلت الرسالة في الساعة السابعة صباحًا»، ثم توقف كي يحسب عدد الأيام التي مرت منذ إرساله بالرسالة.. ولأنه جرذ رسول يحترف مهنته تمامًا، قام بتسجيل مدة بقائه حبيسًا داخل القفص بأن كان يخدش خطًّا عن كل يوم يمر عليه في الحبس على أحد قضبان القفص. ومن ثم، علم أنه مكث تسعة وثلاثين يومًا عند جاك المجنون، لكنه لا يعرف عدد الأيام التي قضاها يهلوس أمام النار في كوخ الحارسة، فواصل كلامه قائلًا: «إحم! منذ... منذ فترة طويلة، بالتوكيل من شخص يُدعى سايلاس هيب مقيم في القلعة...».

فقاطعه نكو متسائلًا: «ما معنى بالتوكيل؟».

دق الجُرذ برجله على الأرض بنفاد صبر؛ فهو لا يحب أن يقاطعه أحد، خاصة أنه كان قد مر على الرسالة وقت طويل ويخاف أن يكون قد نسيها. فراح يتنحنح بنفاد صبر، ثم قال: «الرسالة تبدأ كالتالي:

عزيزتي مارشا

أتمنى أن تكوني بخير. أنا بخير وموجود في القلعة. وسوف أكون شاكرًا لك لو قابلتني خارج القصر في أسرع وقت ممكن. لقد حدثت تطورات. سوف أكون موجودًا لدى بوابة القصر عند منتصف الليل كل يوم، إلى أن تحضري.

أتمنى لقاءك قريبًا

مع *أجمل التمنيات*

سايلاس هيب

انتهت الرسالة».

عاد ستانلي ليجلس مرة أخرى على الوسادة، وتنفس الصُّعداء، فلقد أنجز مهمته، ورغم أن المدة التي استغرقها لإنجاز مهمته قد تكون أطول مدة يستغرقها جرذ رسول، فإنه نجح في نهاية الأمر، وسمح لنفسه بأن يبتسم ابتسامة صغيرة، رغم أنه لا يزال في أوقات العمل.

خيم الصمت على الجميع لوهلة، ثم انفجرت مارشا قائلةً بغضب: «هكذا هو سايلاس، تمامًا كعادته! إنه حتى لا يبذل مجهودًا كي يعود قبل الصقيع الكبير، وبعد أن يتوصل أخيرًا لوسيلة يرسل لنا بها رسالة، لا يهتم حتى بأن يذكر شيئًا عن تعويذة **السلامة**. لقد يئست منه حقًا. كان يجب عليّ أن أذهب بنفسي».

سألت چينا بحماس: «لكن، ماذا حدث في موضوع سايمون؟ ولماذا لم يرسل أبي رسالة لنا أيضًا؟».

قال نكو بصوت أجش: «لا يبدو كأسلوب أبي بالمرة».

ردت مارشا وهي توافقه الرأي: «نعم، فالرسالة مهذبة أكثر من اللازم».

قالت العمة زيلدا في حيرة: «نعم، ربما لأنه وكل أحدًا بإرسال الرسالة».

فسأل نكو مرة أخرى: «ما معنى أنه وكل أحدًا؟».

«معناها أن هناك شخصًا آخر حل محله؛ شخصًا آخر هو الذي سلم الرسالة لمكتب الجرذان. فلابد أن سايلاس لم يكن في وسعه أن يذهب بنفسه، وهو أمر متوقع على ما أظن. لكن، ترى من هو ذلك الشخص الذي أوكله بإرسال الرسالة؟».

لم يتفوه ستانلي بكلمة، رغم علمه التام بأن الوكيل هو الأمين الأعلى. وعلى الرغم من أنه ما عاد جرذًا كاتم أسرار، فإنه لا يزال ملتزمًا بقانون مكتب الجرذان؛ مما يعني أن كل الأحاديث التي تدور في مكتب الجرذان تعد أحاديث في غاية السرية. لكن الجُرذ الرسول خالجه شعور غريب؛ فهؤلاء السحرة أنقذوه، وراعوه، وربما أيضًا أنقذوا حياته.. فأطرق برأسه ونظر في الأرض، وهو يقول في سره إن في الأمر شيئًا مريبًا، وهو لا يريد أن يكون جزءًا منه. إن هذه الرسالة من أولها إلى آخرها ليست سوى كابوسٍ حطَّ عليه.

ذهبت مارشا إلى المكتب وأغلقت الكتاب بعنف أحدث صوتًا مدويًا، ثم قالت بغضب: «كيف يجرؤ سايلاس أن يتجاهل شيئًا مهمًا مثل تعويذة **السلامة**؟ ألا يعلم أن محور عمل السحرة العاديين أن يخدموا السحرة العظماء؟ أنا لن أسكت على موقفه المتمرد أكثر من ذلك، وأنا مصرة على أن أعثر عليه، وحينها سوف ينال مني ما يستحقه».

فسألتها العمة زيلدا بهدوء: «مارشا، أليس في ذلك خطورة؟».

ردت مارشا مؤكدة: «أنا لا أزال الساحرة العظمى ولن يستطيع أحد أن يبعدني».

قالت العمة زيلدا بحكمة: «في رأيي، لا تقرري شيئًا الآن، فما يبيت نارًا يصبح رمادًا».

وفي وقت متأخر من تلك الليلة، كان الفتى 412 ممددًا في الضوء المتراقص الصادر عن النار، يستمع إلى غطيط نكو المرتفع وأنفاس چينا المنتظمة، لقد أيقظه غطيط ماكسي المرتفع الذي يتردد من خلال السقف. ورغم أن ماكسي فُرض عليه النوم في الغرفة السفلية، فإن هذا لم يمنعه من التسلل إلى الطابق العلوي ليمدد على سرير سايلاس، معتقدًا أنه سيستطيع الإفلات بتلك الفعلة. بل في واقع الأمر، كان الفتى 412 عندما يبدأ ماكسي غطيطه في الغرفة السفلية يدفعه ويساعده في الصعود إلى الغرفة العلوية. لكن في تلك الليلة، أدرك الفتى 412 أن هناك صوتًا آخر غير غطيط ماكسي الذي يبدو من صوته أن الكلب يعاني مشكلة في الجيوب الأنفية؛ إنه صوت صرير ألواح خشبية فوق رأسه لخطوات تتسلل خلسةً على درجات السلم؛ صرير الدرجة قبل الأخيرة من درجاته. لكن من هو ذلك الشخص أو ذلك *الشيء*؟ ووجد الفتى 412 نفسه يفكر في كل قصص الأشباح التي سمعها في حياته وهو يسمع هفيف ذيل عباءة على الأرض الحجرية. وأدرك أنه *أيًا كان* هذا الشخص، أو هذا *الشيء*، فلقد بات معه في نفس الغرفة.

اعتدل الفتى 412 ببطء وجلس، وقلبه يخفق بشدة، وأخذ يحدق إلى الظلام من حوله. كان هناك ظلٌ يتحرك متسللاً نحو الكتاب الذي تركته مارشا على المكتب. التقط الظل الكتاب ودسه في عباءته، ثم رأى الظل بياض عيني الفتى 412 وهما تحدقان به وسط الظلام.

وهنالك همست له مارشا قائلة: «إنه أنا»، ثم أشارت إليه بأن يأتي إليها، فانسلَّ بهدوء من تحت لحافه وتوجه إليها وهو يسير بحرص على الأرض الحجرية ليذهب إليها ويسمع ما تريده.

همست له مارشا وقد بدا عليها الغضب: «أنا لا *أفهم* كيف يُتوقع من أحد أن ينام في نفس الغرفة مع هذا الحيوان». ابتسم الفتى 412 بارتباك، ولم يذكر لها بالطبع أنه هو الذي دفع ماكسي للغرفة العلوية.

واصلت مارشا كلامها قائلة: «أنا عائدة الليلة. وسوف أستخدم **دقائق منتصف الليل**، فأنا أريد أن أتأكد من بعض الأمور. عليك أن تتذكر التالي، الدقائق السابقة والتالية لمنتصف الليل هي أفضل وقت **للسفر بأمان**، خاصة إن كان هناك من يتربصون بك ويريدون أن يضروك، وأنا لديَّ بعض الهواجس، سوف أذهب إلى بوابة القصر وأصطحب سايلاس بعيدًا عن هناك. ترى، كم هي الساعة الآن؟».

ثم أخرجت مارشا ساعتها.

وقالت: «الساعة الآن منتصف الليل إلا دقيقتين. لن أتأخر. ليتك تخبر زيلدا»، ثم نظرت إليه وتذكرت أنه لم ينطق بكلمة واحدة منذ أن ذكر رتبته ورقمه في برج السحرة، فقالت له: «لا بأس إن لم تقل لها شيئًا، فهي سوف تخمِّن أين ذهبتُ».

وفجأة، تذكر الفتى 412 أمرًا مهمًا.. فراح يفتش في جيب سترته، ثم أخرج التميمة التي أعطتها له مارشا عندما طلبت منه أن يكون تلميذها. أمسك الجناحين الصغيرين الفضيين في راحة يده ونظر فيهما بشيء من الندم.. ووجد الجناحين يبرقان بضوء فضي في ذهبي وسط الوميض

السحري الذي بدأ يحيط بمارشا، ثم مد يده ليعيدها إلى مارشا- بعد أن قال في سره إنه لا يجوز له الاحتفاظ **بالتميمة** أكثر من ذلك، بما أنه ليس هناك أي احتمال لأن يصبح تلميذها، لكن مارشا هزت له رأسها وانحنت إلى جواره، ثم همست له قائلة: «لا، فأنا لا يزال يحدوني الأمل في أنك ستغير رأيك وتقرر أن تكون تلميذي. فكّر في الموضوع أثناء غيابي. الساعة الآن منتصف الليل إلا دقيقة واحدة.. ارجع إلى الوراء».

بدأ الهواء حول مارشا يزداد برودةً، واجتاحت محيطها ذبذبات **لسحر** قوي ملأ الهواء بالشحنات الكهربائية. تراجع الفتى 412 للوراء إلى أن وصل بجانب المدفأة، وقد خالجه شعور بالخوف ممزوج بالانبهار. أغمضت مارشا عينيها وبدأت تهمهم بكلمات طويلة معقدة بلغة لم يسمعها من قبل، وبينما كان يراقب كل ذلك رأى نفس الغيمة **السحرية** التي رآها أول مرة يوم أن كان جالسًا على متن *موريبل* في قناة ديبن، ثم ألقت مارشا فجأة عباءتها فوق نفسها بحيث غطت جسمها من رأسها إلى أخمص قدميها.. فامتزج اللون الأرجواني للغيمة **السحرية** باللون الأرجواني للعباءة، ثم سمع همهمات مرتفعة كأنها قطرات مياه تقطر على سطح معدني ساخن، واختفت مارشا تاركة وراءها ظلًا خافتًا توارى بعد أن مكث لحظات قليلة.

لدى بوابة القصر، كانت الساعة قد تجاوزت العشرين دقيقة بعد منتصف الليل، وكانت فصيلة من الحراس في نوبة عملهم، تمامًا مثل الليالي الخمسين الماضية ببردها القارس. كاد الحراس أن يتجمدوا من شدة البرد وكانوا يتوقعون ليلة أخرى طويلة ومملة لا يفعلون فيها شيئًا

سوى ضرب الأرض بأقدامهم وتسلية الأمين الأعلى الذي ظل يراوده هاجس يحدثه بأن الساحرة العظمى السابقة سوف تظهر فجأة، هكذا بمنتهى البساطة. وبالطبع، لا هي عادت، ولا هم يتوقعون ذلك أصلًا. ومع ذلك، ظل الأمين الأعلى يرسلهم كل ليلة للانتظار في الخارج حتى تتجمد أصابع أقدامهم وتتحول إلى قوالب ثلجية.

ولذلك، عندما بدأ ظل أرجواني خافت يظهر بينهم لم يصدق أحد من الحراس ما يراه أمامه فعلًا.

همس أحدهم، وقد تملكه خوف من **السحر** الذي ظهر فجأة في الأجواء، وهو يلف ويدور مثل الدوامة مرسلًا شحنات كهربائية غير مريحة اخترقت خوذاتهم المعدنية السوداء قائلًا: «إنها هي». شهر الحراس سيوفهم وأخذوا يراقبون الظل الضبابي وهو يستعيد هيئته متحولًا إلى شخص الساحرة العظمى بعباءتها الأرجوانية التي تلف جسدها.

وهكذا **ظهرت** مارشا أوفرستراند وسط الفخ الذي أعده لها الأمين الأعلى. لقد أُخذت على حين غرة، ولأنها بدون تعويذة **السلامة** وبلا حماية **دقائق منتصف الليل** - بما أنها تأخرت عشرين دقيقة - لم يكن في وسعها أن توقف كبير الحراس من أن ينتزع تميمة «آخو» من عنقها.

وبعد عشر دقائق، كانت مارشا ملقاة في قاع الزنزانة رقم واحد، وهي مدخنة عميقة سوداء دفنت مع أساسات القلعة. وقبعت في ذهول تام، محاصرة في فخ **دوامة الأرواح والأشباح** التي أعدها دومدانيال خصيصًا لها بغاية السعادة والابتهاج؛ إنها أسوأ ليلة في حياتها. وهكذا، باتت

مارشا ملقاة لا حول لها ولا قوة في حوض من الماء القذرة، مستندة إلى كومة من عظام نزلاء الزنزانة السابقين، تتعذب وتتألم بنُواح وصراخ الأرواح والأشباح وهي تلف وتدور في دوامة حولها وتسحب منها قوتها السحرية. وحتى صباح اليوم التالي، عندما ضل أحد الأشباح القدماء طريقه، ولحسن الحظ مر مصادفةً من خلال جدار الزنزانة رقم واحد، لم يكن أحد يعرف مكانها فيما عدا دومدانيال والأمين الأعلى.

هذا الشبح أحضر لها ألثر، لكن ألثر لم يكن في وسعه سوى أن يجلس إلى جوارها ويشجعها على الصمود وبقائها على قيد الحياة، وكان ألثر يحتاج أن يستجمع كل وسائله في الإقناع؛ لأن مارشا كانت في حالة يُرثى لها، وأدركت أنها في نوبة غضب من سايلاس خسرت كل ما كان ألثر يحارب من أجله عندما أطاح بدومدانيال، وعادت تميمة «أخو» مرة أخرى تحيط بعنق دومدانيال السمين، وبات هو الآن، وليس مارشا أوفرستراند، الساحر الأعظم الفعلي.

31
عودة الجُرذ



لم يكن *لدى العمة زيلدا* ساعة محمولة أو ساعة حائط. فالساعات المحمولة في كوخ الحارسة لم تكن مضبوطة قطُّ فالاضطرابات تحت سطح الأرض عديدة. وللأسف، لم يخطر على بال العمة زيلدا أن تذكر ذلك لمارشا؛ فالعمة زيلدا لا يهمها معرفة الوقت بالتحديد، وتكتفي عندما تريد ذلك بالنظر في الساعة الشمسية آملةً ألا يكون هناك غيوم تحجب الشمس، لكنها كانت تهتم أكثر بدورة القمر.

ويوم أن تم إنقاذ الجُرذ الرسول، كانت العمة زيلدا قد أخذت حِينا في جولة حول الجزيرة بعد أن حلَّ الظلام، كانت الثلوج عميقة كالعادة

تغطيها طبقة من الصقيع من فرط هشاشتها مكنت چينا من الجري بغاية الخفة على سطحها، رغم أن العمة زيلدا كانت تغطس فيها بحذائها الطويل. وصلنا إلى نهاية الجزيرة، بعيدًا عن أضواء الكوخ، وأشارت العمة زيلدا لچينا إلى سماء الليل المظلمة التي كانت ترصعها في تلك الليلة مئات الآلاف من النجوم اللامعة، لم يسبق لچينا أن رأت مثل كل هذا الحشد من قبل.

قالت لها العمة زيلدا: «الليلة هي ليلة ظلمة القمر».

شعرت چينا برعشة تسري في جسدها، ليس بسبب البرد القارس فحسب، بل من ذلك الإحساس الغريب الذي اعتراها وقد وجدت نفسها تقف في الهواء الطلق على الجزيرة وسط كل هذا الفضاء بنجومه وظلامه.

واصلت العمة زيلدا كلامها قائلة: «فالليلة، مهما تحاولي، فلن تستطيعي أن تشاهدي القمر، لا أحد على سطح الأرض سيرى القمر الليلة، وهي ليلة لا يجوز لأحد أن يجازف فيها بالخروج وحده في المستنقع. ورغم أن كل الكائنات والأرواح التي تعيش في المستنقع متجمدة أسفل سطح الأرض ونحن في مأمن منها الآن، فإننا مكثنا داخل الكوخ مستخدمين تعويذة **غلق الأبواب**. لكن خطر على بالي أنك قد تحبين مشاهدة النجوم في غياب نور القمر.. فأمك كان يروقها دائمًا مراقبة النجوم».

إزدردت چينا وقالت: «أمي؟ أتقصدين أمي التي ولدتني؟».

ردت العمة زيلدا عليها قائلة: «نعم، أقصد الملكة؛ فقد كانت تعشق النجوم؛ ولذلك فكرت في أنكِ أنت أيضًا ستعشقينها».

فقالت چينا: «أنا بالفعل أعشقها، ولقد اعتدت دائمًا أن أعدها من نافذتي كلما وجدت نفسي عاجزة عن النوم.. لكن، كيف تعرفين أمي؟».

ردت العمة زيلدا: «لقد اعتدت أن أراها كل عام، إلى أن... إلى أن تغيرت الأمور، كما أنني كنت أرى والدتها، جدتك الرائعة، كل عام أيضًا».

أم.. وجدة، بدأت چينا تدرك أن لديها عائلة كاملة لا تعرف شيئًا عنها. لكن العمة زيلدا بشكل أو بآخر تعرف.

فقالت لها چينا بهدوء، بعد أن تجرأت أخيرًا أن تطرح السؤال الذي ظل يزعجها منذ أن علمت هويتها الحقيقية: «عمة زيلدا».

فردت عليها العمة زيلدا وهي تنظر عبر أنحاء المستنقع: «أممم!!»

«لكن، ماذا عن أبي؟».

«أبوك؟ ياه! إنه كان من البلاد البعيدة، ورحل قبل مولدك».

«رحل؟».

ردت العمة زيلدا بشكل غامض: «لقد كان لديه مركب، وخرج به لجلب شيء ما، وعاد من رحلته إلى الميناء بعد ولادتك مباشرة بسفينة محملة بالكنوز ليهديها لك ولوالدتك، حسبما سمعت. لكن عندما أعلموه بالخبر البشع، رحل مبحرًا مع المد التالي».

فسألتها چينا: «ما اسمه؟».

ولأن العمة زيلدا- شأنها شأن معظم الناس، لا تهتم كثيرًا بهوية زوج الملكة، حيث إن خلافة العرش تمر من الأم إلى الابنة، ويُترك الرجال في العائلة الملكية يعيشون حياتهم كما يشاءون- فقد ردت عليها قائلة: «ليس لديَّ أدنى فكرة».

ثمة شيء، في نبرة صوت العمة زيلدا استرعى انتباه چينا، فتركت النجوم التي كانت تنظر إليها والتفتت تنظر إليها. علتها دهشة؛ لكونها لم تلحظ من قبل عيني العمة زيلدا، لكنها لاحظت الآن أن هاتين العينين ذواتي اللون الأزرق الفاتح بنظراتهما الثاقبة التي تميز الساحرات البيضاوات - تنظران بعمق وسط ظلام الليل، يصدر عنهما وميض مع نظراتها المستغرقة بعيدًا في آفاق المستنقع، ثم قالت العمة زيلدا فجأة: «هيا بنا. لقد حان الوقت كي تعود الآن».

«لكن...».

«سوف أحكي لكِ المزيد في الصيف- في الوقت الذي اعتدن أن يحضرن فيه- أي في منتصف الصيف، كما أنني سأصطحبك إلى هناك أيضًا».

سألتها چينا: «أين ذلك؟ إلى أين ستصطحبينني يا عمة زيلدا؟».

قالت العمة زيلدا: «هيا بنا، أنا لا يعجبني منظر ذلك الظل هناك».

وأمسكت العمة زيلدا يد چينا وانطلقتا مسرعتين على الثلوج عائدتين إلى الكوخ. وتوقف حيوان وشق مفترس كان يقوم خلسة بمطاردة واستدار ومضى بعيدًا؛ فلقد كان أضعف من أن ينطلق في مطاردة الآن. لكن لو كان ذلك حدث منذ يومين، لأمكن له أن يتناول وجبة دسمة

تجعله يصمد فترة الشتاء، لكنه انسلَّ عائدًا إلى فجوته الثلجية وأخذ يمضغ بوهنٍ آخر جُرذ متجمد لديه.

بعد أن مر القمر بمرحلة الظلمة، بدا في السماء الليلة التالية القمر هلالًا صغيرًا، وظل كل ليلة متوالية يكبر قليلًا.. كما أن السماء أصبحت صافية بعد أن توقف تساقط الثلوج، وكانت چينا تراقب القمر كل ليلة من نافذتها، بينما أخذت **الحشرات المدرعة** تتحرك حالمة في **برطمانات الوقاية**، منتظرة لحظة تحررها.

قالت العمة زيلدا لچينا: «واصلي مراقبته، فكلما ازداد القمر، جذب الأشياء من الأرض، والكوخ يجذب من يتمنى حضورهم، وأقوى جذب له يحدث عندما يكون القمر بدرًا، وهو الوقت الذي جئتم فيه».

لكن مارشا تركتهما في الوقت الذي كان القمر قد اكتمل حتى ربعه، وهو ما جعل چينا تسأل العمة زيلدا صباح اليوم الذي اكتشفتا فيه رحيل مارشا: «لماذا إذن رحلت مارشا؟ كنت أظن أن الأشياء تعود أثناء المراحل التي يكبر فيها القمر، لا أن ترحل».

بدت العمة زيلدا غاضبة بشكل ما من سؤال چينا. فلقد غضبت من مارشا عندما باغتتهما برحيلها المفاجئ، كما أنها لا تحب أن يعبث أي أحد بنظرياتها عن القمر أيضًا.

فردت على چينا قائلة بغموض: «أحيانًا لا بد للأشياء أن ترحل كي تعود مرة أخرى»، ثم توجهت إلى دولاب الجرعات بخطوات عنيفة ودخلته وأغلقت الباب بالمفتاح وراءها بإحكام.

نكو نظر إلى چينا نظرة متعاطفة، ثم لوح لها بزحاليقها.

وقال بابتسامة عريضة: «نتسابق إلى المستنقع الكبير».

ضحكت چينا وقالت له: «آخر من يصل إليه منا نسميه جرذًا ميتًا».

استيقظ ستانلي فزِعًا على كلمة «جرذًا ميتًا»، وفتح عينيه في اللحظة التي كان نكو وچينا يخطفان فيها الزحاليق ثم اختفيا بعد ذلك طوال اليوم.

ومع مرور الوقت اكتمل القمر وصار بدرًا، لكن مارشا لم تعد بعد، وبدأ القلق ينتاب الجميع.

قالت العمة زيلدا: «لقد نصحت مارشا بأن تتجاهل الأمر، لكن كلامي لم يعجبها، وراحت تشحن نفسها ضد سايلاس. وبدون أن تفكر، رحلت في منتصف الليل، ولم تطمئننا حتى اليوم. إن الموقف سيئ جدًا. وإن كنت أستطيع أن أتفهم لماذا لم يعد سايلاس حتى الآن، بما أن الصقيع الكبير يمكن أن يمنعه، لكن وضع مارشا مختلف والصقيع لن يمنعها».

فجازفت چينا وقالت: «ربما ستعود الليلة، بما أن القمر اكتمل وأصبح بدرًا».

لم تعد مارشا تلك الليلة.. وقضتها كما قضت الليالي العشر السابقة، في وسط **دوامة الأرواح والأشباح**، قابعة بوهن في بركة الماء القذرة في قاع الزنزانة رقم واحد، بينما جلس إلى جوارها ألثر ميلا، مستخدمًا كل ما في وسعه من السحر الشبحي ليساعده في بقائها على قيد الحياة، فسجناء الزنزانة رقم واحد نادرًا ما يتحملون السقوط فيها ويموتون، وإن عاشوا فلن

يدوم بقاؤهم على قيد الحياة طويلًا، فسرعان ما سيغرقون أسفل المياه القذرة لينضموا إلى طائفة العظام الملقاة تحت سطحها.. ولولا مساندة ألثر لانتهى الأمر بمارشا إلى نفس المصير.

في تلك الليلة- ليلة اكتمال القمر- وبعد أن غربت الشمس وظهر القمر في السماء، التفّت چينا والعمة زيلدا ببعض الألحفة وأخذتا تنظران من النافذة، تنتظران عودة مارشا، ثم سرعان ما استغرقت چينا في النوم. بينما ظلت العمة زيلدا تنظر من النافذة حتى شروق الشمس وضاع أي أمل في عودة مارشا مع اختفاء البدر.

وفي صباح اليوم التالي، قرر الجُرذ الرسول أنه استعاد قوته بالقدر الذي يمكنه من الرحيل؛ فكل شيء له حدود، وكذلك تناول ثعبان البحر المهروس، فهو ما عاد يحتمل أكثر من ذلك - هكذا حدَّث نفسه.

لكنه لا يستطيع أن يرحل إلا إذا تلقى أمرًا بتوصيل رسالة أخرى أو إذا تُرِك ليرحل بلا رسالة. ومن ثم، تنحنح بأدب صباح ذلك اليوم وقال: «بعد إذنكم جميعًا». فالتفت إليه الجميع مندهشين؛ فستانلي طوال فترة تعافيه كان في غاية الهدوء، ولم يعتادوا سماعه يتحدث.

واصل كلامه قائلًا: «لقد حان وقت العودة إلى مكتب الجرذان، لقد تأخرت بالفعل، لكن لابد أن أسأل أولًا: هل تحتاجون أن أحمل منكم رسالة؟».

فقالت چينا: «إلى أبي! احمل رسالة إلى أبي!».

فسأل الجُرذ: «ومن أبوك؟ وأين يمكنني أن أجده؟».

قالت العمة زيلدا بحدة: «لا تعلم مكانه، وليس لدينا رسالة تحملك بها.. شكرًا أيها الجُرذ الرسول. أنت حر الآن».

رد قائلًا: «أشكرك يا سيدتي، أحم، أشكركم على حسن أخلاقكم جميعًا. أنا في غاية الامتنان»

ثم تركهم وأخذ الجميع يراقبونه وهو ينطلق جريًا على الثلوج مخلفًا وراءه آثار أرجله الصغيرة وآثار ذيله.

قالت چينا بلهفة: «كنت أتمنى لو كنا أرسلنا رسالة».

أجابتها العمة زيلدا قائلة: «هكذا أفضل، هناك شيء مريب في هذا الجُرذ، شيء مختلف عن المرة السابقة».

رد نكو محددًا ذلك: «نعم، لقد أصبح نحيلًا».

قالت العمة زيلدا وهي تهمهم: «همممم.. هناك شيء مريب في الأمر، أشعر بذلك».

كانت رحلة عودة ستانلي إلى القلعة موفقة، ولم تبدأ المتاعب إلا عندما وصل إلى مكتب الجرذان.. صعد عَدْوًا ماسورة الصرف التي ذابت بها المياه قريبًا ودق على باب المكتب.

وبعنف، أجاب الجُرذ الأسود الذي عاود العمل توًا بعد أن تأخر مكتب الجرذان في إنقاذه من الصقيع الكبير، وقال: «ادخل!».

دخل الجُرذ على استحياء، مدركًا تمامًا أنه سيُطالب بتبرير موقفه.

انطلق صوت الجُرذ الأسود كالرعد قائلًا: «أنت! أخيرًا! كيف تجرؤ على أن تسخر مني؟ أتدرك كم طالت مدة غيابك؟».

فغمغم ستانلي قائلًا: «ش... شهرين»، فهو بلا شك يدرك تمامًا أن مدة غيابه طالت أكثر من اللازم، وبدا يتساءل في سره: ماذا ستقول له داوني عن ذلك.

صاح الجُرذ الأسود وهو يضرب بذيله على المكتب بغضب: «شهرين *يا سيدي*! أتدرك كيف أنك بفعلتك هذه جعلتني أبدو في *غاية الحمق*؟».

لم يرد ستانلي، لكن ذلك أسعده وقال في سره إنه على الأقل خرج من رحلته المروعة هذه ببعض المكاسب.

ثم قال له الجُرذ الأسود بصوت عالٍ وحاد: «سوف تدفع ثمن ذلك غاليًا، وأنا بنفسي سوف أمنعك من أن تتولى أي عمل آخر طوال مدة خدمتي هنا».

«لكن...».

صرخ الجُرذ الأسود في وجهه قائلًا: «لكن *يا سيدي*. ألا تفهم أبدًا؟ تخاطبني بيا سيدي!».

صمت ستانلي ولم يرد. كان هناك العديد من الألفاظ التي قد تخطر على باله ليخاطب بها الجُرذ الأسود، إلا أنها جميعًا لم تكن تشمل لقب «سيدي». وفجأة، أدرك ستانلي أن هناك شيئًا وراء ظهره، فالتفت ليجد نفسه يُحدق إلى أضخم جرذَيْن مفتولي العضلات رآهما في حياته، وقد وقفا رابضين على مدخل باب المكتب يهددانه ويتوعدانه، ويمنعان عنه الضوء وأي فرصة للهرب، وهي الفكرة التي راحت تلح عليه فجأة.

أما الجُرذ الأسود فقد بدا عليه الابتهاج برؤيتهما.

وقال: «عظيم. لقد وصل الفتيان. خذاه من هنا».

قال ستانلي مذعورًا: «إلى أين؟ أين ستذهبان بي؟».

رد الجُرذ الأسود وهو يصر على أسنانه: «أين.. ستذهبان. بي..

يا سيدي.. إلى الوكيل الذي أرسل هذه الرسالة في الأصل. إنه يريد أن يعرف أين الطرف الذي استقبل منك الرسالة بالتحديد. ولكونك لم تعد الآن كاتم أسرار، فسوف تضطر بالطبع لأن تخبره.

«اصطحباه إلى الأمين الأعلى».

32
الذوبان الكبير



في اليوم التالي من رحيل الجُرذ الرسول، حل الذوبان الكبير. وأول ما بدأ به كان مستنقعات مرام؛ حيث إن طقسها دائمًا أدفأ قليلًا من أي مكان آخر، ثم زحف على النهر مرورًا بعد ذلك بالغابة وأخيرًا بالقلعة؛ وهو ما أسعد الجميع في القلعة، فلقد نفدت مواردهم الغذائية بعد أن نهب جيش الأمناء العديد من المخازن الشتوية لتوفير المكونات اللازمة لإعداد ولائم دومدانيال المتكررة.

كما أن الذوبان الكبير أسعد جرذًا بعينه من الجرذان الرسل، كان يرتعد في حزن وكآبة في مصيدة جرذان تحت أرضية غرفة السيدات.

فلقد تُرك ستانلي في هذا المكان لرفضه البوح بمكان كوخ العمة زيلدا، وأُخفي عنه أن الصياد أنجز هذه المهمة عن طريق ما ذكره سايمون هيب للأمين الأعلى، كما أُخفي عنه أن لا أحد ينوي إطلاق سراحه. رغم أن طول المدة التي قضاها ستانلي حبيسًا كان من المفترض أن تجعله يتكهن بذلك. بذل الجُرذ الرسول قصارى جهده حتى يبقى على قيد الحياة؛ فكان يأكل كل ما يستطيع أن يصطاده، وشمل ذلك أساسًا العناكب والصراصير، كما كان يلعق قطرات المياه التي كانت تتساقط من ماسورة الصرف بعد أن بدأ الماء المتجمد فيها يذوب، حتى وجد نفسه يتحسر على الأيام التي قضاها عند جاك المجنون. في ذلك الوقت، كانت داوني قد يئست من انتظار عودته، وذهبت لتقيم مع أختها.

أما مستنقعات مرام، فقد غمرتها المياه الآن نتيجة سرعة ذوبان الثلوج، وسرعان ما بدأت الأعشاب الخضراء تنبثق على سطح الأرض، وباتت التربة ثقيلة ومبللة. ورغم أن آخر الثلوج التي ذابت كانت ثلوج قناة الغِمد والقنوات الأخرى، فقد بدأت أفعى المستنقع تشعر بارتفاع درجة حرارة الطقس، وبدأت تتحرك قليلًا، وهي تضرب بذيلها بنفاد صبر وتمط ضلوعها المتيبسة، وظل الجميع في الكوخ ينتظرون وهم يحبسون أنفاسهم لحظة تحرر الأفعى العملاقة من أسرها، لا يعلمون تمامًا حالة الجوع والغضب التي ستخرج عليها، ولضمان عدم خروج ماكسي من الكوخ، ربطه نكو في رِجْل المائدة بحبل متين، فما ساوره شك في أن

الكلاب الذئبية الطازجة سوف تأتي على رأس قائمة الطعام المفضل لأفعى المستنقع متى تحررت من سجنها الثلجي.

وفي ظهيرة اليوم الثالث للذوبان الكبير، حدث ما كان متوقعًا وسُمع صوت طقطقة مدوية! انشقت على إثرها الثلوج التي تعلو رأس الأفعى وانتثرت في الهواء، ثم شبت الأفعى عاليًا، مقوسة جسمها للخلف، واحتمت جينا التي كانت وحدها هناك، خلف مركب الدجاج. ألقت الأفعى نظرة في اتجاه جينا، ولكن لم يرُقها أن تجد نفسها تمضغ بين ما تمضغ حذاء طويلًا.. ومن ثم، انطلقت بجسمها الموجَع متحركة ببطء في قناة الغِمد، إلى أن وجدت طريقًا للخروج. وعندئذ، وقعت الأفعى العملاقة في مأزق وتوقفت عن الحركة؛ حيث وجدت نفسها محشورة في دائرة مغلقة، وعندما حاولت أن تنحني بجسمها وتلف في الاتجاه المعاكس، فشلت فشلًا ذريعًا، وكل ما كان في وسعها أن تفعله هو الدوران والدوران في محيط القناة. وكلما حاولت أن تنعطف وتدخل في القناة التي تقودها للخروج إلى المستنقع كانت عضلاتها لا تطاوعها.

ظلت الأفعى لأيام ممددة في قناة الغِمد، وهي تطبق فكيها فجأة على الأسماك وتنظر شزرًا لكل من يقترب منها.. وهو ما لم يجرؤ أحد على أن يكرره بعد أن أخرجت لسانها الطويل المسنن وضربت به الفتى 412 وقذفته بعيدًا. وأخيرًا، ظهرت شمس أوائل الربيع صباح أحد الأيام فدب الدفء في جسمها؛ مما جعل عضلاتها المتيبسة تكتسب بعض مرونتها، وأخذت تسبح باحثةً عن الماعز بجسم موجَع، يُصدر صريرًا كأنه باب علاه الصدأ. ويومًا بعد يوم، اكتسبت مرونة

شبه كاملة، ولكن لم تصل لمرونتها الكاملة. وفي أواخر أيامها، كانت أفعى المستنقعات تميل لأن تسبح جهة اليمين.

عندما بدأ الذوبان الكبير يحل بالقلعة، أبحر دومدانيال في اتجاه منبع النهر مع كائني المأجوج ووصلوا إلى الغدير البارد. وفي سكون ظلام الليل الدامس هناك، عبر الكائنات الثلاثة لوحًا خشبيًا ضيقًا ومتعفنًا، وصعد دومدانيال على متن سفينته الشريرة *انتقام*، ومكثوا هنالك بضعة أيام ينتظرون ارتفاع المد الذي يحتاج إليه دومدانيال كي تطفو سفينته وتخرج من القناة.

أما الأمين الأعلى، فلقد دعا صباح يوم بداية الذوبان الكبير لعقد اجتماع لمجلس الأمناء، ولم يُدرك أنه في اليوم السابق نسي أن يوصد باب غرفة السيدات بالمفتاح. وفي ذلك اليوم، يوم بداية الذوبان، كان سايمون يجلس منتظرًا زيارة منتصف النهار المعتادة التي يقوم بها الأمين الأعلى، وقد بات يُترك بدون أن يُسلسَل في الماسورة منذ أن بدأ الأمين الأعلى يتعامل معه كرفيق لا أسير، وكان سايمون يروق له الاستماع إلى القيل والقال حول أوامر دومدانيال غير المعقولة وإلى نوبات الغضب التي تجتاحه، وشعر بالإحباط عندما لم يحضر الأمين الأعلى في موعده المعتاد، لكن سايمون لم يكن لديه علم بأن الأمين الأعلى- الذي بدأ يشعر مؤخرًا بملل من صحبته- كان في تلك اللحظة يدبر وهو في غاية المرح والابتهاج ما أطلق عليه دومدانيال «عملية دمج أسرة هيب في

الخطة»، والتي تشمل التخلص ليس فقط من جينا لكن من أسرة هيب بأسرها، بما في ذلك سايمون.

بعد قليل، توجه سايمون- من باب الملل وليس بقصد الهرب، نحو الباب يجرب فتحه. ولدهشته، انفتح الباب، ووجد نفسه ينظر في طرقة خالية من المارة. انتفض سايمون للخلف ودخل الغرفة من جديد وصَفَق الباب على الفور في هلع. إنه لا يعرف ماذا يفعل. أينبغي عليه أن يهرب؟ أيهرب؟ لكن، هل يريد فعلًا الهرب؟

استند بظهره إلى الباب وبدأ يعيد التفكير في وضعه، فوجد أن السبب الوحيد الذي يدفعه للبقاء، هو العرض المبهم الذي عرضه عليه الأمين الأعلى بأن يكون تلميذ دومدانيال، وهو عرض لم يكرر ذكره مرة أخرى، كما أن سايمون تعلم الكثير من الأمين الأعلى في الأسابيع الستة التي قضاها في غرفة السيدات؛ على رأسها ألا يثق في أي شيء يقوله الأمين الأعلى، يلي ذلك رعاية مصلحة أهم شخص عندك. ومن الآن فصاعدًا، أصبح أهم شخص في حياة سايمون هيب هو بلا شك سايمون هيب نفسه.

فتح سايمون الباب ثانيةً، وكانت الطرقة لاتزال خالية، فاتخذ قراره وانطلق خارجها مسرعًا بخطوات واسعة.

كان سايلاس يسير هائمًا في طريق السحرة بأسى، ينظر إلى نوافذ المحال والمكاتب المتسخة التي تصطف على جانبي الطريق، وهو يتساءل في سره عما إذا كان هناك احتمال أن يكون سايمون سجينًا في

مكان ما في الفجوات المظلمة خلفها. مر عليه فصيلة من الحراس تسير مسرعة بخطواتها العسكرية، فتراجع سايلاس يحتمي بمدخل أحد الأبواب، وهو يقبض بقوة على تعويذة السلامة الخاصة بمارشا، آملًا ألا تكون قد فقدت مفعولها.

ثم سمع همسًا ينادي عليه: «بس».

فانتفض مفزوعًا، ثم رأى ألثر أمامه، فلقد باتت رؤيته نادرة في الأونة الأخيرة، بما أنه يقضي معظم الوقت مع مارشا في الزنزانة رقم واحد.

همس له سايلاس: «كيف حال مارشا اليوم؟».

رد ألثر بابتسامة عريضة علت وجهه: «لقد تحسنت حالتها».

قال سايلاس: «أعتقد فعلًا أننا لا بد أن نخبر العمة زيلدا».

رد ألثر قائلًا: «خذ بنصيحتي ولا تقترب من مكتب الجرذان هذا، لقد استولى عليه جرذان دومدانيال القادمة من أرض الأشرار. إنها طائفة من الطَّغام.. لا تقلق، سوف أفكر في طريقة، لابد أن هناك طريقة نستطيع أن نخرجها بها».

بدا على سايلاس الإحباط والحزن؛ لقد افتقد مارشا كثيرًا رغم أنه لا يحب أن يقر بذلك.

قال ألثر: «هوِّن عليك يا سايلاس. معي شخص ينتظرك في الحانة. وجدته يحوم حول دار القضاء بينما كنت في طريق عودتي من عند مارشا. من الأفضل أن تسرع قبل أن يغير رأيه وينطلق مرة أخرى. إنه يُحسن الخداع فعلًا ابنك سايمون هذا».

فتحوَّل البؤس الذي كان يرتسم على وجه سايلاس إلى ابتسامة عريضة وهتف: «سايمون؟ لماذا لم تقل لي فور وصولك؟ أهو بخير؟».

قال ألثر موجزًا: «يبدو كذلك».

عاد سايمون إلى أسرته ومر نحو أسبوعين على وجوده معهم، وفي اليوم السابق لاكتمال القمر وقفت العمة زيلدا على عتبة باب الكوخ تنصت لصوت بعيد.

كان نكو والفتى 412 يتعاركان بعصي بعض المكانس حينها، فقالت لهما: «يا أولاد، يا أولاد، ليس الآن، أريد أن أركز».

أوقف نكو والفتى 412 معركتهما بينما سكنت العمة زيلدا تمامًا وعيناها تنظران في الأفق بعيدًا.

بعد قليل، قالت: «هناك شخص قادم، سوف أُرسل الغول ليتقصَّى الأمر».

فقالت جينا: «أخيرًا! ترى، أهو أبي أم مارشا، أو ربما جاءا معًا ومعهما سايمون؟ أو ربما أنها أمي، أو ربما جاءوا جميعًا معًا؟».

انتفض ماكسي وراح يقفز فوق جينا، وذيله يهتز يمينًا يسارًا في جنون؛ فماكسي يبدو في بعض الأحيان وكأنه يفهم تمامًا كلام جينا، فيما عدا عندما تقول له شيئًا مثل «وقت الاستحمام يا ماكسي!» أو «لن تأخذ مزيدًا من البسكويت يا ماكسي!».

قالت العمة زيلدا لماكسي وهي تفرك له أذنيه الناعمتين: «اهدأ يا ماكسي. المشكلة أن ذلك الصوت لا يبدو لشخص أعرفه».

فقالت چينا: «لكن من غيرهم يعرف مكاننا هنا؟».

ردت العمة زيلدا: «لا أعلم، لكن أيًا كان ذلك الشخص، فهو الآن في المستنقعات، ولقد وصل توًا. أشعر بذلك. اذهب وتمدد يا ماكسي. كن مهذبًا. لكن أين الغول الآن؟».

أطلقت العمة زيلدا صفارة مدوية.. فاندفع الكائن البني الممتلئ من قناة الغِمد وسار متبخترًا على الممشى المؤدي إلى الكوخ.

ثم قال متذمرًا، وهو يفرك أذنيه الصغيرتين المستديرتين: «لا داعي لهذا الصوت المدوي، لقد خرق أذني»، ثم أومأ لچينا برأسه وقال لها: «مساء الخير يا آنسة».

ابتسمت له چينا وقالت: «مرحبًا أيها الغول»؛ فالغول يجعلها دائمًا تبتسم.

قالت العمة زيلدا: «أيها الغول، هناك شخص قادم من المستنقعات، ربما أكثر من شخص، لست متأكدة. هل تستطيع أن تنطلق مسرعًا لتتبين لنا الأمر؟».

رد الغول قائلًا: «ليس هناك مشكلة، غطس واحد ولن أتأخر»، أخذت چينا تراقبه وهو يتجه إلى قناة الغِمد متبخترًا ويغطس في المياه بلا صوت.

ثم قالت العمة زيلدا: « أثناء انتظارنا عودة الغول، ينبغي علينا أن نعد **برطمانات الوقاية** تحسبًا لأي شيء».

فقالت چينا: «لكن أبي قال إنك **سحرت** الكوخ بعد غارة الجنيات الصغيرة السمراء، ألا يعني ذلك أننا في أمان؟».

ردت العمة زيلدا قائلة: «في مأمن من الجنيات الصغيرة السمراء فقط. وحتى هذا السحر بدأ مفعوله يزول. على أية حال، فإن القادم عبر المستنقعات أيًا كان يبدو أكبر بكثير من الجنيات الصغيرة السمراء بالنسبة لي».

ذهبت العمة زيلدا لتبحث عن كتاب تعاويذ *الحشرات المدرعة الواقية*.

بينما أخذت چينا تنظر إلى **برطمانات الوقاية** التي كانت لا تزال مصطفة على أطر النوافذ. كانت الحشرات المدرعة داخل المادة اللزجة الخضراء منتظرة، معظمها كان نائمًا، وبعضها كان يتحرك ببطء وكأنها تعلم أن ثمة احتمالًا للحاجة إليها. وقالت چينا في سرها، ترى، لمواجهة من؟

ثم ظهرت العمة زيلدا ومعها كتاب التعاويذ وألقته على المائدة قائلة: «هذا هو ما نحتاج إليه الآن»، وفتحت الكتاب على أول صفحة وأخذت منه مطرقة فضية صغيرة، وناولتها لچينا.

ثم قالت لها: «عظيم، فهذا هو الذي **سينشطها**. لو سمحت يا چينا، اذهبي هناك **ودقي** على كل برطمان بهذا، وبذلك سوف تصبح **جاهزة**».

أخذت چينا المطرقة الفضية وذهبت إلى صفوف البرطمانات وبدأت تدق على غطاء كل منها. وبينما كانت تفعل ذلك، كان ساكن كل **برطمان** يستيقظ ويتأهب على الفور، ولم يمضِ وقت طويل حتى كان هناك جيش يتألف من ست وخمسين حشرة مدرعة ينتظر أن يتم إطلاق سراحه، ووصلت چينا إلى آخر برطمان، وهو البرطمان الذي يحتوي على

الدودة الألفية السابقة، ودقت على الغطاء بالمطرقة الفضية. ولدهشتها، طار الغطاء، وانطلقت الحشرة المدرعة من البرطمان وسط فيض متناثر من المادة اللزجة الخضراء.. وهبطت على ذراع چينا.

صرخت چينا.

جثمت الحشرة المدرعة على ساعد چينا، شاهرة سيفها، بينما وقفت چينا متسمرة في مكانها، متوقعة أن تلتف الحشرة وتهاجمها، ناسية تمامًا أن مهمة الحشرة الوحيدة هي أن تدافع عن محررها ضد الأعداء، وهو ما انشغلت الحشرة بحثًا عنه.

كانت القشور الخضراء المدرعة للحشرة تتحرك بانسيابية مع تحرك الحشرة في كل الأنحاء، وهي تدرس اتساع المكان. بينما ذراعها اليمنى السميكة تحمل سيفًا حادًا يلمع في ضوء الشموع وأرجلها القصيرة القوية تتحرك بتوتر وهي تنقل ثقل جسمها من رجلٍ إلى أخرى، بينما كانت تتفحص قدرات أعدائها المحتملين.

ولكن اتضح لها أن أعداءها المحتملين ليسوا سوى مجموعة بائسة مثيرة للشفقة.

كانت هناك خيمة كبيرة مصنوعة من الأقمشة الملونة لها عينان زرقاوان براقتان تحدقان بها.

همست الخيمة قائلة لمحررتها: «ضعي يدك فقط عليها، وسوف تتكور، ثم سنحاول بعد ذلك أن نعيدها إلى البرطمان».

نظرت محررة الحشرة إلى سيف الحشرة الحاد الصغير الذي تلوح به حولها، ثم ترددت.

فقالت الخيمة وهي تتحرك نحو الحشرة: «سوف أفعل أنا ذلك». راحت الحشرة تتحرك ذهابًا وإيابًا في الأنحاء وهي تهددها. فتوقفت الخيمة وهي تتساءل في سرها ما الذي يحدث. لقد طبعوا بصمتهم على كل الحشرات، أليس كذلك؟ فالحشرة كانت لابد أن تدرك أن لا أحد من الموجودين من الأعداء، إلا أنها لم تدرك ذلك. بل عادت تجثم على ذراع چينا. واستمرت تبحث عن الأعداء.

رأت الحشرة الآن ما كانت تبحث عنه؛ كانا اثنين من المحاربين يحملان ما يشبه الرمح، متأهبيْن للهجوم، أحدهما يعتمر قبعة حمراء. وتذكرت الحشرة من ظروف سابقة بعيدة غامضة هذه القبعة الحمراء التي تسببت في الإضرار بها، وإن كانت لا تتذكر تمامًا ما الذي فعلته بها، لكن هذا لن يغير من الأمر شيئًا.

وهكذا حددت الحشرة العدو.

وبصرخة مرعبة، قفزت من فوق ذراع چينا وهي ترفرف بأجنحتها الثقيلة، وانطلقت في الهواء بصلصلة معدنية، كانت تتجه مباشرة صوب الفتى 412 كصاروخ صغير موجه، رافعةً سيفها عاليًا فوق رأسها، كانت تصيح بقوة، وفمها العريض المفتوح على آخره يُظهر صفوفًا من الأسنان المدببة الخضراء.

صاحت العمة زيلدا للفتى 412: «اضربها بسرعة! اضربها على رأسها!».

وجه الفتى 412 ضربة شرسة بيد المكنسة للحشرة التي تتقدم نحوه، إلا أنه أخطأ في تصويبه، ووجه نكو إليها ضربة، لكن الحشرة انحرفت في

آخر لحظة، وهي تصيح وتلوح بسيفها نحو الفتى 412. وقف الفتى 412 يُحدق إليها لا يُصدق نفسه، متنبهًا لسيفها المدبب والرعب يملأ قلبه.

قالت العمة زيلدا وهي تهمس بصوت أجش: «لا تتحرك! أيًا كان الأمر، لا تتحرك».

أخذ الفتى 412 يراقب مذعورًا الحشرة وهي تحط على كتفه وتتقدم قاصدةً عنقه، مشهرةً سيفها كالخنجر.

اندفعت چينا نحو الفتى 412، وصاحت: «لا!» التفت الحشرة نحو محررتها، لا تفهم كلامها، لكن عندما أطبقت چينا يدها عليها بإحكام، غمدت الحشرة سيفها وتكورت بانصياع تام إلى كرة، وسقط الفتى 412 جالسًا مرتطمًا بالأرض.

كانت العمة زيلدا جاهزة بالبرطمان الفارغ، وحاولت چينا أن تدس الحشرة المدرعة المكورة فيه، لكن الحشرة كانت ترفض. في أول الأمر، ظلت إحدى ذراعيها خارج البرطمان، ثم خرجت الذراع الأخرى. طوت چينا الذراعين فإذا بها تجد رِجلًا خضراء كبيرة ترفس وتخرج من البرطمان، حاولت چينا دفعها والضغط عليها، لكن الحشرة المدرعة كانت تقاوم العودة إلى البرطمان بكل ما أوتيت من قوة.

خشيت چينا أن تتحول الحشرة فجأة إلى حشرة شريرة وتستخدم سيفها، ولكن رغم أن الحشرة كانت تقاوم باستماتة لأن تبقى خارج البرطمان، فإنها لم تشهر سيفها؛ فسلامة محررتها تأتي في المقام الأول. ولكن كيف إذن ستكون محررتها في أمان وهي داخل البرطمان؟

تنهدت العمة زيلدا وقالت: «أنت مضطرة الآن لأن تتركيها خارج البرطمان، لم أعرف قطُّ أحدًا استطاع أن يعيد واحدة منها إلى برطمانها ثانيةً، وأنا عن نفسي أعتقد أن هذه الحشرات نفعها أقل من ضررها. ومع ذلك، مارشا كعادتها كانت مُصرة».

فسألتها چينا: «لكن، ماذا عن الفتى 412؟ إذا ظلت الحشرة في الخارج، ألن تواصل مهاجمته؟».

«الآن بعد أن رفعتها من عليه، من المفترض ألا تكون هناك مشكلة».

بدا الفتى 412 غير مقتنع، فليست كلمة «المفترض» هي التي ودَّ أن يسمعها، إنما كلمة «بالتأكيد..».

استقرت الحشرة المدرعة على كتف چينا، ولعدة دقائق ظلت تنظر إلى الجميع بعين مرتابة، وكلما تحركت كانت چينا تضع يدها عليها، وسرعان ما تهدأ الحشرة.

إلى أن سمعوا خدشًا على الباب.

وتجمد الجميع من الذعر والخوف.

شيء يخدش الباب بمخالب.

سكراش.. سكراش.. سكراش

بدأ ماكسي يعوي.

ووقفت الحشرة المدرعة على أرجلها وأشهرت سيفها، هذه المرة لم توقفها چينا، فأخذت الحشرة ترفرف بأجنحتها على كتفها، ثم سكنت في وضع متأهب للقفز.

قالت العمة زيلدا بهدوء: «اذهبي يا بيرت وتبيني ما إذا كان صديقًا».

مشت البطة متبخترةً نحو الباب، ومالت بجانب رأسها وراحت تنصت، ثم أطلقت مواءً قصيرًا واحدًا.

فقالت العمة زيلدا: «إنه صديق. لا بد أنه الغول. رغم أنني لا أعرف لماذا يخدش الباب بهذا الشكل».

فتحت العمة زيلدا الباب وصرخت: «يا إلهي! ما خطبك أيها الغول!».

كان الغول ممددًا على الأرض ينزف.

انحنت العمة زيلدا إلى جواره، واندفع الجميع والتفوا حوله: «أيها الغول، ماذا ألمّ بك يا عزيزي؟».

لكنه لم يُجب، كانت عيناه مغمضتين، وفروته باهتة وملطخة بالدماء، وكان مطروحًا أرضًا، بعد أن استنفد آخر ما أوتي من قوة في الوصول إلى الكوخ.

أخذت العمة زيلدا تصيح قائلة: «يا إلهي! أيها الغول.. افتح عينيك أيها الغول»، لكنه لم يرد عليها، وقالت: «ساعدوني في رفعه.. أي أحد منكم. بسرعة».

فهمّ نكو بسرعة ليساعد العمة زيلدا في رفعه ليُجلساه، لكن لأنه كائن زلق الجسم وثقيل الوزن، كان يحتاج لمعاونة الجميع لإدخاله في الكوخ، ومن ثم حملوه جميعًا إلى المطبخ، متجاهلين الدم الذي يتساقط منه على الأرض، ومددوه على مائدة المطبخ. ووضعت العمة زيلدا يدها على صدره وقالت: «ما زال يتنفس، لكن بالكاد. قلبه يرفرف كالطائر. إنه

ضعيف جدًا». أخذت نفسًا عميقًا؛ لتمنع نفسها من البكاء، ثم هزت جسمها وهمّت باتخاذ الإجراءات اللازمة.

قالت: «جينا، تحدثي معه بينما سأذهب أنا لإحضار الصندوق الطبي. واصلي الحديث معه وأشعريه بوجودنا. لا تتركيه يغشى عليه. نكو، أحضر بعض الماء الساخن من القدر».

وذهب الفتى 412 ليساعد العمة زيلدا في إحضار الصندوق الطبي، بينما أمسكت جينا كف الغول المبللة الموحلة وأخذت تكلمه بصوت خافت؛ آملةً أن تبدو نبرتها أهدأ مما يجيش في صدرها:

«أيها الغول، أنت بخير. وسوف تتحسن حالًا. صحيح. هل تسمعني أيها الغول؟ أيها الغول، اضغط على يدي إن كنت تستطيع أن تسمعني».

ضغطت يد الغول المكففة ضغطة هزيلة جدًا على يد جينا.

«رائع أيها الغول. نحن جميعًا حولك. سوف تكون بخير. سوف...».

وعادت العمة زيلدا والفتى 412 ومعهما صندوق خشبي ضخم، ووضعاه على الأرض، ووضع نكو إناء مملوءًا بالماء الساخن على المائدة.

قالت العمة زيلدا: «تمام. أشكركم جميعًا. والآن، أريد منكم أن تخرجوا وتتركوني مع الغول حتى أقوم بعملي. اذهبوا واجلسوا مع بيرت وماكسي».

لكنهم رفضوا أن يتركوا الغول ويخرجوا.

قالت العمة زيلدا بإصرار: «هيا، اخرجوا».

وبتردد، تركت جينا كف الغول المتثاقلة، ثم خرجت وراء نكو والفتى 412 من المطبخ، وأغلق الباب خلفهم بإحكام.

جلست چينا ونكو والفتى 412 على الأرض بجوار النار مكتئبين، رفع نكو ماكسي وجلس في حضنه، أما چينا والفتى 412 فراحا يحدقان فحسب إلى النار، كل منهما مستغرق في أفكاره.

كان الفتى 412 يفكر في خاتمه **السحري**، وقال في سره إنه لو أعطى العمة زيلدا الخاتم ربما كان سيشفي الغول. لكنه لو فعل هذا، فسوف تسأله العمة زيلدا أين عثر عليه. وكان هناك شيء يحدثه بأنه لو قال لها الحقيقة فسوف تغضب، سوف تغضب جدًّا، وربما أيضًا ستطرده، أليس ما فعله يُعد سرقة؟ لقد سرق الخاتم، والخاتم ليس ملكه، لكنه يستطيع أن ينقذ الغول..

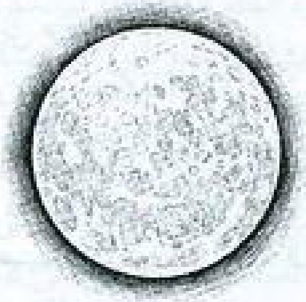
وكلما أمعن الفتى 412 أكثر في التفكير ازداد يقينه بما ينبغي عليه أن يفعله. كان لا بد أن يترك الخاتم للعمة زيلدا.

همّ الفتى 412 متوجهًا نحو باب المطبخ المغلق، فقالت له چينا: «لقد قالت العمة زيلدا أن نتركها وحدها».

لم يلتفت الفتى 412 إلى كلام چينا.

فقالت له چينا بحدة هذه المرة: «*لا تذهب*» وهمت لتوقفه، وهنالك انفتح باب المطبخ، وخرجت العمة زيلدا، وجهها شاحب ومرهق، والدم يغطي مريلتها، ثم قالت: «لقد أصيب الغول بطلق ناري».

33
راقب وانتظر



قبعت *الطلقة على مائدة المطبخ*، كانت طلقة رصاص صغيرة التصقت بها خصلة من فروة الغول، وتربض مهددة وسط مائدة العمة زيلدا التي تم تنظيفها حديثًا.

وتمدد الغول ساكنًا في حوض استحمام معدني موضوع على الأرض، لكنه بدا ضئيلًا ونحيلًا، ونظيفًا خلافًا للغول الذي عرفوه وأحبوه. والتف خصره بضمادة عريضة مأخوذة من ملاءة، تعلوها بقعة حمراء بدأت تنتشر وسط بياض الملاءة.

وطرفت عيناه قليلًا عندما دخلت چينا ونكو والفتى 412 إلى المطبخ متسللين.

قالت العمة زيلدا: «لابد أن نكرر بقدر المستطاع مسحه بالإسفنجة والماء الدافئ. يجب ألا نتركه يجف. لكن لا تبللوا جرح الرصاصة، كما أنه يحتاج أن يظل نظيفًا بلا أي وحل لمدة ثلاثة أيام على الأقل. لقد وضعت بعض أوراق نبات الألفية على ضمادته، وأنا أغلي له الآن لحاء الصفصاف، فسوف يزيل عنه الآلام».

فسألتها جينا: «لكن، هل سيكون بخير؟».

قالت العمة زيلدا وهي ترسم على وجهها ابتسامة صغيرة متوترة وتقلب الصفصاف في وعاء نحاسي: «أجل، سوف يتعافى».

ثم وجدت جينا عينيها تقودانها إلى طلقة الرصاص السوداء، هذا الدخيل غير المرحب به الذي يهدد سلامتهم ويطرح أسئلة عديدة، ثم قالت: «لكن الرصاصة. أقصد من الذي فعل ذلك؟».

فقالت العمة زيلدا بصوت خفيض: «لا أعلم. لقد سألت الغول، لكن حالته لا تسمح له بالكلام. أعتقد أنه ينبغي علينا أن نتوخى الحذر والحيطة هذه الليلة».

وهكذا، بينما كانت العمة زيلدا ترعى الغول، خرجت جينا ونكو والفتى 412 ومعهم **برطمانات الوقاية**.

وبمجرد خروجهم في جو الليل البارد، كانت التدريبات التي تلقاها الفتى 412 في جيش الشباب هي التي تتولى الأمر، فأخذ الفتى 412 يستكشف المكان حوله باحثًا عن موقع يوفر لهم رؤية واضحة لكل الأماكن التي يمكن الاقتراب منها نحو الجزيرة، ويمنحهم في الوقت

نفسه مكانًا يمكن أن يختبئوا فيه، وسرعان ما عثر الفتى 412 على هذا المكان؛ إنه مركب الدجاج.

ولقد كان الاختيار موفقًا؛ فالدجاج في المساء يُحبس في أمان بمخزن المركب، تاركًا سطح المركب خاليًا. صعد الفتى 412 المركب متسلقًا وربض خلف غرفة إدارة الدفة المحطمة، ثم أشار إلى جينا ونكو كي يلحقا به، فصعدا إلى عشة الدجاج وناولا **برطمانات الوقاية** إلى الفتى 412، ثم انضما إليه.

كانت سماء الليلة ملبدة بالغيوم، تحجب سحبها معظم القمر، لكنه كان يظهر كل حين ويلقي نوره الأبيض الصافي على المستنقعات، فيتيح لهم رؤية واضحة تمتد لعدة أميال. ألقى الفتى 412 نظرة الخبير على المنظر العام؛ ليتأكد من عدم وجود أية تحركات أو دلائل تشي بأن ثمة شيئًا يعبث في الأنحاء، تمامًا كما تعلَّم على يد نائب الصياد؛ كاتشبول البشع. حتى الآن كلما تذكر الفتى 412 كاتشبول انتابته رجفة. كاتشبول هذا رجل طويل القامة إلى أقصى حد، وطوله هذا هو أحد الأسباب التي حالت دون ترقيته إلى منصب الصياد - فهو بطوله هذا يمكن رصده بسهولة بالغة، هذا عدا أسباب أخرى، كمزاجه الذي لا يمكن توقعه، وعادته في طقطقة أصابعه عندما يتوتر؛ مما يكشفه أمام فريسته في أغلب الأحيان في الوقت الذي كان سيتمكن منها، وكرهه الاستحمام الذي أنقذ أولئك الذين يتمتعون بحاسة شم مميزة أثناء ملاحقته لهم - بشرط أن تهب الرياح في الاتجاه الصحيح. إلا أن السبب الرئيسي في عدم ترقيته إلى منصب الصياد يكمن ببساطة في أن لا أحد يحبه.

والفتى 412 أيضًا لم يحبه، وإن كان قد تعلم منه الكثير بعد أن وجد نفسه قد تعود على نوبات غضبه، وعلى رائحته الكريهة وطقطقة أصابعه. ومن الأشياء التي لا يزال الفتى 412 يتذكرها عنه هي نظرية *راقب وانتظر*، التي اعتاد كاتشبول تكرارها مرات عديدة، إلى أن التصقت برأس الفتى 412 مثل النغمة الموترة.. راقب وانتظر.. *راقب وانتظر*.. *راقب وانتظر*.

وكانت الفكرة في هذه النظرية أن المراقب إذا *انتظر* وقتًا كافيًا، فإن الفريسة بلا محالة سوف تكشف عن نفسها. ربما يكون ذلك عن طريق حركة بسيطة لغصن صغير في شجرة، أو حفيف أوراق أشجار أسفل أقدام متحركة، أو انزعاج مفاجئ لحيوان أو طائر صغير. فأيًا كانت هذه الدلائل فهي حتمًا سوف تظهر، وكل ما على المراقب أن يفعله هو *انتظار* ظهورها، ثم يلي ذلك بالطبع، تعرُّف الدليل عندما يظهر، وهذا هو أصعب جزء، وهو ما لم يكن الفتى 412 يجيده دائمًا. لكنه قال في سره إنه هذه المرة، بدون الرائحة النفاذة المنفرة لأنفاس كاتشبول، سوف ينجح، بل كان واثقًا من أنه سينجح.

كان الجو باردًا في غرفة إدارة الدفة، لكنهم وجدوا كومة من الأجولة القديمة مخزنة هنالك، فلفوا أجسامهم بها وجلسوا ينتظرون. ويراقبون. وينتظرون.

وعلى الرغم من أن المستنقعات خيم عليها السكينة والهدوء، فإن السحب في السماء كانت تتسابق مرورًا بالقمر، تتلبد عليه لحظة فتغرق المشهد العام في الظلام، وفي اللحظة التالية تنسحب بعيدًا فيفيض

نور القمر على المستنقع. وفي إحدى تلك اللحظات، عندما أنار نور القمر فجأة شبكة قنوات الصرف المتقاطعة التي تغطي مستنقعات مرام، كان أن رأى الفتى 412 شيئًا، أو اعتقد أنه رأى شيئًا. وبحماس، أمسك نكو بقوة وجعله يلتفت إلى الجهة التي اعتقد أنه رأى عندها ذلك الشيء. لكن في تلك اللحظة بالذات عادت السماء لتغطي القمر من جديد. ومن ثم، أخذوا ينتظرون وهم رابضون في غرفة إدارة الدفة. ويراقبون.. ويطول بهم الانتظار أكثر فأكثر.

بدت السحب كأنها تستغرق دهرًا حتى تنقشع عن القمر، وأثناء انتظارهم أدركت چينا أنها لا تود بأي حال من الأحوال أن ترى شخصًا أو شيئًا يشق طريقه وسط المستنقع، وتمنت أن الذي أطلق الرصاص على الغول- أيًا كان هو- يتذكر فجأة أنه ترك براد الماء يغلي على النار وقرر أنه لابد أن يعود إلى المنزل قبل أن يتسبب ذلك في احتراق بيته. لكن خاب أملها؛ لأن السحب الملبدة بالغيوم انقشعت فجأة عن القمر، ومرة أخرى أشار الفتى 412 إلى شيء.

في أول الأمر لم تتمكن چينا مطلقًا من رؤية أي شيء؛ فأرض المستنقع المستوية كانت تمتد لمسافات بعيدة أسفلها وهي تنظر من غرفة إدارة الدفة، وبدت كأنها بحر واسع يبحث فيه صياد عن دليل يشير إلى سرب من الأسماك، ثم رأته؛ رأت ظلًا طويلًا أسود يشق طريقه بهدوء وثبات بطول إحدى قنوات الصرف البعيدة.

همس نكو قائلًا: «إنه زورق».

فارتفعت معنويات چينا وقالت: «أهو أبي؟».

قال نكو هامسًا: «لا، فهناك شخصان على متنه، ربما ثلاثة. لست متأكدًا».

قالت چينا: «سأذهب وأخبر العمة زيلدا»، وهمّت كي تذهب، إلا أن الفتى 412 وضع يده على ذراعها وأوقفها.

فهمست چينا قائلة: «ماذا تريد؟».

فهز الفتى 412 رأسه ووضع أصبعه على شفتيه.

فقال نكو هامسًا: «أعتقد أنه يرى أن ذهابك الآن قد تصاحبه أصوات تكشف عن مكاننا، فالأصوات تنتقل لمسافات بعيدة على سطح أرض المستنقع في الليل».

فقالت چينا بحدة: «ليته يقول ذلك بنفسه».

ومن ثم، جلست چينا وراحت تراقب الزورق وهو يتقدم بخطى ثابتة، ويشق طريقه وسط شبكة القنوات المضللة بلا أي أخطاء، ويمر بكل الجزر الأخرى متوجهًا مباشرة نحوهم. وبينما كان الزورق يقترب، لاحظت چينا برعب أن الوجوه لم تكن غريبة عليها؛ فالشخص الأضخم فيهم والموجود عند مقدمة الزورق له نظرة النمر الذي يركز على فريسته، وهو ينصب لها الكمين. ولوهلة، أشفقت چينا على الفريسة، إلى أن باغتتها الصدمة وقد أدركت من هي الفريسة.

إنها هي نفسها.

والرجل كان الصياد.. وقد عاد من أجلها.

34
الكمين



مع اقتراب الزورق تمكن المراقبون الرابضون على متن مركب الدجاج من رؤية الصياد ومرافقيه بوضوح. كان الصياد يجلس عند مقدمة الزورق يجدف بسرعة مذهلة وخلفه التلميذ، خلف التلميذ كان هناك **شيء**. كان هذا **الشيء** يجلس القرفصاء عند قمة الزورق، يلقي بنظراته حول المستنقع، ومن حين لآخر يخطف حشرة أو وطواطًا مارًّا أمامه. كان التلميذ يجلس بخوف أمام هذا **الشيء** الرابض خلفه، بينما الصياد غير مبالٍ؛ فلقد كان لديه أمور أهم يفكر فيها.

ارتجف جسم چينا عندما رأت هذا **الشيء**؛ إنه يخيفها أكثر من الصياد، فعلى الأقل الصياد إنسان، وإن كان إنسانًا مميتًا.. إنما ما هو

بالضبط هذا الكائن الجالس القرفصاء عند مؤخرة الزورق؟ وكي تهدئ نفسها، رفعت الحشرة المدرعة من على كتفها، بعد أن ظلت رابضة عليها بهدوء طوال ذلك الوقت، وأمسكتها بحرص في راحة يدها، ثم أشارت لها إلى الزورق المقترب بالثلاثي الكئيب الرابض على متنه.

ثم همست جينا للحشرة المدرعة قائلة: «أعداء». فهمت الحشرة المدرعة الكلام، وتابعت أصبع جينا المرتجف وثبتت عينيها الخضراوين الحادتين - وهما عينان تبصران بوضوح تام في الظلام - على الوجوه الموجودة على متن الزورق.

وسرعان ما غمرت السعادة الحشرة المدرعة..

فلقد وجدت عدوًا.

ومعها سيف.

وسرعان ما ستلاقي العدو بسيفها.

كم تبدو الحياة بسيطة عندما تكون حشرة مدرعة.

ثم أخرج الفتيان بقية الحشرات المدرعة، وراحا يرفعان غطاء كل برطمان من **برطمانات الوقاية** واحدًا تلو آخر. وكلما رفعا غطاءً كانت تقفز من البرطمان حشرة مدرعة وسط فيض متناثر من المادة اللزجة الخضراء، مُشهرةً سيفها. وكلما خرجت حشرة كان نكو والفتى 412 يشيران لها إلى الزورق الذي يقترب بسرعة. وسرعان ما كانت الحشرات المدرعة الست والخمسون مصطفة بانتظام، رابضةً مثل الزنبرك الملفوف على حافة القارب، أما الحشرة السابعة والخمسون فكانت رابضة على كتف جينا، مخلصة لمحررتها إخلاصًا عظيمًا.

ولم يعد الآن أمام الرابضين على متن مركب الدجاج سوى الانتظار والمراقبة. لا يفعلون غير ذلك وقد بلغت قلوبهم الحناجر. يراقبون تحول الصياد والتلميذ من ظلين بلا ملامح إلى وجهين مرعبين سبق لهم أن رأوهما من قبل منذ عدة أشهر عند مصب قناة ديبين، وقد بدا عليهما الشر والتهديد بالخطر الآن تمامًا كما بدا عليهما من قبل.

إلا أن ذلك **الشيء** ظل بلا ملامح.

وصل الزورق إلى قناة ضيقة سوف تقوده إلى المنعطف المؤدي إلى قناة الغِمد. حبس المراقبون الثلاثة أنفاسهم وهم ينتظرون وصول الزورق إلى المنعطف، وقالت جينا في سرها، من باب التعلق بقشة: ربما لا يزال مفعول السحر ساريًا بشكل أفضل مما تظن العمة زيلدا، والصياد لا يستطيع أن يرى الكوخ.

انعطف الزورق ودخل قناة الغِمد. فرأى الصياد الكوخ بوضوح تام، وأخذ يكرر في رأسه الخطوات الثلاث للخطة:

الخطوة الأولى: تأمين سلامة الملكة الصغيرة. تؤخذ كسجينة وتُصطحب على متن الزورق تحت حراسة كائن المأجوج المرافق له. لا إطلاق للنار إلا في حالة الضرورة، وإما العودة إلى دومدانيال الذي يتوق لأن «يقوم بهذه المهمة بنفسه» هذه المرة.

الخطوة الثانية: إطلاق النار على الحشرات المؤذية، وتشمل المرأة الساحرة والفتى الساحر والكلب.

الخطوة الثالثة: الحصول على بعض المكاسب الشخصية.

القبض على تارك الخدمة في جيش الشباب

وإعادته إلى الجيش. الحصول على المكافأة.

راضيًا وسعيدًا بخطته، أخذ الصياد يجدف بصمت في قناة الغِمد، قاصدًا موقع مرسى المراكب.

كان الفتى 412 يراه يقترب وأشار لجينا ونكو حتى يظلا ساكنيْن؛ لعلمه بأن أي حركة سوف تشي بهم، ورأى أنهم تخطوا الآن مرحلة المراقبة والانتظار وانتقلوا إلى مرحلة الكمين. وعن مرحلة الكمين، يتذكر كاتشبول وهو يقول له، وأنفاسه تهب عليه، *إن السكون هو أساس هذه المرحلة إلى أن تأتي لحظة التحرك.*

فهمت الحشرات المدرعة الست والخمسون التي كانت مصطفة على حافة القارب- ما الذي يخطط له الفتى 412 بالتحديد؛ فجزء كبير من الوصفة السحرية التي تم استخدامها في تشكيلها مأخوذة في واقع الأمر من مقرر تدريبات جيش الشباب، وبذلك كان الفتى 412 والحشرات المدرعة يعملون بمثابة فريق عمل واحد.

ولم يخطر على بال الصياد والتلميذ وكائن المأجوج أنهم سرعان ما سيكونون جزءًا من *لحظة التحرك*. وصل الصياد إلى موقع المرسى، وانهمك في محاولة إنزال التلميذ بلا أي صوت ودون أن يسقط في

الماء. لكن لو كان الموقف غير الموقف، ما كان الصياد سيكترث ولو للحظة لو أن التلميذ سقط في الماء، بل في واقع الأمر ربما كان سيدفعه خلسة بنفسه، إلا أنه خشي الآن أن يصاحب سقوط التلميذ أصوات طرطشة الماء، كما أن التلميذ بلا شك سينتهز الفرصة ويأخذ في الصياح بصوت عالٍ؛ ولذلك- وبعد أن قرر أنه سوف يدفع بهذا الشخص المزعج في أول ماء بارد ما إن تسنح له الفرصة- خرج الصياد من على متن الزورق، ثم جذب التلميذ لأعلى وأنزله إلى المرسى.

أما كائن المأجوج فلقد انسلّ خُفية في الزورق، وجذب غطاء رأسه على عينه الدودية العمياء التي أزعجها نور القمر المشع، وربض في مكانه. فما يحدث على الجزيرة لا يعنيه في شيء، وهو موجود فقط لحراسة الأميرة والتصرف باعتباره حارسًا ضد كائنات المستنقع أثناء الرحلة الطويلة، ولقد أحسن القيام بمهمته تمامًا، فيما عدا حادثًا مؤسفًا واحدًا كان سببه أساسًا خطأ من التلميذ. لكن لم يجرؤ خيال شبح واحد أو جنية واحدة من الجنيات الصغيرة السمراء على الاقتراب من الزورق في وجود كائن المأجوج على متنه، كما أن المادة اللزجة التي يفرزها غطت جسم الزورق وتسببت في انزلاق ممصات كل الأرواح المائية، واحتراقها بشكل غير مبهج أثناء ذلك.

كان الصياد سعيدًا بما أنجزه حتى الآن في مهمة المطاردة التي خرج من أجلها، وارتسمت على وجهه ابتسامته المعتادة التي لا تصل إلى عينيه أبدًا. فأخيرًا، وصلوا إلى مخبأ الساحرة البيضاء، بعد تجديف مرهق وسط المستنقع، وبعد تلك المواجهة المبددة للطاقة مع حيوان أحمق

من حيوانات المستنقع ظل يعترض طريقهم، ثم تلاشت ابتسامة الصياد وهو يتذكر المواجهة مع الغول. فالصياد لا يحب تبديد الطلقات النارية، فلا أحد يعلم متى يمكن أن يحتاج إلى طلقة إضافية. فراح يؤرجح المسدس في يده ثم بمنتهى البطء وعن عمد، عمَّره برصاصة فضية.

رأت چينا المسدس الفضي يلمع في نور القمر، كما رأت أيضًا الحشرات المدرعة الست والخمسين وهي مصطفة ومتأهبة للتحرك، وقررت أن تبقي حشرتها الخاصة معها من باب الاحتياط. ومن ثم، وضعت يدها على الحشرة لتهدئها. وبانصياع تام، أغمدت الحشرة سيفها وتكورت، ثم دست چينا الحشرة في جيبها. فإذا كان الصياد يحمل مسدسًا، فهي في المقابل تحمل الحشرة.

زحف الثنائي بلا صوت؛ حيث سار التلميذ في ركب الصياد كما أُمر، وصعدا الممشى القصير الذي يبدأ بالمرسى ويؤدي إلى الكوخ، ويمر في الطريق بمركب الدجاج. لدى وصول الصياد إلى مركب الدجاج توقف بعد أن سمع صوتًا؛ إنه دقات قلب بشرية؛ ثلاث قلوب بشرية تدق دقات سريعة جدًا. فرفع مسدسه.

إيييي!!

إن صياح ست وخمسين حشرة مدرعة يبث الرعب في النفوس؛ إنه يخرق الآذان ويؤدي إلى إحساس مميت بالهلع. ويدرك هؤلاء الذين لديهم علم بالحشرات المدرعة أنهم في هذه الحالة ليس في وسعهم إلا أن يسدوا آذانهم بأصابعهم آملين أن يسيطروا على حالة الهلع التي انتابتهم، وهذا هو ما فعله الصياد؛ فلقد وقف ساكنًا تمامًا، وسد أذنيه

بأصابعه، وإذا كان قد شعر بلمحة من الهلع، فلم يزعجه ذلك لأكثر من وهلة.

ولأن التلميذ بالطبع لا يعرف شيئًا عن الحشرات المدرعة ولذلك، فعل ما كان سيفعله أي شخص آخر يجد نفسه في مواجهة سرب من الكائنات الصغيرة الخضراء تطير نحوه، وتلوح بسيوف تشبه المشارط في الهواء وهي تصرخ بصوت مدوٍّ يجعلك تشعر بأن أذنيك سوف تنفجران. لقد أخذ يجري بسرعة مذهلة لم يسبق له أن بلغها من قبل في حياته، ثم انطلق مسرعًا ينزل إلى قناة الغِمد؛ آملًا أن يصعد متن الزورق ويجدف إلى أي مكان آمن.

كان الصياد يعلم أن الحشرة المدرعة إذا وجدت نفسها بين خيارين، فستظل تلاحق العدو المتحرك وتتجاهل الساكن، وهذا هو ما حدث فعلًا، ولما كان من دواعي سروره أن الحشرات المدرعة الست والخمسين جميعها قررت أن عدوها هو التلميذ، ولاحقته بصيحات مدوية إلى قناة الغِمد، ألقى الفتى المذعور بنفسه في الماء المتجمدة ليهرب من صياح السرب الأخضر.

ألقت الحشرات المدرعة الباسلة بنفسها في القناة وراء التلميذ، بما أنها تؤدي ما يجب عليها أن تؤديه بملاحقة العدو إلى النهاية. لكن لسوء حظها أن النهاية كانت نهايتها هي؛ فكلما ارتطمت حشرة منها بالماء غرقت فيها كأنها قطعة حجر، بينما تسحبها أسلحتها الخضراء الثقيلة إلى قاع القناة حيث الوحل اللزج. جر التلميذ نفسه وهو مفزوع يلهث من

شدة البرد، وخرج إلى ضفة القناة ومد جسمه المرتعش أسفل شجيرة، ومن فرط خوفه كان عاجزًا عن الحركة.

راقب كائن المأجوج هذا المشهد دون أن يبدو عليه أدنى قدر من الاكتراث. وبعد أن انتهت هذه الجلبة، بدأ بذراعيه الطويلتين يصطاد من أعماق الوحل الحشرات الغارقة واحدة تلو أخرى، ثم جلس مبتهجًا ومسرورًا على متن الزورق يمتص منها سوائلها ويمضغها بأسنانه الصفراء الحادة حتى تحولت إلى عجينة لينة خضراء - بما في ذلك أسلحتها وسيوفها وكل شيء فيها - قبل أن يبتلعها بتأنٍّ في معدته.

ابتسم الصياد ورفع بصره إلى غرفة إدارة دفة مركب الدجاج، فلم يتوقع أن الأمر سيكون بهذه السهولة، إن الثلاثة ينتظرونه وهم جالسون مثل البط.

فقال لهم ببرود أعصاب: «أستنزلون أم أصعد أنا وأمسك بكم؟».

همس نكو لجينا: «اجري».

«وماذا عنكما؟».

«سأكون بخير، إنه يريدك أنت.. هيا.. الآن».

ثم رفع نكو صوته وقال للصياد: «أرجوك، لا تطلق النار، سوف أنزل إليك».

«لن تنزل بمفردك أيها الفتى، بل كلكم ستنزلون، والفتاة قبلكم».

دفع نكو بجينا بعيدًا وهمس لها: «هيا اذهبي!».

بدت جينا عاجزة عن الحركة، لا تريد أن تترك مركب الدجاج الذي كان يبدو لها مكانًا آمنًا. قرأ الفتى 412 الذعر على وجه جينا، وهو

إحساس كثيرًا ما شعر به من قبل في جيش الشباب. وعلم أنه ما لم يخطفها بقوة، تمامًا مثلما فعل الفتى 409 ذات مرة معه لينقذه من حيوان ولفرين في الغابة، فلن تستطيع جينا أن تتحرك. وما لم يخطفها هو، فالصياد سيفعل ذلك. وعلى الفور، دفع الفتى 412 بجينا من غرفة إدارة الدفة، وأطبق يده على يدها بقوة وقفز بها من عند الجانب البعيد من مركب الدجاج، بعيدًا عن الصياد. ومع هبوطهما على روث دجاج مخلوط بالقش، سمعا الصياد يتوعدهما.

همس نكو الذي كان ينظر عليهما من فوق المركب: «اجريا!».

جذب الفتى 412 جينا وأوقفها على قدميها، لكنها تسمرت في مكانها لا تريد أن تتحرك.

وقالت لاهثة: «لا يمكن أن نترك نكو».

فصاح نكو، متناسيًا مسدس الصياد: «سوف أكون بخير يا جينا، اذهبي أنت!».

أغرى الموقف الصياد بأن يُطلق النار على الفتى الساحر في التوّ، لكن الأولوية بالنسبة له كانت الملكة الصغيرة، وليس واحدًا من حثالة السحرة. ومن ثم، بعد أن همت جينا والفتى 412 بالنهوض من فوق روث الدجاج وتسلقا أسلاك عشة الدجاج وانطلقا يفران بحياتيهما، أسرع الصياد وراءهما وكأن حياته هو شخصيًا متوقفة عليهما.

ظل الفتى 412 ممسكًا بيد جينا، وهو يبتعد عن الصياد متوجهًا خلف الكوخ، ثم إلى شجيرات الفاكهة الخاصة بالعمة زيلدا، متفوقًا على الصياد بميزة أنه يعرف الجزيرة. لكن الصياد لم يهتم كثيرًا بهذه النقطة؛

فهو يقوم بما يقوم به على أكمل وجه، متتبعًا فريسة، هي في كل الأحوال فريسة شابة مرتعبة.. إنها سهلة، ففي نهاية المطاف، أين سيقودهما جريهما هذا؟ إنها مسألة وقت حتى يقعا في يده.

أخذ الفتى 412 وچينا يلتفان بين الأشجار مطأطئي رأسيهما، تاركين الصياد خلفهما يحاول أن يجد طريقه بين الأشجار الشوكية. لكن لم يمض وقت حتى كانت چينا والفتى 412 قد وصلا إلى نهاية أشجار الفاكهة. وبتردد، خرجا إلى الفراغ المكشوف المغطى بالأعشاب المؤدي إلى بركة البط. في تلك اللحظة، انقشعت السحب الملبدة بالغيوم التي كانت تحجب القمر، ورأى الصياد ظلّ فريسته عند خلفية المستنقعات.

أخذ الفتى 412 يجري وهو يجر معه چينا، والصياد يقترب منهما رويدًا رويدًا ولا يبدو عليه أنه يُرهق، خلافًا لچينا التي بدأت تشعر أنها لم تعد تقوى على الجري خطوة واحدة أخرى، التفا حول بركة البط، وواصلا الجري حتى وصلا إلى الربوة الموجودة عند نهاية الجزيرة. كانا يسمعان خطوات الصياد من شدة اقترابه منهما، وصداها يرتد إليهما؛ لأنه هو أيضًا وصل إلى الربوة وبدأ يجري على الأرض المجوفة.

كان الفتى 412 يراوغ الصياد بين الشجيرات الصغيرة المنتشرة في الأنحاء، وهو يجر وراءه چينا، مدركًا تمامًا أن الصياد بات قريبًا جدًا منهما ويكاد يلحق بهما ويخطف منه چينا.

وفجأة، كان الصياد قد اقترب منهما بالقدر الكافي فانقض بقفزة على قدمي چينا.

«چينا!» هكذا صاح الفتى 412 وهو يسحبها من قبضة الصياد ويقفز بها في شجيرة.

ارتطمت چينا بالشجيرة وراء الفتى 412، لتجد فجأة أن الشجيرة لم تعد موجودة، وأنها تسقط برأسها في فراغ سحيق مظلم بارد.

ووجدت نفسها تحط على أرض رملية وجسمها يرتج، وفي اللحظة التالية كان هناك ارتطام، وكان الفتى 412 منبطحًا على الأرض باسطًا ذراعيه وقدميه في الظلام إلى جوارها.

اعتدلت چينا وجلست، ووجدت نفسها تتألم وتشعر بدوار، فحكّت رأسها من الخلف مكان ارتطامها بالأرض.. لكن كان هناك شيء غريب جدًا قد حدث، حاولت أن تتذكر ما هو هذا الشيء الغريب. لم يكن ذلك هروبهما من الصياد، ولا سقوطهما وسط الأرض. لا.. ما حدث كان أكثر غرابة. هزت رأسها، تحاول أن تزيح التشويش الذي علق بذهنها.. نعم.. لقد تذكرت.

فالفتى 412 تحدث أخيرًا.

35

تحت سطح الأرض



قالت چينا، *وهي تدلك مكان ارتطام رأسها*: «أنت تتكلم».

فرد الفتى 412: «بالطبع أنا أتكلم».

«إذن، لماذا لم تكن تتكلم؟ أنت لم تنبس بكلمة واحدة منذ أن رأيناك. فيما عدا اسمك، أقصد رقمك».

«هذا هو كل المسموح لنا بأن نقوله إذا وقعنا في الأسر، الرتبة والرقم، لا شيء آخر. وهذا هو ما فعلته».

فقالت له چينا موضحة له: «لم يأسرك أحد، بل *أنقذناك*».

رد الفتى 412: «أعلم ذلك، أو بالأصح، لقد أدركت ذلك الآن، ولم أدركه من قبل».

خالج چينا شعورٌ غريبٌ جدًا أن تجد نفسها تتحدث مع الفتى 412 وهو يرد عليها بعد كل ذلك الوقت، والأغرب أنهما كانا يتحدثان في قاع حفرة وفي ظلام دامس.

قالت چينا: «كنت أتمنى أن يكون معنا ضوء. فحتى الآن لا أستطيع التوقف عن التفكير بأن الصياد سوف ينقض علينا فجأة»، وارتجف جسمها على ذكر ذلك.

رفع الفتى 412 يده إلى قبعته وأخرج منها خاتمه وألبسه في سبابته اليمنى، ووجده محكمًا تمامًا في أصبعه، ثم غطى الخاتم التنيني بيده الأخرى كي يدفئه، آملًا أن يشع منه بريقه الذهبي، فاستجاب الخاتم، وانبعث بريق رقيق من يدي الفتى 412 إلى أن تمكن من أن يرى چينا بوضوح وهي تنظر إليه وسط الظلام. غمرت السعادة قلبه؛ فالخاتم كان أكثر سطوعًا من أي مرة سابقة، وسرعان ما ألقى حلقة من الضوء حولهما ينبعث منها دفء، وهما جالسان على أرض النفق الرملية.

قالت له چينا: «إنه مدهش.. أين عثرت عليه؟».

رد الفتى 412: «هنا».

«ماذا تقول؟ عثرت عليه الآن؟ الآن فقط؟».

«لا، عثرت عليه من قبل».

«ماذا تقصد بقولك من قبل؟».

«من قبل.. أتتذكرين عندما ضللنا الطريق يوم الضباب المالح؟».

فأومأت له برأسها.

«يومها سقطت هنا، وظننت أنني سأظل حبيسًا إلى الأبد، إلى أن عثرت على هذا الخاتم؛ إنه خاتم **سحري**، لقد أضاء يومها وأرشدني إلى طريق الخروج».

فقالت چينا في سرها: «أهذا هو إذن ما حدث يومها؟». إن الأمر يبدو منطقيًا الآن. الفتى 412 يجلس مبتهجًا ينتظر رجوعهما بينما هي وتكو لم يهتديا إلى طريق العودة إلا بعد عناء ومشقة، وعادا متجمدين من شدة البرد تغمرهما الماء بعد ساعات قضياها سيرًا هنا وهناك بحثًا عنه. لقد كانت على يقين حينها أن هناك سرًا ما في الأمر، ثم ظل طوال هذا الوقت يذهب ويأتي معهم بالخاتم دون أن يريه لأحد. إن هناك أمورًا كثيرة غامضة في الفتى 412.

قالت له وهي تنظر إلى التنين الذهبي الملفوف حول أصبعه: «إنه خاتم جميل، هل أستطيع أن أحمله؟».

بتردد، خلع الفتى 412 الخاتم من أصبعه وأعطاه لچينا، فهزته بحرص في يدها، لكن ضوءه بدأ يتلاشى والظلام يحل حولهما، وسرعان ما خمد الضوء الصادر عن الخاتم تمامًا.

فسألها الفتى 412 بنبرة اتهام: «هل سقط منك؟».

قالت چينا: «لا، إنه لا يزال في يدي، لكنه لا يعمل».

قال الفتى 412: «بالطبع إنه يعمل، إنه خاتم **سحري**. أعطينيه وسوف أريك كيف يعمل»، وأخذ منها الخاتم وفي الحال بات النفق مضاءً تمامًا.

قال لها: «أرأيت؟ إن الأمر سهل».

فقالت چينا: «سهل عليك أنت، لا عليَّ أنا».

رد الفتى 412 في حيرة: «أنا لا أرى سببًا لذلك».

لكن چينا كانت تعرف السبب، لقد رأت ذلك مرات عديدة بين أفراد أسرة السحرة.. ورغم أنها تعلم تمامًا أنها لا تمتلك أي قوة **سحرية**، فإنها تستطيع أن تعرف من يمتلكها.

ثم قالت للفتى 412: «إن القوة **السحرية** ليست في الخاتم، إنها فيك أنت».

رد الفتى 412: «أنا لا أمتلك قوة **سحرية**»، وبدا واثقًا تمامًا من كلامه حتى إنها لم تجادله في الأمر.

ثم قالت له: «أيًا كان الأمر، حافظ على الخاتم. والآن، كيف سنخرج من هنا؟».

لبس الفتى 412 الخاتم في أصبعه وأخذ يسير في النفق، وهو يقود چينا بثقة تامة عبر الطرق الملتفة والانعطافات التي أربكته يومًا ما بشدة، إلى أن وصلا أخيرًا إلى أعلى السلم.

فقال لها: «كوني حريصة، لقد سقطت من هنا المرة السابقة وكدت أفقد الخاتم».

توقفت چينا عند أسفل السلم، وشعرت بشيء جعل شعر رأسها يقف.

وهمست قائلة: «لقد جئت هنا من قبل».

فسألها الفتى 412 بإحباط، وكأن هذا المكان مكانه هو: «متى ذلك؟».

فهمهمت چينا قائلة: «في أحلامي. أنا أعرف هذا المكان. لقد اعتدت أن أحلم به في الصيف عندما كنت أعيش في بيتنا. لكنه كان أكبر..».

فقال لها الفتى 412 بسرعة: «هيا بنا».

لكن چينا قالت وهي ترفع صوتها أكثر فأكثر: «ترى، أهو فعلًا أكبر، هل للصوت صدى هنا؟».

فترددت الكلمات حولهما: *هل للصوت صدى هنا؟ هل للصوت صدى هنا؟ هل للصوت صدى هنا؟ هل للصوت صدى هنا؟ هل للصوت صدى هنا؟ هل للصوت صدى هنا؟*

فهمس الفتى 412 قائلًا: «هسسس، قد يسمع صوتنا هكذا من خلال سطح الأرض، إنهم مدربون على أن يسمعوا كما تسمع الكلاب».

«تقصد من؟».

فقال: «*الصيادون*».

فأطبق الصمت على چينا.. لقد نسيت أمر الصياد، ولا تريد أن يذكرها أحد به الآن.

ثم همست چينا للفتى 412 قائلة: «هناك صور على الجدران في كل مكان، أنا متأكدة أنني رأيتها في أحلامي. إنها تبدو قديمة جدًا. كأنها تحكي قصة».

ورغم أن الفتى 412 لم يلتفت كثيرًا لهذه الصور في المرة السابقة فإنه في هذه المرة حمل الخاتم عاليًا نحو الجدران الرخامية الملساء التي تكسو هذا الجزء من النفق، ورأى أشكالًا شبه بدائية ذات ألوان داكنة

من درجات الأزرق والأحمر والأصفر تُظهر ما بدا أنه تنانين، ومركب يتم بناؤه، ثم رأى فنارًا وحطامَ مركبٍ.

ثم أشارت له چينا إلى أشكال أخرى أبعد وقالت: «وهذه تبدو كأنها رسومٌ لبرج أو شيء من هذا القبيل».

فقال الفتى 412: «إنه برج السحرة. انظري إلى الهرم الذي يعلوه».

قالت چينا، وهي تمرر أصابعها على الرسوم: «لم أكن أدري أن برج السحرة بهذا القدم»، وقالت في سرها إنها قد تكون أول شخص يرى هذه الصور منذ آلاف السنين.

قال الفتى 412: «إن برج السحرة قديم جدًا، لا أحد يعلم متى تم بناؤه».

فسألته چينا، وقد علتها الدهشة أن ترى الفتى 412 بهذه الثقة: «كيف تسنى *لك* أن تعلم بكل ذلك؟».

فأخذ الفتى 412 نفسًا عميقًا، وقال بصوت عذبٍ: «*إن برج السحرة أثر قديم، إن الموارد الثمينة ينهبها الساحر الأعظم كي يحافظ على حالة ثراء البرج البالغة، موارد كان يمكن استخدامها في علاج مريض أو في تحويل القلعة إلى مكان أكثر أمنًا لكل من يعيشون فيها*. ما رأيك؟ ما زلت أتذكرها، لقد اعتدنا أن نردد مثل ذلك كل أسبوع في دروس (اعرف عدوك)..».

فقالت چينا بود: «ياه!»، ثم همست وهي تتبع خطوات الفتى 412 قائلة: «لكن، أراهن أن العمة زِيلدا سوف تهتم كثيرًا بكل هذا».

فتذكر الفتى 412 اختفاء العمة زيلدا في دولاب الجرعات، وقال لها: «إنها تعرف عنه بالفعل، كما أعتقد أنها تعرف أنني أعرف».

فسألته جينا وهي تتعجب في سرها كيف فاتها أن تلاحظ كل ذلك: «لماذا تقول ذلك؟ هل أخبرتك؟».

رد عليها الفتى 412: «لا، لكنها نظرت إليَّ نظرة غريبة».

فقالت جينا موضحة: «إنها تلقي بنظرات غريبة على الجميع. هذا لا يعني أنها تفكر في أنهم نزلوا أنفاقًا سرية».

ثم سارا قليلًا للأمام، وكان صف الصور قد انتهى، ووصلا إلى درجات سلم شديد الانحدار يؤدي لأعلى. ولفت نظر جينا وجود صخرة صغيرة مستكينة مستقرة بجوار أسفل السلم، فأخذتها إلى الفتى 412.

«انظر. انظر إلى هذه الصخرة، أليست جميلة فعلًا؟».

كانت الصخرة التي بيد جينا خضراء كبيرة وبيضاوية الشكل، ملساء تمامًا وكأن هناك من قام بصقلها الآن، وتبرق بلمعان منطفئ في ضوء الخاتم، وتتميز بأن لونها الأخضر متقزح وكأن لها أجنحة تنين طائر، وبدت ثقيلة وإن كانت قابعة بشكل متوازن تمامًا بين كفي جينا المقوستين حولها.

قال الفتى 412، وهو يربت عليها بربتات خفيفة: «إنها ملساء للغاية».

فقالت جينا تلقائيًا: «خذها، إنها لك. تستطيع أن تجعلها صخرتك الأليفة، مثل بيتروك تريلاوني، وإن كانت هذه الصخرة أكبر حجمًا، كما أننا نستطيع أن نطلب من أبي أن يلقي عليها تعويذة عندما نعود إلى القلعة».

أخذ الفتى 412 الصخرة الخضراء، ووجد نفسه محتارًا لا يعرف ماذا يقول لجينا، فلم يقدم له أحد هدية من قبل. وضع الصخرة في جيبه السري داخل سترته المصنوعة من جلد الماعز، ثم تذكر ما قالته له العمة زيلدا عندما أحضر لها بعض الأعشاب من الحديقة.

فقال لجينا: «أشكرك».

شعرت جينا بأن هناك شيئًا في طريقة كلامه تذكرها بنكو.

نكو.

نكو والصياد.

هتفت جينا بانزعاج: «لا بد أن نعود».

فأومأ لها الفتى 412 برأسه، وهو يعلم أنهما لابد أن يواجها ما ينتظرهما بالخارج، أيًا كان ذلك، وإن كان قد سمح لنفسه بأن يستمتع لوهلة بالإحساس بالأمان.

لكنه كان يعلم أن هذا الإحساس لا يمكن أن يدوم.

36
التجمد



انفتح الباب المسحور ببطء لعدة بوصات ليس إلا، وطل منه الفتى 412، وإذا برجفة تسري في جسده. كان باب دولاب الجرعات مفتوحًا على آخره، ووجد نفسه ينظر إلى كعب الحذاء الطويل البني والموحل الخاص بالصياد.

كان الصياد واقفًا معطيًا ظهره لباب دولاب الجرعات، لا يبعد عنهما إلا بضع خطوات. عباءته الخضراء ملقاة على كتفه، ومسدسه الفضي في يده جاهز لإطلاق الرصاص، كان يقف في مواجهة باب المطبخ، بهيئة توحي أنه على وشك الاندفاع للأمام.

انتظر الفتى 412 ليرى ما أوشك الصياد أن يُقدِم عليه، لكنه لم يفعل

شيئًا على الإطلاق. فقال الفتى 412 في سره إنه ينتظر؛ ربما ينتظر العمة زيلدا أن تخرج من المطبخ.

ولأن الفتى 412 أراد إبعاد العمة زيلدا عن مواجهة الصياد، مد يده ليأخذ حشرة جينا المدرعة.

كانت جينا تقف مضطربة على السلم وراءه، وشعرت بأن هناك خطرًا ما يحدق بهما بعد أن لاحظت التوتر والسكون الذي اعترى الفتى 412، وعندما مد يده إليها أخرجت الحشرة المدرعة المكورة من جيبها وناولتها له، كما كانا قد خططا، وتمنت لها حظًا موفقًا في صمت. فقد بدأت جينا تحب الحشرة وتأسف أن تراها تذهب منها.

وبحرص شديد، أخذ الفتى 412 الحشرة، دفعها ببطء من الباب المسحور، ووضع الكرة الخضراء الصغيرة المجهزة بأسلحتها على الأرض في وضع استعداد، مع حرصه على أن يظل ممسكًا بها، ووجهها في الاتجاه المقصود، مباشرة جهة الصياد، ثم تركها تنطلق. وفي التوّ كانت الحشرة قد بسطت جسمها، وركزت عينيها الخضراوين الثاقبتين على الصياد وأشهرت سيفها مطلقة هسيسًا قصيرًا. حبس الفتى 412 أنفاسه عند صدور الصوت وتمنى ألا يكون الصياد قد سمعه، إلا أن الرجل لم يتحرك. فالتقط الفتى 412 أنفاسه ببطء شديد، وبضربة سريعة وخفيفة بأصبعه أرسل الحشرة لتنطلق محلقة في الهواء، جهة الهدف.. بصرخة مجلجلة.

إلا أن الصياد لم يحرك ساكنًا.

إنه لم يلتفت ولا حتى ابتعد عندما حطت الحشرة على كتفه ورفعت سيفها لتضرب ضربتها. انبهر الفتى 412 بهذا الموقف، صحيح أنه يعلم أن الصياد رجل صلب وعنيف، لكن من المؤكد أن الوضع هكذا زاد على حده.

وحينها ظهرت العمة زيلدا.

فصاح الفتى 412 قائلًا: «احترسي! الصياد!».

انتفضت العمة زيلدا من الدهشة، لكن دهشتها لم تكن من الصياد، بل من صوت الفتى 412 الذي لم تسمعه من قبل، ومن ثم لم تعرف من الذي تحدث، ولم تعرف أيضًا من أين أتى هذا الصوت.

وبعدها ولدهشة الفتى 412، أخذت العمة زيلدا الحشرة المدرعة من على الصياد وربتت عليها لتجعلها تتكور ثانية.

ومع كل هذا، لم يفعل الصياد شيئًا.

وبسرعة، وضعت العمة زيلدا الحشرة في أحد جيوبها العديدة المصنوعة من الأقمشة الملونة ونظرت حولها، وهي تتساءل في سرها أين هو ذلك الصوت الغريب عليها.. ووقعت عيناها على الفتى 412 وهو يطل من الباب المسحور الموارب.

قالت لاهثة: «أهذا أنت؟ يا إلهي! حمدًا لله أنك بخير. أين چينا؟».

فرد الفتى 412 خائفًا أن يسمعه الصياد: «هنا»، إلا أن الصياد ظل كما هو وكأنه لم يسمع شيئًا على الإطلاق، ثم مرت العمة زيلدا أمام هيئة الصياد الساكنة وكأنه قطعة أثاث بالية، ثم دفعت الباب المسحور وساعدت الفتى 412 وچينا على الخروج.

ثم قالت بفرحة: «يا له من منظر رائع! أن أرى *كليكما* سالمين، لقد قلقت عليكما».

فأشار الفتى 412 إلى الصياد وقال: «لكن، ماذا عنه؟».

ردت العمة زيلدا وقد اعتراها شعور بالرضا والسعادة: «**متجمد**. إنه الآن كتلة متجمدة وسيظل كذلك، إلى أن أقرر ماذا سأفعل به».

ثم سألتها چينا وهي تتسلق السلم: «أين نكو؟ أهو بخير؟».

ردت العمة زيلدا: «إنه بخير، وذهب ليقبض على التلميذ».

وما إن انتهت العمة زيلدا من جملتها حتى اندفع الباب بقوة، ودُفع منه التلميذ والماء يتساقط منه، يتبعه نكو والماء يتساقط منه أيضًا.

سبه نكو وهو يغلق الباب بعنف قائلًا: «خنزير»، ثم ترك الفتى وذهب بجوار النار المشتعلة ليجفف ملابسه.

وقف التلميذ بأسى والماء يتساقط منه على الأرض ونظر إلى الصياد يناشد المساعدة، وتساقط منه مزيد من الماء عندما رأى بانزعاج شديد حال الصياد. كان الصياد يقف **متجمدًا** وهو منحنٍ نصف انحناءة للأمام بمسدسه في يده، يحدق إلى الفراغ بعينين خاليتين من أي تعبير..

ازدرد التلميذ لعابه وهو يرى امرأة ضخمة في خيمة من الأقمشة الملونة تقترب نحوه قاصدة إياه، وعرف تمامًا من هي بفضل بطاقات صور الأعداء التي كان يُجبر على دراستها قبل الخروج في مهام المطاردة.

كانت الساحرة البيضاء المجنونة زيلدا زانوبا هيب.

هذا عدا الفتى الساحر نيكولاس بنيامين هيب، و412 الهارب من الخدمة العسكرية. إن جميعهم موجودون، تمامًا كما قيل له، ولكن، أين هي تلك الفتاة التي جاءوا من أجلها؟ أين *الملكة الصغيرة*؟

نظر التلميذ حوله ووقع بصره على چينا وهي واقفة في ظل الفتى 412. نظر بتمعن على حلقة الذهب التي تبرق حول شعرها الأسود الطويل وإلى عينيها البنفسجيتين، تمامًا كالصورة المرسومة على إحدى بطاقات الأعداء (والتي رسمتها بمهارة فائقة الجاسوسة ليندا لين). ورغم أنها أطول قليلًا مما كان يتوقع، فإنها بكل تأكيد الملكة الصغيرة.

ارتسمت ابتسامة خبيثة على وجه التلميذ وهو يتساءل في سره ماذا لو تمكن من أن يخطف چينا بمفرده، سيفرح به سيده كثيرًا حينها. وبالتأكيد سيغفر له كل أخطائه السابقة، كما سيتوقف عن تهديده بأن يرسله إلى جيش الشباب كعبد مطيع، خاصة أنه لو نجح في ذلك فسيكون قد نجح فيما فشل فيه الصياد نفسه.

سوف *يفعلها*.

وإذا به يباغت الجميع، رغم عباءته المبللة التي تعوق حركته، واندفع منقضًا على چينا وأمسك بها ،كان التلميذ على غير المتوقع أقوى كثيرًا بالنسبة لحجمه، وأحاط عنقها بذراعه النحيلة، حتى كاد يخنقها، ثم بدأ يجرها نحو الباب.

تحركت العمة زيلدا خطوة نحو التلميذ، وعلى الفور كان قد أخرج مطواته وفتحها، ضغط بها بقوة على عنق چينا، ثم دفعها من الباب

المفتوح إلى الممر متوجهًا إلى الزورق وكائن المأجوج الذي ينتظرهما، زمجر قائلًا: «إذا حاول أي شخص أن يمنعني فسوف أقتلها»، لم يبدِ كائن المأجوج أي اهتمام للمشهد الذي يحدث أمامه، كان منهمكًا في التهام الحشرة المدرعة الخامسة عشرة، فعمله لن يبدأ إلا مع وجود السجينة على متن الزورق.

وأوشكت چينا أن تصبح على متن الزورق.

لكنّ نكو لم يكن ليترك أخته تذهب هكذا بلا مقاومة. فاندفع بعنف وراء التلميذ وانقضّ عليه. سقط التلميذ على الأرض فوق چينا. دوت صرخة. وسالت دماء من تحتها.

جذبه نكو بعنف وطرحه بعيدًا عن طريقه.

ثم قال لاهثًا: «چين! چين! هل أصبت؟».

نهضت چينا بحركة سريعة وراحت تحدق إلى الدم المسال على الممر ثم قالت وهي تتلعثم: «لا.. لا أعتقد ذلك. أعتقد أنه هو الذي أصيب».

قال نكو وهو يركل السكين ليبعدها عن متناول يد التلميذ: «إنه يستحق ذلك».

قامت چينا ونكو برفع التلميذ وأوقفاه على قدميه، كان مصابًا بقطع بسيط في ذراعه ويبدو فيما عدا ذلك خاليًا من أية إصابات أخرى، لكنه بدا شاحبًا بدرجة مرعبة، فمنظر الدماء، خاصة أنها دماؤه هو، أصابه بالهلع، إلا أن فزعه كان أكبر وهو يفكر فيما سيفعل به السحرة. وبينما كانا

يجرانه إلى الكوخ، حاول محاولة أخيرة للهرب، فالتف بجسمه وأفلت من قبضة چينا، ثم وجه ركلة قوية إلى ساق نكو.

واندلعت هكذا معركة بينهما، وجَّه التلميذ خلالها لكمة لبطن نكو وأوشك أن يوجه له أخرى إلا أن نكو لوى ذراعه خلف ظهره.

وقال نكو: «حاول أن تفلت هذه المرة، أوتظن أنك ستأتي وتحاول أن تخطف أختي وتنجح في ذلك أيها الخنزير؟».

ثم قالت چينا ساخرة: «ما كان لينجح، إنه في غاية الحمق».

والتلميذ يكره أن يقال له إنه أحمق؛ إنها الكلمة التي لا يكف سيده عن استخدامها معه. فتى أحمق. أحمق الحمقى. أحمق فارغ الرأس. إنه يكره هذه الكلمة.

فقال لاهثًا بينما كان نكو يزيد من إحكام قبضته على ذراعه: «أنا لست أحمق، أنا أستطيع أن أفعل كل ما أريد أن أفعله. كنت أستطيع أن أطلق عليها النار لو أردت ذلك، ولقد أطلقت النار بالفعل هذه الليلة على أحد الكائنات. أنا أفعل ما أريد».

وما إن نطق التلميذ بهذه الكلمات حتى تمنى لو لم يفعل، وهو يرى أربعة أزواج من العيون تحدق إليه بنظرات اتهام.

ثم سألته العمة زيلدا بهدوء: «ماذا تقصد بالتحديد عندما قلت إنك أطلقت النار على **أحد الكائنات**؟».

فقرر التلميذ في سره أن يكابر بوقاحة وإصرار:

«ليس من شأنكم، أنا أستطيع أن أطلق النار على ما أريد. وإذا أردت أن أطلق النار على كرة بدينة من الفرو تقف في طريقي أثناء أدائي مهمة رسمية، فلا أتردد في ذلك».

أطبق عليهم الصمت، ثم كسر نكو هذا الصمت قائلًا:

«الغول، لقد أطلق النار على الغول. أيها *الخنزير*».

فصاح التلميذ: «أي!».

ثم قالت العمة زيلدا: «أرجوك يا نكو، لا داعي للعنف، فمهما يكن ما فعله فهو مجرد فتى صغير».

رد التلميذ متعاليًا: «أنا لست مجرد فتى صغير. أنا تلميذ دومدانيال، الساحر النكرومانسر الأعظم. أنا الابن السابع للابن السابع».

فقالت العمة: «ماذا قلت؟ *ماذا قلت الآن*؟».

«أنا تلميذ دومدانيال الساحر...».

«ليس هذا، فنحن نعرف *ذلك*. فهذا واضح تمامًا من النجوم السوداء التي تعلو حزامك».

فقال التلميذ بفخر سعيدًا بأنه وجد أخيرًا من يتعامل معه بشكل جاد: «لقد قلت إنني الابن السابع للابن السابع، أنا أمتلك قوة **سحرية**»، ثم أكمل الجملة في سره: حتى وإن لم تظهر بعد، لكنها سوف تظهر يومًا ما.

فقالت العمة زيلدا ببرود: «أنا لا أصدقك. فأنت أبعد شخص رأيته في حياتي يمكن أن يكون الابن السابع للابن السابع».

تجهم التلميذ وأصر قائلًا: «بل أنا. أنا سبتيموس هيب».

37

قراءة الغيب



قال نكو بغضب، وهو يسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا: «إنه يكذب»، بينما كان التلميذ يجلس بجوار النار ليجفف نفسه.

كانت الثياب الصوفية الخضراء التي يرتديها التلميذ تنبعث منها رائحة عفنة، وأدركت العمة زيلدا أنها رائحة تعاويذ فاشلة **وسحر أسود** عفن، ففتحت بضعة **برطمانات سحرية تحجب الروائح الكريهة**، وسرعان ما انتشرت في الهواء رائحة مبهجة لفطائر مارينج الليمون.

ثم واصل نكو كلامه قائلًا: «إنه يقول ذلك كي يحبطنا إن هذا الخنزير الوضيع ليس سبتيموس هيب».

وضعت چينا ذراعها حول نكو، أما الفتى 412 فلم يفهم شيئًا من كل هذا.

فسألهم: «من هو سبتيموس هيب؟».

رد عليه نكو: «إنه أخونا».

ازدادت حيرة الفتى 412.

فقالت له چينا: «لقد مات وهو طفل رضيع، لو أنه عاش لامتلك قوة **سحرية** مدهشة. فالحكاية أن أبي هو الابن السابع، لكن ليس بالضرورة أن يمنح ذلك قوة **سحرية**».

فهمهمت العمة زيلدا: «بالتأكيد لم يمنح سايلاس».

واصلت چينا كلامها وقالت: «عندما تزوج أبي من أمي أنجبا ستة أبناء؛ سايمون وسام وإد وإريك، وچوچو ونكو، ثم أنجبا سبتيموس؛ وبهذا الشكل أصبح سبتيموس هو الابن السابع للابن السابع، لكنه مات بعد أن وُلد مباشرة»، كانت تحكي وهي تتذكر ما قالته لها سارة ذات ليلة وهي في سريرها الصندوق، ثم قالت: «كنت دائمًا أعتقد أنه أخي التوءم، لكن اتضح أنه ليس...».

قال الفتى 412: «ياه!»، ثم قال في سره: إن المسألة لطالما تبدو معقدة جدًا أن تكون لك أسرة.

ثم قال نكو: «أي إنه بكل تأكيد ليس أخانا. حتى وإن كان، فأنا لا أريده أن يكون أخي. أنا لا أقبل أن يكون أخي».

فقالت العمة زيلدا: «إذن، ليس هناك سوى مخرج واحد لهذا الموقف سوف نرى ما إذا كان ما قاله هو الصدق، وهو أمر أشك فيه تمامًا، رغم أنني بالفعل دائمًا ما كنت أتعجب من موضوع سبتيموس. فلقد بدا لي دائمًا أن هناك شيئًا ما غير منطقي في الأمر»، ثم فتحت الباب ونظرت إلى القمر.

وقالت: «إن القمر شبه مكتمل. وقت لا بأس به كي نقرأ ما حدث».

وفي نفس واحد، قالت چينا ونكو والفتى 412: «ماذا قلت؟».

فردت قائلة: «سأريكم! تعالوا معي».

كانت بركة البط هي آخر مكان توقعوا أنهم سيذهبون إليه. لكنهم ذهبوا. وأخذوا ينظرون في صورة القمر المنعكسة على المياه القاتمة الساكنة، تمامًا كما طلبت منهم العمة زيلدا.

كان التلميذ محشورًا تمامًا بين نكو والفتى 412؛ تحسبًا لأي محاولة منه للفرار. والفتى 412 أسعده كثيرًا أن نكو وثق به أخيرًا. فمنذ وقت ليس ببعيد، كان نكو يحاول أن يمنعه هو من الفرار. وها هو الآن، يشاهد بالتمام والكمال نوع **السحر** الذي كان يُحذر منه في جيش الشباب: البدر وساحرة بيضاء تتوهج عيناها الزرقاوان الثاقبتان في نور القمر. وهي تلوح بذراعيها في الهواء وتتحدث عن أطفال رضع موتى. وما أدهش الفتى 412 ليس أن كل هذا يحدث أمام عينيه.. بل الواقع أن كل ذلك بدا له الآن أمرًا عاديًا. وما زاد من دهشته أنه أدرك أن هؤلاء الأفراد

الواقفين حول بركة البط - وهم چينا ونكو والعمة زيلدا - باتت لهم مكانة خاصة في قلبه أكثر من أي شخص آخر في حياته، هذا عدا الفتى 409 بالطبع.

ثم قال في سرّه إنه يستثني منهم التلميذ؛ فالتلميذ يذكره بمعظم هؤلاء الذين عذبوه في حياته السابقة. وقرر أنه هكذا سيكون الأمر من الآن فصاعدًا، فمهما يحدث لن يعود أبدًا إلى جيش الشباب.. *أبدًا*!

تحدثت العمة زيلدا بصوت خفيض وقالت: «والآن، سوف أسأل القمر أن يُظهر لنا سبتيموس».

شعر الفتى 412 برجفة، وأخذ يُحدق إلى مياه البركة السوداء الداكنة، تتوسطها صورة رائعة لانعكاس القمر، ومن شدة وضوح تفاصيلها رأى البحار والجبال الموجودة على سطح القمر بوضوح لم يسبق له أن رآه من قبل.

رفعت العمة زيلدا رأسها ونظرت إلى القمر، ثم قالت: «أيها القمر العظيم، أيها القمر العظيم، أرنا، إن شئت، أين هو الابن السابع لسايلاس وسارة، أرنا سبتيموس هيب».

حبس الجميع أنفاسهم وهم ينظرون إلى سطح البركة، وينتظرون. شعرت چينا بحيرة؛ فسبتيموس مات، فما الذي سيظهر؟ كومة من العظام، أم قبر صغير؟

خيم الصمت على الجميع، ثم بدأ انعكاس القمر يكبر ويكبر إلى أن أصبح قرصًا أبيض ضخمًا يكاد محيطه يكون دائرة تامة غطت سطح بركة

البط كلها. في بادئ الأمر، بدأت ظلال غامضة تظهر في القرص، ورويدًا رويدًا صارت أكثر وضوحًا إلى أن رأوا صورةً منعكسةً لهم هم شخصيًا.

فقال التلميذ: «انظروا، لقد طلبتم أن تروني، وهأنذا الآن في الصورة، لقد قلت لكم».

قال نكو غاضبًا: «هذا لا يعني شيئًا، إنه مجرد انعكاس لصورتنا».

فقالت العمة زيلدا مفكرة: «ربما نعم وربما لا».

فسألت چينا: «ألا نستطيع أن نرى ماذا حدث لسبتيموس عندما وُلد؟ فحينها سوف نعلمُ إن كان لا يزال على قيد الحياة أم لا، أليس كذلك؟».

«بلى، هذا صحيح. سوف أسأل. لكن رؤية أمور من الماضي ليست أمرًا سهلًا»، ثم أخذت نفسًا عميقًا وقالت: «أيها القمر العظيم، أيها القمر العظيم، أرنا، إن شئت، أول يوم في حياة سبتيموس هيب».

راح التلميذ يستنشق ويتنحنح.

فقالت العمة زيلدا: «هدوء أرجوكم».

أخذت صورتهم تختفي عن سطح الماء واستبدل بها مشهد مفصل بغاية الدقة، واضح تمامًا وبراق وسط ظلمة منتصف الليل.

كان المشهد لمكان مألوف تمامًا بالنسبة لچينا ونكو.

إنه بيتهم في القلعة، كانت الوجوه الموجودة في الغرفة مرسومة أمامهم كأنها لوحة معلقة على حائط؛ لوحة ساكنة لا تتحرك، جمدها الزمن. كانت سارة ممددة على سرير، تحمل رضيعًا، وسايلاس إلى

جوارهما. التقطت چينا أنفاسها؛ فلم تكن تدرك حتى هذه اللحظة كم تفتقد البيت، ثم نظرت نحو نكو الذي علت وجهه نظرة تركيز أدركت منها أنه لا يبدو محبطًا أو حزينًا.

وفجأة، لهث الجميع؛ فالوجوه بدأت تتحرك، بلا صوت، وبانسيابية، كأنها صور متحركة، بدأت تعرض مشهدًا أمام الحضور – فيما عدا شخصًا واحدًا!

وفجأة قال التلميذ: «إن جهاز تصوير سيدي أفضل مائة مرة من بركة البط القديمة هذه».

قال نكو بصوت كالفحيح: «اصمت».

تنهد التلميذ بصوت عالٍ وأخذ يرفس، وقال في سرِّه إن كل هذا كلام فارغ، ولا شأن له به.

لكنه كان مخطئًا، فالأحداث التي يراها الآن سوف تغير مجرى حياته.

بدأ المشهد يتكشف أمامهم.

كانت غرفة أسرة هيب يبدو فيها شيء مختلف من الصعب تحديده؛ كل شيء فيها كان أحدث وأنظف، سارة هيب أيضًا كانت أصغر سنًا، وبدا وجهها أكثر امتلاءً وعيناها لا تصاحبهما علامات الحزن، بل في الواقع بدت سعيدة وهي تحمل رضيعها سبتيموس. بدا سايلاس أيضًا أصغر سنًا؛ و بدا شعره مرتبًا، ووجهه لا تعلوه علامات القلق. وكان هناك ستة أبناء يلعبون معًا في هدوء.

ابتسمت چينا في شوق، بعد أن أدركت أن أصغر الأبناء ذا الشعر الأشعث لابد أنه نكو. وقالت في سرها إنه يبدو لطيفًا للغاية وهو يقفز هكذا حول الطفل الرضيع بحماس يريد رؤيته.

رفع سايلاس نكو عاليًا ليريه أخاه الجديد، مد نكو يدًا صغيرة ممتلئة وبرفق أخذ يربت على وجنة الرضيع. قال سايلاس شيئًا ثم أنزله على الأرضية وذهب نكو بخطواته الصغيرة ليلعب مع إخوته الأكبر سنًّا.

ودع سايلاس الآن سارة والرضيع بقبلة، ثم توقف وقال شيئًا لسايمون؛ أكبر الأبناء، وبعد ذلك رحل.

تلاشت الصورة، والساعات تمر على أسرة هيب.

والآن، تضيء الشموع غرفة أسرة هيب. سارة ترضع رضيعها، وسايمون يقرأ بهدوء قصة لإخوته الصغار، ثم تظهر في الصورة امرأة ضخمة بملابس زرقاء، إنها رئيسة المولدات، وقد دخلت مسرعة الغرفة. إنها تأخذ الرضيع من سارة وتضعه في الصندوق الخشبي الذي يُستخدم كمهد له. وظهرها موجه لسارة، تسحب قارورة صغيرة من جيبها بها سائل أسود وتضع أصبعها فيه، ثم تلتفت حولها بنظرة يعلوها إحساس بتأنيب الضمير، ثم تمسح شفتي الرضيع بأصبعها الأسود. وعلى الفور يترهل جسم سبتيموس.

تلتفت رئيسة المولدات لسارة، وهي تحمل الرضيع المترهل، تبدو سارة محطمة، ثم تضع فمها على فم الرضيع تحاول أن تعيد له أنفاسه،

لكن سبتيموس يظل مترهلًا كأنه خرقة بالية، ثم سرعان ما تشعر سارة أيضًا بتأثير المخدر، وتصاب بدوار وتسقط على الوسائد.

وتُخرج رئيسة المولدات التي يراقبها ستة أبناء مذعورين- لفة ضمادات ضخمة من جيبها وتبدأ في لف سبتيموس بدءًا بقدميه، وتكمل لفه بمهارة حتى تصل إلى رأسه، ثم تتوقف للحظة وتتأكد من أنه لا يزال يتنفس، فترتاح وتكمل لفه، تاركةً أنفه بارزًا خارج الضمادات، إلى أن بدا كأنه مومياء مصرية صغيرة.

وفجأة، تتوجه رئيسة المولدات نحو الباب، وتأخذ معها سبتيموس. تقاوم سارة كي تفيق من تأثير المخدر لترى رئيسة المولدات وهي تفتح الباب بسرعة وتصطدم بسايلاس، والذي يبدو عليه الذهول، وعباءته ملفوفة بإحكام حوله. تنحّيه رئيسة المولدات جانبًا وتنطلق بعيدًا في الطرقة.

طرقات العشوائيات تنيرها الآن مصابيح يشع منها ضوءٌ ساطعٌ، تلقي بظلال متراقصة على الظل المظلم لرئيسة المولدات وهي تجري وتحمل سبتيموس. بعد قليل، تظهر رئيسة المولدات وسط ظلام الليل والثلوج تتساقط، فتهدئ من سرعة خطواتها، ثم تنظر حولها بلهفة، وتسرع وهي منحنية بجسمها على الرضيع في الشوارع الضيقة الخالية من المارة إلى أن تصل إلى ساحة مفتوحة.

شهق الفتى 412؛ إنه الموقع المرعب الذي يقيمون فيه العروض العسكرية.

ظلها الضخم يعبر موقع العروض العسكرية المغطى بالثلوج، وهو يجري بخطوات مسرعة كأنه خنفساء سوداء على غطاء مائدة أبيض.

يحييها الحارس عند بوابة الثكنات العسكرية ويدعها تدخل.

داخل الثكنات العسكرية الكئيبة، تبطئ رئيسة المولدات من سرعة خطواتها، إنها تنزل سلمًا ضيقًا شديد الانحدار يؤدي إلى غرفة أسفل سطح الأرض مكدسة بأسرّة أطفال خالية من الأطفال ومتراصّة في صفوف؛ إنها الغرفة التي سرعان ما ستكون حضانة جيش الشباب التي سوف ينشأ فيها كل الأيتام والأولاد المنبوذين في القلعة (الفتيات سيودعن في مبنى تدريبات الخدمة الاجتماعية). الغرفة بها أصلًا أربعة مقيمين سيئ الحظ. ثلاثة منهم هم الأبناء الثلاثة لحارس تجرأ وأطلق نكتة على ذقن الأمين الأعلى، والرابع هو رضيع رئيسة المولدات نفسها، ويبلغ من العمر ستة أشهر، وترعاه جليسة أطفال عندما تكون رئيسة المولدات في أوقات العمل الرسمية. جليسة الأطفال، وهي سيدة يلازمها السعال، تجلس مترهلة على مقعد. تضع رئيسة المولدات سبتيموس بسرعة في سرير خالٍ وترفع عنه الضمادات. يتثاءب سبتيموس ويفرد قبضته الصغيرة.

إنه حي.

حدقت چينا ونكو والفتى 412 والعمة زيلدا بذهول إلى المشهد الذي يدور أمامهم على سطح البركة، مدركين أن ما قاله التلميذ الآن

يبدو أنه صحيح تمامًا، بينما خالج الفتى 412 شعور بغيض في جوفه، كارهًا أن يرى ثكنات جيش الشباب العسكرية مرة أخرى.

رئيسة المولدات يبدو عليها الإرهاق وتجلس في ضوء شبه معتم في حضانة جيش الشباب، وتنظر كل لحظة بانزعاج إلى الباب كأنها تنتظر حضور شخص، ولكن لا أحد يأتي.

بعد دقيقة أو دقيقتين، ترفع نفسها من على الكرسي وتذهب إلى السرير الذي وضعت عليه رضيعها الذي كان يبكي، وترفعه. في تلك اللحظة، يندفع الباب بقوة، وتلتفت رئيسة المولدات بوجه شاحب والرعب يملؤها.

تقف الآن سيدة طويلة القامة لدى مدخل الباب، وترتدي فوق عباءتها السوداء المفصلة على جسمها المريلة الخاصة بالممرضات، إلا أنها ترتدي حول خصرها حزامًا لونه في احمرار الدم يظهر عليه النجمات السوداء الثلاث الخاصة بدومدانيال.

لقد جاءت لسبتيموس هيب.

لم يعجب التلميذ كل هذا الذي يراه أمامه؛ فهو لا يريد أن يرى الأسرة الوضيعة التي تم إنقاذه منها - إنهم لا يعنون له شيئًا، كما أنه لا يريد أن يرى ما الذي حدث له وهو طفلٌ رضيعٌ أيضًا. فما شأنه هو بكل هذا الآن؟ وفضلًا عن كل ذلك، لقد سئم الوقوف في البرد مع هؤلاء الأعداء.

بحنق، ركل بطة كانت تجلس بجانب قدمه، وألقاها بركلته في وسط البركة مباشرة فسقطت بيرت وتناثرت المياه حولها، فما كان إلا أن تشتتت الصورة إلى آلاف الشظايا الضوئية المتراقصة، وبطل السحر.

جرى التلميذ بكل ما أوتي من قوة خوفًا من فعلته بطول الممر قاصدًا قناة الغمد، متوجهًا إلى الزورق الأسود الضيق. وقبل أن يذهب بعيدًا كانت بيرت، والتي لم تتقبل بسهولة ركلها في البركة، تجري وراءه، ولم يسمع التلميذ رفرفة جناحيها القويين إلا مباشرة قبل أن يشعر بنقرة في رأسه من منقارها بينما حبل ردائه يكاد يخنقه، ثم جرته البطة من غطاء رأسه نحو نكو.

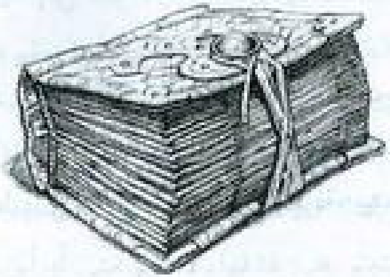
فقالت العمة زيلدا بنبرة بدا عليها القلق: «يا إلهي!».

قال نكو بغضب بعد أن لحق بالتلميذ وأمسك به: «إنه لا يستحق».

فقالت العمة زيلدا: «أنا لم أقلق عليه هو، إنما خشيت أن تكون بيرت قد أصابت منقارها».

38

ذوبان التجمد



جلس *التلميذ مكوَّمًا عند الركن بجوار النار*، بينما ظلت بيرت ممسكة بأحد أكمامه المتدلية. أوصدت چينا كلَّ الأبواب بالمفاتيح وأغلق نكو النوافذ، تاركين حراسة التلميذ للفتى 412 بعد أن ذهبا ليطمئنا على الغول.

كان الغول ممددًا في قاع حوض الاستحمام المعدني، يبدو كأنه كتلة صغيرة من الفرو البني المبلل وسط بياض الملاءة التي وضعتها العمة زيلدا أسفله، كانت عيناه شبه مفتوحتين وينظر بهما إلى زائريه بنظرة ضبابية خالية من التركيز.

قالت له چينا: «مرحبًا أيها الغول، هل تشعر الآن بتحسن؟».

لم يبدِ الغول أي استجابة. غطَّست العمة زيلدا قطعة الإسفنج في دلو مليء بالماء الدافئ وبرفق مسحت بها جسمه.

ثم قالت: «كي أبقيه رطبًا فحسب، فالغول الجاف لا يشعر بالسعادة».

ثم خرجت چينا ونكو على أطراف أصابعهما من المطبخ مع العمة زيلدا، وهمست چينا إلى نكو قائلة: «لا يبدو أن حالته مطمئنة، أليس كذلك؟».

نظر الصياد الذي كان لا يزال على هيئته المتجمدة خارج باب المطبخ- إلى چينا بنظرة شريرة عندما مرت أمامه. وظلت عيناه الزرقاوان الثاقبتان مثبتتيْن عليها وتلاحقاها في أنحاء الغرفة، بينما ظل جسمه بلا حركة.

شعرت چينا بنظراته، فنظرت هي إليه، وعلى الفور أحسَّت برجفة تسري في جسدها، ثم قالت: «إنه ينظر إليَّ. إن عينيه تلاحقانني».

فقالت العمة زيلدا بنبرة استهجان: «يا للإزعاج! لقد بدأ **يذوب**. من الأفضل أن أبعد عن هنا قبل أن يتسبب في مزيد من المتاعب».

وجذبت العمة زيلدا المسدس الفضيَّ من يد الصياد **المتجمدة**. فبرقت عيناه بغضب بينما كانت العمة زيلدا تفتح المسدس باحتراف وأخرجت منه طلقة فضية صغيرة.

ثم قالت وهي تناولها إلى چينا: «تفضلي، لقد ظلت تبحث عنك منذ عشر سنوات، والآن انتهى الأمر. أنت في أمان الآن».

ابتسمت چينا بريبة وأجرت الطلقة الصماء الفضية على راحة يدها يعتريها إحساس بالنفور؛ رغم أنه كان من المستحيل عليها ألا تنبهر

بإتقان صنعها، ثم رفعتها ونظرت بعينين شبه مغمضتيْن على شق صغير جدًا يعلو سطحها. ولدهشتها، رأت حرفين محفورين في جسم الرصاصة الفضية هما: أ ط.

فسألت چينا العمة زيلدا: «ما معنى أ ط؟ انظري إلى هذين الحرفين هنا على الرصاصة».

لم ترد عليها العمة زيلدا في التوّ، فرغم أنها تعلم معنى الحرفين فإنها ترددت، أتخبر چينا بمعناهما أم لا.

همهمت چينا قائلة وهي تفكر بتركيز: «أ ط، أ ط...».

قالت العمة زيلدا: «الأميرة الطفلة. إنها رصاصة مسماة. والرصاصة المسماة دائمًا ستعثر على هدفها. لا يهم متى أو أين، إلا أنها بلا محالة سوف تعثر عليه، تمامًا كما عثرت عليك رصاصتك، لكن ليس بالطريقة التي كان مخططًا لها».

ردت چينا بهدوء: «ياه! إذن، الرصاصة الأخرى، الرصاصة التي كانت لأمي، هل...».

«نعم كانت مسماة، كان عليها حرف م».

ثم سألتها چينا: «هل أستطيع أن أحتفظ بالمسدس؟».

بدا الاندهاش على العمة زيلدا، ثم قالت: «في الحقيقة، أظن ذلك، إذا كانت هذه رغبتك».

أخذت چينا المسدس وحملته كما رأت الصياد والسفاحة من قبل يفعلان، وهي تشعر بثقل وزنه في يدها وبإحساس غريب بالقوة منحه لها حمله.

ثم قالت للعمة زيلدا وهي تعيده إليها: «شكرًا، هل يمكن أن تحتفظي لي به عندك في الوقت الراهن؟».

تابعت عينا الصياد العمة زيلدا وهي تأخذ المسدس إلى دولاب الجرعات والسموم الخاصة وتغلق عليه الباب بالمفتاح، ثم تابعتها عيناه وهي تعود وتتجه نحوه وتتحسس أذنيه. بدا الصياد ثائرًا، فقد أخذ حاجباه يتحركان بحركة عصبية سريعة، وبرقت عيناه بغضب، لكن لا شيء غير ذلك تحرك فيه.

فقالت العمة زيلدا: «حسنًا، أذناه **لاتزالان متجمدتين**. لا يستطيع أن يسمع ما نقول حتى الآن. لا بد أن نقرر ماذا سنفعل به قبل أن **يذوب**».

فسألتها جينا: «ألا يمكن أن **تعيدي تجميده**؟».

هزت لها العمة زيلدا رأسها، وقالت آسفةً: «لا. فلا ينبغي **إعادة تجميد شخص** ما إن يبدأ في **الذوبان**؛ فهذا يعرضه للخطر؛ فقد يصاب حينها **بحروق التجمد**، أو يصبح مبللًا تمامًا، وهو منظر غير لطيف. لكن هذا لا يمنع أن الصياد خطر ولن يتنازل عن مطاردتنا. أبدًا. وعلينا إذن بشكل أو بآخر أن نمنعه عن ذلك».

أخذت جينا تفكر.

ثم قالت: «نحن نحتاج أن نجعله ينسى كل شيء حتى اسمه وهويته».

ثم ضحكت ضحكة خافتة وقالت: «يمكننا أن نجعله يعتقد أنه مروض أسود أو شيء من هذا القبيل».

ثم أكمل نكو كلامها قائلًا: «ثم ينضم إلى السيرك ويكتشف أنه لم يكن مروض أسود مباشرة بعد أن يضع رأسه في فم الأسد».

فقالت لهما العمة زيلدا وهي تذكرهما: «يجب ألا تستخدم **السحر** لنهدد به حياة الناس».

فقالت جينا: «في هذه الحالة، يمكن أن تجعله مهرجًا، إن منظره مخيفٌ جدًا».

ابتسمت العمة زيلدا وقالت: «لقد سمعت أن هناك «سيركًا» سيقام في الميناء في هذه الأيام. إنهم يأخذون كل الأشكال، حسبما قيل لي».

ثم ذهبت العمة زيلدا لتحضر كتابًا ممزقًا عنوانه *ذكريات **سحرية***.

ثم قالت وهي تناوله للفتى 412: «لقد استذكرت هذا الكتاب. أتستطيع أن تبحث لي عن **الوصفة السحرية** المناسبة؟ أعتقد أن اسمها **إعادة تشكيل المارقين**».

أخذ الفتى 412 يتصفح الكتاب القديم الذي تفوح منه رائحة، ورغم أن الكتاب يُعد من تلك الكتب التي فُقدت منها معظم **وصفاتها السحرية**، فإن الفتى 412 وجد في أواخر صفحاته ما كان يبحث عنه؛ منديلًا صغيرًا معقودًا وبعض الكتابات السوداء المتسخة بطول الحاشية.

قالت العمة زيلدا: «رائع، هل لك أن تلقي التعويذة بالنيابة عنا؟».

فقال الفتى 412 وهو مندهش تمامًا: «*أنا*؟».

فردت العمة زيلدا: «إذا كنت لا تمانع، فنظري لا يستطيع أن يقرأ في مثل هذا الضوء»، ثم ذهبت عند الصياد وتفحصت أذنيه، كانتا دافئتين، ثم نظر إليها الصياد وهو يضيق عينيه وينظر بنظرته الباردة المألوفة، لكنَّ أحدًا لم يلتفت إليه.

قالت العمة زيلدا: «إنه يسمعنا الآن. من الأفضل أن ننتهي من هذا قبل أن يستطيع التحدث أيضًا».

وبحرص شديد، قرأ الفتى 412 تعليمات التعويذة، ثم أمسك المنديل المعقود وقال:

أيًا كان تاريخك الماضي

فسوف تنساه عندما تراني

لوّح الفتى 412 بالمنديل أمام عيني الصياد الغاضبتين، ثم حل العقدة، وهنالك، تحولت عينا الصياد إلى عينين خاليتين من التعبير، وبعد أن كانتا تشعان تهديدًا بدا عليهما الآن الحيرة وربما الخوف أيضًا.

قالت العمة زيلدا: «رائع، يبدو أن التعويذة أتقنت عملها. هل يُمكنك أن تقوم بالجزء الثاني الآن؟».

فقال الفتى 412 بسرعة:

استمع إلى عاداتك الجديدة التي ظهرت لك

تذكر الآن الحياة المختلفة الخاصة بك

وقفت العمة زيلدا أمام الصياد وخاطبته بحدة قائلة: «هذه هي قصة حياتك، لقد وُلدت في كوخ هناك بالميناء».

ثم قالت جينا: «كنت طفلًا بشعًا، وكان وجهك تعلوه الحبوب».

ثم أضاف نكو: «لم يكن أحد يحبك».

بدأت التعاسة ترتسم على وجه الصياد.

ثم قالت جينا التي بدأت تشفق عليه قليلًا: «فيما عدا كلبك».

فقال نكو: «وكلبك مات».

انهار الصياد تمامًا.

فقالت جينا محتجة: «نكو، لا تكن قاسيًا».

«أنا؟ وماذا عنه هو؟».

وهكذا، تكشفت للصياد حياته المأساوية أمام عينيه، وهي حياة كلها مصادفات تعيسة، وأخطاء ومواقف محرجة للغاية جعلت أذنيه اللتين ذاب عنهما الصقيع تحمران عند استعادتهما المفاجئة لحاسة السمع. وأخيرًا، انتهت القصة الحزينة على أنه تتلمذ على يد مهرج غضوب معروف للجميع بلقب «نفس الكلب».

كان التلميذ يراقب كل ذلك بمزيج من الطرب والابتهاج، والذعر والرعب؛ فالصياد عذبه لزمن طويل، وأسعده أن يرى أخيرًا من ينتقم له منه. وفي نفس الوقت، كان من المستحيل عليه أن يتساءل في سره عما سيفعلون به عندما يحل دوره.

وبعد أن وصلت القصة المؤسفة إلى نهايتها، أعاد الفتى 412 عقد المنديل وقال:

حياتك السابقة تلاشت بعيدًا عنك

وهناك ماضٍ آخر ينتظرك

وببعض الجهد، نقلوا الصياد في الخارج كأنه لوح خشبي ثقيل ووضعوه بجوار قناة الغمد، حتى يُكمل ذوبانه بعيدًا عنهم. ومع ذلك،

لم يلتفت إليه كائن المأجوج الذي كان قد انتهى توًا من انتشال الحشرة المدرعة الثامنة والثلاثين من الوحل ويفكر في سره: أينتزع منها الأجنحة قبل أن يمتصها أم يتناولها هكذا؟

نظرت العمة زيلدا باشمئزاز إلى حديقتها بزينتها الجديدة- ولعلها المؤقتة أيضًا- وهي تقول: «على الأقل، سيحرس لي الحديقة كأنه خيال المآتة.. المهم، لقد أنجزنا هذه المهمة بشكل رائع. والآن، لم يعد أمامنا سوى التلميذ».

قالت جينا وهي مستغرقة في التفكير: «سبتيموس.. أنا لا أصدق ذلك. ترى، ماذا سيكون رد فعل أمي وأبي؟ إنه بشع».

فقالت العمة زيلدا: «في الحقيقة، أظن أن نشأته مع دومدانيال لم تعد عليه بأي نفع».

ردت جينا معلقةً على كلامها: «لقد نشأ الفتى 412 أيضًا في جيش الشباب وهو مع ذلك مختلف. إنه ما كان يمكن أن يفكر يومًا في أن يطلق النار على الغول».

فقالت العمة زيلدا، مصدقةً على كلامها: «أعلم ذلك، لكن ربما التلميذ، أقصد سبتيموس، سوف يتحسن مع الوقت».

فردت جينا بشك: «ربما».

فيما بعد، في الساعات الأولى من الصباح، بعد أن دس الفتى 412 بحرص الصخرة الخضراء التي أعطتها له جينا أسفل لحافه ليحفظها في الدفء ويجعلها قريبة منه، وفي الوقت الذي بدأ النعاس يغلبهم فيه أخيرًا، سُمع طرق على الباب يبدو التردد على صاحبه.

اعتدلت جينا جالسةً في خوف. ترى، من يكون هذا الطارق؟ هزت نكو والفتى 412 وأيقظتهما، ثم تسللت إلى النافذة وبلا صوت فتحت المصراع.

وقف نكو والفتى 412 لدى الباب، مسلحين بمكنسة ومصباح ثقيل. بينما اعتدل التلميذ جالسًا في الركن المظلم بجوار النار وابتسم ابتسامة خبيثة، لقد أرسل إليه دومدانيال فرقة إنقاذ.

لم يكن ذلك فرقة إنقاذ، لكن جينا علاها الشحوب عندما رأت الطارق.

وهمست قائلة: «إنه الصياد».

فقال نكو: «لن يدخل، بأي حال من الأحوال».

لكن الصياد عاد يطرق على الباب، وبصوت أعلى.

فصاحت جينا قائلة: «ابتعد عن هنا!»

دخلت عليهم العمة زيلدا التي كانت مع الغول ترعاه.

وقالت: «اسأليه ماذا يريد، ثم سنجعله يرحل بعد ذلك».

ومن ثم، رغمًا عنها، فتحت جينا الباب للصياد.

وبالكاد تعرفت إليه. فرغم أنه لا يزال يرتدي زي الصياد، فإنه ما عاد يبدو مثلهم لقد لمّ عباءته الخضراء الثقيلة حول جسمه مثل شحاذ لفّ جسمه ببطانية، ووقف على مدخل الباب في خجل بجسم منحنٍ للأمام قليلًا.

ثم همهم قائلًا: «أنا آسف على إزعاجكم أيها الكرام في هذا الوقت المتأخر، لكن يبدو أنني ضللت الطريق. ترى، هل يمكن أن يرشدني أحد إلى الميناء؟».

فردت چينا باقتضاب، وهي تشير له إلى الاتجاه: «من هنا».

بدا الصياد مرتبكًا، ثم قال: «أنا أضل الطريق بسهولة يا آنسة. أين ذلك بالتحديد؟».

فقالت له العمة زيلدا: «تابع السير مع القمر، سوف يرشدك».

فانحنى الصياد بذل.

ثم قال: «لك جزيل الشكر يا سيدتي. ترى، هل سأثقل عليكم لو سألتكم ما إذا كان هناك سيرك سيقام قريبًا في البلدة؟ فأنا أسعى لأن يقبلوني للعمل هناك كمهرج».

كتمت چينا قهقهتها.

ثم ردت عليه العمة زيلدا قائلة: «نعم، هذا صحيح بالمصادفة. هل.. هل يمكن أن تنتظر دقيقة؟».

واختفت العمة زيلدا وذهبت إلى المطبخ، ثم عادت ومعها سلة صغيرة بها بعض الخبز والجبن.

وقالت له: «خذ هذا، وحظًا موفقًا في حياتك الجديدة».

انحنى الصياد مرة أخرى.

وقال: «ياه! أشكرك جزيل الشكر يا سيدتي»، ثم نزل إلى قناة الغمد، ومر بكائن المأجوج الذي كان نائمًا، وبزورقه الأسود الضيق دون أن يتعرف إلى أيٍّ منهما ولو بلمحة، ثم مر بالجسر وابتعد.

ووقفت أربعة وجوه صامتة لدى مدخل الباب تراقب الصياد وهو وحيد يجتاز طريقه مترددًا في أنحاء مستنقعات مرام قاصدًا حياته الجديدة في:

السيرك المتجول

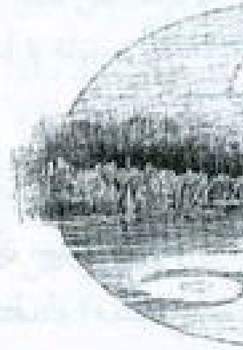
وعروض الوحوش

لصاحبيه: «فيش هيد» و «ديردل»

إلى أن اختفى القمر وراء سحابة وغرقت المستنقعات مرة أخرى في ظلام دامس.

39

الموعد



في وقت متأخر من تلك الليلة، فر التلميذ من خلال نفق القطة.

فبيرت، والتي لا تزال محتفظة بكل غرائز القطط، تحب أن تتجول في الليل ولذلك اعتادت العمة زيلدا أن تترك الباب **مغلقًا بتعويذة سحرية** من جانب واحد. وكان ذلك يسمح لبيرت بالخروج، ويمنع أي شيء من الدخول إلى الكوخ، ولا حتى بيرت. فالعمة زيلدا تحذر بشدة من الجنيات الصغيرة السمراء وأشباح المستنقع الضالة.

ولذا، عندما استغرق الجميع في النوم فيما عدا التلميذ، وقررت بيرت أن تخرج في جولة ليلية، فكر التلميذ في أن يتبعها. كان النفق ضيقًا وضاغطًا، لكن التلميذ، بجسده النحيل كالثعبان وبقدرته الكبيرة على

الالتواء، حشر نفسه مثل الدودة وسط هذا الفراغ الضيق، بينما قام **السحر الأسود** العالق بعباءته بفك سحر نفق القطة. وسرعان ما خرج وجهه المرتبك من الجانب الآخر من النفق إلى نسيم الليل البارد.

قابلته بيرت بنقرة حادة في أنفه، لكن هذا لم يردعه، فخوفه من أن يظل محشورًا في نفق القطة، بأقدامه التي لا تزال داخل الكوخ ورأسه في الخارج كان أقوى من خوفه من بيرت. وتملكه إحساس بأن لا أحد سيزعج نفسه ويسرع في جذبه إذا حدث وانحشر في النفق؛ ولذا تجاهل البطة الغاضبة، وبعد أن بذل مجهودًا شاقًا، تلوى داخل النفق وخرج منه.

ثم توجه مباشرة إلى موقع المرسى، تتبعه بيرت عن قرب، وحاولت أن تمسك به من ياقته مرة أخرى. لكن هذه المرة، كان التلميذ مستعدًا لها، فضربها ضربة عنيفة أطاحت بها بعيدًا لتسقط مرتطمة بالأرض، ويصاب أحد أجنحتها بكدمات شديدة.

كان كائن المأجوج ممددًا في الزورق، نائمًا وجسمه يهضم ستًا وخمسين حشرة مدرعة. وبحذر، خطا التلميذ فوقه، ولحسن حظه لم يتحرك الكائن - فمسألة الهضم أمر يأخذه بغاية الجدية.. كانت رائحة المادة اللزجة تقف في حلق التلميذ، لكنه التقط رغم ذلك المجداف الذي بات هو أيضًا مغطى بهذه المادة اللزجة، وسرعان ما بدأ يشق طريقه في قناة الغِمد متوجهًا إلى متاهة شبكة القنوات المتعرجة التي تتقاطع عبر مستنقعات مرام لتأخذه بعد ذلك إلى قناة ديبين.

بعد أن ترك التلميذ الكوخ وراءه ووجد نفسه يشق الطريق وسط المساحات الشاسعة للمستنقع، بدأ يشعر بالانزعاج، بعد أن تملكه رعب شديد وهو بدون حماية كائن المأجوج المستغرق في النوم، وتذكر كل تلك القصص المرعبة التي كان يسمعها عن المستنقعات في المساء. فراح يجدف بأقصى قدر من الهدوء، خشية أن يزعج شيئًا ربما لا يريد الإزعاج. أو ما هو أسوأ من ذلك؛ شيئًا ربما يكون منتظرًا أن يأتي من يزعجه، ثم سمع صراخًا مكتومًا صادرًا من تحت سطح الأرض للجنيات الصغيرة السمراء وهي تجر قطة من قطط المستنقع في غفلة منها إلى أرض المستنقع المتحرك، ثم سمع صوت خوض في الماء عندما حاولت روحان من الأرواح المائية أن تشبك أطراف مصاتهما داخل قاع الزورق، لكنهما تراجعتا وتركتاه بفضل بقايا المادة اللزجة التي يفرزها كائن المأجوج.

وبعد أن غطست الأرواح المائية في المياه بقليل، ظهرت نواحة المستنقع، ورغم أنها لا تزيد على كونها غيمة من الضباب الأبيض، فإنها تنشر رائحة كريهة تذكره بجحر دومدانيال في مخبئه. استقرت نواحة المستنقع خلف التلميذ، وبدأت بلا أية نغمات تشدو أغنية لم يسمع في حياته من قبل ما هو أكثر منها حزنًا وإثارة للأعصاب، وأخذت تكرر وتكرر فيها، وهي تدور وتدور مثل الدوامة في رأسه..«ورر.. درر.. وااا.. دوووو... ورر.. درر.. وااا... دوووو..»، حتى بدا له أنه سيصاب بالجنون.

حاول أن يضرب النواحة بالمجداف، إلا أن الضربة اخترقتها وجعلت الزورق يفقد توازنه وكاد التلميذ يسقط في الماء المظلمة، وظلت تردد نغماتها البشعة، وبدا عليها الآن نبرة سخرية بعد أن علمت أنها لفتت انتباه التلميذ «ورر.. درر.. وااا.. دوووو... ورر.. درر.. وااا... دوووو... واووووو..»..

فصاح التلميذ، غير قادر على تحمل الأصوات أكثر من ذلك: «كفى!»، وسد أذنيه بأصابعه وراح يغني بصوت عالٍ؛ ليغطي على صوت النغمات الشبحية.

وغنى بأعلى صوت له وهو يقول: «أنا لا أسمعك.. أنا لا أسمعك.. أنا لا أسمعك»، بينما أخذت النواحة المنتصرة تلف وتدور حول الزورق، مبتهجة بعملها تلك الليلة. فهي عمومًا تستغرق وقتًا أطول كي تحول آخرين في مثل سن التلميذ إلى كتلة من الحطام. أما اليوم، فلقد كانت محظوظة. وهكذا، بعد أن أنجزت مهمتها، تحولت إلى طبقة رقيقة من الغيوم وانسحبت بعيدًا لتقضي بقية ليلتها معلقة بابتهاج فوق مستنقعها المفضل.

وواصل التلميذ التجديف بإصرار، لا يكترث بما يظهر له على التوالي من أرواح المستنقع، حشرات وأشباح، ومجموعات من نيران المستنقع مغرية جدًا أخذت تتراقص حول الزورق لساعات. فالتلميذ في ذلك الوقت ما عاد يمانع وجود كل تلك الأشياء مادامت لا تغني.

وبعد أن أشرقت الشمس وأضاءت الأفق البعيد لمستنقعات مرام، أدرك التلميذ أنه ضل الطريق ولا أمل له في الخروج. ووجد نفسه في وسط مستنقع ممتد لمساحات شاسعة لا تختلف أنحاؤه عن بعضها، وأخذ يجدف للأمام وهو في غاية الإرهاق، لا يعلم ماذا يمكن أن يفعل سوى ذلك. وظل على هذا الحال حتى منتصف النهار عندما وجد نفسه قد وصل إلى طريق مائي متسع ومستقيم يبدو أنه يؤدي إلى مكان ما، خلافًا لتلك المسارات المرهقة التي كانت تأخذه من مستنقع إلى آخر كلها مغمورة بالماء. فالتف التلميذ المرهق ودخل ما كان في الواقع منبع قناة ديبين، وتقدم ببطء متجهًا نحو النهر، حتى إنه عندما اكتشف وجود الأفعى العملاقة، وهي رابضة في قاع القناة تحاول أن تمدد جسمها، لم يكترث كثيرًا بذلك. فمن شدة ما أعياه الإرهاق ما عاد يبالي بأي شيء، كما أنه عقد العزم على ألا يتخلف عن موعده مع دومدانيال، وهذه المرة لن يُفسد الأمور.. وسرعان ما سوف تأسف الملكة الصغيرة على ما سيحدث لها. كلهم سيأسفون، خاصة البطة.

* * *

في ذلك الصباح، وبالعودة إلى الكوخ، لم يصدق أحد أن التلميذ تمكن من أن يحشر نفسه ويخرج من خلال نفق القطة.

قالت چينا بغضب: «كنت أظن أن رأسه أكبر بكثير من فتحة النفق».

وخرج نكو يبحث عنه في الجزيرة، لكنه سرعان ما عاد، وقال: «لقد رحل زورق الصياد، وهو زورق سريع، ومن المؤكد أنه الآن ابتعد كثيرًا».

قال الفتى 412 الذي يدرك تمامًا مدى خطورة فتى مثل التلميذ: «لابد أن نوقفه قبل أن يخبر أحدًا بمكاننا، وهو ما سيفعله في أول فرصة».

وهكذا، استقلت چينا ونكو والفتى 412 *موريل الثاني* وانطلقوا ليلحقوا بالتلميذ. بدأت شمس الربيع الباهتة ترتفع في السماء وتُسقط ظلالًا متموجة تمتد طويلًا في أنحاء البرك والمستنقعات، بينما كان *موريل الثاني* ثقيل الحركة يأخذهم في متاهة القنوات المتقاطعة، المتحركة ببطء وثبات، أبطأ بكثير بالنسبة لنكو الذي يدرك تمامًا مدى سرعة زورق الصياد في قطع نفس المسافة التي قطعوها هم. أخذ نكو يراقب الطريق باحثًا عن أية آثار للزورق الأسود الضيق، لعله انقلب في أرض المستنقع المتحرك التي تعيش فيها الجنيات الصغيرة السمراء، أو أنه ينجرف فارغًا بطول القناة.. لكن للأسف، لم يجد سوى كتلة خشبية كبيرة، سوداء وطويلة، أعطته أملًا وهميًا لوهلة.

ثم توقفوا لفترة قصيرة، تناولوا فيها بعض شطائر جبن الماعز والسردين إلى جوار مستنقع نواحات المستنقع، لكنهم تُركوا في سلام بعد أن انقشعت النواحات بتبخرها في دفء حرارة الشمس.

كانت أوائل فترة الظهيرة قد حلت، وهب رذاذ رمادي مع دخولهم أخيرًا قناة ديبين. كانت أفعى المستنقع ممددة بكسل في الوحل، شبه

مغطاة بالماء الآسنة مع بداية ارتفاع مياه المد. وتنفسوا الصُعداء لتجاهل الأفعى مركبهم *موربيل الثاني*، وظلت الأفعى قابعةً في انتظار تدفق السمك الطازج الذي سيأتي مع ارتفاع مياه المد. كانت مياه المد لاتزال منخفضة جدًّا، وكان المركب متزنًا تمامًا في الماء بين الضفتين شديدتي الانحدار اللتين ترتفعان عاليًا من كلتا الجهتين؛ ولذلك لم ترجينا ونكو والفتى 412 ما كان ينتظرهم إلا عندما انعطفوا عند آخر منعطف لقناة ديبين.

وهنالك، رأوا السفينة *انتقام*.

40
اللقاء



خيم *على زورق موربيل الثاني الصمت المطبق.*

كانت السفينة *انتقام* لا تبعد كثيرًا عنهم، وترسى بهدوء وسط الرذاذ المتساقط في أوائل فترة الظهيرة، ساكنة وثابتة وسط مياه النهر العميقة. وكان منظر السفينة السوداء الضخمة يخطف الأبصار؛ فمقدمتها ترتفع عاليًا كأنها جانب لمنحدر شديد الانحدار، ومع إنزال شراعيها الأسودين الممزقين، بدا الصاريان الشاهقان كأنهما عظام سوداء قبالة السماء الممتدة، وأحاط بالسفينة هدوء مميت وسط الأضواء الرمادية، ولم يجرؤ طائر واحد من طيور النورس العروج ناحيتها أملًا في العثور على فتات طعام. كما أن المراكب الصغيرة التي كانت تشق

طريقهـا في النهـر ما إن ترى السـفينة حتى تهرع في صـمت نحو المياه الضـحلة عند ضـفة النهـر، مفضـلةً المخاطرة بـأن يجنـح المركب عن الاقتراب من السـفينة *انتقام* سيئة السـمعة. تكونت سحابة سوداء كثيفة أعلى صـاريي السـفينة، فألقت ظلًا داكنًا عليها لأكملها، بينما رفرف في خلفية السـفينة علم أحمر دموي تعلوه ثلاث نجمات سوداء.

لم يكن نكو في حاجة لأن يرى العلَم حتى يعرف من هو صاحب السفينة، فلا أحد سوى دومدانيال يستخدم القار الأسود القاتم لطلاء سفينته، كما أنه لا توجد سفينة واحدة أخرى يمكن أن يحيطها جو بهذا السوء. أشار نكو في هلع لچينا والفتى 412 حتى يجدفا للخلف. وبعد لحظات، كان *موربيل الثاني* مختبئًا خلف المنعطف الأخير لقناة ديبين.

همست چينا قائلة: «ما الأمر؟».

رد نكو هامسًا: «إنها السفينة *انتقام*، سفينة دومدانيال، أعتقد أنها تنتظر التلميذ.. أراهن أن هذا الوغد كان متوجهًا إليها، ناوليني النظارة المعظِّمة».

نظر نكو في التلسكوب، ورأى ما كان يخشاه؛ رأى عند الظلال التي يلقيها جانب السفينة السوداء زورق الصياد وهو يتأرجح على الماء بدون ركابه، ويبدو ضئيلًا جدًا بجوار الهيكل الضخم للسفينة *انتقام*، ومربوطًا به سلم حبلي طويل يؤدي آخره إلى ظهر السفينة.

لقد لحق التلميذ بموعده.

قال نكو: «لقد فات الأوان، إنه هناك، ثم قال باشمئزاز: «يا للهول! ما هذا؟ يا له من منظر مقزز! هذا الشيء انزلق توًا من خارج الزورق. إنه

نحيل جدًا، لكن هذا لا يمنعه من تسلق السلم الحبلي.. يبدو كأنه قرد لزج».

همست چينا قائلة: «هل ترى التلميذ؟».

وجه نكو النظارة المعظمة إلى السلم، وأومأ لها برأسه. إنه أوشك بالفعل أن يصل، لكنه توقف وأخذ يحدق في رعب إلى هذا الشيء الذي يتسلق السلم خلفه بسرعة. وفي غضون لحظات، كان كائن المأجوج قد لحق بالتلميذ وسبقه، تاركًا شريطًا من المادة اللزجة الصفراء على ظهر عباءته، بدا على التلميذ أنه تعثر للحظة وكادت قبضته تنزلق من على السلم، لكنه قاوم حتى صعد الدرجات الأخيرة، سقط منهارًا على ظهر السفينة، وظل هكذا ممددًا بدون أن يلاحظه أحد لفترة.

وقال نكو في سره إنه يستحق.

ثم قرروا أن يتفحصوا بنظرة أكثر قربًا *السفينة انتقام*. فربطوا *موربيل الثاني* في صخرة وساروا على امتداد الشاطئ في المكان الذي قضوا فيه ليلة هروبهم من القلعة. كادوا أن ينعطفوا حتى علا وجه چينا الذعر وهي ترى شخصًا هناك، فتوقفت على الفور، وقفزت خلف شجرة عتيقة، بينما اصطدم الفتى 412 ونكو بها.

ثم همس نكو قائلًا: «ما الأمر؟».

فهمست چينا: «هناك شخص ما عند الشاطئ، ربما أنه من السفينة، ويحرسها».

نظر نكو من خلف جذع الشجرة.

فابتسم وقال: «إنه ليس من السفينة».

فسألته چينا: «وما أدراك بأنه ليس من السفينة؟».

«لأنه ألثر».

كان ألثر ميلا جالسًا على الشاطئ، يحدق بأسى إلى الرذاذ المتساقط. إنه ينتظر هنا منذ أيام، لعل وعسى يظهر أحد المقيمين في كوخ الحارسة؛ فهو يحتاج لأن يتحدث إليهم بشكل عاجل.

همست چينا قائلة: «ألثر؟».

وفي التوّ تبدل القلق الذي كان يعلو وجه ألثر بإشراقة، وقال: «الأميرة!»، ثم تحرك نحوها وفتح ذراعيه ليعانقها عناقًا دافئًا، وقال لها: «لقد كبرت منذ آخر مرة رأيتكِ فيها».

فوضعت چينا أصابعها على فمه وقالت: «هششش، فقد يسمعوننا يا عم ألثر».

بدا الاندهاش على ألثر، فهو غير معتاد أن تملي عليه چينا ماذا يفعل أو لا يفعل.

قهقه وقال: «إنهم لا يستطيعون سماعي ما لم أسمح أنا لهم بذلك، كما أنهم لا يستطيعون أن يسمعوكم أنتم أيضًا، لقد استخدمت تعويذة **عزل الصوت**، ولن يسمعوا شيئًا».

قالت چينا: «نحن سعداء جدًا بلقائك يا عم ألثر، أليس كذلك يا نكو؟».

علا وجه نكو ابتسامة عريضة، وقال: «فعلا، نحن في غاية السعادة!»

ثم نظر ألثر إلى الفتى 412 نظرة مداعبة وقال له: «هناك شخص آخر يبدو أنه هو أيضًا كبر، إن نحافة هؤلاء الشباب في جيش الشباب تقطع القلوب، لقد سرني أن أجدك قد امتلأت قليلًا».

احمر وجه الفتى 412 خجلًا.

ثم قالت چينا للشبح: «لقد أصبح لطيفًا معنا الآن يا عم ألثر».

رد ألثر قائلًا: «أظن أنه أصلًا فتى لطيف، لكنه غير مسموح لأحد بأن يكون لطيفًا في جيش الشباب. هذا ممنوع».

وابتسم إلى الفتى 412.

وبخجل رد عليه الفتى 412 بابتسامة.

ثم جلسوا جميعًا على الشاطئ وسط الرذاذ، بعيدًا عن أنظار السفينة *انتقام*.

سأل نكو العم ألثر: «كيف حال أبي وأمي؟».

وسألته چينا: «وسايمون، وماذا عن سايمون؟».

رد ألثر: «إن سايمون هو الذي كان قد ترك سارة في الغابة وهرب بمحض إرادته. يبدو أنه خطط سرًا هو ولوسي جرينج كي يتزوجا».

قال نكو: «ماذا قلت؟ سايمون تزوج؟».

«لم يتزوجا. فجرينج اكتشف الأمر وباعه لحراس الأمين الأعلى».

شهقت چينا ونكو هاتفين في نفَس واحد: «يا للهول!».

رد ألثر بنبرة قاسية على غير عادته: «لا تشغلوا بالكم بسايمون. أنا لا أفهم كيف استطاع أن يقضي هذه الفترة لدى الأمين الأعلى. ثم يخرج

بعد ذلك من عنده وكأنه كان في عطلة يستمتع بوقته. رغم أن لديَّ بعض الهواجس».

سألته چينا: «ماذا تقصد يا عم ألثر؟».

بدا على ألثر أنه لا يريد الخوض في موضوع سايمون، ورد بإيجاز: «لا تشغلي بالك أيتها الأميرة».

أراد الفتى 412 أن يطرح على ألثر سؤالا، ولكن خالجه شعور غريب أن يجد نفسه يتحدث إلى شبح، إلا أن السؤال ألح عليه فاستجمع شجاعته وقال: «آآ... بعد إذن حضرتك، ماذا عن مارشا؟ أهي بخير؟».

فتنهد ألثر وقال: «لا، ليست بخير».

هتفت الأصوات الثلاثة في نفس واحد: «ليست بخير؟». رد ألثر وقد علت وجهه تكشيرة: «لقد وقعت في الفخ؛ فخ أعده لها الأمين الأعلى ومكتب الجرذان. فالأمين الأعلى عين في مكتب الجرذان جرذانًا تابعة له هو شخصيًا، أو بالأحرى قد عين جرذانًا تابعة لدومدانيال. وهي بكل تأكيد من النوع الشرير. ولقد اعتادت من قبل أن تدير شبكة التجسس الخاصة بدومدانيال عندما كان في أرض الأشرار، وسمعتها سيئة للغاية، كانت قد قدمت مع جرذان الوباء منذ مئات السنين، شيء سخيف فعلًا».

فسألته چينا، بعد أن قالت في سرها إنها كانت قد بدأت تحب هذا الجُرذ: «أتقصد أن الجُرذ الرسول الذي جاءنا واحد منها؟».

رد ألثر: «لا، لا.. لقد طرده جرذان من ذوي النفوذ في مكتب الجرذان، ثم اختفى بعد ذلك. مسكين. أظن أن الأمل في العثور عليه بات ميئوسًا منه».

قالت چينا: «يا للهول! هذا بشع».

ثم قال ألثر: «والرسالة التي كانت معه لم تكن من سايلاس».

قال نكو: «لقد شعرت *بذلك* حينها».

قال ألثر: «كانت من الأمين الأعلى؛ ولذلك عندما ظهرت مارشا لدى بوابة القصر لتقابل سايلاس، كان حرس الأمين الأعلى في انتظارها. رغم أن مارشا كانت تستطيع أن تتغلب على ذلك لو كانت وصلت أثناء دقائق منتصف الليل الصحيحة، لكن ساعتها كانت تؤخر عشرين دقيقة، هذا بالإضافة إلى أن تعويذة السلامة لم تكن معها؛ إنها مؤامرة شريرة، ودومدانيال أخذ التميمة، وأخشى أنه أصبح الآن الساحر الأعظم».

خيم الصمت على چينا ونكو، فما حدث كان أسوأ مما تخيلا.

اعترى الفتى 412 إحساس رهيب بالذنب، فما حدث لمارشا كان بسببه؛ فلو كان قد وافق على أن يكون تلميذها لاستطاع حينها أن يساعدها، وما تعرضت لكل هذا. ثم تشجع وقال: «بعد إذن حضرتك، مارشا مازالت على قيد الحياة، أليس كذلك؟».

نظر ألثر إلى الفتى 412 ورأى في عينيه الباهتتين بلونهم الأخضر تعبيرات تنمُ عن رقة قلبه ثم قال، مستخدمًا عادته المزعجة في قراءة الأفكار: «ما كنت ستستطيع أن تساعدها في شيء. كانوا سينالون منك أنت أيضًا حينها. لقد سجنوها في الزنزانة رقم واحد، لكنها الآن...».

أطرق الفتى 412 برأسه ووضعه بين يديه؛ فهو يعلم كل شيء عن الزنزانة رقم واحد.

وضع ألثر ذراعه الشبحية حول كتفه وقال له: «لا تفزع الآن. لقد كنت معها معظم الوقت وكانت على ما يرام. اعتقدت أنها صامدة، وتتحسن، وأن كل شيء موضوع في الاعتبار، ومنذ عدة أيام تركتها وذهبت لأتفحص بعض... بعض الخطط الصغيرة التي أعدها في غرفة دومدانيال في البرج، وعندما عدت إلى زنزانتها لم أجدها. بحثت عنها في كل مكان أستطيع أن أذهب إليه، حتى إنني استعنت ببعض القدماء؛ استعنت بأشباح هؤلاء القدماء العظام، لكن هذه الأشباح أُرهقت وارتبكت تمامًا، فمعظمها ما عادت تعرف الطرق حول القصر الآن. فكلما أخذت طريقًا كان ينتهي بها إلى سور أو سلم جديد يسد عليها الطريق، وعجزت عن تنفيذ المهمة. حتى إنني اضطررت أمس لأن أذهب وأُخرج أحدهم من غرفة قمامة المطبخ، يبدو أنها كانت غرفة الطعام منذ نحو خمسمائة عام مضت. صراحةً، رغم أن أشباح هؤلاء القدماء لطيفة جدًا، فإنها تثير المتاعب أكثر مما تفيد» ثم تنهد وقال: «رغم أنني أتساءل عما إذا...».

قاطعته چينا قائلة: «إذن ماذا يا عم ألثر؟».

«كنت أتساءل عما إذا كان هناك احتمال أن تكون مارشا على متن *السفينة انتقام*. لكن للأسف، ليس في وسعي أن أكون على متن هذه السفينة الحقيرة لأتأكد من ذلك بنفسي».

كان ألثر غاضبًا من نفسه، ولو كان في مقدوره لنصح أي ساحر أعظم الآن بأن يذهب إلى كل الأماكن التي في وسعه أن يذهب إليها في حياته؛ حتى لا يجد نفسه مقيدًا كحاله الآن عندما يصبح شبحًا. لكن فات الأوان كي يغير ما كان في حياته، وعليه أن يبذل قصارى جهده الآن حتى يستفيد بأقصى حد مما هو متاح له.

فعلى الأقل، عندما تم تعيينه تلميذًا، أصر دومدانيال على اصطحابه معه في جولة طويلة مزعجة جدًا إلى أعمق الزنازين، وما كان يخطر على باله حينها أن هذه الجولة سيخرج منها بشيء مفيد في يوم من الأيام، ليته قبل أيضًا دعوته على حفل الافتتاح بمناسبة انطلاق *السفينة انتقام*. وهو يتذكر الآن كيف تمت دعوته، باعتباره أحد شباب التلامذة الذين يبشرون بمستقبل واعد، لحضور حفل على متن سفينة دومدانيال. لكنه رفض الدعوة بسبب أن موعد الحفل تصادف مع يوم عيد ميلاد أليس نيتلز، والنساء غير مسموح لهن بأن يكنّ على متن السفينة، لكن ألثر بالطبع لم يكن ليخذل أليس ويتركها وحدها في عيد ميلادها. وفي الحفل، قام التلامذة الواعدون بحركة تمرد وألحقوا أضرارًا بالغة بالسفينة، وأكدوا بذلك أن أقصى ما يمكن أن يتطلعوا إليه مع الساحر الأعظم أن يُعرض عليهم العمل كعمال نظافة.

لم يمضِ وقتٌ طويل بعد ذلك حتى وجد ألثر نفسه يتلقى عرضًا بأن يكون تلميذ الساحر الأعظم.. ولم تسنح له الفرصة فيما بعد أن يزور السفينة. وبعد ذلك الحفل الكارثي، أرسل دومدانيال السفينة إلى

الغدير البارد لإصلاحها، والغدير البارد هو مرفأ مفزع يزخر بالسفن المعطبة المهجورة. ومن فرط حب **النكرومانسر** للسفينة تركها في مكانها هناك وداوم على زيارتها كل عام في إجازات الصيف.

جلست المجموعة المحبطة على الشاطئ المبلل، وأخذوا في هذا الجو الكئيب يتناولون آخر ما تبقى لديهم من ساندويتشات جبن ماعز وسردين باتت معجنة الآن، وشربوا البقايا المترسبة في قاع زجاجة عصير البنجر والجزر.

ثم قال ألثر وهو يهيم في أفكاره: «أحيانا يأتي علي أوقات أشعر فيها بأنني أفتقد إحساس الشبع والامتلاء...».

ثم أكملت له چينا الجملة: «على ألا يكون طعامًا مثل الطعام الذي معنا، أليس كذلك ؟».

«تمامًا أيتها الأميرة».

ثم فتشت چينا في جيوبها وأخرجت بيتروك تريلاوني، وقدمت له خليطًا لزجًا من السردين وجبن الماعز. فتح بيتروك عينيه ونظر إلى الخليط، وبدت الدهشة على الصخر الأليف، فمثل هذا الطعام اعتاد أن يقدمه له الفتى 412، بينما اعتادت چينا أن تقدم له البسكويت.. لكنه تناوله على أية حال، فيما عدا قطعة صغيرة من جبن الماعز التصقت برأسه، ثم بجيب چينا لاحقًا.

وبعد أن انتهوا من تناول طعامهم المعجن، قال لهم ألثر جادًا: «والآن، عودة إلى العمل».

ونظرت الوجوه الثلاثة إلى الشبح بقلق.

فقال: «اسمعوني الآن، لابد أن تعودوا فورًا إلى كوخ الحارسة. أريد منكم أن تقولوا للعمة زيلدا إن أول ما عليها أن تفعله صباح غد هو اصطحابكم إلى الميناء. وأليس - وهي مديرة مكتب الجمارك هناك - تبحث لكم الآن عن سفينة تقلكم. لابد أن ترحلوا إلى البلاد البعيدة، بينما سأحاول أنا من جهتي أن أدبر الأمور هنا».

شهقت چينا ونكو والفتى 412 لاهثين في نفس واحد: «لكن...».

فتجاهل ألثر اعتراضهم.

«سوف أقابلكم في حانة المرسى الأزرق عند الميناء غدًا صباحًا. لابد أن تكونوا هناك. والداكما أيضًا سيلحقان بنا ومعهما سايمون. إنهم في الطريق الآن يستقلون مركبي القديم مولي. لكن للأسف سام، وإريك وإد وچوچو رفضوا أن يتركوا الغابة؛ فلقد اعتادوا على حياة البرية هناك، لكن مورووينا سوف تضعهم نصب عينيها».

خيم عليهم صمت مزعج، فلم يرُق كلام ألثر لأحد منهم.

ثم قالت چينا بهدوء: «إننا بهذا الشكل نهرب من المواجهة. نحن نريد البقاء والصمود».

فتنهد ألثر وقال: «كنت أعلم أن هذا هو ما ستقولينه، وهو نفس ما كانت ستقوله والدتك أيضًا. لكن لابد أن ترحلوا».

ثم قام نكو، وقال بتردد: «كما تشاء، سوف نراك غدًا عند الميناء».

قال ألثر: «تمام. كونوا حذرين الآن وإلى اللقاء غدًا». ثم حلق لأعلى وراح يراقبهم وهم يجرون أنفسهم بحزن وأسى عائدين إلى *موريل الثاني*.

ظل ألثر يراقبهم إلى أن اطمأن أنهم يتقدمون بأمان على امتداد قناة ديبين، ثم حلق على منسوب منخفض وبسرعة مذهلة مع امتداد النهر ليلحق بمولي، وسرعان ما بات لا يُرى منه إلا لمحة بعيدة في الآفاق.

وحينها، التف موريل الثاني إلى الاتجاه المعاكس.. توجه مباشرة نحو السفينة *انتقام*.

41
الانتقام



دار نقاش طويل على متن *موريل الثاني*:

«أنا في الحقيقة لا أوافقكم الرأي. فمارشا قد لا تكون أصلًا على *السفينة انتقام*».

«أراهن أنها موجودة هناك».

«لابد أن نعثر عليها. أنا متأكد أنني أستطيع أن أنقذها».

«ليس معنى أنك كنت في جيش الشباب أنك قادر على اقتحام السفن وإنقاذ الناس».

«معناه أني أستطيع أن *أحاول*».

«إنه محق يا نكو».

«لا يمكن أن ننجح، سيكتشفون وجودنا، فكل سفينة على متنها حارس للمراقبة».

«لكننا نستطيع أن نستخدم تلك التعويذة، أنت تعلمها.. ترى ماذا كانت كلماتها؟».

«**اجعل نفسك خفيًا غير مرئيٍّ**، اسمها سهل، ثم نستطيع أن نجدف بعد ذلك إلى السفينة. سأتسلق السلم، ثم...».

«انتظر، هذا خطر جدًا».

«لقد أنقذتني مارشا عندما تعرضت للخطر».

«وأنقذتني أنا أيضًا».

«كما تشاءان، كفتكما ترجح».

بعد أن انعطف موربيل الثاني عند آخر منعطف لقناة ديبين، أخرج الفتى 412 من جيب قبعته الحمراء الخاتم التنيني.

فسأله نكو: «ما هذا؟».

«إنه... إنه خاتم سحري. لقد عثرت عليه تحت سطح الأرض».

قال نكو: «إنه يبدو شبيهًا لتنين التميمة».

«نعم، هذا ما فكرت فيه أنا أيضًا»، ثم وضعه في أصبعه وشعر بالحرارة وهي تدب في الخاتم، ثم قال: «والآن، هل أبدأ في استخدام التعويذة؟».

فأومأ له نكو وچينا برأسيهما وبدأ الفتى 412 يردد:

اجعلني أتلاشَ في الهواء

اجعل كل من يكرهونني يجهلوا مكاني

اجعل الذين يطاردونني يمروا بي ولا يشعروا بوجودي

اجعل الأذى الذي في أعينهم لا ينال مني

ورويدًا رويدًا، بدأ الفتى 412 يتوارى عن الأنظار وسط الرذاذ المتساقط، مخلفًا وراءه مجدافًا معلقًا في الهواء بشكل مخيف.. ثم أخذت چينا نفسًا عميقًا وجربت التعويذة.

فقال لها نكو: «أنت لا تزالين مرئية، جربي مرة أخرى».

كانت المحاولة الثالثة ناجحة، وأصبح مجداف چينا الآن يتحرك وحده إلى جوار مجداف الفتى 412.

ثم جاء صوت چينا يقول لنكو: «دورك الآن يا نكو».

فقال نكو: «انتظروا قليلًا، فأنا لم أجرب هذه التعويذة من قبل».

قالت له چينا: «إذن، جرب تعويذتك التي تعرفها، المهم أن تختفي».

«في الحقيقة أنا لا أعلم ما إذا كانت ستنفع، كما أنها لا تشمل حتمًا جزء **إبعاد الأذى عني**».

ردت چينا باعتراض: «نكو!».

«حاضر.. حاضر.. سأحاول».

«**لا يراني أحد، ولا يسمعني أحد**.. أأ .. لا أتذكر بقية كلماتها».

قال له الفتى 412 مقترحًا من وحي خياله: «جرب أن تقول: **لا يراني أحد، ولا يسمعني أحد، لا يسمعون لي همسًا ولا كلمة**».

«صح.. هذه هي الكلمات. أشكرك».

ونجح نكو، وبدأ يختفي رويدًا رويدًا.

ثم سألته چينا: «نكو، هل أنت بخير؟».

لكنها لم تسمع أي رد.

«نكو؟».

كان مجداف نكو يتحرك بهلع إلى أعلى وإلى أسفل.

ثم قال الفتى 412 معترضًا: «نحن لن نستطيع أن نراه وهو لن يستطيع أن يرانا لأن وسيلته في **الاختفاء** تختلف عن وسيلتنا، كما أننا لن نستطيع أن نسمعه، لأن تعويذته أساسًا تعويذة صامتة، هذا بالإضافة إلى أنها لن تحميه».

قالت چينا: «لن تنفعه كثيرًا إذن».

رد الفتى 412: «صحيح، لكن عندي فكرة.. من المفترض أن كلماتها كالتالي:

فيما بين التعاويذ التي نعتمد عليها

نريد ساعة واحدة نتوافق فيها»

ومع ظهور هيئة نكو الضبابية، قالت چينا: «ها هو نكو، أتستطيع أن *ترانا*؟».

ابتسم نكو ابتسامة عريضة وأشار لهما بإبهامه يطمئنهما.

ثم قالت چينا للفتى 412: «رائع، أنت تجيد ذلك تمامًا».

أخذ الجو يبدو ضبابيًا بينما كان نكو - مستخدمًا الخاصية الصامتة لتعويذته - يجدف بهما للخروج من قناة ديبين إلى مياه النهر الشاسعة. كانت الماء هادئة وثقيلة ويتساقط عليها رذاذ، وحرص نكو بقدر المستطاع على أن يجدف بلا ضجة، تحسبًا من أن ينتبه زوج عيون حادة تراقب من

على متن السفينة لدوامات غريبة تظهر على سطح الماء وتتجه مباشرة نحوها.

قطع نكو شوطًا كبيرًا، وسرعان ما ظهر جانبا *السفينة انتقام* الأسودان *المنحدران* أمام أعينهم وسط الرذاذ المتساقط، ووصل *موربيل الثاني* **الخفي** إلى أسفل السلم الحبلي. شمل الاتفاق أن نكو سوف ينتظر في الزورق بينما ستحاول چينا والفتى 412 اكتشاف ما إذا كانت مارشا محجوزة على متن السفينة أم لا، وإذا أمكن أن يحرروها أيضًا، وفي تلك الأثناء يكون نكو مستعدًا إذا احتاجا للمساعدة. وتمنت چينا في سرها ألا يضطرا لذلك؛ فهي تعلم أن تعويذة نكو لن تحميه لو تعرض لمشاكل.

وهكذا، ثبت نكو الزورق وصعدت چينا وتلاها الفتى 412 أولى درجات السلم الحبلي بتردد وبدآ مشوارًا طويلًا وخطيرًا يتسلقان فيه السلم وصولًا إلى سطح *السفينة انتقام*.

كان نكو يراقبهما بقلق؛ لعلمه أن **الخفيين** قد يتركون وراءهم ظلالًا وآثارًا غريبة في الأجواء، ولن يصعب على **نكرومانسر** مثل دومدانيال أن يكتشف وجودهما. لكن نكو لم يكن في وسعه سوى أن يتمنى لهما التوفيق في صمت، وقرر في سره إن لم يعودا بحلول وصول ارتفاع المد إلى منتصف قناة ديبين، فسوف يذهب للبحث عنهما، سواء حمته التعويذة أم لم تحمِه.

وحتى يقتل الوقت تسلق زورق الصياد، ثم قال في سره إنه بهذا الشكل يستطيع أن يقضي وقت الانتظار في مركب محترم، حتى وإن

كان لزجًا. ورائحته كريهة.. وإن كان قد سبق له أن اشتمّ ما هو أسوأ من ذلك على متن بعض مراكب الصيد اعتاد أن يساعد في إبحارها.

* * *

كان طريق صعود السلم الحبلي طويلًا وشاقًّا، وراح السلم يتخبط على جانب السفينة السوداء بسطحها اللزج، وخشيت چينا أن يُسمع تخبطهما من على متن السفينة، لكن كل شيء على السفينة كان هادئًا تمامًا؛ هادئًا لدرجة أنها بدأت تتساءل في سرها عما إذا كانت السفينة سفينة أشباح.

بعد وصولهما إلى أعلى السلم، أخطأ الفتى 412 ونظر لأسفل فوجد نفسه يشعر بدوار على إثر إحساسه بالخوف من الارتفاعات، وكادت قبضته تنزلق من على الحبل بعد أن باتت فجأة رطبة ولزجة.. كانت المياه بعيدة بُعدًا يصيب الرءوس بالدوار، وبدا له زورق الصياد صغيرًا للغاية.. ولوهلة ظن أنه رأى شخصًا على متنه، ثم قال في سره: لا تنظر لأسفل.

أما چينا، ولأنها لا تخشى الارتفاعات، فقد تسلقت السلم الحبلي بسهولة حتى أصبحت على متن السفينة، ثم رفعت الفتى 412 حتى يتخطى المنطقة بين السلم وظهر السفينة، وراح يركز على حذاء چينا الطويل وهو يتلوّى يمينًا ويسارًا حتى وقف على قدميه على ظهر السفينة وجسمه يهتز.

ونظرت چينا والفتى 412 حولهما.

بدت لهما السفينة *انتقام* مكانًا مخيفًا، وكانت السحب الكثيفة التي تعلوها تلقي بظلال عميقة على السفينة بأكملها، والصوت الوحيد الذي يصل إليهما هو صرير منتظم للسفينة نفسها وهي تتأرجح بخفةٍ فوق مياه المد التي بدأت ترتفع. سارت چينا والفتى 412 برشاقة بطول ظهر السفينة ومرًّا بحبال ملفوفة بإحكام، وبراميل قار مصفوفة بنظام، وكل حين يمران بمدفع موجه لتهديد مستنقعات مرام.. وعدا السواد الطاغي على ظهر السفينة وكذلك بعض الآثار لمادة لزجة صفراء، لم تحمل السفينة أي إشارات تدل على هوية صاحبها.. ومع ذلك، عندما وصلا إلى مقدمة المركب، كاد الفتى 412 يصطدم بحضور **شيطاني** قوي أوشك أن يطرحه أرضًا. وبينما واصلت چينا السير لا تدرك شيئًا عن ذلك، تبعها الفتى 412 لا يريد أن يتركها وحدها.

جاء هذا **الحضور الشيطاني** من جهة كرسي عرش مهيب، مقام عند الصاري الأمامي وموجه نحو البحر، وهو عبارة عن قطعة أثاث ضخمة، وُضعت بشكل غريب وغير مناسب على ظهر السفينة، كانت محفورة من خشب الأبنوس ومزخرفة بأوراق شجر من الذهب الأحمر، يجلس عليها **النكرومانسر** دومدانيال نفسه. كان دومدانيال في وقت قيلولة الظهيرة وهو جالس مثل السهم المستقيم، وعيناه مغمضتان، وفمه شبه مفتوح، يصدر من أعماق حلقه صوت خفيض لقرقرة رطبة أثناء تنفسه وسط تساقط الرذاذ، وكان هناك ذلك **الشيء** ممددًا أسفل كرسي العرش، نائمًا وسط بركة من مادة لزجة صفراء ككلب وفيٍّ.

وفجأة، قبض الفتى 412 بقوة على ذراع چينا حتى كادت أن تصيح.. وأشار لها إلى خصر دومدانيال. نظرت چينا إلى خصره ثم التفتت إلى الفتى 412 بأسى وإحباط.. إذن، ما سمعته كان صحيحًا، رغم أنها كادت ألا تصدق كلام ألثر. لكن ها هما الآن يشاهدان الحقيقة بأم أعينهما؛ يشاهدان حول خصر دومدانيال حزام السحرة العظماء تكاد عباءته القاتمة تغطي عليه.. حزام مارشا الذي كانت ترتديه باعتبارها الساحرة العظمى.

أخذت چينا والفتى 412 يحدقان إلى دومدانيال بمزيج من الاشمئزاز والانبهار، كانت أصابع **النكرومانسر** تقبض على مساند كرسي العرش الأبنوس، وانغرزت أظافره السميكة الصفراء بأطرافها المقوسة في الخشب كأنها حُزمة من الحوافر. لا يزال وجهه يشي بالشحوب الرمادي الذي اكتسبه من السنوات التي قضاها أسفل سطح الأرض، قبل أن يخرج إلى جحره في أرض الأشرار. لم يكن وجهه باهرًا لعدة أسباب.. ربما لأن عينيه غائرتان أكثر من اللازم، وفمه يبدو عليه قسوة لا تضفي عليه - بأي حال من الأحوال- أي نوع من البهجة. لكن من المؤكد أن **الشيطان** القابع أسفل هذا الوجه هو الذي جعل چينا والفتى 412 يرتجفان وهما يحدقان إليه.

كان دومدانيال يعتمر قبعة سوداء أسطوانية الشكل تبدو كأنها ماسورة موقد قصيرة، والتي لسبب ما- لا يعرفه- أصبحت دائمًا أكبر من رأسه، حتى ولو غيرها بقبعة جديدة مناسبة، وهو أمر أزعجه كثيرًا رغم عدم إقراره بذلك، وبات مقتنعًا تمامًا بأنه منذ عودته إلى برج السحرة بدأ رأسه

ينكمش، وانزلقت القبعة من على رأس **النكرومانسر** وهو نائم وأصبحت الآن مستقرة على طرفي أذنيه الشاحبتين. هذه القبعة السوداء تعد صيحة قديمة لقبعات السحرة، والتي لم يعد يرتديها ولا يريد أن يرتديها أي ساحر منذ عصر محاكم التفتيش العقائدية من مئات السنين.

ارتفعت فوق كرسي العرش مظلة حمراء داكنة، تزينت بثلاث نجمات سوداء، يزيد الحملَ عليها تجمعُ الرذاذ المتساقط فوقها، وكل حين يتساقط بعض من هذه الماء على قبعته وتملأ سطحها المقوس بماء غزير.

أمسك الفتى 412 يد چينا بعد أن تذكر ورقة خاصة بمارشا أكلت منها العثة قرأها ظهر يوم كانت فيه الثلوج تتساقط في الخارج، موضوعها **تأثير التنويم المغناطيسي للسحر الأسود**، وقد بدأ يشعر أن چينا منجذبة إليه.. فجذبها بعيدًا عن دومدانيال النائم وأخذها نحو الفتحة التي تعلو ظهر السفينة.

وهمس لها: «إن مارشا موجودة هنا. أستطيع أن أشعر **بوجودها**».

وبوصولهما إلى الفتحة، سمعا وقْع أقدام تجري على سطح أسفل ظهر السفينة ثم تسلقت السلم بسرعة. قفزت چينا والفتى 412 للوراء بعيدًا عن الفتحة التي خرج منها سريعًا بحار في يده مصباح طويل غير مضيء وانطلق جريًا على ظهر السفينة، وكان البحار ضئيل الحجم ونحيفًا للغاية يرتدي الملابس السوداء المعتادة الخاصة بالأمناء. لكن خلافًا لهم لم يكن شعره حليقًا، بل كان طويلًا ومنسابًا للخلف بعناية فائقة في ضفيرة رفيعة سوداء تصل إلى منتصف ظهره، ويرتدي بنطالًا واسعًا يصل إلى

ركبتيه وكنزة مخططة بخطوط عريضة بيضاء وسوداء. أخرج البحار علبة كبريت وأشعل شعلة أضاء بها المصباح فدبت فيه الحياة وأنار بضوء برتقالي جو الظهيرة الرمادي الذي يتساقط فيه الرذاذ، ملقيًا بظلال متراقصة فوق ظهر السفينة، تقدم البحار بالمصباح وعلقه على حامل عند مقدمة السفينة، وفتح دومدانيال عينيه، وبذلك انتهت قيلولته.

أخذ البحار يحوم بتوتر حول كرسي العرش، منتظرًا أوامر **النكرومانسر**، ثم جاء صوت أجوف خفيض جعل شعر الفتى 412 يقف، يقول: «هل عادوا؟».

انحنى البحار، وهو يتجنب نظرات **النكرومانسر**.

«عاد الفتى يا مولاي، وخادمك أيضًا».

«فقط؟».

«نعم يا مولاي. لكن...».

«لكن *ماذا*؟».

«الفتى يقول إنه أسر الأميرة يا سيدي».

«*الملكة الصغيرة*. عظيم، عظيم. إن زمن *المعجزات* لا ينتهي أبدًا. أحضروهم إليّ.. *في الحال!*».

انحنى البحار أرضًا وقال: «أمرك يا مولاي».

«و... أحضر أيضًا *السجينة*، فسوف يهمها أن ترى العُهدة التي كانت مسئولة عنها سابقًا».

«أي عُهدة يا سيدي؟».

«الملكة *الصغيرة* أيها الحقير. أحضرهم جميعًا هنا. *في الحال!*».

اختفى البحار عبر فتحة ظهر السفينة، وسرعان ما شعرت چينا والفتى 412 بحركة أسفل أقدامهما، وفي أعماق السفينة انقلب الحال رأسًا على عقب في معقل البحارة فانتفض البحارة من فوق أسرَّتهم المعلقة، ونحّوا جانبًا منحوتاتهم والحبال التي يعقدونها وزجاجات بداخلها سفن لم ينتهوا من صنعها بعد، وخرجوا إلى السطح السفلي للسفينة لينفذوا أوامر دومدانيال.

نهض دومدانيال من فوق كرسي العرش، بجسم متيبس بعض الشيء بعد قيلولته، ورمش بعينيه بعد أن تساقط من قبعته سيل من الماء عليها. بدا دومدانيال متوترًا، وركل كائن المأجوج وأيقظه من نومه، حرك ذلك **الشيء** جسمه من أسفل كرسي العرش وتابع خطى دومدانيال وهو يسير على امتداد ظهر السفينة، مربع الذراعين، ووجهه يحدوه الأمل، منتظرًا هؤلاء الذين أرسل في طلبهم.

وسرعان ما سُمع وقْع أقدام ثقيل قادم من أسفل، وبعد لحظات، ظهر ستة بحارة اتخذوا مواقعهم كحراس حول دومدانيال، وتبعهم التلميذ الذي بدا عليه التردد.. بدا التلميذ شاحبًا، ورأت چينا يديه ترتجفان.

بالكاد نظر دومدانيال إليه، فقد كانت عيناه لا تزالان مسلطتين على فتحة ظهر السفينة، ينتظر أن تظهر فريسته؛ الأميرة.

ولكن لم يظهر أحد.

بدا الوقت وكأنه توقف لا يريد أن يتحرك، وبدأ البحارة يتحركون قليلًا، لا يعرفون تحديدًا ما هذا الذي ينتظرونه، وبدأت عين التلميذ اليسرى ترف.. كل حين يرفع رأسه ويُلقي نظرة على سيده وبسرعة يلتفت في جهة

أخرى وكأنه يخشى أن تتلاقى عينا دومدانيال بعينيه. وبعد ما بدا دهرًا، سأله بلهجة آمرة: «إذن، أين هي أيها الفتى؟».

رد التلميذ بلجلجة، رغم أنه يعلم قصد **النكرومانسر**: «ممن يا سيدي؟».

«*الملكة الصغيرة* أيها الأحمق، من سواها؟ والدتك الحمقاء مثلًا؟».

«لا.. لا يا سيدي».

ثم سمع دومدانيال أصواتًا أخرى قادمة من أسفل.

فهمهم قائلًا: «أف! أخيرًا».

لكنها كانت مارشا التي تم دفعها من خلال فتحة ظهر السفينة بصحبة أحد كائني المأجوج الذي كان قابضًا على ذراعها بقوة بيده الصفراء الطويلة.. حاولت مارشا إبعاد ذلك **الشيء**، لكنه كان ملتصقًا بها كالصمغ وغطاها بخيوط من مادته اللزجة الصفراء. نظرت إليه مارشا باشمئزاز دون أن يفارق وجهها هذا التعبير وهي تستدير لتواجه نظرات دومدانيال المنتصرة. بدت مارشا رغم الشهر الذي ظلت فيه حبيسة في الظلام ورغم نفاد قوتها **السحرية**- بنفس الملامح المبهرة؛ شعرها الأسود الأشعث بدا غاضبًا، وعباءتها التي باتت ملطخة بالأملاح علتها عزة نفس تلقائية. وكعادتها، بدا حذاؤها المصنوع من جلد الثعبان الأرجواني في غاية النظافة.. وكانت چينا متأكدة من أنها هزت ثقة دومدانيال في سره.

همس دومدانيال: «آنسة أوفرستراند، مرحبًا بك. إنه لكرم منك أن منحتنا هذه الزيارة».

لم ترد عليه مارشا.

«في الحقيقة يا آنسة أوفرستراند، هذا هو السبب الذي جعلني أبقيك معنا، فلقد أردت أن أريك هذه الخاتمة الصغيرة. فنحن لدينا أخبار مثيرة لك، أليس كذلك يا سبتيموس؟».

أومأ التلميذ برأسه مترددًا.

«إن تلميذي المخلص كان في زيارة لبعض أصدقائك يا آنسة أوفرستراند في كوخ صغير ولطيف هناك في الأنحاء»، ثم لوح بيده المرصعة بالخواتم جهة مستنقعات مرام.

وعلى الفور، تغير شيء ما في التعبير الذي كان يعلو وجه مارشا.

«عظيم، أرى أنك فهمت من أقصد يا آنسة أوفرستراند، كما كنت أظن. والآن، لقد قام تلميذي بمهمة ناجحة».

حاول التلميذ أن يقول شيئًا، لكن سيده أشار إليه بالسكوت.

«تخيلي أنني شخصيًا لم أسمع التفاصيل الكاملة منه حتى الآن، وأنا متأكد أنك تودين أن تكوني أول من يسمع هذه الأنباء السارة. والآن سوف يوافينا سبتيموس بتفاصيل الموضوع. أليس كذلك يا فتى؟».

وقف التلميذ في حيرة، وبدا في غاية التوتر. وبصوت هزيل، بدأ يتحدث بتردد: «أنا... أأأأ...».

«تكلم أيها الفتى، ليس من المصلحة أن تتكلم بدون أن نسمع منك *كلمة واحدة*.. أم *أنك* ترى غير ذلك؟».

«أنا... أنا... أنا عثرت على الأميرة؛ الملكة الصغيرة».

خيم على الأجواء إحساس غير مريح، وتكون لدى چينا انطباع بأن هذه الأنباء لن يرحب بها البحارة المتجمعون هنا، ثم تذكرت العمة زيلدا عندما قالت لها: إن دومدانيال لن ينتصر أبدًا على البحارة.

قال دومدانيال بنفاد صبر يحث الفتى على الإسراع: «هيا، هيا.. أكمل».

«أنا والصياد، وضعنا أيدينا على الكوخ، وأسرنا كذلك الساحرة البيضاء زيلدا زانوبا هيب، والفتى الساحر نيكولاس بنيامين هيب، والفتى الهارب من جيش الشباب العبد المطيع 412. وأنا *بالفعل* أسرت الأميرة؛ الملكة الصغيرة».

ثم توقف التلميذ عن الكلام.. وظهرت في عينيه نظرة هلع.

فماذا يمكن أن يقول؟ كيف سيشرح فقدان الأميرة واختفاء الصياد؟

سأله دومدانيال وقد بدا عليه الارتياب: «هل أسرت *بالفعل* الملكة الصغيرة؟».

«نعم يا سيدي، لكن...».

«لكن *ماذا*؟».

«لكن في الحقيقة يا سيدي بعد أن تمكنت الساحرة البيضاء من الصياد وحولته إلى مهرج...».

«مهرج! أتحاول أن تمزح معي أيها الفتى؟ إذا كان هذا هو الأمر، فأنصحك بألا تفعل».

«لا يا سيدي، أنا لا أمزح على الإطلاق» فأي مزاح يتحدث عنه دومدانيال، إنه لم يسبق له أن شعر يومًا بعدم الرغبة في المزاح مثل

الآن، ثم واصل كلامه قائلًا: «بعد أن رحل الصياد، تمكنت من أسر الملكة الصغيرة بمفردي، وكدت أهرب بها...».

«كدت؟ كدت *تهرب بها*؟».

«نعم يا سيدي، كنت على وشك الهرب بها عندما هجم عليَّ الفتى الساحر المجنون نيكولاس هيب بسكين.. إنه فتى خطير جدًا يا سيدي.. ثم هربت مني الملكة الصغيرة».

زمجر دومدانيال، وهو يدنو بهيئته الشاهقة من التلميذ المرتجف: «هربت ثم تعود وتقول لي: إن مهمتك كُلِّلَتْ بالنجاح أو بعض *النجاح*؟ في أول الأمر تقول لي إن الصياد الأخرق تحول إلى مهرج، وبعد ذلك تقول لي إن ساحرة بيضاء بائسة أحبطت مهمتكم مع بعض الأطفال الهاربين، والآن تقول لي إن الملكة الصغيرة هربت. إن الغرض الأساسي من هذه المهمة، هو أسر الملكة الصغيرة القادمة. فأي جزء من المهمة *بالتحديد* الذي كُلِّلَ بالنجاح حسب كلامك؟».

فغمغم التلميذ: «على الأقل نحن نعلم أين هي الآن».

«تقصد كنا نعلم أين كانت من قبل أيها الفتى، وهذا هو السبب أصلًا في أنكم *توجهتم* إلى هناك».

ثم رفع دومدانيال عينيه إلى السماء. ما خطب هذا التلميذ الأحمق؟ أليس من المفترض أن يكون الابن السابع للابن السابع قد امتلك في مثل هذه السن بعض القوى **السحرية**؟ أليس من المفترض أن يكون من القوة بحيث ينتصر على مجموعة من السحرة البؤساء وهم مختبئون في

ذلك الخلاء؟ ووجد دومدانيال نفسه يستشيط غضبًا وصرخ: «لماذا؟ لماذا يحيط بي مجموعة من الحمقى؟».

وهو في هذه الحالة، يرغي ويزبد من الغضب، لمح دومدانيال تعبيرات وجه مارشا التي هي مزيج من الرضا والارتياح للأنباء التي سمعتها توًا.

فصاح قائلًا: «خذوا السجينة من هنا! أغلقوا عليها الباب بالمفتاح وألقوا بالمفتاح في البحر. لقد انتهى أمرها».

ردت عليه مارشا بهدوء، وهي تدير له ظهرها عن عمد: «لا، ليس بعد».

وفجأة، تملك چينا الفزع وهي ترى الفتى 412 يتقدم من وراء البرميل الذي كان يحتمي خلفه ويتحرك بصمت نحو مارشا. وبحرص شديد، تسلل بين ذلك الشيء والبحارة الذين كانوا يدفعون مارشا بعنف نحو الفتحة. وما لبث أن تبدل تعبير التهكم الذي كان يعلو وجه مارشا إلى الاندهاش الذي تلته فورًا نظرة متفحصة بلا تعبير. وعلم الفتى 412 أنها رأته وبسرعة خلع الخاتم من أصبعه ووضعه وهو يضغط عليه في يد مارشا.. تلاقت عينا مارشا الخضراوان مع عينيه، وفي غفلة من الحراس، دست الخاتم في جيب سترتها، بينما التف الفتى 412 مبتعدًا، لكن أثناء توجهه بسرعة عائدًا إلى چينا، لمس أحد البحارة.

فصاح الرجل قائلًا: «توقف! من هناك؟».

توقف الجميع عن الحركة، فيما عدا الفتى 412 الذي انطلق كالسهم وأمسك بچينا بقوة.. لقد حان وقت الرحيل.

صاح دومدانيال قائلًا: «متطفلان! إني أرى ظليهما! *اقبضوا عليهما*!!»

وفي هلع، أخذ طاقم السفينة يبحث هنا وهناك، لكنهم لم يعثروا على أي شيء. هل أصيب سيدهم أخيرًا بلوثة في عقله؟ ولمَ لا، وهم يتوقعون ذلك منذ زمن.

ووسط هذا الارتباك، تمكنت چينا والفتى 412 من العودة إلى السلم الحبلي وتسلقاه نزولًا إلى الزوارق بسرعة تفوق ما تصوراه، رآهما نكو قادمين. لقد جاءا في الوقت المناسب تمامًا – فمفعول تعويذة **كن خفيًا** بدأ يتلاشى.

تصاعدت حدة الجلبة على السفينة فوقهما مع إنارة المصابيح والبحث في كل الأماكن الممكنة، ثم قطع أحدهم السلم الحبلي. ومع بداية ابتعاد *موربيل الثاني* وزورق الصياد وسط الضباب، سقط السلم مُحدثًا طرطشة وسط الماء الداكنة للمد الآخذ في الارتفاع قبل أن يغطس فيها.

42
العاصفة



استشاط دومدانيال غضبًا وصاح بصوت تردد صداه وسط الضباب: «اقبضوا عليهما! اقبضوا عليهما!».

أخذت چينا والفتى 412 يجدفان بأقصى ما في وسعهما قاصدين قناة ديبين، وتابعهما نكو بزورق الصياد، لا يريد الافتراق عنه.

ثم لفت انتباههم صياح آخر من دومدانيال وهو يقول: «أرسلوا السباحين *في الحال*!».

خفتت الأصوات لفترة على متن *السفينة انتقام* أثناء ملاحقة اثنين من البحارة على ظهر السفينة، هما الوحيدان من الموجودين على متنها

اللذان يستطيعان السباحة، وتم القبض عليهما، ثم تلا ذلك صوت «طرطشتين» في الماء مع إلقائهما من على متن السفينة لتنفيذ مهمة الملاحقة.

تجاهل ركاب الزورقين الأنفاس اللاهثة القادمة من الماء، وأسرعوا قاصدين أمان مستنقعات مرام، ورأوا بعيدًا السباحين، شبه فاقدي الوعي إثر صدمة السقوط من هذا الارتفاع الكبير، ويسبحان حول نفسيهما في ذهول، وقد أدركا صحة قول أسلافهم من البحارة: أنه لمن سوء حظ البحار أن يكون سباحًا.

وعلى متن السفينة انتقام انسحب دومدانيال إلى كرسي العرش، بينما تفرق البحارة بعد أن أُجبروا على إلقاء اثنين من زملائهم من على متن السفينة.. وأصبح دومدانيال وحده على ظهر السفينة، أحاطت به برودة شديدة وهو جالس على كرسي العرش مستغرقًا في **سحره الأسود**، ينشد ويصيح بطريقته مرددًا **كلمات تعويذة معقدة معاكسة**.

لقد كان **يستدعي** مياه المد.

أطاعته مياه المد في الحال، وتجمعت من جهة البحر، ثم تدفقت إلى النهر، وهي تتقلب وتتمخض مرورًا بالميناء، وتسحب معها دلافين وقناديل بحر وسلاحف وكلاب بحر، يجرفها تيار لا يقاوم. وارتفع منسوب الماء. ارتفع أكثر فأكثر.. بينما أخذ الزورقان يتقدمان ببطء وصعوبة وسط هذا السيل المتدفق من المياه، وبوصولهما إلى مصب قناة ديبين أصبحت السيطرة على الزورقين أصعب مع تسارع تدفق مياه المد في القناة.

أخذت چينا تقاوم بمجدافها موجة أخرى من المياه المتدفقة راحت تلقي بموريبل *الثاني* يمينًا ويسارًا وسط دوامات المياه، وصاحت وسط المياه المندفعة تقول: «إن الأمواج عنيفة للغاية» ثم حمل فيضان مياه المد الزورقين في طريقه، ودخل بهما القناة بسرعة فائقة، بينما كان الزورقان يتعرجان ويلفان بعجز تام وسط هذا الفيض الشرس من المياه، كأنهما أنقاض يحملها النهر، ورأى نكو المياه وقد بدأت تفيض على جانبي القناة، إنه لم ير شيئًا كهذا في حياته من قبل.

صاح ليرد على چينا: «هناك أمر غريب في الموضوع. المد لا يأتي أبدًا بهذا الشكل!».

صاح الفتى 412 وهو يلوح بمجدافه جهة دومدانيال: «إنه هو الذي يفعل ذلك!» ثم ندم على الفور لأدائه هذه الحركة بعد أن مال *موريبل الثاني* بشكل مرعب على جانب واحد، وقال: «اسمعوا ذلك!».

بينما بدأت *السفينة انتقام* ترتفع عاليًا فوق سطح الماء وهي تسحب لأعلى سلاسل إرسائها على البر، غير دومدانيال أوامره وأخذ يصيح بصوت أعلى من زئير المد: «هبي! هبي! هبي!» ثم صاح بصوت أعلى وأعلى: «هبي! هبي! هبي!».

فتجمعت الرياح وقامت بما أُمرت به، تحركت بسرعة وهي تعوي عواءً شرسًا، وتقلب سطح الماء إلى أمواج تطيح بالزورقين بعنف يمينًا ويسارًا. ثم طردت الضباب بعيدًا، وتمكنت چينا ونكو والفتى 412 - بعد أن

أصبحوا الآن معلقين على منسوب مرتفع من الماء في قناة ديبين- من رؤية *السفينة انتقام* بوضوح.

وكانت سفينة انتقام أيضًا تراهم.

أخرج دومدانيال منظاره، وأخذ يبحث وهو واقف على ظهر السفينة، إلى أن رأى ما يبحث عنه.

لقد رأى الزورقين.

تفحص ركابهما، ورأى ما كان يخشاه؛ رأى بوضوح تام لا تخطئه العين الشعر الأسود الطويل والطوق الذهبي الذي يتوج الفتاة الموجودة على مقدمة زورق أخضر غريب؛ *إنها الملكة الصغيرة*؛ الملكة الصغيرة كانت على متن سفينته؛ كانت على متن سفينته تجري هنا وهناك، كانت في قبضته ومع ذلك تركها تهرب منه.

أطبق عليه صمت غريب وهو يستجمع قواه **ويستدعي** أعنف عاصفة يستطيع أن يحشدها.

حول **السحر الأسود** عويل الرياح إلى صراخ مدوٍّ يخرق الآذان، وهبت سحب سوداء عاصفة وتجمعت فوق الامتداد الشاسع لمستنقعات مرام البائسة، وزادت قتامة جو الظهيرة، وبدأت أمواج باردة مظلمة تجتاح وتغمر الزورقين.

صاحت چينا وهي تقاوم؛ حتى لا تفقد سيطرتها على *موريبل الثاني* «المياه ترتفع في الزورق.. لقد غُمرت بالمياه» بينما أخذ الفتى 412 يحاول بهلع أن ينزح المياه من داخل الزورق.. نكو أيضًا واجهته مشاكل

في زورق الصياد، بعد أن اجتاحته على التوِّ موجة عاتية غمرته. وقال في سره إن موجة أخرى كهذه سيجد نفسه غارقًا في قاع القناة.

وفجأة، *لم تعد هناك قناة ديبين*.

فقد تداعت ضفتا القناة بصوت مدوٍّ، وتدفقت موجة عاتية من فتحة القناة اجتاحت وهي تزأر أنحاء مستنقعات مرام، وجلبت معها دلافين وسلاحف وقناديل بحر وكلاب بحر وسباحين، وزورقين.

وصلت سرعة زورق نكو إلى درجة ما كان من الممكن أن يتخيلها يومًا ما، كان الموقف مرعبًا ومثيرًا في نفس الوقت، لكن زورق الصياد تمكن من ركوب الموجة بخفة ويسر وكأن هذه اللحظة هي التي ينتظرها.

أما چينا والفتى 412 فلم يثرهما تطور الموقف كما أثار نكو. *فموريل الثاني* كان على النقيض الآخر زورقًا قديمًا ولم يعتد على مثل هذه الطريقة في الإبحار، وكان لابد لهما أن يقاوما بشدة كي يصمد الزورق ولا ينقلب بهما وسط الموجة العاتية التي تجتاح أنحاء المستنقع.

ومع انتشار الماء في أنحاء المستنقع، بدأت الموجة تفقد بعض قوتها، واستطاعت چينا والفتى 412 أن يقودا *موريل الثاني* بشيء من التحكم، بينما كان نكو يقود الزورق على امتداد الموجة المتدفقة متوجهًا نحوهما، وهو يعرج ويلف به بمهارة فائقة.

ثم صاح بصوت أعلى من الماء المندفعة: «لم أر أروع من ذلك من قبل!»

فصاحت فيه چينا وهي لا تزال تقاوم بمجدافها لتمنع *موريل الثاني* من الانقلاب: «أنت مجنون!».

بدأت الموجة تتلاشى بسرعة الآن، وهي تبطئ من سرعتها وتفقد معظم قوتها بعد أن تشربت أرض المستنقعات المياه، وأخذت المياه تفيض في القنوات والبرك والمستنقعات والأراضي الموحلة، وتملأ كل ذلك بمياه صافية مالحة، تاركةً خلفها البحر الشاسع. وما لبثت أن اختفت الموجة بعد ذلك، وأخذت چينا والفتى 412 يبحران وسط بحر متسع يمتد إلى أبعد الآفاق، تتناثر عليه بعض الجزر هنا وهناك.

ومع إبحارهم مجدِّفين بزوارقهم في اتجاه أملوا أن يكون صحيحًا، بدأ يخيم عليهم ظلام مخيف مع تجمع سحب العاصفة عاليًا فوقهم. وانخفضت درجات الحرارة بشكل حاد، وأصبح الجو محملًا بشحنات كهربائية، وسرعان ما سمعوا دوي رعد مرعب في أنحاء السماء وبدأت قطرات ثقيلة من الأمطار تتساقط عليهم. نظرت چينا على محيط الماء الرمادي والبارد الممتد أمامهم، وتساءلت في سرها: كيف سيتمكنون من العثور على طريق البيت؟

وهنالك، وبعيدًا فوق إحدى أبعد الجزر، رأى الفتى 412 ضوءًا متراقصًا؛ إنها العمة زيلدا تضيء الآن شموع العاصفة وتضعها على أطر النوافذ.

انطلق الزورقان بسرعة قاصدين البيت مع دوي الرعد الذي بدأ يتبعه برق صامت يضيء السماء.

كان باب كوخ العمة زيلدا مفتوحًا، فلقد كانت تتوقع قدومهم.

ربطوا الزورقين في حامل حذاء العمة زيلدا الطويل بجوار الباب الأمامي، ووجدوا الكوخ من الداخل يخيم عليه صمت غريب، بينما كانت العمة زيلدا في المطبخ مع الغول.

صاحت جينا: «لقد عدنا!» فخرجت العمة زيلدا من المطبخ، وأغلقت الباب وراءها بهدوء.

وسألتهم: «هل عثرتم عليه؟».

قالت جينا: «عثرنا على من؟».

«الفتى التلميذ، سبتيموس».

ردت جينا: «*باه! ذلك الفتى*». فما تعرضوا له منذ أن انطلقوا صباحًا أنساهم تمامًا سبب خروجهم.

ثم قالت العمة زيلدا وهي تسير بخطوات سريعة نحو الباب لتغلقه: «شغلتموني عليكم، لقد عدتم في الوقت المناسب تمامًا، فالظلام حل بالكامل الآن».

«نعم، إنه...»

وإذا بالعمة زيلدا تصرخ وقتما وصلت إلى الباب ورأت المياه تغمر الأرض عند عتبته، هذا عدا الزورقين المتأرجحين في الخارج.

«لقد غمرنا الفيضان.. الحيوانات! إنها سوف تغرق».

قالت لها جينا تطمئنها: «إنها بخير، كل الدجاج موجود هناك عند مركب الدجاج. لقد أحصيناه. والماعز تسلقت السطح».

«السطح؟».

«نعم، وكانت تأكل القش عندما رأيناها».

«حمدًا لله».

«كما أن البط بخير والأرانب.. في الحقيقة، أظن أنني رأيتها وكأنها تطفو في الأنحاء».

صرخت العمة زيلدا وهي تقول: «تطفو في الأنحاء؟ الأرانب لا تطفو».

«هذه الأرانب كانت تطفو. لقد مررت بعدد منها، وكانت ممددة على ظهرها، وكأنها تأخذ حمام شمس».

صاحت العمة زيلدا بفزع: «حمام شمس؟ في المساء؟».

فقالت جينا بنبرة صارمة: «دعك من موضوع الأرانب الآن يا عمة زيلدا، هناك عاصفة قادمة في الطريق الآن».

توقفت العمة زيلدا عن الضجة التي أثارتها حول الأرانب، وأخذت تتفحص الوجوه الثلاثة المبللة أمامها.

وقالت: «أنا آسفة، كيف تصرفت هكذا؟ اذهبوا وجففوا أنفسكم بجوار النار».

وقفت جينا ونكو والفتى 412 بجوار النار ليجففوا أنفسهم، وفي تلك الأثناء ألقت العمة زيلدا نظرة أخرى على الظلام في الخارج، ثم أوصدت باب الكوخ بهدوء، وهمست قائلة: «هناك **شياطين** في الخارج. كان ينبغي عليّ أن ألاحظ ذلك، إلا أن الغول حالته سيئة، سيئة للغاية. لا

أتخيل كيف كنتم في الخارج وسط كل ذلك.. وبمفردكم».. وشعرت العمة زيلدا برجفة.

بدأت چينا تشرح لها: «إنه دومدانيال، إنه...».

«إنه ماذا؟».

قالت چينا: «إنه بشع. لقد رأيناه.. على سفينته».

قالت العمة زيلدا، وقد فغرت فاها غير مُصدقة ما تسمعه: «رأيتموه؟ رأيتم دومدانيال؟ على *السفينة انتقام*؟ أين؟».

«بجوار قناة ديبين، فوقتً ما تسلقنا و..».

«ماذا تسلقتم؟».

«السلم. وصعدنا على متن السفينة..».

«أنتم... أنتم صعدتم على متن *السفينة انتقام*؟» كانت العمة زيلدا لا تكاد تفهم شيئًا من كل هذا الذي تسمعه، ولاحظت چينا أن العمة زيلدا علاها الشحوب فجأة وبدأت يداها ترتجفان.

ثم قال نكو: «إنها سفينة رديئة. رائحتها كريهة».

«أنت أيضًا صعدت على متن السفينة؟».

رد نكو متمنيًا الآن لو أنه كان قد صعد على متنها: «لا، كنت سأذهب معهما، لكن تعويذة كن خفيًا التي استخدمتها لم تكن صالحة بالقدر الكافي؛ ولذلك، مكثت في الزورقين».

استغرقت العمة زيلدا عدة ثوانٍ حتى تستوعب كل هذا، ثم نظرت إلى الفتى 412.

«إذن، أنت وچينا صعدتما متن تلك السفينة **الشيطانية** بمفردكما.. وسط كل هذا **السحر الأسود**.. لكن لماذا؟».

حاولت چينا أن تفسر لها وقالت: «في الحقيقة، لقد قابلنا ألثر».

«ألثر؟».

«وقال لنا: إن مارشا...».

«وما دخل مارشا في كل هذا؟».

فقال الفتى 412: «لقد وقعت في أسر دومدانيال، وألثر قال إنه يعتقد أنها ربما تكون على متن السفينة. وبالفعل كانت. لقد رأيناها».

سقطت العمة زيلدا منهارة على الكرسي بجوار النار وقالت:

«يا للهول! إن ما أسمعه يزداد سوءًا. كان ينبغي على هذا الشبح العجوز الذي يدس أنفه فيما لا يعنيه أن يكون أكثر إدراكًا. يُرسل ثلاثة شباب إلى سفينة تستخدم **السحر الأسود**.. كيف تسنى له أن يفعل ذلك؟!».

قال الفتى 412: «إنه لم يرسلنا، إنه لم يرسلنا فعلًا. بل في واقع الأمر قال لنا ألا نفعل ذلك. لكن، كان يجب علينا أن نحاول إنقاذ مارشا. رغم أننا لم نتمكن».

همست العمة زيلدا قائلة: «مارشا تم أسرها؟ هذا خبر سيئ». وبدأت تقلب في الأخشاب المشتعلة بالمِشعار لإذكاء النار فانطلقت منها بعض الشرارات في الهواء.

أطلق الرعد زئيره مباشرة فوق الكوخ بصوت مدو امتد طويلًا، هز الكوخ من قواعده. وتسربت موجة شرسة من الرياح من خلال النوافذ، فأطفأت شموع العاصفة، تاركةً ضوءًا متراقصًا صادرًا عن النار المشتعلة في المدفأة ليضيء الغرفة. وفي اللحظة التالية، سقط وابل من الكرات الثلجية في الخارج أخذ يخشخش وهو يصطدم بالنوافذ، ثم سقط من خلال المدخنة، مطفئًا النار بغضب.

وسقط الكوخ في الظلام الدامس.

هتفت العمة زيلدا، وهي تنهض وتتحسس الطريق وسط الظلام متوجهة إلى دولاب المصابيح: «المصابيح!».

أخذ ماكسي يئن، وخبأت بيرث رأسها تحت جناحها السليم.

ثم همهمت العمة زيلدا، وهي تفتش في جيوبها بدون أن تعثر على شيء: «يا للإزعاج! أين المفاتيح الآن؟ يا للإزعاج! يا للإزعاج! يا للإزعاج!».

كراك!

مرت صاعقة برق أمام النوافذ، أضاءت المشهد في الخارج، وهي تضرب الماء القريبة جدًا من الكوخ.

ثم قالت العمة زيلدا بحدة: «لم تصبنا، رغم أنها كادت أن تصيبنا».

بدأ ماكسي يعوي واختبأ أسفل السجادة.

ثم نظر نكو من النافذة ورأى خلال الوهج اللحظي لضوء البرق شيئًا لم يكن يود أن يراه مرة أخرى.

ثم قال بهدوء: «إنه قادم. لقد رأيت السفينة بعيدًا في الأفق. إنه يبحر فوق المستنقعات. إنه قادم إلينا».

تدافع الجميع نحو النافذة. في أول الأمر، لم يروا إلا ظلام العاصفة التي تقترب منهم، لكن مع مراقبتهم المشهد الخارجي وهم محدقون إلى الظلام، برقت السحب للحظة وأضاءت لهم المنظر الذي رآه نكو منذ لحظات.

رأوا في ضوء البرق خيال السفينة **الشيطانية** الضخمة، ورغم أنها لا تزال بعيدة، فإنها تقطع الطريق وسط الأمواج بأشرعتها الخفاقة وسط عويل الرياح.. متوجهة نحو الكوخ.

وهكذا، أصبحت السفينة *انتقام* في طريقها إليهم.

43
المركب التنينية



أصيبت *العمة زيلدا بالهلع.*

«أين هو المفتاح؟ أنا لا أجد المفتاح! أخ! ها هو».

وبيد مرتجفة، أخرجت المفتاح من أحد جيوبها وفتحت دولاب المصابيح، ثم أخرجت مصباحًا وناولته للفتى 412.

وسألته: «تعلم أين ستذهبون، أليس كذلك؟ الباب المسحور في دولاب الجرعات؟».

فأومأ لها برأسه.

«انزلوا الآن في النفق، سوف تكونون بمأمن هناك ولن يعثر عليكم أحد. وسوف أجعل الباب المسحور **يختفي**».

فسألتها چينا: «لكن، ألن تأتي معنا؟».

فردت بهدوء: «لا، فالغول حالته سيئة جدًا. أخشى أنه لن يتحمل لو نقلته. لا تقلقوا عليّ. إنه لا يريدني أنا. انتظروا. خذي هذا يا چينا، يمكنكم اصطحابها هي أيضًا معكم»، وأخرجت العمة زيلدا الحشرة المدرعة من جيب آخر من جيوبها وأعطت چينا الحشرة المكورة، فدستها في جيب سترتها.

«والآن، هيا اذهبوا».

تردد الفتى 412، ثم شق السماء صاعقة برق أخرى.

صاحت وهي تلوح لهم بذراعيها مثل طاحونة هواء مجنونة: «هيا! هيا!».

فتح الفتى 412 الباب المسحور الموجود في دولاب الجرعات، وأمسك المصباح عاليًا، بيد ترتجف بعض الشيء، بينما بدأت چينا تترجل السلم هابطة بسرعة. توقف نكو، وبدأ يتساءل في سرّه: أين سيذهب ماكسي، ومع علمه أن الكلب الذئبي يكره العواصف الرعدية، أراد أن يأخذه معه.

فناداه قائلًا: «ماكسي، ماكسي!»، ثم سمع أنينًا خافتًا للكلب قادمًا من أسفل السجادة.

كان الفتى 412 قد وصل إلى منتصف السلم.

فقال لنكو: «هيا»، لكن نكو كان منشغلًا يصارع الكلب المتمرد، الذي رفض أن يترك المكان الذي اعتبره الأكثر أمانًا على وجه الأرض، أسفل السجادة التي تفترش الأرض أمام المدفأة.

فقال له الفتى 412 بنفاد صبر، ورأسه يستند إلى الباب المسحور: «هيا، أسرع»، كان لا يفهم المغزى من تعلق نكو هكذا بكتلة من الفرو ذات رائحة كريهة.

تمكن نكو من الإمساك بالوشاح المنقط الذي يرتديه ماكسي حول عنقه، وجر الكلب المذعور من أسفل السجادة على الأرض. وأخذت حوافره تخربش في بلاطها ببشاعة، ثم أخذ يئن بصوت يمزق القلوب عندما دفعه نكو في دولاب الجرعات المظلم. وحينئذ، أدرك ماكسي أنه بلا شك فعل ما يجعله يستحق كل هذا، وبدأ يتساءل في سرّه ما هذا الذي فعله؟ وما الذي منعه حينها من الاستغراق في الاستمتاع به؟

وهكذا مر ماكسي عبر الباب المسحور، وسط شعره المتطاير ولعابه المتساقط، وهبط على الفتى 412 مصطدمًا بالمصباح فانطفأ وسقط من يده متدحرجًا بعيدًا على الأرض شديدة الانحدار.

فقال الفتى 412 للكلب في غضب : «انظر ماذا فعلت الآن»، وكان نكو قد لحق بهم عند أسفل السلم الخشبي.

فرد نكو: «ماذا قلت؟ ما هذا الذي فعلته؟».

«أنا لا أقصدك أنت، أقصد الكلب. لقد فقدنا المصباح».

«لا تنزعج، سوف نعثر عليه. لا تقلق. المهم أننا في مأمن الآن»، ورفع نكو الكلب وأوقفه على رجليه، فانزلق الكلب الذئبي على المنحدر

الرملي، بينما كانت حوافره تخربش في الصخور أسفل الرمال، وهو يجر نكو معه، وانحدر كلاهما على الأرض شديدة الانحدار، واستقرا في صورة كومة مزرية عند أسفل درجات سلم.

قال نكو: «باه! أعتقد أنني عثرت على المصباح».

رد الفتى 412 بتذمر: «جيد»، ثم رفع المصباح الذي عادت إليه الحياة مرة أخرى وأضاء جدران النفق الرخامية الملساء.

قالت جينا: «ها هي الصور من جديد. أليست مدهشة؟».

فقال نكو متذمرًا: «كيف سنح لكم جميعًا أن تنزلوا إلى هنا بدوني من قبل؟ لم يسألني أحد عما إذا كنت أود أنا أيضًا أن أشاهد هذه الصور. انظروا. هناك مركب في هذه الصورة».

رد الفتى 412 باختصار: «تعلم ذلك»، ثم أنزل المصباح وجلس على الأرض من شدة الإرهاق وتمنى لو يصمت نكو. لكن النفق أثار حماسه.

وراح يحدق إلى الحروف الهيروغليفية المكتوبة بطول الجدران إلى حيث أخذهم الضوء المتراقص للمصباح، وقال: «إن المكان هنا مثير للدهشة».

قالت جينا: «أعلم ذلك. انظر إلى هذا، أنا أحبه كثيرًا. هذا الشكل المستدير وبداخله التنين»، وبدأت تمرر يدها على الصورة الصغيرة المنقوشة باللونين الأزرق والذهبي على الجدار الرخامي، وفجأة شعرت أن الأرض بدأت تهتز. انتفض الفتى 412 وهبَّ واقفًا.

وقال لاهثًا: «ما هذا؟».

ثم سمعوا صوتًا مدويًا أسفل أقدامهم بث في نفوسهم الرعب وأخذ يرج الأجواء من حولهم.

شهقت چينا: «إنها تتحرك! جدران النفق تتحرك!».

وهكذا، بدأ أحد جوانب النفق ينشق ويتحرك بثقل، تاركًا فراغًا مفتوحًا أمامهم. رفع الفتى 412 المصباح، فتوهج بضوء أبيض ساطع.. ولدهشتهم، رأوا معبدًا رومانيًا سفليًا يمتد أمامهم.. وامتدت أسفل أقدامهم أرض مزخرفة بالفسيفساء زخارفَ متداخلةً. وانبثقت وسط الظلام أعمدة رخامية أسطوانية ضخمة، ولم يقتصر الأمر على ذلك.

«ياه!».

«يا إلهي!».

وأطلق نكو صفير انبهار، بينما جلس ماكسي على الأرض وهو يتنفس بأنفاس قوية كسائر الكلاب تخرج في صورة سحب كثيفة وسط الأجواء الباردة.

ففي وسط المعبد، قبعت على أرضه الفسيفسائية أجمل وأروع مركب رأتها عين على الإطلاق.

إنها مركب التنين الذهبي الخاصة بحتب رع.

ارتفع عند مقدمة المركب رأس التنين الضخم باللونين الأخضر والذهبي، بينما اتخذ عنقها شكلًا مقوسًا رشيقًا كأنه عنق بجعة عملاقة. كان جسم التنين عبارة عن مركب عريضة غير مسقوفة جسمها أملس مصنوع من الخشب المذهب، أما أجنحتها، فكانت مطوية بدقة على امتداد جسم المركب من الخارج، وعندما وقع ضوء المصباح على

القشر الأخضر الذي يكسو الأجنحة عكس هذا القشر وميضًا متموجًا رائعًا أخضر متقزحًا.. أما ذيل التنين فكان مقوسًا لأعلى عند مؤخرة المركب ويمتد بعيدًا وسط ظلام المعبد، ولا يكاد يُرى فيه الطرف الذهبي المسنن للذيل.

قال نكو لاهثًا: «كيف دخل *كل هذا* إلى هنا؟».

رد الفتى 412: «إنها حطام سفينة غارقة».

ونظرت چينا ونكو إلى الفتى 412 في دهشة، وكلاهما يسأل في صوت واحد: «كيف تسنى لك معرفة هذا الأمر؟».

«لقد قرأت عنها في كتاب *مائة قصة غريبة ومثيرة للأولاد الذين يشعرون بالملل*. العمة زيلدا أعطته لي كي أقرأه وأعيده إليها بعد ذلك، لكنني ظننت حينها أن المركب التنينية أسطورة، وما خطر على بالي قط أنها حقيقة، أو أنها موجودة هنا».

فسألته چينا، وهي مشدوهة بالمركب تمامًا، ويراودها إحساس أنها رأتها من قبل في مكان ما: «فما هي قصة المركب إذن؟».

«إنها المركب التنينية الخاصة بحتب رع، وتقول الأسطورة إنه نفس الساحر الذي بنى برج السحرة».

قالت چينا: «*بالفعل*، هو الذي بناه، أخبرتني مارشا بذلك».

«تقول القصة: إن حتب رع كان ساحرًا ذا نفوذ قوي يعيش في بلاد بعيدة وكان لديه أنثى تنين. لكن حدث أمر ما جعله يترك البلاد على عَجلٍ، فعرضت عليه أنثى التنين أن تكون هي المركب التي تقله. وبالفعل، أقلته التنين بسلام إلى أرض جديدة».

فهمست جينا، تحسبًا لاحتمال أن المركب تستطيع أن تسمعهم: «أي أن هذه المركب هي.. أو بالأحرى كانت.. أنثى تنين حقيقية؟».

رد الفتى 412: «أعتقد ذلك».

فهمهم نكو قائلًا: «نصف مركب ونصف تنين. يا له من أمر غريب! لكن لماذا هي موجودة هنا؟».

قال الفتى 412: «لقد تحطمت بعد أن اصطدمت بصخور قريبة من فنار الميناء، ثم سحبها حتب رع إلى مستنقعات مرام، وجذبها بعيدًا عن الماء، ثم أخذها إلى معبد روماني عثر عليه بجزيرة مقدسة، وبدأ يعيد بناءها. لكنه لم يجد عمالًا مهرة في الميناء، فالمكان حينها كان موحشًا».

غمغم نكو متذمرًا: «ولا يزال موحشًا، وما زالوا لا يتقنون بناء المراكب هناك، ولو أردت بنّائين مهرة للمراكب فلا بد أن تأخذ النهر وتجلبهم من القلعة. هذا أمر لا يخفى على أحد».

قال الفتى 412: «في الحقيقة، هذا هو ما قالوه لحتب رع أيضًا. لكن عندما ظهر هذا الرجل بملابسه الغريبة في القلعة مدعيًا أنه ساحر، سخر منه الجميع ورفضوا تصديق روايته الغريبة عن مركبه التنينية، إلى أن حدث ذات يوم أن مرضت ابنة الملكة، وأنقذ حتب رع حياتها. ومن فرط امتنان الملكة له ساعدته في بناء برج السحرة. وذات صيف، أخذها هي وابنتها إلى مستنقعات مرام لتشاهد مركبه التنينية، ووقعت الملكة وابنتها في غرامها. وبعد ذلك، تم إمداد حتب رع ببنائي المراكب بغير حساب. ولأن الملكة كانت مغرمة بالمركب، كما أنها أعجبت بأخلاق حتب رع،

اعتادت أن تأخذ ابنتها كل صيف لتشاهدا ما تم إنجازه، والقصة تقول إن الملكة مازالت تداوم على هذه الزيارة. لكن... لكن بالطبع انتهى ذلك الآن».

وساد الصمت.

ثم همهم الفتى 412 قائلًا: «آسف، أنا لم أقصد».

ردت جينا بنبرة مرحة أكثر من اللازم: «لا تزعج نفسك».

تقدم نكو، وأخذ يمرر يد خبير على الخشب المذهب لجسم المركب.

ثم قال: «لقد تم إصلاحها بشكل جيد. يد -بلا شك- كانت تعلم ماذا تصنع. من العار أنه منذ ذلك الوقت لم يجربها أحد، إنها في غاية الجمال».

وبدأ يتسلق سلمًا خشبيًا قديمًا يستند إلى جسم المركب.

«لا تقفا هكذا أنتما الاثنان. اصعدا وألقيا نظرة عليها».

لم تكن المركب من الداخل كأي مركب رأتها أي عين من قبل.. كانت مطلية باللون الأزرق القاتم لحجر اللازوردي، وظهرها تعلوه نقوش لمئات الحروف الهيروغليفية الذهبية.

قال الفتى 412 وهو يتجول في أنحاء ظهرها، ويمرر أصابعه على الخشب المصقول: «إن وحدة الأدراج القديمة الموجودة في غرفة مارشا في البرج يعلوها نفس نوع هذه الكتابة».

ردت چينا برية: «فعلًا؟» فالفتى 412 على ما تتذكر كان مغمض العينين معظم الوقت الذي قضاه في برج السحرة.

قال الفتى 412، والذي كثيرًا ما أزعجته ذاكرته القوية في تذكر أسوأ الظروف التي يتعرض لها: «لقد رأيتها عندما دخلت السفاحة، ولا تزال محفورة في رأسي».

ثم بدءوا يتجولون على ظهر المركب التنينية. مروا بحبال خضراء ملفوفة، ومرابط وأصفاد ذهبية، وحواجز وحبال أشرعة فضية، وكتابات هيروغليفية لا حصر لها، ومروا أيضًا بغرفة صغيرة لها أبواب زرقاء داكنة مغلقة بإحكام يعلوها نفس الرمز التنيني ويحيطه شكل بيضاوي رأوه من قبل على باب النفق. لكن لا أحد منهم تحلَّى بقدر من الشجاعة يجعله يفتح الباب ليرى ما بالأسفل، ومروا بجواره على أطراف أصابعهم، ووصلوا أخيرًا إلى مؤخرة المركب.

إلى ذيل التنين.

كان الذيل الهائل مقوسًا عاليًا فوقهم، ويختفي وسط الظلام، ومن فرط ضخامته شعروا بضعفهم وبضآلة أحجامهم بجانبه، وقال الفتى 412 في سرّه وهو يرتجف إن حركة واحدة من ذيل المركب التنينية تلوح بها عليهم في الأسفل وينتهي أمرهم.

بدا ماكسي مُذعنًا، وأخذ يسير بانصياع تام وراء نكو، وذيله بين رجليه.. لا يزال يخالجه ذلك الشعور بأنه أساء التصرف في شيء ما، ولم يخفف صعوده على متن المركب التنينية وطأة ذلك.

وقف نكو عند مؤخرة المركب، وهو يلقي نظرة خبير على ذراع الدفة باستحسان. إنها قطعة أنيقة من خشب الماهوجني مقوسة بانسيابية، ومنحوتة بمهارة فائقة تجعل اليد الممسكة بها تشعر كأنها معتادة إياها منذ زمن.

وقرر نكو أن يُعلم الفتى 412 كيف يدير ذراع الدفة.

وقال له وهو يمسك بالذراع: «انظر، يجب أن تمسك الذراع هكذا، ثم تدفعها إلى اليمين إذا كنت تريد توجيه المركب إلى اليسار، وتجذبها إلى اليسار إذا كنت تريد توجيه المركب إلى اليمين.. سهل».

رد الفتى 412 في شك: «لا يبدو ذلك سهلًا، يبدو كأنك ترجع للخلف لتتقدم إلى الأمام».

فقال نكو وهو يدفع ذراع الدفة إلى اليمين: «انظر.. هكذا»، وتحركت الذراع بانسيابية، وهي تدير موجه الدفة عند مؤخرة المركب إلى الاتجاه المعاكس.

فنظر الفتى 412 إلى جانب المركب.

وقال: «هكذا! إذن يتم توجيه المركب. فهمت الآن».

قال له نكو: «جرب بنفسك. فالأمر يبدو منطقيًا عندما تدير الذراع بنفسك»، فأمسك الفتى 412 الذراع بيده اليمنى ووقف إلى جوارها كما أرشده نكو.

وهنالك، اهتز ذيل التنين.

انتفض الفتى 412 وقال: «ما هذا؟».

رد نكو: «لا شيء.. انظر، كل ما عليك عمله هو أن تدفعها بعيدًا عنك هكذا».

وبينما أخذ نكو يمارس هوايته المفضلة بأن يرشد الآخرين إلى طريقة تشغيل المراكب، راحت چينا تتجول عند مقدمة المركب تشاهد رأس التنين الذهبي الوسيم، وتساءلت في سرّها وهي تنظر إليه لماذا تبدو عيناها مغمضتين، ثم قالت إنه لو كان لديها مركب رائعة مثل هذه المركب لكانت جعلت عيني التنين زمردتين، فهذا أقل ما تستحقه هذه التنين. وبشكل تلقائي لفت ذراعيها حول عنق التنين الأخضر بسطحه الأملس وأسندت رأسها إليه، بدا لها أن عنقها أملس تمامًا ولدهشتها كان دافئًا.

ومع لمسات چينا للتنين، سرت رجفة التعارف في جسمها، وبدأت تستعيد باستفاضة صفحات من الذكريات القديمة.

تذكرت سنوات طويلة قضتها وهي تتماثل للشفاء بعد الحادث الأليم، وتذكرت حتب رع عندما أحضر الأميرة الشابة الجميلة من القلعة لزيارة المركب في عيد منتصف الصيف. مرت أيام وشهور وطالت إلى سنين ولا تزال المركب التنينية ممددةً على أرض المعبد. ورويدًا رويدًا رممها بناءو المراكب الذين جلبهم حتب رع. وكلما حل عيد منتصف الصيف، حضرت الملكة ومعها صغيرتها لزيارة المركب التنينية. تمر السنون ولا يزال البناءون في عملهم لم ينتهوا منه بعد. شهور لا حصر لها مرت واختفى البناءون وتركوها وحيدة، ثم تقدم حتب رع في السن ووهن

العظم منه، وحينما تم الانتهاء من إصلاحها، كان قد أعياه المرض فمنعه ذلك من رؤيتها، ثم أمر بأن تتم تغطية المعبد بتلة ضخمة لحمايتها إلى أن يأتي اليوم الذي ستكون هناك حاجة لها مرة أخرى، وهكذا غرقت وقتئذ في الظلام.

لكن الملكة لم تنس ما قاله لها حتب رع.. قال لها إنها لا بد أن تزور المعبد كلما حل عيد منتصف الصيف؛ ولذلك كانت الملكة تأتي كل صيف إلى الجزيرة، ثم أمرت ببناء كوخ بسيط لتمكث فيه هي والنساء. وكلما حل عيد منتصف الصيف كانت تضيء مصباحًا، وتأخذه إلى أسفل؛ إلى المعبد وتزور المركب التي أحبتها. ومع مرور السنين، ظلت كل ملكة تالية تقوم بزيارة في منتصف الصيف للمركب التنينية، دون أن تعلم سبب الزيارة، لكنها تقوم بها؛ لأن والدتها كانت تقوم بها من قبل، ولأن كل ملكة جديدة تنشأ أيضًا على حب التنين. والتنين بدورها، أحبت كل ملكة منهن. ورغم أن كلاً منهن تفردت بما يميزها، فإنهن يتمتعن بنفس اللمسات المميزة الرقيقة، مثل هذه الملكة الممسكة بعنقها الآن.

وهكذا مرت القرون، وأصبحت زيارة منتصف الصيف طقسًا سريًا يتم تحت رعاية الساحرات البيضاوات المتواليات اللاتي يعشن في الكوخ، ويحتفظن بسر المركب التنينية ويقمن بإضاءة المصابيح لمساعدة التنين على تحمل الأيام، والتنين تغفو قرونًا وقرونًا حتى لا تشعر بالوحدة،

مدفونة أسفل الجزيرة، تأمل أن تتحرر يومًا ما وهي تنتظر كل عام اليوم السحري لعيد منتصف الصيف، يوم حضور الملكة بالمصباح لتحييها.

إلى أن جاء عيد منتصف الصيف؛ منذ عشرة أعوام، ولم تحضر الملكة، وحينها تعذبت التنين من فرط قلقها، لكن لم يكن في وسعها شيء، ظلت العمة زيلدا تحافظ على حالة الكوخ استعدادًا لليوم الذي ستحضر فيه الملكة، هذا لو حدث أن حضرت.. وظلت أنثى التنين تنتظر. لا يرفع من معنوياتها سوى زيارات العمة زيلدا اليومية بمصباح مضيء حديثًا.. وظلت تنتظر اللحظة التي تلقي فيها الملكة ذراعيها حول عنقها.

كما فعلت الآن تمامًا.

فتحت التنين عينيها بدهشة، ولهثت جينا من فرط ذلك، وقالت في سرِّها إنها بكل تأكيد تحلم. إن عينيها بالفعل خضراوان كما تخيلتهما تمامًا، لكنهما لم تكونا زمردتيْن، بل كانتا حقيقيتين تستطيع التنين أن تنظر بهما، تركت جينا عنق التنين، وخطت عدة خطوات للوراء.. بينما راحت عينا التنين تتابعان حركتها، وهما تمعنان النظر في الملكة الجديدة. وقالت التنين في سرِّها إنها ملكة شابة، لكن لا بأس في ذلك.. وانحنت لها برأسها في احترام.

رأى الفتى 412 من عند مؤخرة المركب التنين وهي تنحني برأسها، مدركًا تمامًا أن ما رآه ليس خيالًا، و أنه لا يتوهم أشياء أخرى، مثل خرير الماء الذي يسمعه الآن.

صاح نكو: «انظر!»؛ حيث ظهرت فجوة في الجدار بين العمودين اللذين يحملان السقف، وبدأ الماء يتسرب بشكل يتهددهم. وبينما كانوا يراقبون الماء، تحول التسرب إلى تدفق قوي مع اتساع الفجوة أكثر فأكثر. وسرعان ما غُمرت أرض المعبد الفسيفسائية بالماء.. وتحول تدفق الماء القوي إلى فيضان.

وبزئير مدوٍّ كدوي الرعد، شقت الأرض في الخارج طريقًا، وانهار الجدار المقام بين العمودين، فاجتاح المغارة نهر من الوحل والماء، راح يرفع المركب ويؤرجحها على جانبيها، إلى أن باتت فجأة تطفو بحُرية تامة.

صاح نكو بحماس: «إنها تطفو».

نظرت جينا من فوق مقدمة المركب إلى المياه الموحلة وهي تتحرك كالدوامة أسفلهم، وشاهدت السلم الخشبي الصغير وهو يتجرف بعيدًا وسط الفيضان، ثم بدأت تنتبه لحركة فوقها؛ إنها أنثى التنين. لقد بدأت تحرك رأسها ببطء وألم، بعنق متيبس بعد سنوات انتظار طويلة، ثم لفت عنقها لترى من الذي جلس أخيرًا عند موقع قيادة المركب.. أطالت أنثى التنين النظر في عيني سيدها الجديد الخضراوين العميقتين، والذي بدا لدهشتها شخصًا ضئيل الحجم يعتمر قبعة حمراء، ولا يبدو كسيدها السابق حتب رع الذي كان طويل القامة، وكان حزامه المصنوع من الذهب والبلاتين يومض في ضوء الشمس وسط الأمواج، بينما كانت عباءته الأرجوانية ترفرف وسط الرياح مع انطلاق المركب وسيدها

معًا مسرعين في مياه المحيط. لكن التنين تعرَّفت الآن أهم ما في الأمر.. فاليد التي أمسكت بذراع الدفة مرة أخرى يد سحرية.

لقد حان الوقت للخروج إلى البحر من جديد.

حركت التنين رأسها للخلف، وبدأ جناحاها الهائلان يرتخيان بعد أن كانا مطويين على امتداد جانبي المركب.. ورأت البحر الممتد أمام عينيها لأول مرة بعد مئات السنين.

أخذ ماكسي ينبح، ووقف شعر رأسه من الذهول.

وبدأت المركب تتحرك.

صاحت چينا تقول للفتى 412: «ماذا تفعل ؟».

فهز لها الفتى 412 رأسه، فليس هو الذي يحركها، بل المركب هي التي تحرك نفسها.

فصاحت چينا في وجهه بصوت يعلو على صوت العاصفة في الخارج: «اتركها! اترك ذراع الدفة، إنه أنت الذي يحركها، اترك الذراع!».

لكن الفتى 412 أبى أن يترك الذراع، كان هناك شيء يجعل يده تتشبث في الذراع بإحكام، وهي توجه المركب التنينية التي بدأت تتحرك بين العمودين الرخاميين، مصطحبةً معها طاقمها الجديد؛ چينا ونكو والفتى 412 وماكسي.

ومع تخلص ذيل التنين المسنون من ظلام المعبد الذي كان محاصرًا فيه، بدأت جوانب المركب تصدر صريرًا قويًا. فالتنين بدأت ترفع

جناحيها، تفردهما وتمدهما وكأنهما يدان شبكيتان هائلتان تفردان أصابعهما الطويلة العظمية، وتصدران صريرًا وأنينًا مع تمدد جلدهما. أخذ طاقم المركب التنينية يحدقون إلى سماء الليل المظلمة، متدهشين من منظر الجناحيْن الهائليْن وهما يرتفعان عاليًا فوق المركب كأنهما شراعان أخضران عملاقان.

وهكذا، انبثق رأس التنين وسط ظلام الليل، واندلع اللهب من منخاريها يتبع وميضًا مع استنشاقها الرائحة التي اشتاقت إليها منذ سنوات.. هواء تنبعث منه رائحة البحر.

وأخيرًا، تحررت أنثى التنين.

44

إلى البحر



صاح نكو بعد أن ضربت موجة جانب المركب وطالتهم، لتغمرهم بمياه مثلجة: «أدرها وسط الأمواج!»، لكن الفتى 412 كان يقاوم بصعوبة كي يحرك الذراع وسط الرياح وقوة المياه. وزاد من صعوبة الموقف دوي العاصفة الذي يخرق أذنيه والمطر الغزير الذي يصفع وجهه.. ارتمى نكو على ذراع الدفة، وأخذ الفتيان معًا يدفعانها بكل ما أوتيا من قوة. بينما أعدت التنين جناحيها لمواجهة الرياح، وانعطفت المركب ببطء لتواجه الأمواج المقبلة نحوها.

تعلقت چينا في عنق التنين عند مقدمة المركب، وملابسها تغمرها المياه، بينما كانت المركب تصعد وتهبط فوق الأمواج وهي تبحر وسطها، وتقذف بچينا من جانب إلى آخر.

وفي غمرة السعادة، مدت التنين رأسها، وهي تتنفس هواء العاصفة مستمتعةً بكل دقيقة منها. إنها بداية الرحلة، وظهور العاصفة في بداية الرحلة فأل طيب دائمًا.. لكن، إلى أين يريد سيدها الجديد أن تأخذه؟ التفت التنين بعنقها الأخضر الطويل تنظر إلى سيدها الجديد الرابض عند موقع القيادة بقبعته الحمراء المبللة، وهو يقاوم مع زميله، بينما يتسدل الماء على وجهه.

فسألت عينا التنين الخضراوان: *«ما الوجهة التي تريدون قصدها؟»*.

فهم الفتى 412 نظرة التنين.

فصاح بكل قوة يقول لچينا ونكو: «مارشا!».

أومأ له كلاهما برأسه؛ فهذه المرة سوف ينجحون.

صاح الفتى 412 يقول للتنين: «مارشا!».

فتح التنين عينيه وأغمضهما في حيرة. فأين هي بلاد مارشا هذه؟ إنها لم تسمع عن هذا البلد من قبل. أهي بلاد بعيدة؟ لابد أن الملكة تعرف.

وفجأة، خفضت التنين رأسها وحملت چينا من فوق مقدمة المركب ورفعتها عاليًا بنفس الطريقة التي كانت تداعب بها على مدار القرون العديد والعديد من الأميرات. لكن وسط عويل الرياح، بدا ذلك بالنسبة لچينا مرعبًا أكثر من كونه مداعبةً، ووجدت نفسها تحلق في الهواء فوق الأمواج العالية. وفي اللحظة التالية، وبعد أن غمرتها المياه المتناثرة، كانت جاثمة على قمة رأس التنين الذهبي، تجلس خلف أذنيها مباشرة وتتعلق بهما بمنتهى القوة وكأن حياتها تعتمد عليهما.

سمعت چينا التنين تسألها والأمل يحدوها، مشتاقةً لقضاء شهور طويلة سعيدة تبحر وسط المحيطات مع طاقمها الجديد باحثةً عن بلاد اسمها مارشا: أين مارشا يا مولاتي؟ هل الرحلة طويلة؟

ثم غامرت چينا ورفعت يدًا من على إحدى أذني أنثى التنين والتي وجدتها لدهشتها أذنًا ذهبية لينة، وأشارت لها إلى *السفينة انتقام* التي كانت تتوجه نحوهم بسرعة.

«إن مارشا على متن هذه السفينة. إنها ساحرتنا العظمى، وهي سجينة هناك. نريد أن نحررها من سجنها».

سمعت صوت التنين مرة أخرى، والتي أحبطها بعض الشيء أنهم لن يبحروا بعيدًا: *«كما تشائين يا مولاتي، أوامرك مطاعة»*.

في أعماق *السفينة انتقام*، جلست مارشا أوفرستراند في غرفة الحجز تسمع دوي **العاصفة** وهو يزداد غضبًا.. ارتدت خاتم الفتى 412 في أصبعها الأصغر، وهو الأصبع الوحيد الذي دخل فيه الخاتم. وأخذت في وسط ظلام الغرفة، تقلب في رأسها كل الاحتمالات التي يمكن أن تفسر كيف أن الفتى 412 استطاع أن يعثر على الخاتم التنيني الخاص بحتب رع بعد فقدانه منذ زمن بعيد، ولم تجد أي تفسير منطقي لذلك. لكن أيًا كان الأمر، فها هو ذا الخاتم الآن يقدم لمارشا خدماته الجليلة كما اعتاد أن يفعل مع حتب رع؛ لقد أزال عنها دوار البحر، كما أنه، وهو ما كانت مارشا متأكدة منه، يعيد إليها قوتها **السحرية**؛ إنها تشعر بالسحر وهو يدب من جديد في جسدها رويدًا رويدًا، بينما بدأت **الأرواح** التي

سكنتها وتبعتها من الزنزانة رقم واحد تتسلل خفية، كما أن تأثير **دوامة** دومدانيال البشعة بدأ يتلاشى.. وجازفت مارشا وابتسمت ابتسامة خاطفة، وهي أول ابتسامة لها منذ أربعة أسابيع كاملة.

كان إلى جوار مارشا حراسها الثلاثة، وكانوا مصابين بدوار بحر، وممددين في ثلاث كومات مثيرة للشفقة، يتحسرون على أنفسهم إذ إنهم لم يتعلموا هم أيضًا السباحة، فعلى الأقل كان سيُلقى بهم هم أيضًا من على متن السفينة.

وعلى ظهر السفينة، بعيدًا عن الأعماق حيث يقبع سجن مارشا، جلس دومدانيال وسط ذروة **العاصفة** التي صنعها كالسهم المستقيم على كرسي عرشه الأبنوس، بينما كان تلميذه البائس إلى جواره يرتجف. كان مطلوبًا من الفتى أن يساعد سيده في تجهيز **ضربة** البرق الأخيرة، لكن من شدة ما أعياه دوار البحر، لم يكن في وسعه أن يفعل شيئًا سوى التحديق أمامه بعينين متجمدتين، والتأوه من حين لآخر.

ولأن دومدانيال كان يحاول في تلك الأثناء أن يركز في تجميع القوى الكهربائية لإحداث أقوى ضربة يصنعها في حياته، قال للتلميذ في غضب: «اسكت يا فتى!»، ثم قال في سرِّه وهو يشعر بنشوة الانتصار إن ذلك الكوخ الصغير الشرير بساحرته البيضاء المتطفلة سرعان ما سيختفيان من الوجود آخذين معهما الجزيرة بأسرها ليتلاشوا جميعًا في الهواء بضربة برق تعمي الأبصار. بدأ دومدانيال يتحسس تميمة الساحر الأعظم بأصابعه، لقد عادت الآن إلى حيث يجب أن تكون، عادت حول

عنقه هو، وليس عنق أعجف ساحرة بيضاء لا تزيد على كونها حشرة خرقاء.

وبدأ دومدانيال يضحك.. لقد كان الأمر في غاية *السهولة*.

ثم سمع صوتًا خافتًا من عند منصة المراقبة يقول: «هناك سفينة!».

فأطلق دومدانيال سبة وصرخ بصوت أعلى من عويل الرياح: «لا تقاطعني!»؛ مما جعل البحار يسقط بصرخة وسط المياه المضطربة.

لكن تركيز دومدانيال تشتت، وبينما أخذ يحاول أن يعيد تحكمه في عناصر الطبيعة لإحداث ضربته الأخيرة، لمحت عيناه شيئًا.

رأى وميضًا ذهبيًا يتقدم وسط الظلام نحو سفينته، فأمسك المنظار بارتباك، ثم رفعه إلى عينيه، غير مُصدقٍ ما يراه.

وقال في سرّه: هذا مستحيل.. هذا من رابع المستحيلات. إن مركب حتب رع التنينية لا وجود لها.. إنها مجرد أسطورة. وأخذ يرمش بعينيه ليزيح عنهما قطرات المطر، ونظر من جديد. إن المركب التعسة تتوجه نحوه مباشرة، ثم تلاقى الوميض الأخضر الصادر عن عيني التنين وسط الظلام مع نظرة دومدانيال التي يلقيها بعين واحدة عبر المنظار. وسرت رجفة باردة في جسم **النكرومانسر**، ثم قرر في سرّه أن هذا عمل سحري تقوم به مارشا أوفرستراند؛ إنه **إسقاط** يلقيه ذهنها المحموم في ظل تآمرها عليه، هنا من أعماق سفينته هو شخصيًا. ألن تتعظ *أبدًا*؟

التفت دومدانيال إلى حارسيه كائني المأجوج؟

وقال بحنق: «تخلصا من السجينة في الحال!».

أخذ كائنا المأجوج يفتحان ويقفلان حوافرهما الصفراء المتسخة بصوت نقر، وظهر لمعان خفيف للمادة الصفراء اللزجة على رأسيهما اللذين على هيئة دودتين عمياوين، كما يفعلان دائمًا في لحظات الإثارة والحماس، ثم همسا يسألان سيدهما سؤالًا.

أجابهما قائلًا: «بالطريقة التي تروق لكما. لا يعنيني ذلك. افعلا ما تشاءان. المهم تخلصا منها. وبسرعة!».

انطلق الكائنان المرعبان زاحفين، بينما تنساب مادتهما الصفراء اللزجة منهما في الطريق، واختفيا في أعماق السفينة. وقد أسعدهما من جهة أنهما تخلصا أخيرًا من العاصفة، ومن جهة أخرى كانا متحمسيْن لما ينتظرهما من مرح.

نحّى دومدانيال المنظار جانبًا، بعد أن اقتربت المركب التنينية وأمكن رؤيتها بالعين المجردة بسهولة. أخذ يخبط على الأرض بقدمه، منتظرًا اختفاء ما اعتبره **إسقاطًا** قامت به مارشا. لكن المركب لم تختف، وتسلل الفزع إلى قلب دومدانيال، لقد باتت المركب على مقربة منه تمامًا وبدت وكأنها تسلط عليه نظرة شريرة ذات مغزى.

بدأ **النكرومانسر** وهو يستشيط غضبًا، يتحرك ذهابًا وإيابًا على ظهر السفينة، متجاهلًا هطول الأمطار الذي بدأ فجأة ينهمر فوق رأسه، لا يسمع الصوت المرتفع لرفرفة الأجنحة وهي تقطع آخر خطواتها حتى تصل إليه. لا يريد سوى أن يسمع صوتًا آخر؛ هو آخر صرخة تطلقها مارشا أوفرستراند في حياتها من غرفة حجزها السفلى.

أخذ دومدانيال ينصت بتركيز، فليس هناك ما هو أمتع له من صوت الصرخة الأخيرة وهي تنطلق من إنسان. صحيح أن صرخة أي إنسان ممتعة بالنسبة له، لكن عندما تأتي هذه الصرخة من الساحرة العظمى السابقة فإن وقعها بلا شك له مذاق خاص، فراح يدلك يديه، وأغمض عينيه، وانتظر.

وفي الأسفل، في أعماق *السفينة انتقام*، كان خاتم حتب رع التنيني يومض ببريق ساطع في أصبع مارشا الصغير، ووجدت مارشا نفسها قد استعادت قدرًا من قوتها **السحرية** مكنها من أن تتخلص من السلاسل التي كانت تكبلها. وتسللت من الحراس المغشي عليهم، وبدأت تتسلق السلم لتخرج من غرفة الحجز. وبعد أن صعدت السلم وكانت على وشك أن تصعد السلم التالي، كادت تنزلق على المادة اللزجة الصفراء. ومن حيث لا تدري، رأت كائني المأجوج يتوجهان مباشرة نحوها، وهما يهسهسان من فرط ابتهاجهما، وحاصراها في ركن، وهما يصلصلان بسعادة بأسنان صفراء مدببة. وبطقطقة حادة، أخرجا مخالبهما وتقدما للانقضاض عليها بنشوة وطرب، بلسان يضرب في الهواء كالسوط وهو يخرج ويدخل من فم كل منهما.

قالت مارشا في سرها إن اللحظة قد حانت كي تكتشف ما إذا كانت بالفعل قد استعادت قوتها **السحرية**.

فهمهمت، وهي تلوح بأصبعها الذي ترتدي فيه الخاتم التنيني إلى كائني المأجوج: «**تجمدا وجفا.. تصلبا**».

فانهار كائنا المأجوج وانكمشا وهما يهسهسان، وكأنهما يرقتان مغطتان بالملح. تلا ذلك صوت طقطقة مقززة للغاية مع تصلب مادتهم اللزجة وجفافها لتتحول إلى قشرة صفراء. وفي غضون لحظات، أصبح كل ما تبقى من هذين **الشيئين** كتلة ذابلة صفراء مسودة عند قدمي مارشا، التصقت تمامًا بالسطح السفلي للمركب. مرت مارشا فوقهما باشمئزاز.. وهي حريصة تمام الحرص على نظافة حذائها.. وواصلت طريقها صعودًا إلى ظهر المركب.

أرادت مارشا أن تستعيد تميمتها، ولن يثنيها عن ذلك أي شيء.

على ظهر السفينة، كان دومدانيال قد نفد صبره من انتظار صعود كائني المأجوج، ولعن نفسه أنه ظن أنهما سيتخلصان من مارشا على الفور. كان لا بد أن يدرك أن المأجوج تحب أن تأخذ وقتها مع ضحاياها، وبدأ الوقت يفلت من دومدانيال. **فإسقاط** مارشا للمركب الحقيرة يتحرك متجهًا نحوه، وهو أمر يؤثر على **سحره**.

وبينما كانت مارشا على وشك أن تبدأ في تسلق السلم المؤدي إلى ظهر السفينة، سمعت دومدانيال يصيح بحدة قائلًا: «مائة قطعة كراون! بل.. *ألف*؛ ألف قطعة كراون لمن سيخلصني من مارشا أوفرستراند *في الحال*!».

وسمعت مارشا فوقها فجأة وقْع أقدام حافية لجميع البحارة الذين كانوا على ظهر السفينة وهم يتوجهون إلى فتحة ظهر السفينة والسلم الذي تقف هي عليه. فقفزت للوراء واختبأت بقدر المستطاع في الظل.. بينما تدافع طاقم السفينة بأسره وهو يتسابقون في النزول، يريد كل منهم

أن يصل قبل الآخر إلى السجينة لينال المكافأة. ورأتهم وهي مختبئة بين الظلال ينطلقون، ويركل بعضهم بعضًا، ويتصارعون، ويدفع بعضهم بعضًا عن الطريق. وبعد أن اختفت المعركة وانتقلت إلى الأسطح السفلية للسفينة، لمّت مارشا عباءتها المبللة وتسلقت السلم صاعدةً سطح السفينة.

باغتتها الرياح الباردة، لكن بعد مكوثها وسط الرطوبة القذرة في غرفة الحجز، بدا لها الهواء المنعش للعاصفة رائعًا. وبسرعة، اختبأت خلف برميل وانتظرت وهي تفكر في خطوتها التالية.

أخذت، مارشا تراقب دومدانيال عن قرب. كان يبدو عليه الإعياء، وأسعدها ذلك، فملامحه الرمادية المعتادة بات عليها الآن مسحة من اللون الأخضر الزاهي، وكانت عيناه المنتفختان تحدقان إلى شيء وراءها. التفتت مارشا لترى ما هذا الذي جعله يبدو عليه كل هذا الإعياء.

وإذا بها ترى مركب حتب رع التنينية.

كانت المركب التنينية ترتفع عاليًا فوق مستوى *السفينة انتقام*، محلقةً وسط عويل الرياح وهطول الأمطار، وعيناها الخضراوان كانتا تومضان وتنيران وجه دومدانيال الذي علاه الشحوب، بينما أجنحتها الهائلة تضرب ببطء وقوة في العاصفة، رافعة المركب الذهبية بركابها الثلاثة المتحجرين من فرط الذهول وسط ظلام الليل، وتحلق بهم نحو مارشا أوفرستراند، ومارشا مشدوهة لا تستطيع أن تصدق ما تراه.

لا أحد من ركاب المركب التنينية أيضًا كان يصدق كل ما يحدث، وعندما بدأت التنين تضرب بجناحيها وسط الرياح ورفعت المركب فوق

الماء، وجد نكو نفسه مذعورًا؛ فهو على يقين تام بأن المراكب لا تطير. أبدًا.

صاح نكو في أُذن الفتى 412 وسط صرير الجناحين الهائلَيْن، وهما يضربان الهواء حولهم أثناء رفرفتهما، مرسلين معهما هبات من الرياح العنيفة تلفح وجوههم، قائلًا: «أوقفها!» لكن الفتى 412 كان في غاية الحماس، وظل ممسكًا بإحكام بذراع الدفة، وهو واثق أن المركب التنينية سوف تقوم بأقصى ما في وسعها.

رد الفتى 412 صائحًا هو أيضًا محدقًا إلى الجناحيْن، وعيناه تومضان ووجهه تعلوه ابتسامة عريضة، قائلًا: «أوقف ماذا؟».

صاح نكو: «إنه أنت الذي يفعل ذلك! أنا متأكد. أنت الذي تجعلها تطير. توقف. توقف في الحال! لقد خرجت عن سيطرتنا!».

هز الفتى 412 رأسه؛ فالموقف بأسره لا علاقة له به، إنها المركب التنينية، فهي التي قررت أن تطير.

ظلت چينا ممسكة بأذني التنين بقوة حتى ابيضت أطرافها، وهي ترى في الأسفل الأمواج ترتطم *بالسفينة انتقام*. ومع هبوط المركب التنينية نحو السفينة **الشيطانية**، تمكنت چينا من أن ترى وجه دومدانيال المرعب الذي بات يعلوه اخضرار وهو يحدق بها. وبسرعة، التفتت بنظرها بعيدًا عن **النكرومانسر**؛ فنظراته الشريرة أرعبتها وبثت في سرها إحساسًا قويًا بالإحباط واليأس، ثم هزت رأسها لتتخلص نفسها من هذا الإحساس **الشيطاني**، لكن ظل في داخلها مع ذلك ريبة؛ إذ كيف سيتمكنون من إنقاذ مارشا. ثم نظرت إلى الفتى 412 فوجدته قد ترك ذراع الدفة، وأخذ

ينظر من جانب المركب التنينية لأسفل على *السفينة انتقام*. وعندما بدأت المركب التنينية تهبط وألقت بظلها على **النكرومانسر** في الأسفل، علمت چينا ما الذي يخطط له الفتى 412؛ إنه يستعد للقفز من المركب؛ إنه يتأهب ليقفز على متن *السفينة انتقام* وينقذ مارشا.

فصاحت چينا: «لا تفعل! لا تقفز! أنا أرى مارشا من هنا!».

وكانت مارشا قد هبّت واقفةً على قدميها، وهي تحدق بالمركب التنينية غير مُصدقة.. ألم يكن ذلك مجرد أسطورة؟ ولكن، مع انقضاض أنثى التنين نحو مارشا، وعيناها التنينيتان تومضان ببريق أخضر وأنفها يرسل ألسنة لهب برتقالي قوية، شعرت مارشا بحرارة النار وعلمت أن ما تراه حقيقة.

طالت ألسنة النار حواش عباءة دومدانيال المبللة، فأرسلت رائحة نفاذة في الأجواء لصوف يحترق. وقع دومدانيال، وقد طالته النار. ولوهلة، خطر على باله بصيص أمل ضعيف. فربما كل ما يحدث ليس سوى كابوس بشع يراه؛ لأنه رأى على قمة رأس التنين شيئًا مستحيلًا؛ لقد رأى *الملكة الصغيرة* جالسة عليه.

جازفت چينا ورفعت يدًا من على أذن التنين، ووضعتها في جيب سترتها. فدومدانيال لا يزال يحدق بها، وأرادت أن توقفه، بل ستجعله يكُفّ عن ذلك فعلًا. كانت يد چينا ترتجف وهي تُخرج الحشرة المدرعة من جيبها وترفعها عاليًا في الهواء. وفجأة، طارت من يدها، وهو ما ظنه دومدانيال أنه زنبور أخضر ضخم، وهو يكره الزنابير. فتراجع للوراء مع

توجه الحشرة نحوه بصرخة مدوية وهبوطها على كتفه، ولدغته في عنقه لدغة مؤلمة.

صرخ دومدانيال، فوجهت له الحشرة المدرعة طعنة أخرى، فأطبق يده عليها. فارتبكت، والتفت حول نفسها في صورة كرة وقفزت على ظهر السفينة، وهي ترتد إلى أن وصلت إلى ركن مظلم، بينما سقط دومدانيال منهارًا على ظهر المركب.

فانتهزت مارشا فرصتها، وفي ضوء النار الصادر عن أنف التنين، استجمعت قواها لتلمس **النكرومانسر** الملقى على الأرض.. وبأصابع مرتجفة، بدأت تبحث في عنقه المترهل فوجدت ما كانت تبحث عنه. إنه رباط حذاء ألثر. وباشمئزاز تام لم يثنِ عزيمتها، جذبت طرفًا من الرباط؛ آملةً أن تنحل العقدة. لكنها لم تنحل. وانطلق من دومدانيال صوت اختناق، ثم امتدت يده إلى عنقه.

وقال لاهثًا وهو يمسك هو أيضًا بالرباط: «أنت تخنقينني».

ورغم أن رباط حذاء ألثر كان قد قدّم على مدار سنوات طويلة خدمات جليلة، فإنه لم يكن مؤهلًا لأن يصمد أمام اثنين من السحرة العظماء الأقوياء يتشاجران عليه. ومن ثم، فعل ما سيفعله غالبًا أي رباط.. وانقطع.

وسقطت التميمة على ظهر السفينة، فخطفتها مارشا وأصبحت في قبضتها. اندفع دومدانيال باستماتة يحاول أن يستردها، لكن مارشا كانت قد بدأت تربطها حول عنقها. وبمجرد أن ربطتها، ظهر حزام السحرة العظماء حول خصرها، وومضت عباءتها ببريق **سحري** وسط هطول الأمطار. وقفت مارشا بشموخ، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة وهي

تتفحص المشهد بنشوة انتصار، بعد أن استعادت مكانتها الجديدة بها في العالم، وأصبحت مرة أخرى الساحرة العظمى.

وقف دومدانيال مترنحًا، يستشيط غضبًا، وأخذ يصرخ: «يا حراس! يا حراس!» لكنّ أحدًا لم يُجِبْه؛ فالطاقم بأسره كان في أعماق جوف السفينة في مهمة ملاحقة فاشلة.

وبينما كانت مارشا تجهز **صاعقة** كي تضرب بها دومدانيال وقد ازداد هلعه، سمعت صوتًا مألوفًا يقول لها: «هيا يا مارشا. أسرعي. اصعدي هنا معي».

وأنزلت التنين رأسها إلى سطح السفينة، ولمرة واحدة كانت مارشا مطيعة وفعلت ما قيل لها بالضبط.

45
حركة الجزر



طارت *المركب التنينية* ببطء فوق *المستنقعات* المغمورة بالماء، تاركة *السفينة انتقام* خائرة القوى خلفها. ومع انقشاع العاصفة، أنزلت التنين جناحيها، وبسبب حبستها الطويلة التي أفقدتها لياقتها، هبطت مصطدمة بالماء محدثة طرطشة هائلة.

كانت جينا ومارشا ممسكتين بقوة بعنق التنين، وغمرهما الماء المتناثر.

بينما سقط كلٌّ من الفتى 412 ونكو على ظهر المركب وتدحرجا على الأرض، إلى أن تكوّما فوق بعضهما، ثم نهض الفتيان وبدأ ماكسي يهز جسمه ليجففه. وتنفس نكو الصُّعداء، وهو يقول في سرّه إن المراكب بلا محالة لم تصمم كي تطير.

وسرعان ما انقشعت السحب المتجمعة، وأصبحت السماء صافية وظهر القمر منيرًا لهم طريق العودة إلى البيت، وكانت المركب التنينية تومض ببريق أخضر وذهبي في نور القمر، رافعةً جناحيها عاليًا كي تسمح للرياح بأن تدفع المركب وتقودها. ومن نافذة صغيرة مضيئة بعيدًا في الأفاق، كانت العمة زيلدا تراقب المشهد، وتبدو شعثاء بعض الشيء بعد أن راحت ترقص في أنحاء المطبخ من نشوة الانتصار وهي تصطدم بكومة من المقلايات.

كانت المركب التنينية مترددة لا تريد العودة إلى المعبد، فبعد أن ذاقت طعم الحرية داخلها رعب من فكرة أن تجد نفسها حبيسةً أسفل سطح الأرض من جديد. فهي تتمنى لو أن تلف وتتوجه إلى البحر، وهي لا تزال في أوج قوتها، لتبحر بعيدًا حول العالم مع الملكة الشابة، وسيدها الجديد والساحرة العظمى، لكن سيدها الجديد يبدو أن لديه خططًا أخرى، إنه يعيدها إلى حيث كانت مرة أخرى، يعيدها إلى سجنها الجاف الذي يخيم عليه الظلام.. تنهدت المركب التنينية ورفعت رأسها، فكادت مارشا أن تسقط.

سألهما الفتى 412: «ما الذي يحدث عندكما؟».

ردت جينا: «إنها حزينة».

فقال الفتى 412: «لكنك أصبحت حرة الآن يا مارشا».

قالت له جينا: «إنها ليست مارشا، إنما التنين».

فسألها الفتى 412: «كيف عرفتِ ذلك؟».

«لأنني أعرف، إن التنين تتحدث معي. إنها تتحدث معي في رأسي».

رد نكو ضاحكًا: «ياه! صحيح؟».

«لا تسخر مني هكذا. إن التنين حزينة؛ لأنها تريد أن تذهب إلى البحر. إنها لا تريد العودة إلى المعبد، إلى السجن كما تقول».

علمت مارشا ما الذي تشعر به التنين.

وقالت: «قولي لها يا جينا إنها سوف تذهب إلى البحر مرة أخرى، لكن ليس اليوم. فاليوم لا بد أن نعود جميعًا إلى البيت».

فرفعت التنين رأسها عاليًا، وهذه المرة سقطت مارشا بالفعل بعد أن انزلقت من فوق رأس التنين وسقطت وهي تصطدم بظهر المركب.. لكن ذلك لم يزعجها، حتى إنها لم تتذمر أو تتبرم. بل ظلت جالسةً على الأرض تحدق عاليًا إلى النجوم، بينما كانت المركب تبحر بسكينة في مستنقعات مرام.

اندهش نكو الذي كان يراقب المشهد خارج المركب، عندما رأى مركب صيد صغيرًا ومألوفًا بشكل غريب على مرمى بصره.. إنه مركب الدجاج، وكان يطفو للخارج مع مياه المد.. أشار نكو للفتى 412 إليه، وقال له: «انظر إلى هذا المركب، لقد رأيته من قبل. لا بد أنه مركب من القلعة وجاء ليصطاد هنا».

كشر الفتى 412 وقال: «لقد اختاروا وقتًا غير مناسب تمامًا، أليس كذلك؟».

ومع وصولهم إلى الجزيرة، كانت حركة الجزر سريعة وانخفض منسوب الماء الذي يغطي المستنقع.

تولى نكو قيادة ذراع الدفة ووجه المركب التنينية في مسار قناة الغِمد التي غمرها الماء، ومروا بالمعبد الروماني، كان منظره يخلب العقول؛ كان رخام المعبد يومض بضوء أبيض ساطع مع نور القمر الذي يلقيه عليه ويضيئه لأول مرة منذ أن دفن حتب رع المركب التنينية داخله، وكانت كل الضفاف الأرضية والسقف الخشبي الذي بناه قد انجرفت بعيدًا، تاركةً الأعمدة الشاهقة ترتفع حُرةً وسط بريق القمر.

وبدت مارشا منبهرة.

قالت: «لم يكن عندي مطلقًا أي علم بوجود المعبد هنا. ربما أن أحد كتب مكتبة الهرم قد تحدَّث عنه، لكن بالنسبة للمركب التنينية.. في الحقيقة، كنت أظن دائمًا أنها مجرد أسطورة».

قالت چينا: «العمة زيلدا كانت تعلم».

ردت مارشا: «العمة زيلدا؟ لكن لماذا لم تذكر لي ذلك؟».

«إن مهمتها ألا تقول إنها حارسة الجزيرة. إن الملكات. أقصد والدتي، وجدتي، وجدة جدتي وكل الملكات السابقات، كان لا بد لهن أن يزرن التنين».

فسألتها مارشا: «أحقًا كنَّ يفعلن ذلك؟ لكن لماذا؟».

أجابت چينا: «لا أعلم».

«في الحقيقة، لم يذكر لي أحد ذلك.. ولا حتى ألثر».

قالت چينا تذكرها: «ولا دومدانيال».

فقالت مارشا بعد إمعان في التفكير: «لا، ربما هناك بعض الأمور من الأفضل ألا يعلمها السحرة».

ثم ربطوا المركب التنينية في مرسى المراكب في قناة الغِمد، واستقرت في القناة كأنها بجعة عملاقة تستعد لدخول عُشها، وهي تنزل جناحيها الهائلين ببطء، وتطويهما بدقة على جانبي جسم المركب، خفضت رأسها كي تنزلق من عليها چين وتنزل إلى ظهر المركب، ثم راحت التنين تنظر حولها، ثم قالت في سرّها رغم أن مستنقعات مرام ليست بحرًا أو محيطًا، فإن اتساعها الشاسع ومنسوبها المنخفض والممتد إلى أبعد الآفاق يجعلانها ثاني أفضل مكان في الدنيا. أغمضت التنين عينيها. فالملكة قد عادت. وباتت تشتم رائحة البحر. فما أسعدها الآن!

جلست چينا وجعلت ساقيها تتدليان من فوق حافة المركب التنينية النائمة، وهي تتفحص المشهد أمامها. بدا لها الكوخ مسالمًا كعادته، وإن كان لا يبدو نظيفًا ومنسقًا بالشكل الذي كان عليه عندما تركوه، بسبب أن الماعزة أخذت تأكل في معظم سطحه ولا تزال تأكل فيه، وأصبحت الجزيرة الآن بعد انسحاب الماء من على معظم سطحها، يغطيها مزيجٌ من الوحل وأعشاب البحر، وقالت چينا في سرها إن العمة زيلدا لن يسعدها أن ترى الحالة التي أصبحت عليها حديقتها.

عندما انحسر الماء عند موقع رسو المركب التنينية، ترجلت مارشا وبقية أفراد الطاقم نزولًا من على متنها وساروا قاصدين الكوخ الذي بدا

لهم ساكنًا بشكل مريب، وكان بابه مواربًا. وبحذرٍ تحسبًا لأي شيء، ألقوا نظرة عليه من الداخل.

فرأوا الجنيات الصغيرة السمراء.

كانت منتشرة في كل مكان، وكان باب نفق القطة- والذي زال عنه **السحر**- مفتوحًا والمكان يعجُّ بجنيات تزحف في كل مكان؛ على الحوائط؛ على الأرض، ومنها ما كان ملتصقًا بالسقف، وبعضها كان محشورًا في دولاب الجرعات، وأخذت تقضم كل ما تطاله أياديها وتمضغ فيه وتقطعه وتترك مخلفاتها في كل مكان مع انتشارها في الكوخ كالجراد. وما إن يقع بصر عشرة آلاف جنية صغيرة سمراء على أي بشري، حتى بدأت جميعها تصرخ صراخها المدوي الذي يخرق الآذان.

وفي التوّ، خرجت العمة زيلدا من المطبخ.

ثم قالت لاهثة من فرط دهشتها: «يا للهول!»، محاولةً أن تستوعب كل ذلك، إلا منظر مارشا الأشعث على غير عادتها وهي واقفة وسط بحر هائج من الجنيات الصغيرة السمراء. ثم قالت في سرها لماذا تصعب مارشا الأمور دائمًا؟ بحق السماوات، لماذا جلبت معها كل هذا الكم من الجنيات الصغيرة السمراء؟

وصاحت العمة زيلدا في الجنيات الصغيرة السمراء، وهي تلوح لها بذراعيها بلا جدوى وتقول لها: «اخرجي، اخرجي، اخرجي!».

فصاحت مارشا قائلة: «اسمحي لي يا زيلدا، سوف أستخدم تعويذة نقل سريعة».

فصاحت العمة زيلدا: «لا! لابد أن أفعل ذلك بنفسي، وإلا ستفقد حينها احترامها لي».

همهمت مارشا قائلة، وهي ترفع حذاءها المدمر من فوق المواد اللزجة وتتفحص نعلها: «وأين هو هذا الاحترام فيما تفعله الآن؟» وقد باتت متأكدة من أن حذاءها مثقوب، مع إحساسها بتسرب المادة اللزجة بين أصابع قدميها.

وفجأة، توقف الصراخ تمامًا، وراحت آلاف العيون الصغيرة الحمراء تحدق بهلع ورعب إلى ذلك الشيء الذي يثير رعب الجنيات الصغيرة السمراء كما لا يخيفها أي شيء آخر؛ شيء اسمه الغول.

فالغول حضر.

بدا الغول بفروته النظيفة الممشطة، وبشكله النحيل وحجمه الضئيل بالضمادة التي لا يزال تلف خصره- مختلفًا تمامًا عن الغول الذي يعرفونه. لكنه مازال صامدًا ويتنفس، وأخذ يطلق أنفاسه وهو يسير متجولًا بين الجنيات الصغيرة السمراء، وبدا له أن قوته بدأت تدب في جسده من جديد.

رأته الجنيات الصغيرة السمراء قادمًا، ومن استماتتها للفرار أخذت تتجمع بحُمق عند الركن الأبعد من الغول، وهي ترتفع لأعلى أكثر فأكثر، إلى أن أصبحت كل جنيات أرض المستنقع المتحرك- إلا واحدة فقط

صغيرة في السن شذت عن المجموعة لأول مرة- فوق رزمة الكتب الآيلة للسقوط عند الركن البعيد للمكتب. وفجأة، انطلقت الجنية الصغيرة السمراء صغيرة السن من أسفل السجادة بجوار المدفأة، وعيناها الحمراوان المنزعجتان تبرقان وسط وجهها المدبب، بينما كانت أصابع يديها ورجليها العظمية تخربش على الأرض الحجرية، وهرعت، مع نظرات الجميع التي تراقبها، لتلحق بالمجموعة.

ثم ألقت نفسها على الكومة اللزجة لتنضم إلى حشد العيون الصغيرة الحمراء المحدقة بالغول.

قال الغول: «لا أفهم ما الذي يمنع هذه الجنيات الصغيرة السمراء من أن تترك المكان وترحل. اللعنة عليها. لكنها معذورة أيضًا. فبعد العاصفة العنيفة، لا أظن أنها تريد أن تترك كوخًا لطيفًا ينبعث منه الدفء. هل رأيتم هذه السفينة الضخمة في الخارج والمحشورة في أرض المستنقع غارقة في الوحل؟ من حسن حظ ركابها أن كل الجنيات الصغيرة السمراء موجودة هنا الآن وليست في الخارج، تجر فيهم إلى أرض المستنقع المتحرك».

وبدأ الجميع يتبادلون النظرات.

وقالت العمة زيلدا: «نعم، إنهم بالفعل محظوظون، أليس كذلك؟». فالعمة زيلدا تعلم عن أي سفينة يتحدث الغول، حتى إنها من فرط استغراقها هي والغول في مراقبة كل ما كان يحدث في الخارج من نافذة المطبخ لم يلحظا غزو الجنيات الصغيرة السمراء.

قال الغول: «والآن، سوف أترككم وأرحل. لا أستطيع أن أتحمل كل هذه النظافة أكثر من ذلك. أودُّ الآن أن أجد أرضًا لطيفة مغمورة بالوحل».

ردت العمة زيلدا: «لن تجد أكثر منه في الخارج الآن أيها الغول».

فقال: «صحيح، أحم! أود فقط أن أشكرك يا زيلدا لـ... لرعايتك لي بكل هذا الاهتمام. أما عن هذه الجنيات، فسوف ترحل مع خروجي من هنا. إذا صادفتكم أية متاعب، نادوا عليَّ وسوف تجدونني في التوِّ واللحظة».

خرج الغول متبخترًا، يعلم أن أمامه ساعات يمضيها في بهجة وسعادة حتى يستقر رأيه على بركة الوحل التي سيقضي فيها ليلته، وإن كان الاختيار سيكون محيرًا من كثرة عددها.

وما كاد الغول يترك الكوخ حتى بدأت الجنيات الصغيرة السمراء تهتاج وهي تتبادل فيما بينها النظرات بعيونها الصغيرة الحمراء. وعندما تأكدت أن الغول رحل بالفعل، انطلق سيل من الصرخات المتنافرة بحماس، وانهار تكتلهم مع تناثر مواد لزجة بنية في الأنحاء. وبعد أن تحررت أخيرًا من رائحة نفَس الغول، توجهت نحو الباب، ثم اندفعت مسرعةً لتخرج إلى الجزيرة، وسارت متدفقةً على جسر الغِمد إلى أنحاء مستنقعات مرام، قاصدةً مباشرة *السفينة انتقام*.

قالت العمة زيلدا وهي تراقب رحيلها: «أتعلمون، أكاد أشفق عليها».

سألتها جينا: «أتقصدين الجنيات الصغيرة السمراء أم *السفينة انتقام*؟».

أجابت العمة زيلدا: «كلتيهما».

قال نكو: «في الحقيقة، كلتاهما تستحق ما ستناله من الأخرى».

ورغم ذلك، لم يود أحد أن يراقب ما حدث على *السفينة انتقام* تلك الليلة، ولا ودّ أحد أيضًا أن يتحدث في هذا الموضوع.

في وقت متأخر من المساء، وبعد أن نظفوا الكوخ بقدر المستطاع من المواد البنية اللزجة، قامت العمة زيلدا بعمل مسح شامل لحجم الأضرار التي لحقت بالكوخ، وقد أصرت داخلها أن تنظر إلى الجانب المشرق من الأحداث.

وقالت: «الوضع في الحقيقة ليس بهذا السوء، فالكتب كما هي.. أو بالأحرى سوف تعود كما كانت بعد أن تجف، كما أنني أستطيع أن أعيد تحضير الجرعات مرة أخرى، ومعظمها أصلًا أوشك تاريخ صلاحيتها على الانتهاء. أما بالنسبة للجرعات المهمة فعلًا، فأنا أحتفظ بها في مكان آمن، هذا بالإضافة إلى أن الجنيات الصغيرة السمراء لم تلتهم كل المقاعد كما فعلت في المرة السابقة، كما أنها لم تتبرز روثها على الموائد.. فالوضع كان من الممكن أن يكون أسوأ من ذلك».

جلست مارشا وخلعت حذاءها الثعباني الأرجواني الذي بات مهترئًا، ووضعته بجوار النار ليجف بينما أخذت تفكر: أتستخدم تعويذة تجديد الحذاء أم لا. فمن حيث الدقة والأمانة، هي تعلم أنه لا ينبغي عليها ذلك؛ فليس الغرض من السحر استخدامه في توفير راحتها الشخصية. وإن كانت تستخدمه في اختبار عباءتها، فعباءتها تُعد جزءًا من أدوات مهنتها، لكن من الصعب عليها أن تدعي أن حذاءها الثعباني هو أيضًا جزء ضروري لأداء السحر، وهكذا قبع الحذاء بجوار النار ليجف، مع

انبعاث رائحة خفيفة منه، وإن كانت غير لطيفة يُشتم منها رائحة ثعابين متعفنة.

ثم قدمت العمة زيلدا عرضًا قائلة: «يمكنكِ أن تأخذي حذائي المطاطي الإضافي، إنه من الناحية العملية أفضل كثيرًا في هذا المكان».

ردت مارشا بأسى: «أشكرك يا زيلدا»، فمارشا تكره تمامًا الأحذية المطاطية.

قالت العمة زيلدا بنبرة متوترة: «هيا يا مارشا، دعك من هذا البؤس.. فهناك أمور أسوأ من ذلك».

46
الزائر



كل *ما استطاعت چينا أن تراه من السفينة انتقام* في صباح اليوم التالي هو قمة الصاري الأطول وهو مغروز في أرض المستنقع كأنه صاري علم قائم بذاته. أما عن بقايا *السفينة انتقام* فلم تكن من الأشياء التي يروق لچينا رؤيتها، لكن رغم ذلك كان لابد لها أن ترى بأم عينيها مصير السفينة الشيطانية، مثلما فعل كل الآخرين بالكوخ عندما استيقظوا من نومهم بعدها..

أغلقت چينا مصراع النافذة والتفتت بعيدًا؛ فهناك مركب آخر تفضل كثيرًا أن تراه.

خرجت چينا من الكوخ في بداية الصباح مع إشراقة شمس الربيع، كانت المركب التنينية قابعةً بجلال وشموخ في قناة الغِمد تطفو عاليًا وسط المياه، عنقها ممدود للخارج، ورأسها الذهبي مرفوع عاليًا ليلتقط دفء أول ضوء شمس يسقط عليه منذ مئات السنين. ولقد جعل بريق القشر الأخضر الذي يغطي عنقها وذيلها، ولمعان الذهب الذي يكسو جسمها- جعل چينا تفرك عينيها من شدة سطوع الضوء الصادر عنه. كانت عينا التنين شبه مغمضتين. في أول الأمر، ظنت چينا أن التنين لا تزال نائمة، لكنها لاحظت أنها هي أيضًا تظلل على عينيها اتقاءً للضوء الساطع. فمنذ أن تركها حتب رع مدفونة أسفل سطح الأرض، كان الضوء الوحيد الذي تراه التنين خافتًا صادرًا عن مصباح.

نزلت چينا المنحدر إلى المرسى، بدا لها حجم المركب ضخمًا؛ أضخم من الصورة التي ارتسمت في ذهنها ليلة أمس. وكانت المركب مستقرة تمامًا بين ضفتي القناة كالوتد المُحكم بعد أن انسحبت مياه الفيضان من المستنقعات. وتمنَّت چينا في سرِّها ألا يؤدي ذلك إلى إحساس التنين بأنها وقعت في فخ؛ سارت نحوها لتضع يدها على عنقها وهي تمشي على أطراف أصابعها.

ثم سمعت صوت التنين يقول لها: «*صباح الخير يا مولاتي*».

همست چينا قائلة: «صباح الخير أيتها التنين. أتمنى أن تكوني مرتاحة هنا في القناة».

فردت عليها قائلة: «*إن الماء موجود أسفل مني، والهواء تنبعث منه رائحة الملح ويشع بضوء الشمس. هل هناك ما يمكن أن أتمناه أكثر من هذا؟*».

قالت چينا توافقها الرأي: «لا، بالطبع لا» وجلست چينا عند المرسى، وأخذت تراقب الضباب الصباحي وهو يتلاشى مع انبعاث حرارة الشمس، ثم تراجعت للوراء واستندت بابتهاج إلى المركب التنينية، وراحت تنصت لرشرشة وطرطشة الكائنات العديدة التي تعيش في القناة؛ لقد بدأت تعتاد سكان المياه هنا، ولم تعد ترتجف عند رؤية ثعابين البحر وهي تقطع طريق رحلتها الطويل عبر القناة حتى تصل إلى بحر سارجاسو، كما أنها لا تكترث كثيرًا بالأرواح المائية الآن، رغم أنها ما عادت تخوض في الوحل وهي حافية القدمين بعد أن حشرت إحداها نفسها في أصبع قدمها الكبير واضطرت العمة زيلدا أن تهددها بشوكة التحميص كي تسقطها.. حتى أفعى المستنقع بدأت چينا تحبها إلى حد ما، لكن ربما سبب ذلك هو أن الأفعى لم تعد إلى المستنقع منذ الذوبان الكبير. وباتت چينا تميز صوت وطرطشة كل كائن من هذه الكائنات، لكنها سمعت الآن وهي تجلس في دفء الشمس حالمةً تنصت لطرطشة جرذ مائي وانزلاق سمكة من أسماك الوحل - صوتًا غير مألوف.

كان الكائن، أيًا كان هو، يتأوه ويئن بطريقة تثير الشفقة، ثم لهث وأخذ يتأوه ويئن مرة أخرى بطريقة لم يسبق لچينا أن سمعتها من قبل، وبدا لها من نبرة هذا الصوت أن هذا الكائن كبير الحجم، فزحفت مع حرصها على ألا تكون مرئية واختبأت خلف ذيل التنين الأخضر السميك،

والذي كان ملفوفًا ومستقرًا على المرسى، ثم نظرت لترى هذا الكائن الذي صدر عنه كل هذه الأصوات المزعجة.

وإذا بها ترى التلميذ.

كان ممددًا على وجهه على لوح خشبي مغطى بالقار يبدو من منظره أنه قادم من *السفينة انتقام*، واستخدمه التلميذ ليشق الطريق عبر قناة الغمد مجدفًا بيديه فقط. بدا عليه الإنهاك. وكانت عباءته الخضراء متسخة وملتصقة بجسده ويجففها دفء الصباح الباكر.. وانسدل شعره الأشعث على عينيه، وبدا خائر القوى لا يستطيع حتى أن يرفع رأسه ويرى إلى أين يأخذه اللوح الخشبي.

صاحت چينا: «اذهب بعيدًا! اذهب بعيدًا!»، ثم التقطت صخرة لتقذفه بها.

فقال لها التلميذ متوسلًا: «لا، أرجوكِ لا تفعلي هذا».

وظهر نكو فجأة، وقال لچينا: «ماذا يجري عندك يا چينا؟»، ثم تابع نظراتها وصاح قائلًا: «أنت، ارحل عن هنا!».

لكن التلميذ لم يلتفت لكلامهما، وجدف بيديه حتى وصل إلى المرسى فتمدد وقد أعياه الإرهاق تمامًا.

سألته چينا: «ماذا تريد منا؟».

«أنا.. السفينة.. لقد غرقت.. وفررت منها».

رد نكو: «الزبد دائمًا يطفو على السطح».

«لقد هجمت علينا كائنات وغطت أجسامنا؛ كائنات بنية لزجة».

وارتجف الفتى، ثم واصل قائلًا: «لقد جذبتنا إلى المستنقع.. كنت عاجزًا عن التنفس.. كلهم غرقوا.. أرجوكما ساعداني».

راحت چينا تحدق إليه بتردد؛ فلقد أيقظها اليوم على كابوس امتلأ بصراخ الجنيات الصغيرة السمراء التي أخذت تجذبها إلى المستنقع. واعترتها رجفة؛ فهي لا تريد أن تفكر في الكابوس. فإذا كانت لا تستطيع أن تتحمل مجرد التفكير في كابوس، فما بالك إذن والفتى تعرض فعلًا لذلك؟

رأى التلميذ التردد على وجه چينا، فحاول مرة أخرى.

«أنا... أنا آسف لما فعلته في حيوانكم».

ردت چينا بسخط: «الغول ليس حيوانًا. كما أنه ليس ملكنا. إنه كائن من كائنات المستنقع وليس ملكًا لأحد».

شعر التلميذ أنه أخطأ، فعاد يتوسل من جديد.

«أنا آسف. أنا... أنا مرعوب».

ورق قلب چينا، ثم قالت: «لا يمكن أن نتركه ممددًا هكذا على اللوح الخشبي».

رد نكو عليها قائلًا: «ولِمَ لا؟ المشكلة الوحيدة في ذلك أنه يلوث القناة».

قالت چينا: «من الأفضل أن نأخذه إلى الكوخ. هيا، ساعدني».

وهكذا، ساعدا التلميذ على النزول برًا وحملاه نصف الطريق واستند إليهما في النصف الآخر إلى أن وصلوا إلى الكوخ.

وعندما رأت العمة زيلدا نكو وچينا وهما يُسقطان التلميذ على الأرض أمام النار، وهو ما جعل الفتى 412 يستيقظ من نومه، وكانت عيناه غائمتين علّقت قائلة: «لقد حضرت الحشرة الطفيلية إذن».

قام الفتى 412 من مكانه وابتعد، بعد أن رأى لمحة من **السحر الأسود** مع دخول التلميذ الكوخ.

جلس التلميذ بوجه شاحب وجسم يرتعد، باديًا عليه الإعياء.

قالت العمة زيلدا لنكو: «لا ترفع عينيك عنه يا نكو. أنا ذاهبة لأعد له مشروبًا ساخنًا».

ثم عادت العمة زيلدا بكوب كبير من شاي الكاموميل والكرنب. بدا الامتعاض على وجه التلميذ، لكنه شرب الكوب كله. فعلى الأقل وجد نفسه أخيرًا يشرب شيئًا ساخنًا.

بعد أن انتهى، قالت له العمة زيلدا: «أعتقد أنه من الأفضل أن تقول لنا سبب عودتك إلينا، أو بالأحرى قل ذلك للسيدة مارشا. مارشا. لدينا زائر».

كانت مارشا حينها لدى الباب، عائدة لتوّها من جولة صباحية مبكرة حول الجزيرة، من جانب لأنها أرادت أن ترى ما الذي حدث *للسفينة انتقام*، ومن جانب آخر لأنها أرادت أن تستمتع بنسيم الربيع اللطيف، وبمذاق حريتها الألطف، رغم ما بدا على مارشا من نحافة بعد نحو خمسة أسابيع حبيسةً، ورغم وجود الهالات السوداء أسفل عينيها، بدت اليوم أفضل كثيرًا من ليلة أمس، كانت عباءتها وسترتها الحريرية الأرجوانية نضرة ونظيفة، بفضل تعويذة **التنظيف القوي لخمس دقائق**، والتي أملت

أن تكون قد خلصتها من أية آثار من **السحر الأسود**. **فالسحر الأسود** سحر لزج، وهو ما جعلها تدقق في تنظيف هذه الآثار على وجه الخصوص. كان حزامها يشع بريقًا بعد أن استخدمت تعويذة **التلميع الأصيل**، وتدلت حول عنقها تميمة «أخو»، بدت مارشا مبتهجة؛ لقد استعادت قوتها **السحرية**، وصارت من جديد الساحرة العظمى، والدنيا لا تزال بخير.

لا يؤرقها سوى هذا الحذاء المطاطي.

خلعت مارشا هذا الشيء المحبط وألقته بعنف لدى الباب، ثم ألقت نظرة على الكوخ، ورغم أنه بدا لها مظلمًا بعد أن كانت في الخارج في الضوء الساطع لشمس الربيع فإنها رأت ظلامًا من نوع خاص بجوار النار، واستغرقت لحظات حتى تبينت من هو ذلك الشخص الجالس هناك. بمجرد إدراكها من هو، انطفأت البهجة التي كانت تعلو وجهها وبدا عليها الوجوم.

ثم قالت بحدة: «آه، جرذ من السفينة الغارقة».

لم ينطق التلميذ بكلمة. ونظر إلى مارشا بخبث، بعد أن وقعت عيناه السوداوان على التميمة.

ثم قالت مارشا محذرةً: «لا أحد يلمسه».

اندهشت چينا من نبرة صوت مارشا، لكنها ابتعدت عن التلميذ، وكذلك فعل نكو، بينما توجه الفتى 412 إلى مارشا.

وتُرِك التلميذ وحيدًا بجوار النار، فالتفت مواجهًا هذا الحشد المعترض. ما كان ينبغي أن تأخذ الأمور هذا المنحى، بل كان من المفترض أن تأخذهم الرأفة بحاله. والملكة الصغيرة رق قلبها بالفعل،

وكسبها في صفه، وكذلك تلك الساحرة البيضاء المجنونة. إنما هو حظه العاثر الذي أقحم الساحرة العظمى وجعلها تظهر في الوقت غير المناسب.. وبدا عليه التجهم من الإحباط.

نظرت چينا إلى التلميذ، بدا لها كأن هناك شيئًا مختلفًا فيه، دون أن تعرف بالتحديد ما هو هذا الاختلاف.. وأرجعت سبب ذلك الإحساس إلى ما تعرض إليه التلميذ في تلك الليلة البشعة على متن السفينة- فأن يجد المرء نفسه تجره مئات الجنيات الصغيرة السمراء وهي تصرخ إلى أرض المستنقع المتحرك، يكفيه ذلك كي تتحول نظرات عينيه إلى نظرات كئيبة شبحية كما هو حال التلميذ الآن.

لكن مارشا علمت لماذا بدا التلميذ مختلفًا، لقد رأت صباح اليوم أثناء جولتها حول الجزيرة سبب ذلك. وما رأته جعلها تنفر من طعام الإفطار، رغم أن مارشا حقيقة لا تحتاج الكثير كي تنفر من طعام إفطار العمة زيلدا؛ ولذلك عندما همَّ التلميذ فجأة بالاندفاع نحو مارشا بيدين ممدودتين، وموجهتين نحو عنقها، كانت مارشا مستعدة له، وخلصت التميمة من أصابعه، ثم ألقت به من الباب خارج الكوخ يصاحبه صوت طقطقة صادر عن **ضربة صاعقة**.

وبات التلميذ ممددًا على أرض الممر فاقد الوعي.

واحتشد الجميع حوله.

كانت العمة زيلدا مصدومة تمامًا، وهمهمت لمارشا قائلة: «أعتقد أنك تجاوزت الحدود. صحيح أنني لم أقابل فتى أسوأ منه، إلا أنه في نهاية الأمر فتى صغير».

وجاء رد مارشا شرسًا فقالت: «ليس بالضرورة، كما أنني لم أنتهِ منه بعد، لو سمحتم، ارجعوا جميعكم للوراء».

فهمست جينا قائلة: «لكنه أخونا مهما يكن».

ردت مارشا ببرود: «لا أظن ذلك».

وضعت العمة زيلدا يدها على ذراع مارشا وقالت لها: «أعلم يا مارشا أنك غاضبة ولكِ كل الحق في ذلك بعد كل ما عانيته في السجن. لكن لا يجوز أن تشفي غليلك في فتى صغير».

«أنا لا أشفي غليلي في فتى صغير كما تقولين. من المفترض أنك تعرفينني أكثر من ذلك؛ فهذا ليس فتًى صغيرًا، إنه دومدانيال».

«من ؟».

ثم قالت مارشا: «على أية حال يا زيلدا أنا لست **نكرومانسر**.. وأنا لا يمكن أن أقدِم على إزهاق روح أبدًا. لكن كل ما أستطيع أن أفعله الآن هو أن أعيده إلى حيث كان يقوم بهذه الأمور المرعبة؛ حتى أضمن أنه لن يستغل ما فعله».

فصاح دومدانيال المشخص في هيئة التلميذ: «لا!».

ولعن في سره ذلك الصوت الرفيع الهزيل الذي كان مجبرًا على استخدامه. لقد أزعجه بما فيه الكفاية عندما كان يسمعه من ذلك الفتى الحقير، أما الآن، بعد أن أصبح الصوت صوته هو، بات لا يُطاق.

حاول دومدانيال أن يصمد. إنه لا يصدق فشل خطته في استعادة التميمة.. لقد خدعهم جميعًا.. لقد صدقوه من باب شفقة مضللة.. كما أنهم كانوا سيرعونه أيضًا، إلى أن يحين الوقت ويستعيد التميمة. وحينها..

ياه! لكم كانت ستتبدل الأمور. وفي محاولة مستميتة وأخيرة، جثا على ركبتيه، وراح يتوسل إليهم: «أرجوكم. لقد أخطأتم. إنه أنـا... أنا لست...».

صاحت مارشا آمرةً: «ارحل!».

صرخ دومدانيال: «لا!».

لكن مارشا واصلت الأمر:

ارحل

عد إلى حيثما كنت

عندما كنت

ما كنت!

ورحل دومدانيال، وعاد إلى السفينة *انتقام*، مدفونًا في الفجوات والجحور المظلمة في الوحل والسبخات.

بدا على العمة زيلدا الحزن والأسى؛ فهي لا تزال غير مصدقة أن التلميذ كان حقيقةً هو دومدانيال.. وقالت: «هذا الذي فعلتِه بشع يا مارشا. يا له من فتى مسكين!».

ردت مارشا بحدة: «تقولين يا له من فتى مسكين! إذن هناك شيء لابد أن تشاهديه بنفسك».

47
التلميذ



انطلقوا جميعًا بخطوات سريعة، تتقدمهم مارشا بأسرع ما في وسعها بالحذاء المطاطي، واضطرت العمة زيلدا من حين لآخر أن تهرول وراءهم كي تلحق بهم.. بينما ارتسمت على عينيها نظرات حزينة وهي تفاجأ بالدمار الذي أحدثه الفيضان. انتشر الوحل والأعشاب البحرية والمواد اللزجة في كل مكان، بينما ليلة أمس لم يبد لها الموقف بهذا السوء في نور القمر، كما أنها شعرت بالارتياح عندما عاد الجميع بسلام، وبدا لها أن بعض الوحل والفوضى أمر مقدور عليه، لكن المنظر في وضح النهار كان مأساويًا. وفجأة، صرخت بحزن وأسى:

«مركب الدجاج اختفى! دجاجي. دجاجي الصغير المسكين!».

قالت لها مارشا بنبرة جادة، وهي تتقدم بحزم: «هناك أشياء في الحياة أهم من الدجاج».

ثم أدركت العمة زيلدا فجأة أن الجحور كلها لا بد أنها قد غُمرت بالماء، فقالت وهي تولول: «الأرانب! أحبابي. أرانبي المسكينة. جميعها غرقت».

فقالت لها مارشا بحدة وغضب: «يا إلهي! كُفّي يا زيلدا».

فقالت العمة زيلدا في سرها إن هذه ليست المرة الأولى التي تعود بها مارشا إلى برج السحرة متأخرة. وقادت مارشا الطريق كقائد أرجواني منطلق بأقصى سرعة، وهي تسير بخطى عسكرية وسط الوحل، وتقود چينا ونكو والفتى 412 والعمة زيلدا المضطربة إلى مكان بجوار قناة الغِمد أسفل بيت البط مباشرة.

ومع اقترابهم من وجهتهم، توقفت مارشا والتفتت للوراء وقالت: «والآن، أحب أن ألفت انتباهكم إلى أن المنظر ليس جميلًا، بل في واقع الأمر ربما أن زيلدا فقط هي التي يمكن أن تشاهد ذلك. فأنا لا أريد أن أتسبب لكم في كوابيس».

فقالت چينا: «لقد انتابتنا أصلًا، وأنا لا أرى ماذا يمكن أن يكون أسوأ مما رأيته في كابوس ليلة أمس».

وأومأ الفتى 412 ونكو برأسيهما يوافقان رأي چينا.

فقالت مارشا: «إذًا، كما تشاءون»، ثم خطت بحرص على الوحل خلف بيت البط وتوقفت عند القناة، ثم قالت: «هذا هو ما عثرت عليه صباح اليوم».

غطت چينا على الفور وجهها بيديها صائحة: «آآآآآآه!».

بينما شهقت العمة زيلدا وقالت: «يا للهول! يا للهول!».

أما الفتى 412 ونكو فلم ينبسا بكلمة. وشعرا بالإعياء، واختفى نكو فجأة بعد أن نزل عند القناة ليتقيأ.

كان هناك على العشب الأخضر بجوار القناة ما بدا لهم في أول الأمر أنه كيس أخضر فارغ ممدَّدٌ على الأرض. وبعد النظرة الثانية، بدا لهما أنه فزاعة غريبة تم تفريغها. لكن في النظرة الثالثة، والتي ألقتها چينا من بين أصابعها وهي تغطي وجهها، بات واضحًا تمامًا ما هو هذا الشيء الممدد أمامهم.

فالجسم المفرغ كان جسم التلميذ.

كان التلميذ ممددًا على الأرض كأنه بالونة فارغة، بعد أن تم تفريغه من الحياة ومن محتواه. جلده المفرغ، والذي مازال مرتديًا عباءته المبللة والمبقعة بالملح، ممَدَّدٌ بشكل مبعثر على الوحل، منسلخٌ كأنه قشرة موز قديمة.

قالت مارشا: «هذا هو التلميذ الحقيقي. لقد عثرت عليه صباح اليوم أثناء تجوالي. وهو ما جعلني واثقة تمام الثقة من أن التلميذ الذي أجلستموه بجوار المدفأة كان مزيفًا».

همست چينا قائلة: «ما الذي حدث له؟».

قالت مارشا بنبرة متعقلة: «لقد تم **استهلاكه**، وهي خدعة قديمة وتتميز بالشر الخالص. إنها أحد الملفات **الخفية**. ولقد اعتاد **النكرومانسر القدامى** استخدام هذه الخدعة طوال الوقت».

سألتها العمة زيلدا: «أليس هناك شيء نستطيع أن نفعله للفتى؟».

ردت مارشا قائلة: «لقد فات الأوان للأسف. إنه الآن ليس أكثر من خيال. وبحلول منتصف النهار سيكون قد اختفى».

شهقت العمة زيلدا وقالت: «يا له من طفل مسكين! لقد كانت حياته قاسية اختطف من عائلته، وتم تدريبه على يد هذا الرجل البشع. لا أعلم كيف ستتقبل سارة وسايلاس الأمر عندما يعلمان. إنه أمر بشع. مسكين يا سبتيموس».

قالت مارشا توافقها الرأي: «أعلم ذلك، لكن ليس في وسعنا شيء الآن».

فقالت العمة زيلدا بصوت خفيض: «إذن، سوف أبقى معه. أو مع ما تبقى منه. إلى أن يختفي».

أخذت المجموعة دون العمة زيلدا طريق العودة، والصمت يخيم عليهم، كل منهم مستغرق في أفكاره، ثم عادت العمة زيلدا إلى الكوخ بسرعة واختفت في دولاب الجرعات غير المستقرة والسموم الخاصة قبل أن ترجع إلى بيت البط. بينما قضى الآخرون ما تبقى من النهار ينظفون الكوخ من الوحل في صمت ليعيدوه إلى حالته الطبيعية. سُرَّ الفتى 412 أنه وجد الصخرة الخضراء التي أعطتها له چينا سليمة لم تمسها الجنيات الصغيرة السمراء في نفس المكان الذي وضعها فيه، مطوية بحرص في لحافه، في ركن دافئ بجوار المدفأة.

وبحلول وقت الظهيرة، بعد أن أنزلوا الماعزة من فوق السطح - أو من فوق ما تبقى منه - قرروا أن يأخذوا ماكسي في جولة بالمستنقع. وبينما

كانوا يهمون بالخروج، نادت مارشا الفتى 412 وقالت له: «هل تستطيع أن تساعدني في شيء إذا سمحت؟».

فأسعده ذلك كثيرًا مادام سيمكث في البيت، فرغم أنه تعوّد على ماكسي الآن، فإنه لا يسره كثيرًا أن يكون في صحبته، ولا يفهم أصلًا ما الذي يجعل ماكسي فجأة يقفز عليه ويلعق وجهه، كما أن منظر أنفه الأسود اللامع وفمه المبلل دائمًا ما يجعله يرتجف. وهو مهما يحاول، لا يستوعب مطلقًا منطق الكلاب. وهكذا، لوّح الفتى 412 لجينا ونكو بابتهاج وهما ينطلقان للخروج إلى المستنقع ودخل ليذهب إلى مارشا.

كانت مارشا جالسةً إلى مكتب العمة زيلدا الصغير، فبعد أن انتصرت على العمة زيلدا في معركة المكتب قبل أن ترحل، أصرّت مارشا على أن تستعيده من جديد. لاحظ الفتى 412 أن كل أقلام وكراسات العمة زيلدا تم إلقاؤها على الأرض، هذا عدا بعضها التي انهمكت مارشا في تحويلها إلى أقلام وكراسات أكثر ذكاءً وأناقةً لاستخدامها الشخصي. كانت تفعل ذلك بوعي تام منها بما أن ما تقوم به سيكون له هدف سحري محدد - أو على الأقل أملت مارشا أن هذا هو ما سيكون - إذا تم كل شيء حسبما خططت له.

قالت له مارشا بطريقتها التي تبدو بها منهمكة في العمل والتي دائمًا ما تجعل الفتى 412 يشعر بأنه أخطأ في شيء ما: «ها أنت ذا جئت الآن»، ثم ألقت بكتاب قديم متسخ على المكتب أمامها.

وسألته: «ما لونك المفضل: الأزرق أم الأحمر؟ أعتقد أنه الأحمر، بما أنك لا تخلع أبدًا هذه القبعة الحمراء البشعة منذ جئت إلى هنا».

علا وجه الفتى 412 الاندهاش، فلا أحد من قبل اهتم أن يسأله عن لونه المفضل، كما أنه على أية حال لا يعرف تحديدًا لونه المفضل، ثم تذكر ذلك اللون الأزرق الجميل داخل المركب التنينية.

«أحم، الأزرق. أعتقد أنه الأزرق الداكن».

«نعم نعم. أنا أيضًا يروق لي. مع بعض النجوم الذهبية، ما رأيك؟».

«نعم. أظن أنه جميل».

لوّحت مارشا بيديها فوق الكتاب الموجود أمامها ودمدمت ببعض الكلمات، تلا ذلك صوت خشخشة الصفحات وهي تصنف نفسها، ثم تخلصت الصفحات من الملاحظات والتعليقات التي كتبتها العمة زيلدا، ومن وصفتها المفضلة ليخنة الكرنب، وحوّلت نفسها إلى صفحات جديدة، ملساء قشدية اللون، صالحة تمامًا للكتابة عليها، ثم جمعت نفسها في غلاف جلدي لونه بزرقة حجر اللازوردي، وأتمت الشكل بتجمات ذهبية وبحامل عنوان أرجواني يُظهر أن كراسة اليوميات هذه ملك تلميذ الساحرة العظمى. وكلمسة أخيرة، أضافت مارشا مشبكًا من الذهب الخالص ومفتاحًا صغيرًا من الفضة، ثم فتحت الكتاب؛ لتتأكد أن التعويذة تمت بالشكل الصحيح، وأسعد مارشا أن تجد أن أول وآخر صفحة لونها أحمر زاهٍ، بنفس لون قبعة الفتى 412.. وكُتب على صفحة غلاف الكراسة: يوميات التلميذ.

ثم قالت مارشا وهي تغلق الكتاب بضربة أحدثت صوتًا مكتومًا، وتلف المفتاح في قفله: «إليك هذا. شكله جميل، أليس كذلك؟».

رد الفتى 412 بارتباك: «بلى»، لكن لماذا تسأله هو؟

نظرت مارشا إلى عينيه، ثم قالت له: «والآن، معي شيءٌ أريد أن أعيده إليك. إنه خاتمك. أشكرك. وأنا لن أنسى أبدًا ما فعلته من أجلي».

أخرجت مارشا الخاتم من أحد جيوب حزامها ووضعته بحرص على المكتب، وبمجرد أن رأى الخاتم التنيني الذهبي على المكتب ملفوفًا بذيله المشبوك في فمه وعيناه الزمرديتان تبرقان له شعر الفتى 412 بسعادة غامرة. لكن لسبب ما، تردد في أن يمد يده ليأخذه، أحسَّ أن هناك موضوعًا آخر مارشا على وشك أن تفاتحه فيه، وها هي ذي قد بدأت.

«من أين جئت بهذا الخاتم؟».

وعلى الفور، شعر الفتى 412 بتأنيب ضمير. لقد أخطأ من جديد، هذا هو الموضوع إذًا.

«لقد... لقد عثرت عليه».

«أين؟».

«لقد سقطت في النفق؛ ذلك النفق الذي يؤدي إلى المركب التنينية، لكنني وقتها لم أكن أعلم شيئًا عن المركب، ثم عثرت على الخاتم بعد ذلك».

«هل ارتديت الخاتم؟».

«في الحقيقة نعم».

«وماذا حدث بعد ذلك؟».

«لقد... لقد صدر عنه ضوء. وعلمت هكذا أين كنت حينها».

«وهل كان مُحكمًا في أصبعك؟».

«لا. في الحقيقة، لم يكن هكذا في أول الأمر. وبعد ذلك أصبح مُحكمًا في أصبعي. لقد صغر اتساعه».

«نعم نعم. لكن لا أظن أنه غنّى لك أغنية، أم فعل ذلك؟».

كان الفتى 412 طوال ذلك الوقت محدقًا إلى الأرض بتركيز، لكنه رفع بعد ذلك رأسه ونظر إلى مارشا، ولمح ابتسامة في عينيها. هل تسخر منه؟

«نعم، لقد فعل ذلك».

راحت مارشا تفكر. وجلست في صمت لمدة طويلة حتى شعر الفتى 412 أنه لا بد عليه أن يتكلم.

«هل أنت غاضبة مني؟».

ردت عليه قائلة: «ما الذي يجعلك تقول إنني غاضبة منك؟».

«لأنني أخذت الخاتم. فهو ملك التنين، أليس كذلك؟».

فابتسمت مارشا وقالت: «لا، بل كان ملكًا لسيد التنين».

بدأ الفتى 412 يقلق الآن. فمن هو إذن سيد التنين؟ وهل سيغضب منه؟ هل هو ضخم للغاية؟ وما الذي سيفعله فيه عندما يكتشف أن الخاتم معه؟

ثم سألها بتردد: «هل... هل يمكن أن تعيديه إليه وتقولي له إنني آسف لأنني أخذته؟»، ثم دفع الخاتم على المكتب نحو مارشا.

قالت مارشا بوقار وهي تلتقط الخاتم: «كما تشاء. سوف أعيده إلى سيد التنين».

فتنهد الفتى 412، لقد أحب الخاتم، ومجرد وجوده بالقرب منه يجعله يشعر بالسعادة. لكنه لم يفاجأ بأن يسمع منها أنه ملك لشخص آخر. لقد كان أجمل من أن يكون له.

نظرت مارشا للخاتم التنيني للحظات، ثم مدت يدها به إلى الفتى 412.

«إليك الخاتم»، ثم ابتسمت وقالت له: «إنه ملكك».

حملق الفتى 412 في وجهها بدهشة وحيرة.

فقالت له مارشا: «أنت سيد التنين. إنه خاتمك أنت. نعم. نعم. والشخص الذي أخذه يقول لك إنه آسف».

أطبق الصمت على الفتى 412.. وراح يحدق بالخاتم في يده.. لقد أصبح ملكه الآن.

ثم كررت مارشا كلامها وقالت: «أنت سيد التنين؛ لأن الخاتم اختارك أنت. وهو لا يغني لأي شخص كما تعلم. وأصبعك *أنت* هو الذي اختاره، وليس أصبعي أنا».

قال الفتى 412 في حيرة: «لكن لماذا؟ لماذا اختارني أنا؟».

فابتسمت له وقالت: «لأن لديك قوة سحرية مذهلة. لقد قلت لك ذلك من قبل.. ربما أنك صدقتني الآن».

«كنت... كنت أظن أن هذه القوة مصدرها الخاتم».

«لا، بل مصدرها أنت. ولا تنس أن المركب التنينية تعرفت إليك حتى بدون الخاتم. لقد غرقت. وتذكرت أن آخر من ارتدى الخاتم كان

حتب رع، أول السحرة العظماء. وظل الخاتم منتظرًا حتى يعثر على شخص مثله».

«لكن هذا لأنه كان مختبئًا في نفق سري لمئات السنين».

ردت مارشا بغموض: «ليس بالضرورة. ففي نهاية المطاف، تسير الأمور وفق مجريات خاصة بها».

بدأ الفتى 412 يفكر في أن مارشا محقّة في كلامها.

«والآن، هل مازلت ترفض؟».

فسألها: «أرفض؟».

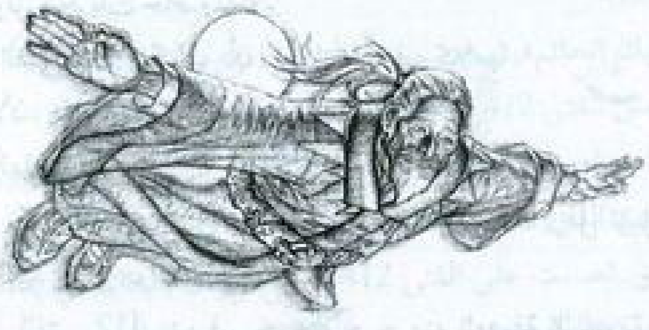
«أن تكون تلميذي. ألن تغير رأيك بعد ما ذكرته لك؟ هل تقبل بأن تكون تلميذي؟ أرجوك».

دس الفتى 412 يده في جيبه وأخرج منه **الوصفة السحرية** التي أعطتها له مارشا يوم أن طلبت منه أن يكون تلميذها، ثم نظر إلى الأجنحة الفضية الصغيرة فوجدها تشع بريقها المعتاد ولا تزال الكلمات التي تعلوها تقول حلّق معي بحُرية.

ابتسم الفتى 412.

وقال لها: «نعم، أود أن أكون تلميذك.. أودُّ من كل قلبي».

48
حفل عشاء التلميذ



لم يكن *أمر إعادة التلميذ إلى الحياة* سهلًا، لكن العمة زيلدا نجحت في نهاية المطاف. وكان لمفعول **جرعة التأثير القوي وجرعة الطوارئ** أثره، لكنه لم يدم طويلًا. وسرعان ما بدأ التلميذ ينسحب من الحياة من جديد، وحينها فقط قررت أنه ليس أمامها إلا أمرٌ واحدٌ فقط: ألا وهو استخدام **القوة الكهربائية المنشطة**.

إلا أن استخدام هذه الوسيلة ليس مضمونًا، بما أن العمة زيلدا عدلت هذه الجرعة من وصفة **شيطانية** عثرت عليها في السندرة عندما انتقلت إلى الكوخ لتعيش فيه، وهي لا تعرف حتمًا طريقة تفعيل الجزء المتعلق **بالشياطين**، لكنَّ شيئًا ما حدَّثها بأنه ربما هذا هو ما تحتاج إليه؛ لمسة **شيطانية**.

وبخوف، فتحت العمة زيلدا الغطاء، وانطلق من الزجاجة البنية الصغيرة ضوء ساطع أبيض يميل إلى الزرقة وكاد يعمي عينيها. انتظرت العمة زيلدا إلى أن اختفى تأثير الضوء من عينيها، ثم أسقطت بحرص مقدارًا ضئيلًا من المادة الكهربائية الجيلاتينية الزرقاء على لسان التلميذ، ثم رسمت شارة الصليب، وهو أمر لا تتعامل معه الساحرات البيضاوات باستخفاف، ثم حبست أنفاسها لدقيقة واحدة.. وفجأة جلس التلميذ، ونظر إليها بعينين واسعتين للغاية حتى إنها لا تكاد ترى فيهما سوى بياض، ثم تنهد بنفَس طويل وعاد ليرقد على القش، وتكور على نفسه ونام.

لقد نجحت جرعة **القوة الكهربائية المنشطة**، لكن العمة زيلدا تعلم أن هناك شيئًا لا بد أن تفعله قبل أن يتعافى تمامًا. كان لا بد أن تحرره من سيطرة سيده عليه. ومن ثم، جلست عند بركة البط، مع غروب الشمس، وانبثاق البدر بنوره الشاحب قريبًا من الأفق الممتد لمستنقعات مرام، وبدأت تمارس قراءة الغيب، فكان هناك بعض الأمور تريد أن تعرف حقيقتها.

جنَّ الليل وبات القمر عاليًا في السماء، سارت العمة زيلدا بخطوات بطيئة عائدةً إلى البيت، تاركةً التلميذ في سُباته العميق؛ فهي تعلم أنه سيحتاج أن ينام عدة أيام قبل أن تستطيع نقله من بيت البط، كما أنها تعلم أنه سيمكث معها لفترة بعد ذلك؛ فلقد حان الوقت لأن ترعى إنسانًا آخر بعد أن تعافى الفتى 412 تمامًا وبات في أحسن حال.

سارت العمة زيلدا بعينين تتلألآن وسط الظلام وبذهن شارد على امتداد ممشى قناة الغمد، مستغرقةً تمامًا في التفكير في المشهد الذي رأته في بركة البط، تحاول أن تفهم مغزاه. ومع انهماكها في التفكير لم تنظر أمامها إلاّ عندما كادت أن تصل إلى المرسى الموجود أمام الكوخ، وما وقع عليه بصرها لم يسرها كثيرًا.

قالت في سرها بتوتر إن قناة الغمد باتت في حالة مزرية؛ فالمكان بات مكتظًا بالعديد من المراكب، وكأن زورق الصياد الشرير وموريل الثاني الأخرق ليسا كافيين، بات هناك الآن على الجانب الآخر من الجسر مركب صيد محطم أو معيب يشغله شبح لا يقل عنه عجزًا.

سارت العمة زيلدا نحو الشبح وهي تتحدث إليه بصوت عالٍ جدًا وبطيء للغاية، الصوت الذي تستخدمه دائمًا عندما تتحدث إلى أشباح، خاصة كبار السن منها. وكان الشبح العجوز في قمة الأدب والاحترام معها، مع الوضع في الاعتبار أنها أيقظته من نومه بسؤال جارح للغاية.

لكنه رد عليها بتؤدة واحترام: «لا يا سيدتي. آسف أنني أحبطك. فأنا لست من هؤلاء البحارة البشعين الذين كانوا على متن ذلك المركب الشرير. أنا، أو بالأصح أنا كنت ألثر ميلا الساحر الأعظم. وأنا في خدمتك يا سيدتي».

قالت العمة زيلدا: «أهذا أنت؟ أنت لا تبدو على الإطلاق كما كنت أتوقع».

رد ألثر بتؤدة واحترام مرة أخرى: «سوف أعتبر ذلك من باب المديح يا سيدتي. واعذريني على عدم كياستي؛ لأنني لم أترك المركب لأقدم

لك التحية. لكنني لا بد أن أبقى على متن مركبي العزيز مولي؛ وإلا سوف يتم إعادتي. إنه لمن دواعي سروري أن أقابلك يا سيدتي. أعتقد أنك زيلدا».

ثم جاء صوت سايلاس من الكوخ صائحًا: «زيلدا!».

نظرت العمة زيلدا إلى الكوخ في حيرة؛ لقد كانت كل المصابيح والشموع مشتعلة، وبدا الكوخ مكدسًا بالزوار.

فصاحت العمة زيلدا مبتهجة وهي تقول: «سايلاس؟ ما الذي تفعله هنا؟».

فصاح قائلًا لها: «ابقي مكانك. لا تدخلي أنت، نحن سنخرج لكِ في دقيقة واحدة!»، ثم اختفى سايلاس في الكوخ، وسمعته العمة زيلدا يقول: «لا يا مارشا. لقد قلت لها أن تبقى في الخارج. على العموم، أنا متأكد أن العمة زيلدا لن تفكر أصلًا في أن تتدخل في الأمر. لا.. لا أعلم ما إذا كان هناك مزيد من الكرنب. لكن، لماذا تريدين عشر كرنبات أصلًا؟».

التفتت العمة زيلدا إلى ألثر الذي كان ممددًا في جلسة مريحة عند مقدمة مركب الصيد، وسألته: «*لماذا* لا أستطيع أن أدخل؟ ما الذي يحدث هنا؟ وكيف جاء سايلاس إلى هنا؟».

رد الشبح قائلًا: «إنها قصة طويلة يا زيلدا».

فقالت له: «هذا لا يمنع من أن تحكيها. فعلى ما يبدو لا أحد يريد أن يزعج نفسه ويفهمني ما الذي يحدث هنا. يبدو أنهم منشغلون تمامًا في غزو مخزوني من الكرنب».

قال ألثر: «القصة أنني كنت ذات يوم في غرفة دومدانيال أقوم.. أحم.. ببعض.. الأعمال، عندما دخل الصياد وقال له إنه اكتشف مكانكم جميعًا. كنت أعلم أنكم ستكونون في أمان وقت الصقيع الكبير، لكن عندما بدأ الذوبان الكبير فكرت في أنكم قد تتعرضون لمتاعب. وكنت محقًا في ذلك.. فما كاد الذوبان يحل حتى انطلق دومدانيال إلى الغدير البارد واستقل سفينته البشعة؛ استعدادًا لإرسال الصياد إلى هنا. فرتبت مع صديقتي العزيزة أليس، وهي تعمل في الميناء، أن تجهز سفينة لتقلكم جميعًا إلى مكان آمن. أصرَّ سايلاس أن يأخذ معه جميع الأبناء. ومن ثم، عرضت عليه أن يستخدم مولي لينقله إلى الميناء، وكانت جانيت مارتن قد رفعت مولي في مصنع المراكب، لكن سايلاس أنزله إلى الماء، وكانت جانيت منزعجة تمامًا من الحالة التي آل إليها مولي، لكن كان من المستحيل أن ننتظر إلى أن يتم إصلاحه.. توقفنا بعد ذلك في الغابة وأخذنا سارة، وكانت حزينة جدًا لأن أبناءها رفضوا الذهاب معنا، ثم انطلقنا بدونهم، وكان كل شيء على ما يُرام إلى أن صادفتنا مشكلة فنية صغيرة، في الحقيقة كانت مشكلة فنية عويصة؛ فسايلاس خرق قاع المركب بقدمه، وأثناء إصلاحه فوجئنا بالسفينة *انتقام*. لكن لحسن حظنا فعلًا أنها لم ترنا. وكانت سارة في حالة مُريعة، وظننت أننا انتهينا، ومما زاد الأمر تعقيدًا أن **العاصفة** حاصرتنا وجرفتنا إلى المستنقعات. في الحقيقة لم تكن الرحلة هذه المرة مع مولي من الرحلات التي يمكن أن أصفها بالممتعة. لكن ها نحن أولاء قد عدنا، وفي الوقت الذي أربكتنا

تحن مركبًا صغيرًا، يبدو أنكم من جانبكم توليتم الأمور كلها بشكل رائع ومُرضٍ تمامًا».

غمغمت العمة زيلدا قائلة: «فيما عدا الوحل».

قال ألثر يوافقها الرأي: «بالفعل. لكن من خبرتي أن **السحر الأسود** دائمًا ما يُخلف وراءه قاذورات؛ فالموقف كان من المحتمل أن يكون أسوأ».

لم ترد العمة زيلدا على ألثر؛ إذ كان ذهنها مشوشًا بعض الشيء من الضجيج والجلبة الصادرة عن الكوخ؛ وفجأة سمعت صوت انكسار تبعته حوارات بصوت عالٍ.

فقالت لألثر تطالبه بتفسير لذلك: «ألثر، ما الذي يجري هنا؟ كيف أغيب لعدة ساعات وأعود لأجد حفلة مقامة، وغير مسموح لي بدخول بيتي. إن مارشا تجاوزت كل الحدود هذه المرة، لو أذنت لي».

رد ألثر قائلًا: «إنه حفل عشاء التلميذ، هذا الفتى القادم من الجيش، لقد أصبح تلميذ مارشا».

علت البهجة وجه العمة زيلدا وقالت: «فعلًا؟ *هذا خبر رائع*. بل أكثر من رائع. لكن هل تعلم؟ أنا كنت دائمًا أتمنى أن يحدث ذلك».

رد ألثر، وقد بدأ يشعر بدفء الود في صحبة العمة زيلدا: «فعلًا؟ أنا أيضًا تمنيت هذا».

ثم تنهدت العمة زيلدا وقالت: «ومع ذلك كان من الممكن أن يتم ذلك من دون هذا الحفل. لقد كنت أخطط أن يكون العشاء اليوم يخنة لطيفة هادئة من الفول وثعبان البحر».

«لابد أن يقام حفل عشاء التلميذ الليلة يا زيلدا، فالحفل لابد أن يُقام في نفس يوم قبول التلميذ عرض الساحر، وإلا سيعتبر العَقد بينهما باطلًا وهذا العقد لا يمكن إعادة إجرائه ثانيةً، فليست هناك فرصة أخرى في الموضوع. وبدون عشاء لن يكون هناك عقد ولا تلمذة».

ردت العمة زيلدا بنبرة مرحة: «نعم، أعلم ذلك».

قال ألثر، وقد راوده حنين إلى الماضي: «أتذكر يوم أن قبِلت مارشا أن تكون تلميذتي، يا له من حفل! ذلك الحفل الذي أقمناه تلك الليلة. حضره جميع السحرة، وكانوا في تلك الأيام أكثر عددًا، وظل هذا العشاء حديث السنوات التالية، ولقد أقيم في بهو برج السحرة. هل رأيت المكان من قبل يا زيلدا؟».

فهزت العمة زيلدا رأسها، رغم أنها كانت تودُّ دائمًا أن تزوره، لكن عندما بدأ سايلاس فترة تدريبه على يد ألثر- التي لم تدم طويلًا- انشغلت هي في ذلك الوقت بتسلُّم مهمتها كحارسة للمركب التنينية من الساحرة البيضاء السابقة بيتي كراكل التي وصلت الأمور في عهدها إلى حالة من التسيب نوعًا ما.

فقال لها ألثر مستعيدًا ذكرى كل الفخامة والسحر اللذين كانا يحيطان بهما حينها: «ياه! ليتك تتمكنين من زيارته يومًا. إنه مكان رائع»، ثم قال في سره أكيد أنه مختلف تمامًا عن مثل هذا الحفل السريع المقام بجانب مركب صيد.

ردت العمة زيلدا: «في الحقيقة، أتمنى من كل قلبي أن تعود مارشا قريبًا إلى البرج بعد أن تم التخلص من هذا الرجل البشع دومدانيال».

أكمل ألثر كلامه قائلًا: «هذا الرجل البشع لعلمك كنت تلميذه، وكل ما حصلت عليه في حفل العشاء يومها هو شطيرة جبن. وأعترف لك يا زيلدا لقد ندمت على أنني تناولت تلك الشطيرة أكثر مما ندمت على أي شيء آخر في حياتي، لقد ربطتني بالرجل لسنوات وسنوات».

ردت العمة زيلدا مقهقهة: «إلى أن دفعته من فوق سطح برج السحرة».

ها هو ذا نفس الكلام مرة أخرى، وبلا شك لن يكون آخر مرة، ثم رد ألثر عليها معترضًا: «أنا لم أدفعه، هو الذي قفز».

ردت العمة زيلدا وذهنها شارد مع الأصوات التي تعلوها نبرة الإثارة القادمة من الكوخ بنوافذه وأبوابه المفتوحة: «من حسن حظك، أيًا كان الذي حدث»، ثم سمعت صوتًا يعلو فوق صوت تلك الضوضاء وذلك الصخب، هو بلا أدنى شك صوت مارشا بنبرته المتسلطة وهي تقول:

«لا، دع *سارة* تأخذ ذلك يا سايلاس.. فأنت سوف تسقطها».

«إذن، ضعيها على المائدة إذا كانت ساخنة إلى *هذه الدرجة*».

«احترس، حذائي. وأرجوك أبعد هذا الكلب عن هنا».

«بطة تعسة. دائمًا أجدك تحت قدمي. يا للهول! أهذه فضلاتها التي دست عليها؟».

وأخيرًا «والآن، أود أن يتقدمنا تلميذي ويخرج بنا».

وخرج الفتى 412 من الباب وهو يحمل مصباحًا، كان يتبعه سايلاس وسايمون، وكانا يحملان المائدة والمقاعد، أما سارة وجينا فكانتا تحملان مجموعة من الأطباق والأكـواب والزجاجات، وكان نكو يحمل سلة

مملوءة بعشر كرنبات، وهو لا يعلم لماذا يحمل سلة كرنب، ولا ينوي أيضًا أن يسأل.. فلقد وطئت قدمه على التوّ حذاء مارشا الثعباني الأرجواني الجديد تمامًا (فهي بلا محالة لن ترتدي حذاء مطاطيًا في حفل عشاء تلميذها) وهو يحاول الآن أن يبتعد عن طريقها.

ثم تبعتهم مارشا وهي تسير بحرص على الوحل، وتحمل كراسة يوميات التلميذ المغلفة بالجلد الأزرق التي صنعتها للفتى 412.

ومع انبثاق الحفل من الكوخ، انقشعت آخر سحابة، وظهر القمر عاليًا في السماء، ملقيًا نورًا فضيًا على الموكب وهو يتقدم نحو المرسى. وضع سايلاس وسايمون المائدة بجوار مركب ألثر، مولي، ووضعا عليه مفرشًا أبيض كبيرًا، ثم تولت مارشا إدارة الحفل وإصدار التعليمات الخاصة بذلك.. وكان على نكو أن يضع سلة الكرنب في منتصف المائدة تمامًا كما قالت له مارشا.

ثم صفقت مارشا بيديها كي يصمت الجميع.

وقالت: «إن الليلة تُعد ليلة مهمة لنا جميعًا، وأنا أود أن أرحب بتلميذي».

صفق الجميع بأدب واحترام.

ثم واصلت مارشا كلامها قائلة: «أنا لا أريد الإطالة عليكم».

همس ألثر إلى العمة زيلدا التي جلست معه في المركب حتى لا يجد نفسه وحيدًا: «كانت الأمور مختلفة تمامًا على أيامي» فوكزته العمة زيلدا مداعبةً إياه، وقد نسيت أنه شبح، فاخترق ذراعها كتفه واصطدم بصاري مولي.

فصاحت: «أي!»، ثم قالت: «آسفة يا مارشا، واصلي كلامك».

«أشكرك يا زيلدا.. أنا أريد فقط أن أقول إنني قضيت السنوات العشر الماضية ابحث فيها عن تلميذ، ورغم أنني قابلت العديد من الشباب الواعدين، فإنني لم أعثر قطُّ على ما كنت أبحث عنه إلى أن تبدلت الأمور».

ثم التفتت مارشا إلى الفتى 412 وابتسمت وقالت: «وأنا أشكرك لأنك وافقت على أن تكون تلميذي لسبع سنوات ويوم واحد. أشكرك من كل قلبي، وسوف نقضي معًا وقتًا رائعًا».

كان الفتى 412 جالسًا إلى جوار مارشا، واحمر وجهه على الفور عندما ناولته مارشا كراسة اليوميات. أمسك الكراسة بقوة بيديه المتسختين، تاركًا على جلدها المسامي بصمة ليدين لن تزول، وسوف تُذكره دائمًا بالليلة التي غيرت مجرى حياته إلى الأبد.

قالت مارشا: «نكو، وزع الكرنب الآن».

نظر نكو إلى مارشا وقد رسم على وجهه نفس التعبير الذي يستخدمه مع ماكسي عندما يتصرف بحُمق، لكنه صمت، وأخذ سلة الكرنب وبدأ يمر بها حول المائدة ليناول كلاً منهم واحدة منها.

فقال له سايلاس وهو ينظر إلى ثمرة الكرنب التي يقدمها له نكو ويأخذها منه: «أحم، أشكرك يا نكو».

لكن مارشا صاحت بحدة: «لا .. لا تناول كلاً منهم ثمرة الكرنب، بل ضعها أمامهم في أطباقهم».

مرة أخرى، نظر نكو إلى مارشا بنفس النظرات التي يستخدمها مع ماكسي (هذه المرة وكأنه يقول له انظر، لقد تبرزت على الأرض هنا) وبسرعة أسقط ثمرة كرنب في كل طبق.

وبعد أن أخذ كلٌ منهم ثمرة الكرنب، بما في ذلك ماكسي، رفعت مارشا يدها حتى يصمت الجميع.

«إن هذا العشاء أصنافه اختيارية، فثمرة الكرنب مبرمجة على أن تحول نفسها برضا تام إلى ما يروق لكل منكم. كل ما هو مطلوب أن يضع كل منكم يده على الثمرة ويقرر في سره ما يريد أن يتناوله».

وعلا طنين حماسيٌ، بينما أخذ كل منهم يفكر فيما يريد أن يحول كرنبته إليه.

ثم همست العمة زيلدا لألثر قائلة: «إنها جريمة تبديد لثمار كرنب صالحة؛ ولذلك أنا لا أريد إلا كرنبًا ملفوفًا».

ثم قالت مارشا بصوت عالٍ يغطي صوت الصخب الحادث: «والآن، بعد أن قرر كل منكم، هناك شيء واحد أريد أن أقوله».

فقال لها سايلاس من بعيد: «هيا يا مارشا، إن فطيرة السمك سوف تبرد».

فنظرت مارشا إليه نظرة قاسية.

ثم واصلت كلامها: «لقد جرت العادة على أنه في مقابل السنوات السبع واليوم الواحد التي يقدمها التلميذ من حياته للساحر، يقدم الساحر من جانبه شيئًا له».

ثم التفتت مارشا إلى الفتى 412، والذي بالكاد يُرى منه شيء وهو جالس خلف طبق ضخم من يخنة ثعبان البحر والحلويات المعدة بنفس طريقة العمة زيلدا وسألته: «ماذا تريد أن أقدمه لك؟ اطلب مني أي شيء تريده، وأنا سوف أبذل قصارى جهدي لتحقيقه لك».

نظر الفتى 412 إلى طبقه، ثم نظر إلى من حوله.. وفكر في سره كم تغيرت حياته منذ أن قابلهم. إنه في قمة السعادة وليس هناك بالفعل ما يتمناه أكثر من ذلك، فيما عدا أمرًا واحدًا فقط.

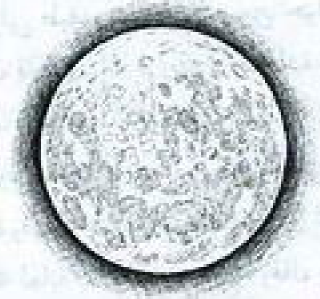
إنه طلب رهيب، ومستحيل تنفيذه، يكاد يخشى أن يفكر فيه.

قالت مارشا بنبرة رقيقة: «أي شيء تريده، أي شيء، فكر».

ازدرد الفتى 412 لعابه بصوت مسموع، وقال بهدوء: «أريد أن أعرف من أنا».

49

سبتيموس هيب



وقف على فوهة مدخنة كوخ *الحارسة* طائر تؤ لم يلحظه أحد، لقد جاء مع هبوب العاصفة ليلة أمس، وهو يراقب باهتمام الآن حفل عشاء التلميذ، ولاحظ بكل شوق أن العمة زيلدا على وشك أن تفعل ما كان يعتبر الطائر دائمًا أنها موهوبة فيه.

قالت العمة زيلدا وهي تقف على الجسر فوق قناة الغِمد: «إنها ليلة مناسبة تمامًا. فالقمر اليوم بدر، وأنا لم أر المستنقع من قبل بكل هذا الهدوء والسكون.. هل يمكنكم أن تأتوا جميعًا وتقفوا على الجسر؟ مارشا، تحركي قليلًا وأفسحي مكانًا لسايمون».

لم يبدُ على سايمون أنه يريد أن يُفسَح له مكان بينهم.

وغمغم قائلًا: «لا تزعجوا أنفسكم بي، كأنني غير موجود».

فقال له سايلاس: «ماذا قلت؟».

«لا شيء».

وقالت سارة: «دعه يا سايلاس، لقد مر بأوقات عصيبة في الآونة الأخيرة».

«كلنا مررنا بأوقات عصيبة في الآونة الأخيرة، لكننا لا نواصل التذمر».

دقت العمة زيلدا على سور الجسر بغضب.

«عندما تنتهون جميعًا من المشاحنات، أود أن أذكركم أننا على وشك الخوض في محاولة الإجابة عن سؤال مهم. موافقون؟».

خيم الصمت على الجميع، كانت العمة زيلدا، هي والفتى 412 وسارة وسايلاس ومارشا وچينا ونكو وسايمون، محشورين جميعًا على الجسر الصغير الذي يعلو قناة الغِمد، وخلفهم المركب التنينية مرفوعة وعالية الرأس ومنحنية فوقهم، بينما تحدق عيناها الخضراوان العميقتان بتركيز إلى انعكاس صورة القمر وهي تهتز على الماء الساكن للقناة.

وأمامهم، *مولي*، وألثر جالس عند مقدمتها يراقب المشهد باهتمام وقد أبعد مركبه قليلًا للوراء؛ حتى يفسح المكان لرؤية انعكاس القمر بشكل كامل.

وقف سايمون بعيدًا عند طرف الجسر، لا يفهم لماذا يزعجون أنفسهم إلى هذا الحد لمعرفة من هو هذا الطفل المزعج؟ خاصة أنه سرق منه حلم حياته، وبلا شك لا يعنيه بأي حال من الأحوال أن يرى من هما

والدا الفتى 412، أو على الأرجح لن يعنيه ذلك كما ظن هو. ومن ثم، عندما بدأت العمة زيلدا تنادي القمر، تعمد سايمون حينها أن يدير ظهره لهم.

قالت العمة زيلدا بنبرة رقيقة: «أيها القمر العظيم، أرنا إذا شئت أسرة الفتى 412 الذي كان يخدم في جيش الشباب».

وبالضبط كما حدث يوم أن كانوا أمام بركة البط، بدأ انعكاس القمر يكبر ويكبر حتى تحول إلى قرص أبيض ضخم غطى القناة. في أول الأمر، بدأت ظلال غامضة تظهر وسط القرص، ورويدًا رويدًا تحددت الظلال أكثر فأكثر، إلى أن رأى كل منهم صورة منعكسة له.

وبدءوا هناك يتهامسون، فيما عدا مارشا التي لاحظت ما لم يلحظه أحد، والفتى 412 الذي بدا له أنه فقد القدرة على الكلام. أخذ قلبه يخفق بشدة، وبدت له ساقاه وكأنهما ما عادتا تستطيعان أن تحملاه، حتى إنه تمنى لو لم يسأل هذا السؤال؛ فهو لا يظن أنه بالفعل يريد أن يعرف من هو. ماذا لو اتضح له أنه من أسرة بشعة؟ ماذا لو كانوا من جيش الشباب كما قيل له؟ ماذا لو كان والده هو دومدانيال نفسه؟ وفي اللحظة التي كان على وشك أن يقول لمارشا فيها إنه غيّر رأيه ولا يهمه أن يعرف، تحدثت العمة زيلدا، وقالت وهي تذكر كل من هم واقفون على الجسر: «إن الأمور ليست دائمًا في حقيقتها كما تبدو. وتذكروا أن القمر دائمًا يبصرنا بالحقيقة، لكن كيف نرى نحن الحقيقة، هذا أمر يتوقف علينا نحن وليس على القمر».

ثم التفتت إلى الفتى 412 وسألته: «والآن ماذا تريد حقًا أن ترى؟».

رد الفتى 412 بما لم يتوقعه من نفسه أصلًا، وهمس قائلًا: «أريد أن أرى والدتي».

قالت العمة زيلدا بنبرة ناعمة: «أيها القمر، أرنا إن شئت والدة الفتى 412 من جيش الشباب».

ملأ قرص القمر القناة، ومرة أخرى بدأت ظلال مشوشة تظهر، إلى أن رأوا انعكاسهم مرة أخرى. وعلا اعتراض جماعي لكنه لم يدم طويلًا، بعد أن بدا وكأن هناك شيئًا مختلفًا.. فقد بدأ انعكاس الجميع يختفي واحدًا تلو الآخر.

حتى إن الفتى 412 نفسه اختفى، واختفى سايمون وچينا ونكو وسايلاس.. ثم تلاشت صورة مارشا، تبعتها صورة العمة زيلدا.

وفجأة، وجدت سارة نفسها تنظر إلى صورتها هي في انعكاس صورة القمر، منتظرة أن تختفي صورتها مثل الآخرين، لكن الصورة باتت أكثر وضوحًا وتحديدًا، إلى أن أصبحت سارة هيب واقفة بمفردها وسط قرص القمر الأبيض.. وأدرك الجميع أن ما يرونه ليس مجرد انعكاس لصورتها، بل كان الرد على سؤال الفتى 412.

أخذ الفتى 412 يحدق إلى صورة سارة مشدوهًا؛ فكيف يمكن أن تكون سارة هيب هي والدته؟ كيف؟

رفعت سارة عينيها عن القناة ونظرت إلى الفتى 412.

وهمست قائلة: «سبتيموس؟».

وكان هناك شيء أرادت العمة زيلدا أن تريه لسارة.

وقالت: «أيها القمر العظيم، أيها القمر العظيم، أرنا إن شئت الابن السابع لسارة وسايلاس هيب.. أرنا سبتيموس هيب».

وببطء، تلاشت صورة سارة وظهرت صورة أخرى؛ صورة الفتى 412.

وشهق الجميع، حتى مارشا التي تكهنت من هو الفتى 412 منذ عدة دقائق عندما لاحظت أن صورتها هي فقط التي اختفت من انعكاس صورة أسرته.

جثت سارة على ركبتيها بجوار الفتى 412 ونظرت إليه تتفحصه: «سبتيموس؟» حدقت عينا الفتى 412 إليها، وقالت له سارة: «هل تعلم؟ أعتقد أن عينيك بالفعل بدأتا تتحولان إلى اللون الأخضر، تمامًا مثل أبيك ومثلي ومثل إخوتك».

فسألها: «فعلًا؟».

ثم سألته سارة: «هل أستطيع أن أرفع عن رأسك هذا؟» هز لها الفتى 412 رأسه، فهذا هو دور الأمهات؛ أن يهتممن بكل شيء فيك حتى قبعتك.

وبرفق، رفعت سارة قبعة الفتى 412 التي لم تُرفع من قبل منذ أن حشرتها مارشا على رأسه في مقهى سالي مولن، فظهرت خصلات شعره الأصفر الملفوفة، ومثلما يهز الكلب رأسه المبلل، بدأ الفتى 412 يهز رأسه حتى يتخلص من حياته ومخاوفه القديمة واسمه القديم.

لقد أصبح نفسه..

سبتيموس هيب.

ما رأته العمة زيلدا
في
بركة البط

عودة إلى حضانة جيش الشباب.

في غرفة الحضانة شبه المظلمة، وضعت رئيسة المولدات الطفل الرضيع سبتيموس في سرير وجلست والإرهاق يبدو عليها. ظلت تراقب الباب بانزعاج تنتظر حضور شخص ما، لكن لم يحضر أحد.

بعد دقيقة أو دقيقتين، قامت متثاقلة من على المقعد وذهبت إلى سرير طفلها الذي كان يبكي، ورفعته لتحمله. وفي تلك اللحظة، اندفع الباب بعنف، فالتفتت رئيسة المولدات، وقد بدا على وجهها الشحوب والفزع.

كانت تقف لدى الباب امرأة طويلة القامة ترتدي زيًا أسود ملتصقًا بجسدها، والمريلة البيضاء الخاصة بالممرضات، لكنها ترتدي أيضًا حول خصرها حزامًا أحمر كالدم تظهر عليه النجمات السود الثلاث الخاصة بدومدانيال.

ولقد جاءت من أجل سبتيموس هيب.

تأخرت الممرضة بعد أن ضلت الطريق أثناء عودتها إلى الحضانة، والآن يبدو عليها الارتباك والخوف؛ فدومدانيال لا يتساهل في مسألة التأخير. إنها ترى الآن رئيسة المولدات ومعها طفل رضيع، تمامًا كما قيل لها، لا تعلم أن رئيسة المولدات تحمل بين ذراعيها طفلها هي وأن سبتيموس هيب ينام الآن على سرير في ضوء الغرفة الخافت. اندفعت الممرضة نحو رئيسة المولدات واختطفت منها الرضيع.. اعترضت رئيسة المولدات وحاولت أن تستعيد طفلها من الممرضة، لكن مجهودها المستميت لاستعادة طفلها لم يضاهِ قوة إصرار الممرضة على العودة في موعدها إلى المركب قبل أن يبدأ المد.

وانتصرت الممرضة طويلة القامة، ثم لفت الطفل الرضيع في قماش أحمر طويل تعلوه النجمات السود الثلاث وهرعت تخرج جريًا، تتبعها رئيسة المولدات وهي تصرخ، وقد أدركت تمامًا الآن كيف كان شعور سارة هيب منذ عدة ساعات، ثم مُنعت رئيسة المولدات عند بوابة الثكنات العسكرية من مواصلة ملاحقتها للممرضة بعد أن أظهرت الممرضة النجمات السود الثلاث وجعلت الحارس يقبض على رئيسة المولدات، واختفت هي وسط الظلام، تحمل طفل رئيسة المولدات إلى دومدانيال، وقد علتها نشوة النصر.

عودة إلى الحضانة، كانت جليسة الأطفال قد استيقظت من النوم، وقامت وهي تتنفس الصعداء، كي تحضر الرضعات الليلية الأربع المسئولة عنها، واحدة لكل من الإخوة الثلاثة - 409، و410، و411،-

وواحدة لأحد المستجدين بجيش الشباب- سبتيموس هيب- الذي لا يبلغ من العمر إلا اثنتي عشرة ساعة، والمقدر له أن يظل يحمل اسم الفتى 412 للسنوات العشر القادمة.

تنهدت العمة زيلدا بعد أن رأت ما كانت تتوقعه، ثم سألت القمر أن يتابع ابن رئيسة المولدات، فكان هناك شيء آخر تريد أن تعرف حقيقته.

لقد وصلت الممرضة في الوقت المناسب تمامًا، كان هناك **شيء** يقف عند مؤخرة المركب ونقلها إلى الضفة الأخرى من النهر مجدفًا بمجداف واحد كما هي الطريقة القديمة للصيادين. بعد أن وصلت إلى الجانب الآخر من النهر، التقت **فارسًا شيطانيًا** يمتطي حصانًا أسود هائل الحجم، ورفعها هي والرضيع وانطلقوا وسط الظلام. فما زال أمامهم رحلة طويلة مزعجة سيقطعونها.

ولدى وصولهم إلى المكان الذي يقيم فيه دومدانيال في محجر الإردواز القديم في بلاد الأشرار كان رضيع رئيسة المولدات يصرخ والممرضة أصابها صداع شديد. وكان دومدانيال منتظرًا غنيمته؛ ظنًا منه أنه سبتيموس هيب؛ الابن السابع للابن السابع.. التلميذ الذي يحلم به أي ساحر وأي **نكرومانسر**. إنه التلميذ الذي سيُمده بالقوة التي ستعيده إلى القلعة، فيستعيد حقه المشروع.

نظر باشمئزاز إلى الطفل وهو يصرخ، فصراخه أصابه بصداع وجعل أذنيه تطنان، ثم قال دومدانيال في سره إنه يبدو أكبر من أن يكون مولودًا حديثًا، كما أن شكله قبيح أيضًا، ولم يعجبه الطفل. وبدا على **النكرومانسر** لمحة إحباط وهو يقول للممرضة أن تأخذه بعيدًا.

وضعت *الممرضة الطفل في المهاد الذي كان في انتظاره* وذهبت لتنام. *في اليوم التالي*، وجدت نفسها في غاية الإرهاق وظلت نائمة.. ولم يكترث *أحد أن يرضع ابن رئيسة المولدات حتى مساء اليوم التالي*، فلم يعد *لهذا التلميذ* حفل عشاء.

جلست العمة زيلدا عند بركة البط وابتسمت.. لقد تخلص التلميذ من سطوة سيده **الشيطاني**. وسبتيموس على قيد الحياة وعثر على أسرته، والأميرة في أمان الآن، ثم تذكرت شيئًا طالما كانت مارشا تذكره، فكانت تقول إن الأمور في نهاية المطاف تسير وفق مجريات خاصة بها.

فيما بعد...

ماذا *حدث لكل من:*

جرينج، حارس البوابة؟

ظل جرينج في وظيفته كحارس البوابة الشمالية خلال كل الثورات التي اجتاحت القلعة. فجرينج أحب وظيفته رغم أنه يفضل أن يلقي نفسه في البحر قبل أن يعترف بذلك، كما أن وظيفته هذه وفرت له بيتًا آمنًا حيث أقام في المنزل الملحق بالبوابة بعد سنوات طويلة قاسية عاشها تحت أسوار القلعة في العراء.. واليوم الذي أعطت له مارشا نصف كراون اتضح فيما بعد أنه كان يومًا مهمًّا في حياته. ففي ذلك اليوم، ولأول وآخر مرة، ظل جرينج محتفظًا ببعض النقود التي يجمعها عند البوابة، احتفظ تحديدًا بنصف الكراون الذي أعطته له مارشا. فكان هناك شيء في هذا القرص الفضي السميك وهو قابع في راحة يده ثقيلًا ويشع دفئًا جعله يتردد في أن يضعه في الصندوق الذي يجمع فيه رسوم المرور من

البوابة، ومن ثم دسه في جيبه وقال في سره إنه سوف يضيفه إلى ما جمعه طوال اليوم في المساء. لكن كان من الصعب عليه أن يفترق عن هذه العملة، ومن ثم ظلت قابعةً في جيبه لشهور حتى إنه بدأ يعتبرها ملكًا له.

وكانت ستظل قابعة هكذا لولا أن جرينج وجد صباح يوم بارد بعد نحو عام الإعلان التالي على البوابة الشمالية:

مرسوم للالتحاق بالتجنيد في جيش الشباب
على كل الفتيان فيما بين سن الحادية عشرة والسادسة عشرة
الذين لم يتدربوا على مهنة معترف بها
أن يسجلوا أنفسهم
في ثكنات جيش الشباب
غدًا في السادسة صباحًا

شعر جرينج بالإعياء، فابنه روبرت احتفل أمس بعيد ميلاده الحادي عشر، والسيدة جرينج انتابها هلع عندما رأت الإعلان، هو أيضًا انتابه هلع شديد، لكن عندما رأى روبرت يقرأ الإعلان بوجه شاحب، قرر في سره أن يتحلى بالهدوء، فدس يده في جيبه وأخذ يفكر، وعندما أطبقت يده -كما يفعل عادة- على نصف الكراون علم جرينج ماذا سيفعل.

وما إن فتح مصنع بناء المراكب أبوابه في صباح اليوم التالي حتى كان قد التحق به تلميذ جديد للتدريب على العمل؛ هو روبرت جرينج، الذي ضمن له والده توًا العمل كمتدرب عند جانيت مارتن، وهي من بنائي المراكب، بعد أن دفع نصف كراون كمقدم أساسي.

رئيسة المولدات؟

بعد أن تم القبض على رئيسة المولدات، تم اصطحابها إلى ملجأ الضالين والمكتئبين في القلعة بسبب حالتها العقلية المزرية، وضلالاتها المتعلقة بخطف الأطفال، واعتبرت حالتها لا تستقيم مع كونها مولدة. وبعد أن مكثت عدة سنوات في الملجأ سُمح لها بتركه خاصة بعد أن أصبح المكان مكدسًا؛ فلقد زاد عدد الضالين والمكتئبين منذ أن استولى الأمين الأعلى على الحكم في القلعة، ورئيسة المولدات لم تعد بالضلال والاكتئاب اللذين يجعلانها تشغل مكانًا في الملجأ.. ومن ثم، حزمت أجنيس ميريديث، رئيسة المولدات السابقة، أمتعتها بعد أن أصبحت بلا وظيفة ولا مأوى، وانطلقت تبحث عن ابنها المفقود ميرين.

الخادم الليلي؟

تم إلقاء الخادم الليلي الخاص بالأمين الأعلى في إحدى الزنازين بعد أن أسقط التاج، مضيفًا إليه انبعاجًا جديدًا، ثم تم الإفراج عنه خطأً وذهب للعمل في مطابخ القصر كمساعد طاهٍ مسئول عن تقشير

البطاطس، وهو عمل أجاده تمامًا، وسرعان ما ترقى إلى رئيس مقشري البطاطس.. ولقد استمتع الرجل بوظيفته، فلم يكن أحد يكترث إن سقطت منه ثمرة بطاطس أو أكثر.

القاضية أليس نيتلز؟

قابلت أليس نيتلز ألثر ميلًا لأول مرة عندما كانت تتدرب على المحاماة في دار قضاء القلعة، ورغم أن ألثر من المنتظر أن يكون تلميذ دومدانيال فإنها كانت ترى أنه مختلف. حتى بعد أن أصبح ألثر الساحر الأعظم، وكان هناك كلام كثير يتناقل عن «التلميذ البشع الذي دفع بسيده من فوق برج السحرة»، ظلت أليس تقابله. كانت تعلم أن ألثر لا يستطيع أن يقتل حتى مجرد نملة مزعجة، وبعد أن أصبح ألثر الساحر الأعظم بفترة قصيرة، حققت أليس طموحها وأصبحت قاضية. وسرعان ما تزايد انشغال كل منهما بمهنته، وما عادا يتقابلان كثيرًا، على عكس ما كانا يودان، وهو أمر ظلت أليس تندم عليه فيما بعد.

وكانت صدمة مزدوجة حطت على رأس أليس عندما حدث في غضون أيام قليلة، أن لم يكتفِ الأمين الأعلى بقتل أعز أصدقائها فحسب، بل حرمها أيضًا من عملها الذي تعشقه بعد أن تم تحريم عمل النساء في سلك القضاء، تركت أليس القلعة وذهبت لتعيش مع أخيها في الميناء. وبعد أن مرت فترة من الزمن وتعافت من صدمة رحيل ألثر، عملت مستشارًا قانونيًا في مكتب الجمارك.

ثم حدث ذات يوم- بعد يوم عمل طويل تعاملت فيه مع مشكلة شائكة تتعلق بجَمل تم تهريبه وسيرك متجول- أن ذهبت بعد ذلك إلى حانة المرسى الأزرق لتسرّي عن نفسها قبل العودة إلى منزل أخيها، وهناك، ولفرحتها، قابلت أخيرًا شبح ألثر ميلا.

السفاحة؟

أصيبت السفاحة بفقدان تام للذاكرة بعد أن ضربتها **صاعقة** مارشا، كما أنها أصيبت بحروق بالغة. وعندما ذهب الصياد ليستعيد المسدس منها، تركها ممددة في مكانها حيث وجدها فاقدة الوعي على سجادة مارشا، ثم أمر دومدانيال بإلقائها في الخارج وسط الثلوج. وكان كناسو الشوارع الليليون هم من عثروا عليها، واصطحبوها إلى نزل الفقراء الذي تديره الراهبات. وفي نهاية المطاف، تعافت وظلت في النزل تعمل كمساعدة هناك. ولحسن حظها، لم تستعد ذاكرتها بعد ذلك قط.

ليندا لين؟

مُنحت ليندا لين هوية جديدة وانتقلت للعيش في شقة فاخرة تطل على النهر مكافأة لها؛ لعثورها على الأميرة. ومع ذلك، بعد عدة شهور، تعرفت إليها أسرة إحدى ضحاياها السابقين. وذات ليلةٍ، بينما كانت

جالسةً في الشرفة ومعها كأس من نبيذها المفضل يمدها به الأمين الأعلى، دُفعت من فوق الشرفة وسقطت في النهر وسط مياهه السريعة، ولم يُعثر عليها بعد ذلك قطُّ.

أصغر خادمات المطبخ؟

بعد أن أخذت أصغر خادمات المطبخ تنتابها كوابيس عن الذئاب، أصبح نومها مضطربًا للغاية حتى إنها كثيرًا ما كانت تنام أثناء العمل. وذات يوم، نامت أثناء أن كانت مكلفةً بأن تلف السيخ لشي الخروف، فاحترق الخروف كله.

ولم ينقذها من أن تلقى نفس مصير الخروف إلا التصرف السريع الذي قام به رئيس مقشري البطاطس. وعلى إثر ذلك، نزلت رتبتها إلى مساعد مقشر البطاطس، لكنها هربت بعد ثلاثة أسابيع مع رئيس مقشري البطاطس إلى الميناء، وبدآ معًا حياة أفضل هناك.

تجار الشمال الخمسة؟

بعد أن أسرع تجار الشمال الخمسة بالخروج من مقهى سالي مولن للشاي والجعة، قضوا ليلتهم على متن سفينتهم يرتبون بضاعتهم ويستعدون للرحيل مع ارتفاع حركة المد باكر صباح اليوم التالي. ولقد

أقحموا أنفسهم من قبل في أحداث تتعلق بتغييرات حكومية مزعجة ولا يودون البقاء في تلك الأنحاء ليشاهدوا ما الذي يمكن أن يحدث هذه المرة. ومع إبحارهم صباح اليوم التالي، مروا بالأنقاض المشتعلة لمقهى سالي مولن للشاي والجعة، وأدركوا أنهم كانوا محقين، لكنهم لم يفكروا طويلًا في سالي وواصلوا طريقهم عبر النهر، وهم يخططون لرحلتهم الجنوبية للهرب من الصقيع الكبير بحثًا عن مناخ أدفأ في البلاد البعيدة، فقد سبق أن رأى تجار الشمال هذه الأحداث من قبل، ولا ريب لديهم في أنهم سوف يشاهدونها مرة أخرى.

صبي التنظيف؟

كان صبي التنظيف الذي عينته سالي مولن مقتنعًا تمامًا بأن مسئولية احتراق مقهى سالي مولن للشاي والجعة تقع بأكملها على عاتقه، واثقًا من أنه ترك المناشف الصغيرة تجف في مكان قريب من النار كما فعل من قبل. لكنه لم يكن ممن يتركون الأمور تزعجهم لوقت طويل. ولما كان يؤمن بأن كل مشكلة ليست إلا فرصة متنكرة، بنى كشكًا صغيرًا على عجلات، وراح يذهب به كل يوم إلى ثكنات الحراس الأمناء ليبيع لهم فطائر اللحم والمقانق التي كانت تحوي ما تيسَّر أمامه، لكنه كان يعمل بجهد ومشقة، حيث كان يعد الفطائر في المساء ويقوم بعملية البيع السريع طوال النهار. ولقد بدأ الناس يلاحظون اختفاء قططهم وكلابهم

بمعدل ينذر بالخطر، ولكن لم يفكر أحد في أن يربط ذلك بالظهور المفاجئ لكشك صبي التنظيف. وعندما اجتاح التسمم الغذائي صفوف الحراس الأمناء تم إلقاء اللوم على طاهي مطعم الثكنات. أما صبي التنظيف، فلقد ازدهرت حياته، علما بأنه لم يفكر ولو مرة واحدة في أن يتناول من فطائر اللحم والمقانق التي كان يعدها.

روبرت جرينج؟

كان روبرت جرينج أفضل عامل متدرب مر على جانيت مارتن، وكانت جانيت تبني مراكب لصيد سمك الرنجة، تستطيع أن تصطاد في الماء بالقرب من الشاطئ وتنصب الفخاخ لأسراب السمك بدفعها إلى الضفاف الرملية خارج الميناء مباشرة. وكان أي صياد من صيادي أسماك الرنجة يمتلك مركبًا من مراكب جانيت مارتن يضمن لنفسه رغد العيش، وسرعان ما اشتُهر أن المركب الذي يخرج من تحت يد روبرت جرينج يكون صاحبه محظوظًا - فالمركب سوف يستقر بشكل جيد على سطح الماء وسوف ينطلق بسرعة عالية مع الرياح. ولأن جانيت تقدر المهارات، فما لبثت أن وثقت بروبرت وجعلته مطلق اليدين في عمله. أول مركب بناه روبرت بالكامل كان موريل، ولقد طلاه باللون الأخضر الداكن وهو لون أعماق النهر وجعل أشرعته حمراء كلون الشمس عند شروقها فوق سطح البحر.

لوسي جرينج؟

قابلت لوسي جرينج سايمون هيب في أحد فصول تعليم الرقص للشباب من السيدات والسادة عندما كانا في الرابعة عشرة من عمرهما. كانت السيدة جرينج قد أرسلتها كي تبقيها بعيدًا عن المتاعب أثناء فترة الصيف (أما سايمون، فقد التحق بهذه الدروس مصادفةً، فسايلاس الذي كان يعاني مشاكل في القراءة وتلتبس عليه الحروف، ظن أنها فصول في السحر (التعليم التنويم المغناطيسي)، وذكر للأسف ذلك لسارة في إحدى الليالي، وسمعه سايمون. وبعد إلحاح شديد، ألحقه سايلاس بهذا الفصل.

أحبت لوسي في سايمون إصراره على أن يكون أفضل راقص في الفصل، كما هي عادته في الإصرار على أن يكون الأفضل في كل شيء. كما أنها أحبت عينيه الخضراوين اللتين تميزان السحرة، وشعره الأشقر الملفوف أيضًا. أما سايمون فلم يفهم ما الذي جعله يحب فتاة بهذه الصورة الفجائية. لكن، لسبب أو لآخر، وجد نفسه لا يكف عن التفكير فيها. وهكذا، ظلت لوسي وسايمون يتقابلان كلما سنحت لهما الفرصة، لكنهما كانا يتقابلان سرًّا؛ لعلمهما بأن كلتا الأسرتين لن توافق على ارتباطهما.

ويوم أن هربت لوسي لتتزوج سايمون كان أجمل وأسوأ يوم في حياتها. ظل أجمل يوم إلى أن اقتحم الحراس الكنيسة واصطحبوها، وبعد هذا لم يعد يهمها ما يحدث لها. فجرينج حضر لاصطحابها إلى

البيت، وحبسها فوق سطح البرج الذي يعلو بيت البوابة كي يمنعها من الهرب من البيت وتوسل إليها أن تنسى أمر سايمون هيب.. لكن لوسي رفضت ذلك وقاطعت أباها؛ فانكسر قلب جرينج وحزن حزنًا بالغًا، فهو لم يفعل إلا ما ظن أنه في مصلحتها.

حشرة چينا المدرعة؟

عندما سقطت الدودة الألفية سابقًا بعد أن لدغت دومدانيال، أخذت ترتد إلى أن وجدت نفسها على سطح برميل؛ ثم انزاح البرميل من فوق السفينة *انتقام* عندما سحبت أرض المستنقع المتحرك السفينة في جوفها. فما كان إلا أن طفت الحشرة بعد ذلك حتى وصلت إلى الميناء ثم إلى شاطئ البلدة، وهناك جففت جناحيْها، ثم طارت إلى حقل مجاور كان قد وصل إليه توًا سيرك متجول. ولسبب ما، داخَل الحشرة المدرعة كره خاص لمهرج غير مؤذ، وكانت كل يوم تقدم عرضًا ممتعًا يسلي المشاهدين وهي تلاحق المهرج داخل حلقة السيرك.

السباحين ومركب الدجاج؟

من حسن حظ السباحيْن اللذين تم إلقاؤهما من على متن السفينة *انتقام* أنهما نجوا بحياتهما. كانت أم جاك وباري بارفيت قد أصرت على

أن يتعلما السباحة قبل أن يعملا بحّارين، لكنهما لم يُتقنا السباحة. ومن ثم، كان كل ما في وسعهما أن يفعلاه يوم أن ألقيا أن يبقيا على رأسيهما فوق سطح الماء مع ازدياد هياج العاصفة حولهما. وفي الوقت الذي بدآ يفقدان فيه الأمل رأى باري مركب صيد قادمًا نحوهم. ورغم أن المركب بدا عليه أنه لا يحمل ركابًا على متنه، كان هناك لوح خشبي يتدلى من على ظهره، على غير عادة المراكب، وبأنفاسهما الأخيرة دفع جاك وباري بأنفسهما وصولاً إلى اللوح الخشبي وسقطا مغشيًا عليهما على ظهر السفينة، ووجدا أنفسهما حينها محاطيْن بدجاج، لكنهما لم يكترثا مادام ليس مياهًا.

وعندما انخفض منسوب الماء في نهاية المطاف بمستنقعات مرام، ذهب جاك وباري والدجاج إلى إحدى الجزر ليستريحوا عليها، ثم قررا بعد ذلك ألا يتركا المكان، حتى يظلا بعيدًا عن طريق دومدانيال، وسرعان ما أصبحت هناك مزرعة دجاج مزدهرة تبعد عدة أميال عن جزيرة دراجين.

الجُرذ الرسول؟

في نهاية الأمر، تم إنقاذ ستانلي من السجن الذي كان حبيسًا فيه أسفل الألواح الخشبية لأرض غرفة السيدات على يد جرذ قديم من مكتب الجرذان كان قد سمع عما حدث له. قضى ستانلي بعد ذلك فترة يتعافى فيها في مأوى للجرذان فوق سطح البرج عند بيت البوابة الشرقية،

حيث اعتادت لوسي جرينج أن تطعمه البسكويت وتفضي إليه بهمومها. وفي رأى ستانلي، كانت لوسي محظوظة لهربها من الخطر، ولو فكر أحد في أن يسأل ستانلي عن رأيه في السحرة لقال لهم إن السحرة عمومًا، ومن يحملون منهم اسم هيب على وجه الخصوص، لا يأتي من ورائهم سوى المتاعب.. لكن أحدًا لم يسأله.